



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس -
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

واقع الخطاب السيميائي في النقد المغاربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه.

-تخصّص نقد معاصر-

إشراف الأستاذ:

د. عبد القادر رابحي

إعداد الطالب:

عبد السلام مرسلي

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د/قادة عقاق.....أستاذ التعليم العالي (جامعة سيدي بلعباس)..... رئيسا

د/عبد القادر رابحي.....أستاذ محاضر. (جامعة سعيدة).....مشرفا ومقرّرا

أ.د/لخضر بركة.....أستاذ التعليم العالي (جامعة سيدي بلعباس).....عضوا مناقشا

د/سعاد بن سنوسي.....أستاذة محاضرة (جامعة سيدي بلعباس).....عضوا مناقشا

د/دايري مسكين.....أستاذ محاضر (جامعة سعيدة).....عضوا مناقشا

د/هوارى بلقندوز.....أستاذ محاضر (جامعة سعيدة).....عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1436-1437هـ / 2015 - 2016 م



إهداء

إلى الخالدين في قلبي أبدا..
أمي وأبي -رحمة الله عليهما-.

إلى عائلتي الصّغيرة..
زوجتي..

وبناتي..

وابني محمد عبد الصّبور.

إلى كلّ الأحبة، والأصدقاء، والزّملاء....
إليكم جميعا -دونما استثناء-

أهدي ثمرة هذا الجهد.

شكر وعرفان.

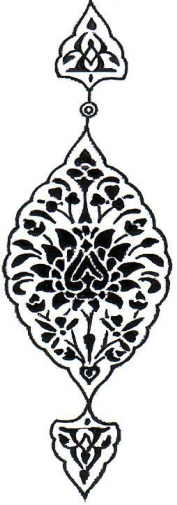
الحمد لله ذي الفضل والمنّة، الذي وهبني الهمة العالِيّة، ووفّقني لإتمام هذا الموضوع، الذي لم يكن بالأمس القريب شيئا مذكورا. والصلاة والسلام على نبيّ الأمّة، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واتّبع هداه إلى يوم الدّين. ثمّ أمّا بعد:

لئن كان في هذا المقام من اعتراف لأهل الفضل عليّ بعد كرم الله وفضله عزّ وجلّ، فإنّي-صدقا- لأجد من القول ما أفصح به عمّا في قلبي من عرفان، إلا هذه الكلمات المعبّرة عن جزيل شكري، وعظيم امتناني، وخالص تقديري لأستاذي الكريم "أ. د قادة عقاق"، الذي تكرّم عليّ بإشرافه على هذا البحث منذ بداياته الأولى، فكان مساهما في ضبط خطّته، ومتابعا دقيقا لعناصرها بفعل ملاحظاته القيّمة المسداة ونصائحه الجليّة المهداة، والتي بفضلها توضّحت معالم هذا البحث.

والاعتراف بالفضل موصول كذلك لأستاذي الفاضل "د.عبد القادر راجحي" -حفظه الله ورعاه-، الذي تفهّم ظروف القاهرة، فتنفّضل كريما -بعد مشورة الأستاذ "عقاق قادة"- بقبوله الإشراف على هذه الرّسالة، فكان نعم النّاصح، والموجّه، والمتابع، والمحفّز، لا لشيء سوى لأن يكون لهذه الدّراسة حضورها وبصمتها.

والشّكر موصول أيضا إلى السّادة الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة، الذين تحمّلوا -بلا شكّ- عناء القراءة والسّفر والمناقشة، فسدّد الله خطاهم بالحسنات، وجزاهم عنّا خير الجزاء.

مقدمة





مقدمة:

حدّدت السيميائية (*sémiotique*) - منذ تشكّلها علما يدرس العلامات - خيارها المنهجي والإجرائي في تعاملها مع النصوص الأدبية وغير الأدبية، فهذا الخيار الذي اجتمعت فيه مواصفات الصرامة المنهجية والمرونة الإجرائية فضلا عن خصوصية المدارس الواعية لتلك النصوص، جعلها تتبوأ مكانة مرموقة، وحضورا مكينا في حقل النقد الأدبي.

لقد أضحت السيميائية - بفعل ذلك - منهجا نقديا شموليا وأموذجا تحليليا حيويًا يتكئ على عدّة إجرائية وترسنة مفاهيمية ومصطلحية، أسعفت الباحثين على ترويض النصوص كيفما كان جنسها ونوعها، وذلك بسبر أغوارها وكشف المعنى الثاوي فيها. وعطفا على هذا المعطى، نجدها قد حققت قفزة نوعية في مجالي التنظير والتطبيق من خلال ما تملكه من وجهة طرح وشمولية تناول، وما تأتت لها كذلك من انفتاح واع على علوم وشعب معرفية كثيرة ومتعدّدة. هذه الخطوة، لم تحظ بها البنيوية بوصفها حاضنة السيميائية، التي أقل نجمها، وخبا وهجها جزاء انغلاقها وانكفائها على نفسها.

كلّ هذا، - كما يبدو - بدّد فكرة الانحصار والانكماش التي تنبأها غريماس للسيميائية، فقد أثبتت مع الوقت نجاعتها التحليلية وتفاعلها مع تلك الحقول المعرفية تأثيرا وتأثرا، وهي حقيقة نلمسها في ذلك الامتداد الذي تجاوزت به حدود بيئتها. وها هي حركة النقد الأدبي العربي عامّة والمغاربيّ منها خاصّة، تجد نفسها أمام خصائصها المعرفية وممارساتها المحدودة، مدفوعة لتجديد أدواتها النقدية، الذي لا يتحقّق - والحال هذه - إلا بالمواكبة اللصيقة للمنجز النقدي الغربي الحدائثي منه وما بعد الحدائثي.

لقد احتفى النقد الأدبي المغاربي بالسيميائية باعتبارها واحدة من تلك النظريات النقدية منذ ثمانينيات القرن الماضي، حيث تلقّاها الباحثون بطرق متعدّدة منها المباشرة (التلمذة) ومنها غير ذلك (الترجمة)، فتنبّوا أطروحاتها النظرية وطرائقها في التحليل، مكيفين ذلك كلّه وفق متطلبات النصّ الأدبي العربي، فأضحت بهذا الشكل نظرية وكأثما تحمل الخصوصية المغاربية بكلّ تجلياتها وتمفصلاتها. إلا أنّ هذا، لم يمنع النقد الأدبي المغاربي من مواجهة بعض العوائق والمطبّات في أثناء



تعامله مع هذا المنهج؛ كونه لا يزال في مرحلة النضج، وأنّ معالنه لم تتّضح بعد. فترتّب عن ذلك كلّه، أزمت كثيرة طالت المنهج والمصطلح على سواء.

وبناء عليه، فإنّ المتأمل في الخطاب النقدي المغربي منذ لحظات التأسيس والتشكّل وإلى غاية اليوم، يجده يعيش رهنًا مازومًا أفرزته إشكاليات جمّة ثبّطت - إلى حدّ كبير - حركيته، وهي في غالبيتها تنضوي تحت إشكاليّتي المنهج والمصطلح، وعشوائيّة الممارسة، واضطراب الترجمة فضلًا عن الإشكاليّة (القديمة/الجديدة) المتمثلة في قضيّة الصراع بين القديم والجديد، المحافظة والتّجديد... الخ. لكن رغم هذا، يجد المطلّع على المنجز النقدي المغربي المتراكم عبر سيرورته التاريخيّة وعي باحثيه بهذه الإشكاليّات؛ إذ أنّهم استشعروا خطورتها ووقعها وتأثيرها السّلي على تطوّر هذا الخطاب. الأمر الذي جعلهم يتسلّحون معرفيًا ومنهجيًا بغية احتوائها والتّقليل من غلوائها كلّما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

تأسيسًا على هذا، يسعى هؤلاء جاهدین لإنشاء خطاب نقدي فاعل ومساهم مع نظيره المشرقي في بناء تصوّر سيميائي عربي واضح المعالم، وفي الآن ذاته متفاعل مع خطابات النّقد الغربي، وفق معادلة محكمة بمنطق الاحترام المتبادل الذي لا يحطّ من قيمة هذا الخطاب، كما لا يعلي من شأن النّقد الأدبي الغربي. وفق هذه الاستراتيجيّة، نكون أمام خطاب نقديّ مغربيّ قائم على مبدأ الموضوعيّة في التّعامل، الذي ينأى بتصوّراته عن كلّ الإكراهات الدّاتيّة والإيديولوجيّة.

ولعلّ البحث عن الخصوصيّة المحليّة، ومحاولة تكريسها في هذا الخطاب، هي واحدة من بين المساعي الحثيثة التي انماز بها النّقد الأدبي المغربي عن نظيره بالمشرق وعن الآخر الغربي كذلك. فمن ناحية لا نجد في تجسيد هذه الخصوصيّة مروقًا أو انسلاخًا عن النّقد العربي في عمومته، بقدر ما نعدّها إضافة إيجابيّة تسهم - في نهاية المطاف - في بناء خطاب نقديّ عربيّ منتج للمعرفة لا مستهلك لها فقط. بهذه الرّؤية الطّموحة، يتحوّل هذا الخطاب من الهامش إلى المركز فتتقوّض بذلك المركزيّة المشرقيّة. أمّا من ناحية أخرى، فنجد أنّ هذه الخصوصيّة تميّزه عن النّقد الأدبي الغربي (الأوروبي والأنجلوساكسوني)؛ إذ ما هو معلوم لدى كافّة الباحثين أنّ انفتاح خطابنا النقدي



على منجزات النقد الغربي، نتج عنه الاستهلاك المفرط للمناهج السياقية والنسقية على حدّ سواء، وكلّ واحد منها يحمل ترسانة مصطلحيّة ذات أبعاد فلسفيّة وإيديولوجيّة... كلّ ذلك، -والحال هذه-، دفعت بهذا الخطاب لأن يتعامل مع أطروحات الآخر تعاملًا يشوبه الحذر خوفاً من الدّوبان، وما يترتّب عنه من ضياع للهويّة. على هذا الأساس، وجد الباحث المغاربي في الرّافد التّراثي ملاذاً وسندا معرفياً وحيداً يلجأ إليه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالتّأصيل المعرفي. وعليه، ومن خلال هذه الازدواجيّة (التّراث/الحدائثة) التي حاول هذا الباحث توثيق صلة الرّحم بين طرفيها، يكون خطابنا التّقدي محصّنا من أي انزلاق يزعزع مكانته.

لقد استمدّ الباحث المغاربي من المعطى الغربي النظريّة النّقديّة والمنهج بجهازه المفاهيمي والمصطلحي وأدواته الإجرائيّة التحليليّة، وحاول توطينها في المشهد التّقافي العربي، وتكييفها مع خصوصيّات النقد المغاربي، مع إضفاء لمسته عليها بما يتماشى والثّقافة العربيّة، كما هو الحال مع القضايا التي تناولها التّراث، والتي احتدم نقاش البلاغيين والمناطقة والأصوليين من حولها، من ذلك مثلاً قضية العلامة وقضية اللفظ والمعنى...، وأثارها الحدائثة الغربيّة كمثّل ما طرحه "سوسير" في ثنائياته وأثاره "بورس" في ثلاثياته. كلّ هذا، أكسب الباحث ثقة في ولوج عالم النقد بوعي ومن دون مهابة، وأهلّ النقد المغاربي ليصبح حاملاً لرؤية الحدائثة وما بعد الحدائثة في العالم العربي بامتياز.

لقد تبنّى الخطاب التّقدي المغاربي مكانة مرموقة في المشهد التّقدي العربي، بفضل ما خلّفه من منجز نقدي متراكم عبر عقود، والذي تجلّى في تلك الدّراسات القمينة بالمتابعة، التي توسّلت بالمناهج النّصانية طرائق لتحليل النّصوص وسبر أغوارها العميقة، واستكشاف بنياتها الداخليّة. يعدّ المنهج السيميائيّ -بما يحمله من مواصفات الصّرامة المنهجية والمرونة الإجرائيّة-، التّمودج الأمثل، الذي أكسب الخطاب التّقدي المغاربي الرّيادة التّقديّة -وعلى جميع الأصعدة- في السّاحة التّقديّة العربيّة، هذا من جهة، وجعل من الباحثين المغاربيين المتخصّصين في هذا الميدان أيقونات النقد السيميائيّ في المشهد التّقدي العربي على غرار أيقونات هذا النقد في الغرب.



هذه المكانة، استحقتها هؤلاء نتيجة براعتهم الفذة، وتمكّنهم من تبني النظرية السيميائية، والترويج لها في المشهد الثقافي العربي بالترجمة تارة، وبالتأليف (تنظيرا وتطبيقا) تارة أخرى، وشاهدنا في هذا، ما تعجّ به مكتبتنا العربية، وما تروّج له المعارض الدولية للكتاب من منجزات النقد المغربي، التي أوكلت لنفسها التعريف بالنظرية السيميائية في الساحة النقدية العربية، إن شرحا أو تأريخيا أو تأصيلا أو تأسيسا أو ترجمة. وهذا -في تقديرنا- ما كان له أن يتحقّق لولا توفر بعض العوامل المهيّئة لتلقي النظرية السيميائية وإعمالها. والمتمثلة في العوامل التاريخية والجغرافية المشتركة بين تونس والجزائر والمغرب.

لقد نهل الدرس السيميائي المغربي معارفه النقدية من عدّة روافد غربية نجملها في ما هو لساني وفلسفي، سواء أكان هذا الرّافد أوروبيا، والذي يتمثّل في الاتجاه (الفرنسي، والإيطالي، والروسي،..)، أو كان أمريكيا وتمثله المدرسة الأنجلوساكسونية. هذا، وتجدر الإشارة إلى سمة الوفاء التي خيّم على جلّ الممارسات النقدية المغربية، والمتمثلة تحديدا فيما نظرت له كلّ من مدرسة الفرنسية والمدرسة الأنجلوساكسونية. إنّ الوجهة الغربية التي يّم لها هذا الخطاب وجهه، تعكس اطمئنان الباحث لأطروحاتها واستناسه بها، سواء تجلّى ذلك في أطروحات السيميائية السردية لغريغاس من مصطلحات وأدوات إجرائية، وقبلها -طبعا- التّنظيرات اللسانية ل(ف.دي سوسير)، والشكلائية ل(ف.بروب)، أو فيما أثاره الفكر العلامي ل(بورس) من قضايا فلسفية تتعلق بالعلامة. نلمس من تعدّد الرّوافد وتنوّعها اكتمال الوعي لدى الباحث المغربي في تعامله مع النظرية السيميائية. وعلى هذا الأساس، تتّضح الرّؤية النقدية للباحث في مقارنة النصوص على اختلاف أنماطها وأنواعها وفق الطّرح الغربي.

كلّ هذا، استهوانا ودفّعنا لحوض مغامرة البحث في مجاهيل ودهاليز هذا الخطاب المتعدّد والمتشعب والمتنوّع والعميق أحيانا والسّطحي أحيانا أخرى، فهذه المغامرة نابعة من فضول شدنا منذ زمن ليس ببعيد، وراودنا مذكّنّا نباشر الدراسة في السنة الأولى ماجستير (2008/2007) ضمن مشروع نقدي مغربي موسوم بـ"الأصول المعرفية للنقد المغربي في القرن العشرين" لصاحبه الدكتور "شارف مزاري". هناك، ارتسمت لدينا فكرة البحث في خطاب كّنّا نجهل عنه الكثير، لقد كان هذا من الدوافع الأساسية الذي جعلتنا نختار هذا الموضوع، ونجد فيه امتدادا لهذا المشروع



في بعض مناحيه من جهة، وتحقيقا لغاياته ومراميه من جهة أخرى. من هذا، جاء بحثنا موسوما بالعنوان التالي: "واقع الخطاب السيميائي في النقد المغربي".

نسعى من خلال هذا البحث مقارنة المنجز من هذا الخطاب في النقد المغربي من منظور (نقد النقد)، رغم وعينا العميق بصعوبة هذا الإقبال؛ على اعتبار أن مشروع نقد النقد لم يتبلور معاملة بعد وبشكل نهائي في ثقافة العربية على المستويين (النظري والتطبيقي)؛ فما أنجز في هذا الحقل من ممارسة تطبيقية خاصة، لم يخرج -في حدود علمنا- من دائرة توصيف الظاهرة النقدية وتحليلها وفق معايير تحتم أكثر للذائقة النقدية التي يمتلكها الباحث. لهذا السبب، ينبغي على أيّ دارس يحاول الولوج إلى هذا النوع من النقد أن يتسلح بثقافة نقدية وأدبية؛ كي يتمكن من الإحاطة بالمنهج النقدي وأصوله ومكوناته من ناحية، ويلمّ بالآثار الشعرية والسردية من ناحية أخرى. فتسهل عليه -من هذا المنظور- مساءلة النصوص النقدية من خلال تشخيص بنية النص والمنهج والمصطلح والمفهوم وطبيعة الإجراء والنتائج المحققة. وفق هذه الرؤية، وقفنا على مدونات بعض الأعلام مثل: محمد مفتاح، عبد الملك مرتاض، السعيد بنكراد، عبد الحميد بورايو، رشيد بن مالك، محمد الناصر العجيمي. متوخّين من ذلك تحقيق بعض الأهداف، منها:

- المساهمة بهذا البحث في بناء صرح الخطاب النقدي المغربي.
- التعرف على الروافد الفكرية والعلمية لهذا الخطاب.
- تصنيف هذا الخطاب على أساس تلقيه للنظرية السيميائية والاشتغال عليها.
- التعرف على التمثل النظري والإجرائي للمعطى السيميائي في هذا الخطاب.
- مدارس بعض النماذج بتحليلها ومساءلة أدواتها الإجرائية وتشكيلاتها المصطلحية.

إنّ اهتمام هذه الدراسة بهذا النوع من الخطابات، لم يكن الأول، كما أنّه لن يكون الأخير، حيث إنّه قد صادفتنا دراسات كثيرة حول هذا الخطاب، منها المطبوعة، ومنها المخطوطة، والتي احتفت جميعها بالسيميائية تنظيرا وتطبيقا، لكن يبقى هذا التناول -على تنوّعه وتعدّده وتباينه- مقتصرًا على دراسة مدوّنة ناقد أو عدّة نقّاد، أو مركزًا على نظرية بعينها دون سواها، وكلّ ذلك -طبعًا- له مبرراته المنهجية التي تستدعيها كلّ دراسة من تلك الدراسات. وبناء عليه، فإنّنا نجد أنفسنا أمام هذا الثراء وهذا التعدّد عاجزين عن الإمام بجميع ما تكتنزه المكتبة النقدية المغربية،



لكن هذا لا يمنع من استحضار بعض الدراسات/النماذج، التي بددت غموض وضبابية الموضوع علينا كدارسين، من ذلك مثلا: كتاب الباحث "مولاي علي بوخاتم" الموسوم بـ(الدرس السيميائي المغربي)، الذي اعتمد فيه الموازنة بين مدونتين نقديتين مغاربتين، إحداهما للناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض"، والأخرى للناقد المغربي "محمد مفتاح"، مركزا -من خلالها- على (المصادر والمنهج والمصطلح والقراءة) لكليهما، متوسلا -في ذلك- بالمنهج الوصفي بالإضافة إلى منهج مساعد (المنهج الإحصائي). فهذه الدراسة على أهميتها وجدارة طرحها وثراء مكتبة بحثها، كانت ستكون أفضل وأرقى لو استعان الباحث بمدونة نقدية أخرى لعلم من أعلام النقد التونسي. هكذا -في تقديرنا كدارسين- تكتمل الرؤية، وتساعد الباحث على الإحاطة شبه الكاملة بالمنجز النقدي المغربي في تونس والجزائر والمغرب، فمن جهة تمكنه من إثارة أهم القضايا والانشغالات البحثية التي تدور في فلك الدرس النقدي المغربي، ومن جهة أخرى يتأتى له استخلاص نتائج أعمق، تجعل القارئ على وعي بما يدور في الساحة النقدية المغربية. وقد تكون له بمثابة منطلقات تحفيزية تمكنه من تبني تصوّرات أبحاث جديدة حول النقد الأدبي المغربي في المستقبل.

أمّا أطروحة الباحث "قادة عقاق" الموسومة بـ(السيميائية السردية وتجلياتها في النقد المغربي المعاصر-نظرية غريماس نموذجاً-)، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، جامعة سيدي بلعباس، 2004/2003. والتي أشرف عليها الأستاذ "رشيد بن مالك"، فقد خصصها الباحث للأطروحات السيميائية التي نادت بها مدرسة باريس (غريماس تحديدا) في مجال السرد، وهي دراسة قمينة ولها من الأهمية بمكان من حيث كونها أحاطت بالطرح الغريماسي وتحليلاته في المدونة النقدية المغربية، والتي انتقى فيها صاحبها أعلام بارزين من تونس والمغرب والجزائر. إن تقيّد صاحبها بمنهج الدراسة، جعله يحتفي ببعض الدراسات المغربية المختارة التي قاربت النصوص السردية؛ لكي يتحقق من مدى تمثّل هؤلاء الباحثين لأطروحات السيميائية السردية الغريماسية، والتأكد من نجاعة أدواتها الإجرائية المطبقة على النصوص السردية. وعليه، فإنّ التزام الباحث بالخطة المؤطرة لبحثه، والتي لا يمكنه أن يحيد عنها، كون الدراسة أكاديمية، جعلته ينأى عن كلّ المقاربات المغربية التي احتفت بالنصوص الشعرية من منظور المعطى السيميائي.



من أجل هذا، جاء بحثنا ليطال المقاربات المغاربية في حقل السيميائيات التي عاجلت النصوص السرديّة والشعرية على حدّ سواء، ويطال كذلك باحثين من تونس والجزائر والمغرب وإن كان ذلك يجعلنا نلمس تفاوتاً في الحضور العددي لباحثي تلك المناطق في هذه الدراسة، فمرّد ذلك، نعزوه لبعض الصعوبات، سنأتي على ذكرها في حينها.

أمّا أطروحة الباحث "هامل بن عيسى" الموسومة بـ(إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي-دراسة في نقد النقد-)، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه (مخطوط)، جامعة وهران، 2013/2012. والتي أشرف عليها الأستاذ "أحمد مسعود"، فلم نكن فيها محظوظين لنستفيد من طرحها؛ إذ لم نطلع عليها كفاية حتّى شارف هذا الموضوع نهايته. ورغم هذا، فإنّ في تصفّحنا إيّاها، وجدنا فيها جدية في الطرح، وثمناً لمحاولة صاحبها في التنبية إلى الإشكالية السيميائية في النقد الأدبي المغاربي، والدعوة لإيجاد حلول علمية ومعرفية لها، إلا أنّ معالجته كانت انتقائية، خاصّة في جانبها الإجرائي، الذي استند فيه على أعلام من الجزائر والمغرب، ولم يشر إلّا بنزر قليل جدّاً لبعض الشذرات من النقد التونسي.

أمّا كتاب "قادة عقاق" الموسوم بـ(السيميائيات العربية)، فهو من الكتب المصادر المعتمدة في هذه الدراسة؛ إذ يلمس الدارس فيه محاولات الباحث الداعية لربط الماضي بالحاضر، والتراثي بالحدائي، انطلاقاً من حوار بناء يلمس فيه صاحب الكتاب الموضوعية منهجاً في مقارنة القضايا والمسائل التي شغلت بال القدامى، ووجدت حضوراً في النقد الغربي. من هذا، يعدّ هذا الكتاب -رغم حجمه المتوسط- من الكتب المغاربية الجريئة التي أثارت هذه القضايا المدفونة في متون الكتب التراثية، وأخرجتها إلى النور، وطرحتها على طاولة النقاش، لا لأجل محاكمة التراث، وتقويله -تعسفاً- أقوالاً هو منها براء، بل لإبراز قيمته التي ينبغي أن نعتزّ بها، وتجعلنا نفخر كذلك بالحضور المعرفي والموسوعي لعلماء العرب المسلمين الذين عاجلوا قضايا نقدية في زمانهم، نراها اليوم من أساسيات الحداثة الغربية وصلبها.

تأسيساً على كلّ هذا، نحاول بناء تصوّر لبحثنا انطلاقاً من إشكالية كبرى. نسعى من خلالها تبيان مدى استيعاب الباحث المغاربي لأطروحات النظرية السيميائية من جهة؛ وذلك



من حيث إلمامه بأدواتها النقدية وجهازها المفاهيمي. كما نسعى من جهة أخرى إلى معرفة طرائق تحليل هذا الباحث للتصويع من منظور الطرح السيميائي. هذه الإشكالية هي: ما حقيقة الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي، وما واقعها؟. وتنضوي تحتها جملة من الأسئلة، هذا بعضها:

- ما مدى تأثر الباحث المغربي بالطرح اللساني والشكلي والفلسفي؟، وما حظ التراث النقدي البلاغي العربي في الخطاب النقدي المغربي؟، وإن كان هناك نصيب من الحضور، هل نجح هذا الباحث في خلق توافق واع بين ما حبل به التراث من قضايا، وما استجدّ في ساحة النقد الغربي؟.
 - كيف تبني الباحث أطروحات النظرية السيميائية؟، وهل تمكن من تجاوز لحظات اختبار المنهج السيميائي، وجسّ نبضه إلى لحظات بناء تصوّر سيميائي عربي؟ أم أنه لا زال يعيش اللحظة الأولى، وهو يتوهم أنه تجاوزها إلى ما بعدها؟
 - كيف تمثل الباحث المغربي أطروحات السيميائية السردية؟، وكيف تبني التفكير الفلسفي في خطابه؟. وهل يمكننا القول: أننا -فعلا- أمام سيميائية سردية مغربية؟.
 - ما مدى نجاعة الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي؟.
 - هل استطاعت الترجمة المغربية سدّ الخصاص المعرفي لخطابنا المغربي والعربي عموما في حقل السيميائيات؟ وما جدارة جهود الباحثين في هذا مجال؟ وهل تزامنت عمليات الترجمة المغربية -إلى حدّ ما- مع تاريخ صدور هذه الكتب في بيئتها؟.
- ستجد هذه الأسئلة ونظيراتها المثبوتة في ثنايا هذا البحث إجابات من طرفنا ضمن هذه الدراسة.

استدعت هذه الإشكاليات منا مقارنة موضوع بحثنا مقارنة وصفية نقدية مطعّمة ببعض أدوات المنهج التاريخي كاليات مساعدة؛ وقد استعنا -في ذلك- بإجرائي الوصف والتحليل بغية الوقوف على أهمّ المسائل المتعلقة بقضايا المنهج والمصطلح وطريقة التناول المرتبطة بكلّ مدونة نقدية منجزة، على أن نخرج -وفق هذه الاستراتيجية- بخلاصات تركيبية تقويمية، تحدّد لنا حقيقة الممارسة السيميائية في خطابنا النقدي، وبغية الإحاطة بما جاء في هذه المدونات النقدية، نتوسّل



بأدوات من المنهج التاريخي في رصد تحولات هذا الخطاب وتصنيفها لحظة بلحظة؛ كي نقف على أهم محطاته، وإن كان هذا التصنيف أو التقسيم لا نراه إلا لضرورة منهجية فقط؛ كون هذه اللحظات متداخلة ومتعاقبة و متممة لبعضها البعض.

إن محاولة الوقوف على حقيقة الدرس السيميائي وواقعه في النقد الأدبي المغربي بغية الإحاطة به مدارسة وإفهاما، لهي من أعسر المهمات التي تواجه الدارسين، نظرا لتراكمه المتواصل وامتداده الضارب في الزمن، وإن تحقق لأحدهم بعض من ذلك، فهي من المغامرات الصعبة -ولا شك- التي تتطلب منه أخذ الحيطة والحذر الشديدين خوفا من الانزلاق في أثناء استقراء هذه المدونات أو إخضاعها إلى الإكراهات الذاتية والايديولوجية البعيدة تماما عن الموضوعية التي تتوسل بها الدراسات العلمية. ولذلك، فإن ما قمنا به من نبش في المدونات النقدية المتوفرة لديه، والمنجزة على مدار أكثر من أربعة عقود من الزمن، والذي يتحدد -بداية- بما بذلناه من جهد في جمع المادة، ثم السعي الحثيث للإطلاع على محتواها والوصول إلى المواضيع والقضايا التي لها علاقة بحقيقة الدرس السيميائي وواقعه، وفهمها فهما يمكننا من وصفها وتحليلها ثم تقويمها في الختام. كل ذلك، كان لإضفاء الشرعية العلمية ولا شيء سواها على هذه الدراسة، وتجسيد مبدأ الموضوعية فيها بما يرضي الضمير في أثناء التناول والتقييم. لكن سعينا الحثيث لتحقيق هذا المبتغى، اعترضتنا فيه صعوبات كثيرة، منها العامة ومنها الخاصة، والتي في مجملها أثرت على وتيرة البحث، وحالت دون تقدمه. ويمكن إجمالها فيما يلي:

- سعة الموضوع كما وكيفا، وترامي أطرافه، وتعدد اشتغالاته.
- توفر المدونة النقدية المغربية (الجزائرية، والمغربية خاصة) على سيميائيات متعددة لا سيميائية واحدة، وهو ما جعلنا نقف حائرين أمام اختيارنا للمدونة التي نخدم موضوعنا بشكل صحيح.
- عشوائية الاحتكام إلى صرامة المنهج، وتذبذب ترجمة المصطلح، جعلنا نصادف دراسات محسوبة على السيميائية، ولا تمتلك من ذلك إلا التسمية.
- تداخل المباحث السيميائية وتشابحها في بعض الدراسات، وكأنها نسخ أو صور طبق الأصل، جعلت اطلاعنا عليها مضيعة للوقت، وتبيدا للجهد.



- وإلى جانب هذا، نجد فيما أصاب بعض الدول العربية، والتي منها خاصة ليبيا وتونس من حدوث ما يعرف بثورات الربيع العربي، وإن كنا لا نراه إلا ثورات ربيع عربي!!! من بين الصعوبات كذلك؛ حيث تزامن حدوث ذلك تقريبا مع اختيارنا لهذا الموضوع، وهو أمر حال دون اشتغالنا على المدونة النقدية الليبية لأسباب أمنية، وحتى التونسية كان اشتغالنا عليها ضعيفا مقارنة بنظيرتها في الجزائر والمغرب؛ إذ لم نلمس مساعدة لا من قنصليات هاتين الدولتين ولا من أي جهة أخرى. وأمام هذه الوضعية المشكل بئنا وجهنا بداية نحو حضور الصالونات والمعارض الدولية للكتاب في داخل الجزائر عسانا نجد فيهما ما يخدم موضوع بحثنا، أما خارج الوطن فكانت وجهتنا صوب المغرب الأقصى، الذي وجدنا في بعض جامعاته ومكتباته العامة والخاصة مادة علمية معتبرة أسعفتنا على خوض غمار البحث، والولوج بسلاسة إلى دراسة المدونة النقدية المغربية.

وبالنظر إلى إشكالية البحث، اعتمدنا خطة منهجية ملائمة أطرنا من خلالها عناصر هذه الدراسة، والتي جاءت مقسمة على النحو الآتي: مقدمة، ومدخل، وبابان، وخاتمة، بالإضافة إلى ملحق متعلق بملخص البحث.

المدخل: وقد وسمناه بـ "التقد المغربي الحديث والمعاصر - مساراته وتحولاته" - عاجلنا فيه عنصريين بارزين هما:

أ- تناولنا فيه راهنية النقد الأدبي العربي - في عمومه - في ظل موجة التطور التكنولوجي والمعرفي الذي يشهده العالم، والذي مكن الحركة النقدية العربية - مشرقا ومغربا - من أن تتأسس على معطيات نظرية واضحة، ومنطلقات منهجية تتيح للناقد العربي تمثل أهم المناهج والنظريات، رغم ما يعتبر ذلك التمثل من تفاوت في الأعمال المعتم أو الجزأ أو المنتقى للأدوات المنهجية والأطروحات النظرية.

ب- تتبنا فيه المسار الكرونولوجي للحركة النقدية في المغرب العربي وتحولاتها المنهجية من السياق إلى التسق، وذلك من خلال تحديد المعالم الكبرى (من منعطفات ومحطات) لهذا المشهد في منطلقاته وسيورته في كل من: تونس والجزائر والمغرب.



البابان: قسّمنا هذا البحث إلى بابين، حيث ينضوي تحت كلّ واحد منهما فصلان اثنان، ويندرج تحت كلّ فصل أربعة مباحث، حاولنا عبرها الوقوف على حقيقة وواقع المنجز النقدي المغربي في بعده السيميائي من خلال بعض ما جادت به قريحة الباحثين من كتابات نقدية حول النظرية السيميائية.

1- الباب الأول: تطرّقنا في هذا الباب للخلفية الابستمولوجية والعلمية للخطاب السيميائي المغربي. وهو أمر، جعلنا نقسّم هذا الباب إلى فصلين اثنين، يحوي كلّ منها أربعة مباحث متعاضدة.

أما الفصل الأول، فتناولنا فيه المرجعية التراثية للخطاب السيميائي المغربي، وبغية تبيان وتوضيح أهمية هذه المرجعية - في بعض ملامحها - في توجيه هذا الخطاب، قمنا بتقسيم هذا الفصل إلى أربعة مباحث، حيث عالجنا في **المبحث الأول** العلامة في الفكر العربي، وتحليلها في الدرس السيميائي العربي كواحدة من القضايا التراثية التي اهتمّ بها الباحث المغربي، وعالجنا في **المبحث الثاني** العلامة في الدرس السيميائي تأصيلا وممارسة في هذا الخطاب، وتطرّقنا في **المبحث الثالث** للفظ والمعنى في الفكر العربي، وحددنا موقف الباحث المغربي من الاتجاهات التي أثارها القدامى. وأوضّحنا في **المبحث الرابع** حضورها في خطابات الباحثين من خلال مقارنتها مع الأطروحات الغربية.

أما الفصل الثاني: فتناولنا فيه المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي. لقد توزّع هذا الفصل على مدخل وأربعة مباحث. تطرّقنا في المدخل الاستهلاكي لتحوّل التفكير السيميائي من رؤيته الفلسفية إلى الرؤية النقدية. وأبرزنا في **المبحث الأول** المرجعية الألسنية لهذا الخطاب، وأهمّ المبادئ اللسانية (مبدأ المحايثة ومبدأ الاختلاف) التي تأسس عليها الخطاب السيميائي لدى الباحثين. وتطرّقنا في **المبحث الثاني** لمرجعية أخرى تتمثّل في الشكلائية الروسية، حيث بيّنا فيها مدى تأثر الباحث المغربي بأطروحات الشكلايين خاصة منهم "ف. بروب"، وكيف استطاع هؤلاء تمثّل أطروحاتها نظيرا وتطبيقا من خلال عرضه لبعض النماذج. وتناولنا في **المبحث الثالث** مرجعية ثالثة، وهي "مدرسة باريس" الممثلة برائدها غريماس وأشياعه، وبيّنا من خلال بعض النماذج الدور الذي أدّته في توجيه النقد المغربي المعاصر نحو السيميائية السردية، ومدى تأثر



هؤلاء بتنظيراتها، وكيفية تمثّلهم لأطروحاتها تنظيرا وتطبيقا. وتناولنا في **المبحث الرابع** المرجعية الأمريكية الممتّلة في الفكر العلامي لبورس ضمن ما يعرف بالمدرسة الانجلوساكسونية وتحليلاتها في الخطاب السيميائي المغاربي. حيث إننا أبرزنا ملامح التفكير الفلسفي في الخطاب من خلال جهود "أحمد يوسف" و"سعيد بنكراد"، ثم تناولنا إجراءات سيميائيات "بورس" في هذا الخطاب من خلال بعض النماذج التطبيقية حول سيميائية الصورة.

2- الباب الثاني: وسمناه بـ"النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغاربي - التلقي والإعمال- وقسمناه على غرار الباب الأول إلى فصلين، وكلّ فصل منه توزّع على أربعة مباحث. **أما الفصل الأول:** فأوضحنا فيه الكيفية التي تلقى بها الخطاب النقدي المغاربي أطروحات النظرية السيميائية. من خلال المباحث التالية. حيث تطرّقنا في **المبحث الأول** لعملية استقبال المنهج السيميائي، وهي عملية تمثّل لحظة تحسّس واختبار الباحث المغاربي لهذا المنهج من خلال تجريبه على النصوص الشعرية والسردية -على سواء- بغية التأكد من نجاعته. وفي هذا، استحضرننا بعض النماذج البحثية لباحثين مغاربيين. وانتقلنا في **المبحث الثاني** من لحظة التحسّس والاختبار إلى لحظة التأسيس وبناء المنهج لتحليل النصوص من خلال ما استحضرنناه من نماذج بحثية لباحثين مغاربيين. وتعرّضنا في **المبحث الثالث** للحظة الترجمة والتعريب، من خلال تمهيد، أبرزنا فيه دور الترجمة ونجاعته استنادا على بعض النماذج المنجزة من قبل باحثين مغاربيين، ليتّوج هذا المنجز بخلاصة تقويمية. ونقف في **المبحث الرابع** على مرحلة تجاوز فيها الباحث المغاربي لحظة التحسّس والتجريب وبناء المنهج إلى لحظات البحث عن بناء تصوّر سيميائي شامل لتحليل النصوص، والتي تتمثّل في لحظتين هما: الممارسة التطبيقية والتأليف القاموسي والمعجمي حيث استحضرننا بعض النماذج، وأردفناها بخلاصات تركيبية.

أما الفصل الثاني: فذهبنا فيه مذهبنا حدّنا فيه واقع وإشكاليات الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغاربي من خلال المباحث الآتية: حيث وقفنا في **المبحث الأول** على تحليّات المنهج السيميائي في المشهد النقدي المغاربي. تعرّضنا فيه لواقع الممارسة السيميائية في خطاب النقد المغاربي الذي باتت تتخبّط فيه عدّة مآزق وإشكاليات كالإشكالية المنهجية (من تقسيم وتجزيء، أو انتقاء، أو تركيب) والمصطلح النقدي. **أما المبحث الثاني** فتناولنا فيه



مقاربات العنوان في مدونات النقد الأدبي المغربي من منظور سيميائي، حيث وقفنا في البداية على التّظهِرات المغاربيّة للعنونة، وبعدها وقفنا على استراتيجيّات مقارنة العنوان في الخطاب السيميائيّ المغربي من خلال بعض التّماذج سواء في الخطاب الشعري أو السردّي، ليتّوجّ -في الأخير- كلّ نموذج بخلاصات تركيبية. تناولنا في المبحث الثالث سيميائية الشخصية في المدونة النقدية المغاربيّة عبر شقّين أحدهما نظري والآخر تطبيقي، حيث استحضرننا في كليهما نموذجين لتعميق الفهم بهذا المكوّن السردّي، أمّا المبحث الرابع، فتناولنا فيه البحث في سيميائية الزّمان والمكان ضمن الخطاب النقديّ المغربي، فوقفنا في ذلك على إشكاليّة المفهوم والتسمية للمصطلحي الزّمان والمكان، ثمّ قاربنا سيميائية هذين المصطلحين عبر الشّقّ النظري والتطبيقي باستحضار نماذج، وأردفنا ذلك بخلاصة تركيبية. وبعد كلّ هذا، تأتي الخاتمة التي رصدنا فيها أهمّ التّتايج (العامة منها والخاصّة) في شكل عناصر مشروحة، عساها تشكّل عتبات يتمكّن الدّارسون من خلالها الولوج إلى دراسات وبحوث أخرى. إلى جانب هذا أنّنا مكتبة بحثنا بمصادر ومراجع منتقاة، هي في أغلبها حديثة الصّدور، التي تعكس بتراكمها في المشهد النقديّ المغربي حالة وعي الباحث بالاتجاه النقديّ السيميائيّ، ومن تلك المؤلّفات ما كتبه محمد مفتاح، عبد الملك مرتاض، عبد الحميد بورايو، رشيد بن مالك، محمد الناصر العجيمي،.....

لا ندّعي بهذا البحث أنّنا أحطنا بالموضوع. وهي حقيقة، تجعلنا نقرّ بأنّ محاولتنا ما هي إلا جزء ضئيل من هذا الخطاب المتراكم فهو - كما وجدناه - متشعب ومتنوع ومتعدّد، ولا يمكننا حصره أو احتواءه بدراسة واحدة. وما أنجزناه ههنا، لا يعدو أن يكون اجتهادا نريد به رضا الله أوّلا، ثمّ نفع القارئ العربي ثانيا. وعليه، فإنّ أصبنا بالاجتهاد لما كنّا نطمح إلى تحقيقه من هذا البحث، فذلك بتوفيقه عزّ وجلّ، وإنّ أخطأنا فيما أردناه، فذلك من هوى النّفس والشيطان، وحسبنا من كلّ هذا أنّنا اجتهدنا. والله من وراء القصد، عليه توكلّنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

الطّالب: عبد السّلام مرسلّي.

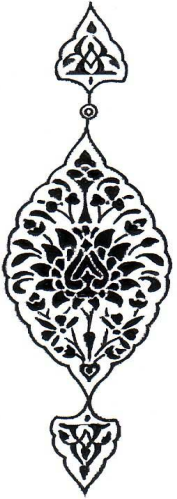
سعيدة (الربّاحية): 2016/03/02

المدخل

النقد المغربي الحديث

والمعاصر

- مساراته وتحولاته -





1- راهن الخطاب النقدي العربي: (هاجس التأسيس وطموح المغيرة).

يشغل النقد الأدبي بشتى اتجاهاته ومناهجه ومدارسه مكانة فاعلة، وحضورا متميزا في الساحة الفكرية والأدبية - فكما هو معلوم - نحن نعيش راهن الألفية الثالثة بكل ما تمتلكه من تقنيات هائلة، وسباق مع الزمن في امتلاك الجديد من المعرفة، ذلك أنّ عصر المعلوماتية صير العالم إلى قرية صغيرة، اختزلت فيه الحدود بين الدول، و"سقطت فيه شروط الخصوصية، وتحطمت فيه أغلال المركزية المعرفية الداعية للاستغناء بذاتها وتراثها عن الآخرين"¹.

فالثورة الفكرية التي شهدتها القرن الماضي دكت حقول المعرفة الإنسانية كلها، وأطاحت بالعديد من الموروثات القديمة ما ترتب عنها انقلاب فكري طال اللغة والأدب والنقد والفن². إنّ هذا التحول المتسارع الذي ميّزه التطور العلمي والتكنولوجي من جهة، وميّزه كذلك التطور الفكري بمعانيه وأشكاله المختلفة من جهة ثانية، دفع بالحركة الفكرية والثقافية والأدبية العربية إلى مسابرة بوعي من خلال تفاعله مع الحركة الفكرية بالغرب. وهذا ليس شيئا جديدا ولا بدعا، فهذا التفاعل قد حدث ولا زال يحدث بأشكال وصيغ مختلفة منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا. وعليه، فإنّ النقد العربي الحديث والمعاصر - والذي هو جزء من الثقافة العربية المعاصرة - يتأثر بتأثرها ويتحول بتحوّلاتها ويستحيل عزله في الأدب العربي "عن مجمل التطورات والتناقضات والإشكاليات الحضارية العميقة التي يعيشها المجتمع العربي سواء في صراعه مع الخصم أو العدو، أو من خلال تفاعله مع التيارات الفكرية أو مع الحضارات الأخرى"³.

أمام كل هذا، تعمقت مسؤولية هذا النقد، وأصبح ملزما - من ناحية - بمتابعة كل ما هو محلي، وتمييز الجيد منه لخدمة المجتمع والثقافة إجمالا، ومن ناحية أخرى بالاطلاع على كل المستجدات التي تشهدها الساحة النقدية في الغرب. نتيجة لذلك أصبحت ثقافة الآخر حاضرة

¹ - لطفي فكري، ومحمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث (قراءة في تجربة الدكتور عبد العزيز حمودة: "المرايا المحدبة - المرايا المقعرة - الخروج من التيه" نموذجاً)، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط01، 1432هـ - 2011م، ص: 15.

² - ينظر: عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1985، ص: 31.

³ - جهاد فضل: حوار مع إدريس الناظوري، ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، دت، ص: 22.



"في مستوى التمثّل والإحالة"¹. بفضل التفاعل - كما ذكرنا - كونها "نتائج واقع متقدّم ومتطور، يجب الاحتذاء بها"². وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن منقطع الصلة بما حبل به تراثه من الآثار الإبداعية والتقدّية ذات القيمة، وهذا ما جعل الممارسة التقدّية في خطابنا التقدّي تتسم بالتنوع والتداخل المعرفي من خلال طبيعة تعاملها مع الموروث العربي، وكذلك من خلال طبيعة تعاملها مع المعرفة الحديثة، فخلفيات هذه الممارسة - كما هو واضح - محكومة بالمرجعية الغربية والعربية، وهي في ذلك لا تخرج عن ثلاثة اتجاهات، الأول³ منها تأصيلي، يستلهم مرجعيته من الماضي العربي/التراث. والثاني⁴ تجديدي يستلهم مرجعيته من المناهج التقدّية الحديثة الغربية، أمّا الثالث⁵ فتوفيقي، يحاول خلق توأمة منهجية بين الاتجاهين السابقين، ومن خلال المزاجية بينهما رغبة في الاستفادة من المنظومتين المعرفيتين (التراثية/الحداثيّة) في الآن نفسه.

إنّ هذه الأصناف في تعايشها وتباين رؤاها وتصارعها جعلت الخطاب التقدّي يشهد تطوّرات عميقة ومأزقيّة أحيانا، تمّت بوتيرة سريعة الإيقاع متداخلة المكونات والرؤى، هذه التطوّرات مسّت بنيان هذا النقد، وافتراضاته وطرائقه في التحليل والمقاربة، ووظيفته، وموقعه من النسق الثقافي والرمزي الناظم للثقافة العربية...⁶. لقد نتج عن تلك التطوّرات جملة

من الإشكاليات⁷، تمحورت حول تحوّل الثقافّي الذي تمخّض عنه حدّة المثاقفة، وتباين مواقف النقاد¹ (محافظون/حداثيون)، وتعدّد رؤاهم، ففريق يرى أنّ النقد العربي المعاصر يعيش أزمة، لأنّه

¹ - عبد الحميد عقار: تطوّر النقد الأدبي الحديث بالمغرب (بمخا عن الاتساق النظري والإنتاجية المعرفية)، ضمن أعمال ندوة (تحوّلات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يراير 2001، ص: 17.

² - لطفي فكري، ومحمد الجودي: نقد خطاب الحداثة، ص: 15.

³ - هذا الاتجاه مشدود إلى المرجعية العربية النهضوية، حيث يطغى الإصلاح والبعث.

⁴ - هذا الاتجاه منفتح على الخطاب الغربي يحاول الإحاطة بالنظريّة الغربية وفهمها بغية استنباط المفاهيم الإجرائية الصالحة لمساءلة القضايا التي يطرحها الإبداع الغربي.

⁵ - هذا الاتجاه عمل على التوليف بين ثنائية (تراث/حداثة) أي بين ما حبل به التراث وما استجد على الساحة التقدّية في الغرب من نظريات بهدف البحث عن أفق لتأسيس الحداثة التقدّية تروم التراث وتتطلع للحداثة.

⁶ - عبد الحميد عقار: تحولات النقد الأدبي بالمغرب، ص: 18.

⁷ - كيف نقد؟، هل المناهج التراثية لا تزال صالحة للتطبيق أو نبحث عن مناهج أخرى متطورة؟، أو نبحث عن مناهج أخرى أكثر تطورا وأكثر رقا؟، كيف نقرأ النصّ العربي كما يقول المحدثون، هل نقرأه بذهنية تراثية عفا عليها الزمن، كما كان



ضربا من الاستيلاء والتبعية للنقد الغربي. وبالتالي، غدا نقدا صورياً منساقاً مع أطروحات النظريات النقدية في الغرب خاصة البنوية وما بعدها، أما الفريق الآخر فيرى أنّ هذا النقد يشهد لحظات تطوّر متواصلة ومطرّدة.

لقد دكّ هذا السّجال الثّقافيّ الاستمولوجي كلّ الخلافات التي كانت محتدّمة بين الرّمين الماضي والحاضر، وبين الأنا والآخر، فمنذ أواخر سبعينيّات القرن الماضي أصبح للممارسة النقدية العربيّة منطلقات منهجيّة مؤسّسة على معطيات نظريّة واضحة؛ إذ تسنى للنقاد العرب تمثّل أهمّ المناهج والنظريّات الحديثة، ولو بدرجات متفاوتة من تعميم أو تجزيء أو انتقاء.

هذه الجهود مكنتهم من ولوج آفاق جديدة في عالم النقد، فتراهم ينظرون، ويترجمون ويحلّلون ويقارنون النصوص سواء أكانت شعريّة أو نثريّة من منظور بنويّ أو سيميائيّ، أو تفكيكيّ، أو تأويليّ... وما تراكم الدّراسات النقدية سواء أكانت كتباً مستقلة أم مجلات متخصصة، أم إنجازات في شكل رسائل جامعيّة، تجعل الدّارس يعي أنّ النقد العربيّ المعاصر منذ ما يزيد عن أربعة عقود عرف نشاطاً كبيراً، وأنّ كلّ الدّراسات التي حفل بها لها ما يميّزها من تنوع وتشعب تعكس الحالة الصحيّة التي يتمتع بها الخطاب النقديّ العربيّ المعاصر.

2- الخطاب النقديّ المغربيّ: (المسارات والتحولات).

ظلّ الخطاب النقديّ المغربيّ ردحا من الزّمن امتداداً للخطاب النقديّ العربيّ بالمشرق وجزءاً لا يتجزأ من منجزه النقديّ وعلى كافة الأصعدة كان حاضراً فيه، لكن تلك المركزيّة المشرقيّة - كما نراها - قد ولّت وتراجع تأثيرها؛ إذ لم يعد الخطاب النقديّ المغربيّ ظلاً لنظيره بالمشرق، بل نلفيه يشقّ طريقه بنفسه منفتحاً على المنجز النقديّ الغربيّ، ومتجاوزاً المحلّيّ لمواكبة الجديد والتموقع

يقراء الآباء والأجداد؟، أو نقرأه بذهنية عبثية كما يفعل الكثير من الكتاب المعاصرين ممن يطلقون على أنفسهم اسم النقاد. ينظر: جهاد فضل: حوار مع عبد الملك مرتاض، ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربيّة للكتاب، د.ت، ص: 219.

¹ - بعدما كان النقد العربيّ الحديث كلاسيكيّ النزعة، مثله كلّ من: طه حسين، عباس محمود العقاد، الزيات، محمد مندور، جاء النقد المعاصر ممثلاً بتلك المدارس النقدية، والتي كانت متباينة الاتجاهات، فبعضها حديث متطور، وبعضها الآخر كلاسيكي تراثي.



في الخارطة النقدية العالمية، وإتينا لا نحسب هذا التحول انسلاخا أو تنصلا عن النقد العربي في عمومته، بل من أجل البحث عن الخصوصية، وإثبات ذاته ووضع بصمته كفاعل ومتفاعل مع الخطابات لتحقيق حوار هادف وواع مع النص والقارئ على سواء. ولن يتأتى هذا له "إلا بالمعرفة النظرية والمنهجية وكذا النصية.

تأسيسا على هذا المعطى، فقد أحرزت الممارسات النقدية لهذا الخطاب عبر مسيرته تراكما كبيرا إن على مستوى الكم أو على مستوى الكيف، هذا النتاج شكّل في مجمله إضافة ذات بال للإرث النقدي العربي، واكسب من خلاله تلك الخصوصية المغربية التي تميّزه عن غيره والتي تعدّ "ضرورية لترسيخ قيم نقدية مدركة لأدواتها القادرة على تحقيق الفهم والتفكيك والتأويل لإنتاج معرفة تستند على المصطلح والمفهوم والتصور مثلما تستند على النصوص والفضاءات المنفصلة معها وبها"¹. وهي رؤية لم يزع عنها الخطاب النقدي المغربي بل ظل وإلى يومنا هذا مرتبطا بالنسق المحلي والعالمي آخذا في الحسبان التحولات والتأثيرات القائمة، والإشكال الذي يراود ذهن الدارس فيما يتعلق بخصوصية هذا الخطاب، هو:

- كيف تجلّت تلك المسارات والتحولات في الخطاب النقدي المغربي (تونس،

الجزائر، المغرب)؟.

إنّ تجربة التحديث التي خضع لها هذا النقد منذ مطلع القرن الماضي، بسبب انفتاحه على ثقافة الآخر، وإطلاعه على أهمّ الاتجاهات النقدية، جعلته يشهد لحظات تحوّل تختلف في منطلقاتها من بلد إلى آخر، ذلك لأنّ ملامح النقد الألسني (اللسانياتي)، بدأت في التشكّل مع منتصف ستينيات القرن الماضي في تونس، لتتبلور بعد ذلك في المغرب مع مطلع العقد السابع منه، أمّا في الجزائر فقد تأخّرت إلى العقد الثامن، ونعزو هذا التفاوت في تشكّل الحركة النقدية بتلك البلدان لأسباب عديدة، بعضها مباشر وبعضها الآخر غير مباشر، نجملها فيما هو تاريخي وسياسي وفكري وأدبي. وبناء عليه، فإنّ المتتبّع لحركة هذا النقد -وبالنظر للمرحلة التاريخية التي

¹ - شعيب حليفي: الخطاب النقدي المغربي، الهوية والأفق، مجلة الكلمة، ع01، يناير 2007.



تشكل فيها- يجد " أنّ التحوّلات التي شهدتها (...) على مدى سيرورتها التاريخية - وإن بدت في الظاهر متعاقبة- إلّا أنّها في عناصرها التكوينية الداخلية لا تعدم التعلّق والتّكامل"¹.

من هنا، يأتي رصدنا لمسارات الحركة النقديّة الأدبيّة في المغرب العربي وتحولاتها من خلال تحديد المعالم الكبرى لهذا المشهد في منطلقاته وسيرورته وفق قراءة بانورامية، تتوسّل الوصف والتحليل، نقف بواسطتها عند حدود أهمّ المنعطفات والمحطّات المميّزة لهذا المشهد، وإن كنّا لا ندعي - في ذلك- الإحاطة الشاملة بكلّ ما له علاقة بالنقد الأدبي المغربي، فمردّه تقيّدنا بخطة البحث، وما تفرضه من ضوابط منهجيّة على هذه الدراسة.

2-1-1- النقد الأدبي الحديث والمعاصر في تونس:

2-1-1-أ- الحركة الفكرية والأدبية في تونس:

تحتل تونس -أو كما كانت تعرف قديما بالمغرب الأدنى- مركزا هاما، تعايشت في كنفه جميع الحضارات قديمها وحديثها، إذ نلفيها دائما تتأثر بالجديد وتتفاعل معه خاصّة ذلك الذي يأتيها عبر محيطها العربي (مشرقه ومغربيه)، ومحيطها المتوسطي (الأوروبي)، والذي تجلّى بوضوح أكثر في العصر الحديث.

ويعتبر مطلع القرن التاسع عشر بالنسبة للتونسيين لحظة يقظة، لاحت في أفقه صيحات تنادي بالإصلاح، هذا المطلب الذي شهدت فيه تونس عدّة مبادرات رائدة ترجمت على أرض الواقع بإصدار قانون تحرير العبيد 1846. ثم تلاه بعد ذلك إصدار الدّستور، وما كاد يصل النّصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى تبلور الإصلاح من فكرة إلى حركة إصلاحية لها حضورها الدّال على السّاحة الفكرية والثّقافية والأدبية في تونس.

لقد طال تأثير هذه الحركة عدّة مجالات، ومنها بخاصّة المجال الثّقافي، الذي شهد إصلاحات وتنظيمات كثيرة كان على رأسها إصلاح مناهج التّعليم والذي تمثّل في "إنشاء المدارس التي كان لأساتذتها وخرّيجيها دور بارز، في إرساء دعائم النهضة الحديثة في مختلف المجالات السّياسية

¹ - بن شوشة بن جمعة: النقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، النادي الأدبي في منطقة الباحة بالمملكة العربية السعودية والانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط01، 2012، ص:20.



والتقافية والفكرية، وذلك من خلال ما قاموا به من جهود إصلاحية¹، فمن أبرز هذه المدارس نجد مدرسة باردو العسكرية (1860)، والمدرسة الصادقية (1876) التي تعدّ المنبر المعبر عن المشروع الإصلاحي، والمدرسة الخلدونية (1896). وزيادة على ذلك تمّ إنشاء المطبعة الرسمية للبلاد التونسية سنة 1860، التي أسهمت في ازدهار الحركة الأدبية والفكرية، بفضل ما نشرته من مؤلفات متنوّعة المجالات، لعدد من رجال الفكر والأدب والإصلاح، وقد رفدتها جريدة "الرائد التونسي"، التي أسهمت بدورها في إغناء المشهد الثقافي التونسي وتنويعه². فرغم المآزق التي واجهها المشروع الإصلاحي والتي كان أشدها وطأة على نفوس التونسيين هو الاحتلال الفرنسي لتونس "سنة 1881"، فإنّ الحركة الإصلاحية لعبت دورها الإصلاحي حتى نهاية النصف الأوّل من القرن العشرين، والذي تمخّض عنه بروز نخبة من الشيوخ، وجمهرة من المثقفين (كتاب وأدباء وشعراء)، نستحضر في هذا الشأن من الأدباء، كلا من: "محمد السنوسي (1850-1900)" و"محمد بن خوجة (1870-1943)، ونجد من الشعراء: "محمد الطاهر بن عاشور (1879-1973)"، و"سالم بوحاجب (1821-1924)".

لقد أجمعت هذه النخبة رأيها على النضال من أجل تحرير البلاد، وتحقيق المدنية الحديثة للشعب التونسي، مرتكزة على المعطى الثقافي العربي الإسلامي، والمنجز الغربي، حيث "أقبلت الناشئة الأدبية بتونس تستلهم من مثل الأدب الرائج في الشرق منهج أدبها الجديد لتودعه ما فاض على النفوس من آثار النهضة الجديدة المطبوعة على مثال النهضة الشرقية، كما أقبلت من الناحية الأخرى على نتائج القلم الغربي التي اتّصل بها مباشرة العارفون باللّغة الفرنسية منهم، وقد توفّر عددهم وتنوّعت فنون معارفهم فوصلوا بينها وبين إخوانهم الذين لا يعرفون تلك اللّغة، زيادة على ما وصلتهم بمثل كثيرة منه المجالات الشرقية والكتب المطبوعة بالشرق تعريبا لآثار أدبية أو تأليف

¹ - بوشوشة بن جمعة: النقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، ص: 20.

² - م ن، ص: 21.



فلسفيّة وفكريّة، وما فاض على أدب العرب في المهجر، من لمحات جديدة مستمدّة من الرّوح الغربيّة وآدابها¹.

وفي هذا نلمس اقتران عنصر النهضة بالنّضال من أجل الحرّيّة من جهة، وبالارتقاء بالعلوم والآداب من جهة ثانية، وهذا ما انعكس بشكل جليّ على طبيعة الشّعْر والنّثر. أمّا، وكيف يتحقّق ذلك؟ فقد اهتمّ هؤلاء بتطوير الحركة الأدبيّة والفكريّة من خلال منبر الصّحف الوطنيّة المستقلّة التي عهدوا فيها على إثراء المشهد الثقافيّ التونسي وتنويعه بما جادت به قريحة الشعراء والأدباء من نصوص شعريّة ونثريّة. وعليه، فلقد تجلّت طلائع النهضة الثقافيّة في "تزايد عدد المطبوعات الدوريّة في تونس بشكل واسع، فصدر باللّغة العربيّة جرائد ومجلات 'الحاضرة' علم 1888، و'الرّائد التونسي' علم 1888، و'الرّهرة' عام 1890، و'البصيرة' عام 1893، و'سبيل الرّشاد' عام 1895، و'السّعادة العظمى' عام 1904، و'القلم' عام 1904، و'الصّواب' عام 1907، و'التّقدّم' عام 1907"².

إنّ غالبيّة هذه الصّحف لعبت دورا مهمّا في نشر النّصوص الإبداعيّة، وتبيان التّحوّل الذي طرأ على الشّعْر والنّثر، كما كانت هذه المطبوعات الدوريّة سببا في ظهور المقال، فقبل مطلع القرن العشرين، وفي أثناءه كذلك، لم يتخلّص الشّعْر من التّقليد، لكن وإلى غاية موقّ ثلاثينيّات القرن العشرين، تغيّرت نظرة الشّبان إلى دور الشّعْر الحقيقي وهو الشّعْر العصري (الاجتماعي) الذي يروم التّحديد في مقابل السّائد الكلاسيكي، "وهو الميزة الأصليّة لهذا الدّور، أن وثب الشّبان ينازعون الكهول والشيوخ قيادة الشّعْر حتى امتلكوها، فسلبوا بذلك على المناهج الشعريّة روح التّحديد التي كلّما نزل الشّبان منزلا أشاعوها في أرجائه، فوصلوا تطوّر الشّعْر بتطوّر التّفكير وتطوّر الأوضاع الاجتماعيّة، وأفسحوا الميدان لوثبات متحرّرة من القيود [...]". وبهذه الوثبة دخل الشّعْر

¹ - الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس، النشرة الثالثة، الدار التونسيّة للنشر، تونس، أفريل 1983، ص 145.

² - رضوان إبراهيم: التعريف بالأدب التونسي، الاتحاد العام التونسي للشغل، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، رجب 1397هـ - جويلية 1977، ص: 45.



طور تلون فيه بلون غير لونه في الطور الماضي"¹، وأضحى كلاسيكياً جديداً، ومن الشعراء الشباب الذين مثلوا تلك اللحظة نجد "أبو القاسم الشابي"، و"الطاهر حداد"، و"سعيد أبو بكر"، و"عبد الرزاق كركابة"... وغيرهم، هؤلاء يمثلون أكمل مثال للمنهج الشعري الجديد حيث "تجاوزوا الأغراض التقليدية للنموذج الشعري، ولَبّوا قضايا العصر والوطن بالدعوة إلى تحديث المجتمع بغية التهوض به حتى يساير ركب الحضارة، في كنف المزوجة بين الأصالة والمعاصرة"².

لم يكن الشعر وحده حاضراً في المشهد الثقافي التونسي في تلك الحقبة، بل سايرته حركة نثرية شهدت نفس التحولات كما نظيرتها الشعرية. حيث كانت تدور في فلك الفنون الأدبية القديمة كالخطابة والمقامة والحكاية، تقلدها وتنسج على منوالها ولا تكاد تخرج عن البلاغة القديمة ومعياريها، فمع مطلع القرن العشرين، انتعشت الحركة النثرية بتونس، بعدما تحررت من فنون النثر الكلاسيكي وظهرت كتابات نثرية عديدة تناولت الجانب السياسي والعلمي والفني الأدبي، ونلمس في هذا، تداخل الحياة السياسية بالحياة الأدبية، وهو ما يعكس سير الحركة النثرية نحو التقدم، ويرجع أحد الباحثين التحول في الكتابة النثرية إلى عاملين مهمين: "أولهما ظهور أدب الرحلة، وقد دفع بعض الكتاب إلى تسجيل مشاهداتهم للبلاد التي زاروها والاجتهاد في أقل ذلك المشاهدات بأمانة وصدق ودونما تكلف أو افتعال"³؛ وفن الرحلات محسوب على النثر الفني، ويعتمد التحرير الوصفي ومن أعلامه "محمد الخضر حسين"، و"علي الورداني" و"محمد بن خوجة". هذا الأخير، برع في أدب الرحلة، وزاد فيه توغلاً وإطناباً، فكتب الرحلة الفليارية 1911 [...] والمرحلة الناصرية كذلك سنة 1913، ولو يظهر غيره في الميدان سوى "الشيخ محمد المقداد الورتباني" الذي نشر في سنة 1913 كتابه "البرنس في باريس"⁴.

وتشكل "الرحلة الحجازية" للشيخ السنوسي' أنموذجاً لما ذهبنا إليه كذلك وفيه "يقصّ عن أسفاره في بلدان البحر الأبيض المتوسط؛ ووصف آثار الفن الإسلامي في إسبانيا ل'علي

¹ - الشيخ الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ص: 190.

² - بوشوشة بن جمعة: النقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، ص: 23.

³ - م ن، ص: 24 - 25.

⁴ - ينظر: محمد الفاضل بن عاشور: م س، ص: 124.



الورداني¹، ورسالة باريس لـ محمد بن الخوجة¹، ففي ثنايا عملية القصّ يقوم هؤلاء الكتاب بتسجيل انطباعاتهم. هذا، ويمثّل "ثانيهما الممارسة الصحفية التي اضطرت هؤلاء الكتاب إلى صياغة أفكارهم بلغة تتناسب ومستوى الجمهور الذي يقبل على قراءة الصحف"². وهو ما أفرز تنوع المقالات واحتدام السجال بين الأدباء ولعلّ متابعة الجمهور لما ينشر واحد من الدلائل المميّزة في التّحديد الثّري.

لم تقتصر الكتابة الثّرية على ما ذكرناه، بل تجاوزت ذلك إلى الكتابة الروائيّة والقصصيّة والتمثيل المسرحي، وهذا ما يبرز التّحوّل النوعي في هذه الكتابات، إنّ أول رواية عرفها الأدب التّونسي كانت للكاتب والشاعر القيرواني "صالح السّويسي" (1878-1940) بعنوان "الهيفاء وسراج الليل" (1906) "أقامها على هيكل القصة البسيطة، وضعيفة روح العقدة الروائيّة وأسسها على الدّعوة إلى العلم والتّخلّق بالخلق الإسلامي الصّحيح"³، كان مقصدها إصلاحياً، وهذا ما يفسّر تصوّرها الفنيّ، ورغم هذا فهي أول احتكاك فني بالغرب، وما بين عشرينيّات القرن العشرين وثلاثينيّاته، ظهرت روايتان، إحداهما للأديب "الصّادق رزقي" (1874-1939) بعنوان "السّاحرة التّونسيّة" (1910)، وهي فنيّة من حيث شكلها، واقعيّة من حيث منهجها الأدبي. أمّا الأخرى فهي للأديب "محمد رزوق" بعنوان "نجاة" (1933)⁴، وقد تزامن مع هذا ظهور أول أقصوصة تونسيّة بعنوان "السّهرة الأخيرة بغرناطة" 1905 للمؤرّخ "حسن حسني عبد الوهاب" (1883-1968)، لكنّها كتبت باللّغة الفرنسيّة، ويعزو صاحبها ذلك إلى "إحساسه بجدّة هذا النّمط الأدبي آنذاك على الوسط التّونسي الذي لم يعرف القصة بعد في مفهومها الحديث، وتحييه من وقع مغامرته، وما قد ينجم عنها من ردود فعل"⁵. لقد فتح هذا الجنس الأدبي شهية الأدباء بعدما راج انتشارها ولاقت قبولا طيّباً من قبل جمهور القراء، فلقد أضحي في المشهد الثقافيّ التّونسي قصاصون كبار كان لهم الفضل في التّأسيس لهذا النوع من الكتابة، وقد نستدعي بالذّكر بعضهم،

¹ - رضوان إبراهيم: التعريف بالأدب التونسي، ص: 46.

² - بوشوشة بن جمعة: النّقد الروائي في المغرب العربي (إشكاليّة المفاهيم وأجناسية الرواية)، ص: 24 - 25.

³ - محمد الفاضل بن عاشور: م س، ص: 90.

⁴ - ينظر: بوشوشة بن جمعة: م س، ص: 25 - 30.

⁵ - بوشوشة بن جمعة: النّقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، ص: 28.



من مثل: "علي الدوعاجي" (1909-1944)، و"محمد بيرم التونسي" (1883-1962)، و"محمد العربي" (1915-1946)، و"محمد الشروش" (1911-1944)، و"الصّادق مازيغ" (1906)، و"زين العابدين السنوسي" (1898-1965)¹.

كما كان للتمثيل المسرحي حضور في السّاحة الأدبيّة التّونسيّة، فبعدما توافدت الفرق المسرحيّة من مصر كفرقة "جوق الكوميديا المصريّة 1907"، وفرقة "سليمان قرداحي 1909"، وتذوّق جمهور المشاهدين لهذا الفنّ، "ترك بهذا الاهتمام بعض من ولع بالفنّ التّمثيلي فأنشئوا أوّل جمعيّة تمثيليّة تونسيّة، باسم جمعيّة "التّحمة التّمثيليّة سنة 1908، ولم تفرز بمركز معبّر في نظر الطّبقة العالية من المثقّفين [...] فتأسّست جمعيّة تمثيليّة بعناية الشّيخ عبد العزيز الثّعالي سنة 1910 سمّيت "جمعيّة الأواب"، ثم أسّست جمعيّة أخرى "جمعيّة الشّهامة العربيّة"، وفي سنة 1911 ظهرت أوّل مسرحيّة لكاتب تونسي، هي رواية "السّلطان بن جدران يلدز من قلم محمد الجعابي"²، لقد تحوّل هذا الفنّ بفضل مفعليه إلى عامل نهضة تمثيليّة، صقل به أصحابه أذهان الجمهور.

شكّلت البدايات الأولى للكتابة السّرديّة في الأدب التّونسي مغامرة، كونها كانت محفوفة بالانزلاق إن على مستوى التّأليف أو على مستوى تلقّي جمهور القراء لها، لأسباب كثيرة منها أنّ الأدب العربي لم يعرف الكتابة الرّوائيّة والقصصيّة من ذي قبل، وكذلك كتّابها لم يكونوا كتّابا متمرّسين على هذا الجنس الأدبي، فمثلا "الصالح سويسبي" كان شاعرا وداعيّة ومصّلحا دينيّا، و"حسن عبد الوهاب" كان مؤرّخا.

ولعلّ هذا ما جعل تلك الكتابات السّرديّة - في ذلك الوقت - لا ترقى إلى مستوى الكتابة الفنيّة، بعدما "تعمّد كتّابها إقبال هذا الخطاب (السّردية) بالتّعاليق والتّدخّلات، ونزوع أساليبها في الأغلب إلى توظيف أفانين البلاغة القديمة"³، وبقي الأمر على حاله حتّى ثلاثينيّات القرن

¹ - ينظر: م ن ، ص: 32.

² - محمد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس، ص: 126.

³ - بوشوشة بن جمعة: م س، ص: 31.



الماضي، فرغم التحوّل التوعوي للكتابة النثرية - وقتذاك - إلا أنّها لم تتخلّص نهائيًا من التقليد و"ظلت مواضعها متداخلة الأغراض في الفكر والأدب والسياسة"¹.

لكن حتىّ العقدين الثالث والرابع من نفس القرن، نجد الكتابة النثرية قد تجاوزت - إلى حدّ ما - التقليد، وذلك التداخل بين أنواعها، وأضحت التجارب الروائية متّسمة بالنضج، خاصّة عندما نجد كتابها قد مزجوا بين الثقافتين (العربية والفرنسية)، وهذا لا يشكّل عائقًا على كاتب مثلت تجربته الروائية الرّيادة محليًا وعربيًا، إنّه الروائي المثقّف "محمود المسعدي" (1900-2004)، الذي عايش محطات الحركة النثرية بتونس إلى أن اكتملت الكتابة الروائية على يديه، وحبلت تجربته الروائية بنصوص إبداعية، تمثّلت أولًا في نصّ "حدث أبو هريرة قال" و"مولد النسيان" ثانياً، ثمّ "من أيام عمران وتأملات أخرى" ثالثاً، وكلّها نصوص أحيا فيها "محمود المسعدي" - بأسلوبه الخاصّ - اللّغة العربية كما كانت قديماً، وفتح مضامين من التيارات الفكرية بالغرب على غرار المذهب الوجودي²، وفيها تعالقت أشكال النصوص بمضامينها، وأضحت كتابة فريدة ستفتح المجال فيما بعد على التجريب الروائي. أمّا فيما يتعلّق بالكتابة القصصية في هذه الحقبة، فإنّ كتابها تجاوزوا مع المذهب الواقعي، مستمدّين من قضايا وسلوكات المجتمع التونسي مواضيع للمعالجة، فاكتمل بذلك نضج الحركة النثرية.

لقد تناولت الحركة النثرية والشعرية على سواء قضايا كثيرة كان أشدها على المحكّ، ما أظهرته الصّحف الوطنية من سجالات بين الشيوخ والشبان فيما تعلّق بالصّراع حول النموذج المحتذى السلفي المحافظ أمّ الغربي الوافد. كلّ هذا، والحركة النقدية منذ مطلع القرن العشرين وهي تتابع عن كثب مراحل تحوّل الحركة النثرية والشعرية، وهو ما جعل النقد الأدبي يعرف هو الآخر منعطفات في مسيرته. فما هي أهمّ المنعطفات التي عرفها هذا النقد الأدبي؟.

¹ - خالد الغريبي: منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس من خلال بعض أعلامه، مجلة علامات، ع30، مكناس-المغرب، 2008، ص: 144.

² - ينظر: بوشوشة بن جمعة: م س، ص: 31-32.



2-1-ب- تاريخ النقد الأدبي بتونس: من مهادات التأسيس إلى تجربة التحديث:

توطئة:

لقد شكّلت الحركة الشعريّة مع نظيرتها النثرية منذ مرحلة البدايات وإلى غاية مرحلة التأسيس، حضوراً فاعلاً في المشهد الثقافيّ التونسي، ما استدعي وجود حركة نقدية تسير هذا المنحز الإبداعي بالتوجيه والتفسير والتحليل والتقييم، وإن كان الدارس يسجّل تأخر حركة النقد عن مواكبة حركة التأليف بسبب انشغال هذه الأخيرة في بداياتها بالمشروع الإصلاحي (السياسي والتعليمي)، والذي تزامن مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين، بينما حركة النقد عرفت انطلاقها الفعلية في العقد الأول من القرن العشرين، وهذا التأخر النسبي قد يكون منطقيّاً كون الإبداع سابق الوجود عن النقد، بحيث لا يكون هناك نقد ما لم يكن هناك تراكم كميّ للنصوص الإبداعية.

أ- مهادات تأسيس الحركة النقدية التونسية:

أ-1- المنعطف الأول (1910-1930):

لم تتحدّد معالم حركة النقد الأدبي التونسي إلا مع العقد الأول من القرن العشرين، ويرجع الفضل في تبلورها إلى الصحف الوطنية والمجلات ونشاط الجمعيات. لقد اتّسم نقد الشعر كما نقد النثر بالنزعة الكلاسيكية/الإحيائية، وهو نقد متوارث عن تلك الممارسات النقدية العربية القديمة؛ أي أنّ مرجعية هذا النقد تعتمد على ما حبل به الماضي من أمثلة انتقاها النقاد القدامى على أنّها نماذج ثابتة يجب الاحتذاء بها، فإذا نظرنا إلى المدونة النقدية المهتمّة بالشعر، ألفيناها تنقسم "إلى ثلاثة أنواع، أولها: الموازنات، من مثل كتاب: منهج السّتر في النّظم والنّثر (1906) لـ"صالح السّويسي القيرواني" (1878-1965)، وثانيها: المختارات من مثل كتاب: "زين العابدين بن السنوسي" (1898-1940)، الموسوم "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" (1927)، وكتاب "حديقة العرب" (1924) للكاتب ذاته، وثالثها النقد البلاغي، الذي يقوم على إحياء المقاييس البلاغية القديمة في تقويم الشعر والشعراء، من مثل كتاب "الخيال في الشعر العربي"، (1922)، لـ"محمد الخضر بن حسين" (1873-1958)، و"نقد كتاب في الشعر



الجاهلي "...¹"، وهذه الأصناف، تنم عن مدى تشبث نقاد تلك المرحلة بالموروث الأدبي والأخلاقي الذي تركه السلف للخلف. أمّا النقد المهتم بمواضيع النثر على اختلافها، يحاول فيه أصحابه محاكاة بعض "أشكال النثر القديم التقليديّة، وأساليبه البلاغيّة في صياغتهم، ومن نماذج الكتب المنجزة في هذا الشأن نجد: "النثر البديع" (1920)، لـ"صالح السويسي"، و"لحظات" (1900) لـ"محمد الطاهر بن عاشور"، و"موجز البلاغة" (1929) للكاتب ذاته².

إنّ المحافظة على تلك الأساليب القديمة في تلك الحقبة الاستعماريّة تعبير عن الانتماء القومي العربي الإسلامي لهؤلاء النقاد، بعدما تبين لهم، أنّ المحافظة على الهوية مرهون بالتشبث بالتراث، وفي هذا رفع التحدي، فالمستعمر بما يمتلكه من وسائل، يحاول جاهدا طمس مقوّمات المجتمع، والتي من بينها اللغة، والدين، والثقافة، والحضارة، وتعويض ذلك بما يخدم مصالحهم. وعليه، فإنّ النقد الأدبي في تلك المرحلة ينصبّ مدافعا عن الذات، آخذا في حسبانها بعض الأبعاد التي وطّدت تواجهه كالبعد الوطني والديني، والاستعماري، والتي جعلته يمارس خطابه الكلاسيكي كنوع من إثبات تاريخيّة هذا النقد.

إنّ ما أجزه النقاد حول الشعر والنثر من دراسات، يشكّل بدايات النقد التونسي الأولى، التي مهّدت الطريق -منذ ذلك الوقت وإلى يومنا- لبروز طاقات نقدية خلاقة، بدأت في العطاء الواعي، إذ لا تزال كتابات بعضهم متداولة لما تحمله من "قيمة تأسيسية لا تخلو من إشارات ذكيّة، ولحاح نقدية أو تاريخية لافتة رغم تفاوت جهد أصحابها النقدي والتصنيفي والتحليلي"³، ومن الأعلام النقدية الفاعلة، نجد: محمد صالح الجابري، وأبو زيان السعدي، ورشيد الدوّادي، وأحمد ممو، وأبي القاسم محمد كرو، ومحمد الحليوي، ومحمد البشروش، وغيرهم.

¹ - بوشوشة بن جمعة: م س، ص: 23-24.

² - م ن، ص: 24-25.

³ - خالد الغريبي: منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس، ص: 143.



ب- 2- المنعطف الثاني (1930-1950):

تجلّت معالم هذا المنعطف في فترة ما بين الحربين العالميتين، وفيها تبلورت قواعد الحركة النقدية التونسية من خلال جهود أعلامها، من مثل "زين العابدين السنوسي"، وكان للصحف والمجلات خاصّة دور فاعل في انتعاش النقد، والتعريف ببعض الأقلام كذلك، ك"محمد الحليوي" و"محمد البشروش" و"أبي القاسم محمد كرو" وغيرهم. ونستحضر في هذا المقام "مجلة العالم العربي" و"مجلة الباحث" التي تناولت في أعدادها النتاج النقدي لأصحاب الثقافة المزدوجة، واستطاعت أن تفتح على الشرق والغرب، وأن تنتج أسماء سيكون لها أثر كبير في مجالي النقد والإبداع¹.

يشكّل هذا المنعطف في مسار النقد "لحظة الوعي النقدي"، وهي لحظة استطاع فيها النقاد أعمال الآليات الإجرائية للنقد الذاتي التأثيري والمعتمدة أساسا على معيار الذوق؛ فكلّ ناقد في حقل النقد الكلاسيكي، "لا يعتمد فيه [...] على نهج معين، بل يعتمد على ذوقه الشخصي وما يتركه العمل الأدبي في نفسه من أثر، هذا المذهب في النقد هو الغالب على نقادنا على اختلاف أمزجتهم وتنوع ثقافتهم، منهم من يفضله عن وعي واختيار، ومنهم من يكتبه طبيعة واندفاعا مع ذوقه الخاص"²، كما تمكّنوا من الانفتاح على النهج الرومانسي، خاصّة بعدما بدا تأثيره واضحا على كتابات المبدعين الشباب ك"أبي القاسم الشابي".

إنّ هذا التحوّل، بقدر ما يعكس مدى مواكبة الحركة النقدية التونسية لنظريتها العربية بالمشرق وكذلك الغربية، وهي متابعة نحسبها واعية، وتنمّ عن النزعة التجديدية التي سيؤول إليها النقد التونسي مستقبلا، فإنّه -في الوقت نفسه- يبرز المآزق التي تعيق حركة هذا النقد، ولعل أشدها وقعا هو ذلك الترنّح الذي تعاني منه الحركة النقدية بتونس، والمتمثّل في الأخذ من الجديد الوافد والقديم المستهلك، فهذه النزعة التوفيقية في التناول، تجعلنا نستخلص، أنّ حالة النقد بتونس تحاول البحث عن نفسها، من أجل التأسيس لنقد علمي متطلّع للحدّات، ويدعو لتخطّي النقد الانطباعي (الارتسامي)، وهي مهمة أوكلت -على وجه الخصوص- للجامعة، وهذا الذي استشعره أحد الباحثين، من أنّ "النقد السائد أو الموضوعي الذي يعتمد فيه على أصول ثابتة ومناهج فرعية

¹ - م ن، ص : 145.

² - محمد الحليوي: في الأدب التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص: 71.



أو يخضع فيه الناقد الأثر إلى مقاييس مذهبه، فقد انجذبت إليه الأنظار منذ اتبعه الأساتذة الجامعيون الذين درسوا أصوله في الجامعات الأوربية، وبنوا عليه أعمالهم التي تقدموا بها لنيل الدرجات العلمية¹. وعليه، نستخلص منحي التأسيس العلمي الذي نحاه النقد الأدبي بتونس.

ب- تجربة التحديث في الحركة النقدية التونسية:

ب-1- المنعطف الأول: (1950-1960).

لقد واكب هذا المنعطف تحولات عميقة، شهدتها مختلف بنيات المجتمع التونسي، والتي انعكس تأثيرها على المشهد الثقافي عامة، وواقع الحركة الفكرية والأدبية خاصة، هذه الأخيرة، التي أسهمت بشكل كبير في بلورة خطاب نقدي ثري ومتنوع، أفرزه الصراع المحتدم بين المحافظين والمجددين.

كان للصحافة الأدبية والمجلات الصادرة دور في احتضان هذا الصراع، وبالتالي الترويج للتيار التقدمي، والذي تخطى ما كان سائدا إلى ما هو ممكن التحقيق، ومن ذلك نجد مجلة التدوة ومجلة التجديد ومجلة الفكر، فكلها منابر ثقافية ساهمت في ظهور نزعات التجديد في مجال النقد والثقافة، حسنت من مردود الحركة الأدبية والنقدية، والتي فعلها - مع مطلع ستينيات القرن الماضي - ثلثة من النقاد والأدباء من مثل: "محمد فريد غازي، و"عز الدين المدني"، و"صالح القرمادي"، و"البشير خريف"، وغيرهم.

لقد عرف النقد خلال هذه الحقبة دعوته الصريحة إلى التأسيس العلمي للنقد التونسي، وقعه جيل ملمّ بالمعرفة والثقافة العربية والأجنبية، من هؤلاء نجد: "محمد فريد الغازي" الذي شكّلت تجربته الفريدة حضورا محليا وعربيا لما يتميز به من وعي علمي بالنقد ودراسة كافية بالمناهج ووسائل البحث، ويرى أحد الباحثين المهتم بتجربة هذا الناقد، أنّ "تكوينه الجامعي الفرنسي الصحيح العميق هو الذي أملى عليه أن يعنى بكل ظاهرة أدبية ويبحث في أدب كل كاتب وينقد

¹ - محمد الحليوي: م س، ص: 71.



كلّ فكر مبدع نقداً سمّي موضوعياً وعلمياً حيث لا تفضيل للقيمة ولا للذوق ولا للجمالية ولا للاختيار حسب معايير الجودة¹.

إنّ النزعة التجديدية التي نلمسها في هذه التجربة، تتجلى في التهج العلمي المتبع في دراسة النصوص الأدبية، والذي بواسطته كذلك، يتمكن الباحث من إعادة النظر في البحوث السابقة، كما هو الشأن في تلك الدراسات التي تناولت الشعر وبعض الأعلام؛ إذ يرى من الضرورة أن "نغيّر نظرتنا إلى الشّابي وإلى الأدب التونسي في القرن العشرين، ولا بدّ أن نفترض لكي نصل إلى الحقيقة افتراضات متعدّدة وأن نتخذ منهجية علمية تختلف في عرضها للواقع، [إن] المتأمل التزيه والباحث المتجرّد، لا مناص له من أن يعترف بأننا لم نتقدّم تقدّماً ملموساً في بحوثنا عن الشّابي، ولكن من التّزاهة أيضاً أن نعترف بأننا قد بدأنا نقترّب من معرفة حياة الشّاعر التونسي أبو القاسم الشّابي"²، فما يراه هذا الناقد، أنّ الدراسات الأدبية السابقة كانت تعوزها الصّرامة المنهجية، لأنّها لم تخرج عن اتجاه النقد الكلاسيكي. وعليه، بات من الضروري اعتماد المقاييس النقدية العلمية، التي تنهض على التوثيق ثمّ الوصف والتصنيف.

لقد كان للرؤى النقدية لمحمد الغازي منرجا حاسماً في الدرس النقدي الجديد بتونس، فنزعة التجديد التي ميّزت كتاباته كما يراها معاصروه، أسهمت في بناء نقد يقوم على الأسس العلمية، ترى أنّ مقارنة أيّ نصّ، سردياً كان أم شعرياً، قديماً كان أم حديثاً، إنّما يكون وفق منظور المنهج العلمي الذي يتوسّل الدقّة والصّرامة متجاوزاً إسقاط الأحكام الجاهزة.

ب-2- المنعطف الثاني: (1965- إلى يومنا هذا).

استشعر الجيل الجديد بعد حوالي عقد من الاستقلال؛ أي مع نهاية النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي تلك التحوّلات العميقة الطارئة على المجالات الحيوية في المجتمع من اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، وما ترتّب عنها "من تصدّع الهياكل التقليدية للمجتمع،

¹ - عزّ الدين المدني: أضواء على أدب فريد غازي في تونس، وراق، جريدة الصحافة، تونس، 20 ماي 2005، نقلا عن: خالد الغريبي: منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس، ص: 150.

² - خالد الغريبي: م ن: ص: 149.



وتداعيتها لعجزها عن الصمود أمام قوة التجديد وعتو رباح المعاصرة¹، والحركة الأدبية كما نظيرتها النقدية تأثرت بتلك التحولات؛ إذ بدأت تظهر على الساحة الثقافية بوادر التجديد في الأدب بجميع أجناسه، بعدما تسنى لهذا الجيل الاطلاع المباشر وغير المباشر على مستمدات الساحة الأدبية والنقدية في الغرب من نظريات إبداعية ومناهج نقد حديثة، وكذلك بعدما تعرّف عن قرب أو عن بعد على بعض روادها.

لقد شكّل هذا الجيل ما يعرف بحركة الطليعة في تونس، وهي حركة أدبية ثانية، امتدت عن حركة التيار المحدد²، الذي ميّز المشهد الثقافي التونسي في العقدين الثالث والرابع منه. يلمس الدارس ذلك الاهتمام الذي أولته هذه الحركة للإبداع الشعري والنثري على سواء، ولعل تأثرها بالتأج الأدبي المشرقي والغربي، هو الذي غير نظرتها لمفهوم الإبداع والنقد كذلك، فلقد أضحى الإبداع من منظورها "منصرفا إلى مساءلة المبدع أدوات كتابته والتّركيز على التجربة اللغوية أساسا باعتبارها فريدة، والجوس في دروبها، بحثا عن الإيقاع الخاصّ بها، عن سننه وعن لغته الذاتية"³.

إنّ الاشتغال على اللغة وما ترتّب عنه من تجريب في الكتابة الشعرية والنثرية، سيدفع بالنقد الأدبي إلى مراجعة أدواته النقدية التي استأنس بها زمنا طويلا، ومن ثمة استبدالها بآليات أكثر جدّة مستوحاة من نظريات نقد حديثة تتماشى وطموح هذه الحركة، هذه الرؤية المتطلّعة، مهّدت لظهور معالم النقد الجديد الذي يُعنى "في المقام الأول، بدراسة الأدب من داخله والاهتمام بنظم تشكّله وخصائص صياغته باعتبارها ملتحمة بالمضمون، متلبّسة به، مشكّلة وإياه وحدة لا انفصام

¹-بوشوشة بن جمعة: النقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، ص: 36.

²- عرف المشهد الثقافي التونسي حركتين أدبيتين هما: حركة الطليعة التي نحن بصدد الوقوف عندها، وهي حركة مسبوقه بأخرى، تشكّلت قبل الاستقلال، مع مطلع القرن العشرين وبدى تأثيرها واضحا في العقد 3 و4 على الخطاب النقدي الأدبي. عرفت بالتيار المحدد، يمثّله دعاة التطور وشمل مختلف أجناس الإبداع الأدبي والكتابة الصحفية، ومن أعلامه البارزين نجد كل: "الطاهر الحداد، أبو القاسم الشابي، علي الدوعاجي، محمد الحليوي، محمد الفاضل بن عاشور، محمد صالح المهدي، محمد بيرم التونسي، زين العابدين السنوسي، والبشير خزيّف"، للاستفادة أكثر، ينظر كلّ من: رضوان إبراهيم: التعريف بالأدب التونسي، ص: 48-77، وبوشوشة بن جمعة: النقد الروائي في المغرب العربي، ص: 35-36.

³- محمد الناصر العجمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد النقد الغربية، دار محمد علي الحامي بصفاقس، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، الجمهورية التونسية، ط01، ديسمبر 1998، ص: 132.



لها¹، وهو توجه يوحى بتخطي تلك الدراسات الكلاسيكية للأدب (أي دراسات ما قبل البنيوية)، والتي مدارها لا يكاد يتجاوز فكرة الفصل بين الشكل والمضمون، وأما مقارنتها للأثر الأدبي فلا يكون إلا من خارجه معتمدة على فكرة "المعطى/السبب) والنتيجة" المترتبة عن العلاقة الكائنة بين (المؤلف والتاريخ والمجتمع)، والتي تشكل فيما بينها "ما يشبه سلسلة المعادلات السببية: فالنص ثمرة صاحبه، والأدب صورة لثقافته، والثقافة إفراس للبيئة، والبيئة جزء من التاريخ، فإذا التقد تأريخ للأديب من خلال بيئته..."².

لقد كان لتجاوز كل ما هو سياقي، بداية إرساء معالم مرحلة نقدية جديدة تروج للطرح البنيوي وما بعده، والتي أصبح النقد الأدبي التونسي من حينها يعنى بالبنى الداخلية للأثر الأدبي، وكذلك بخصائصه الفنية، متجاوزا التفسير الجدلي الذي يفسر الحاضر بالغايب إلى تصور جديد يقوم على تفسير الحاضر بالحاضر الذي يرى في تآلف البنى وتعالقها وزنا إجرائيا يقوم مقام السبب من نيته³. يعود الفضل في هذا التصور النقدي الجديد إلى تأثير الدرس الجامعي في تونس، أما العلامة الدالة في هذا التأثير فتكمن في مبادرة الناقد "توفيق بكار" في بعث هذا التيار من خلال "...إدخال المناهج النقدية الحديثة إلى حيز الجامعة وتثوير ذلك المفهوم الكلاسيكي المتوارث بأدبية النص"⁴. وعليه، فقد مكّنه اطلاعه المباشر والواعي على تيارات النقد بالغرب من استثمار كل طروحاتها النظرية والإجرائية، ومثالنا في ذلك اعتناؤه "بالنظريات السردية وخاصة منها ذات المنحى البنيوي والمنحى المادّي الجدلي (قولدمان، تودوروف، بارت إلخ...)"⁵، فقد طبّقها على النصوص الأدبية الروائية والشعرية.

لقد كان لهذه الجهود إسهامات ذات بال في "نشر مبادئ النقد الجديد عند طائفة من أعلامه، والتعريف بها عن طريق ما كان يليق من دروس على الطلبة ابتداء من النصف الثاني

¹ - محمد الناصر العجيمي: م س، ص: 131.

² - عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994، ص: 88.

³ - ينظر: ن، ص: 88.

⁴ - عبد العزيز بن عرفة: مقدمات وممارسات في النقد، دار الحوار للنشر والتوزيع باللاذقية، سورية، ط1، 1993، ص: 22.

⁵ - عبد العزيز بن عرفة: مقدمات وممارسات في النقد، ص: 22.



من الستينيات، فبواسطته اطلع هؤلاء على علم سمي "علم الأدب" وتزودوا بمقولاته ومبادئه كما تبلورت عند "جاكسون" و"تودوروف" و"بارت" و"قلمان" و"سولزر"، وقد لقيت هذه الدروس هوى من النفوس، فأقبل الكثير من الطلبة على ما أفادوه منها يصطنعونه في كتاباتهم النظرية والتطبيقية¹.

ومنذ تلك اللحظة، وإلى غاية موفى سبعينيات القرن الغابر توسع نطاق البحث الجامعي الذي ترجمته المقاربات والقراءات التي خصّها الأساتذة الجامعيون للآثار الأدبية المحلية منها والعربية، فلاحت في أفق النقد الأدبي بتونس أعمال نقدية ذات قيمة أنتجتها ثلة من النقاد، الذين تتلمذوا على يد الناقد والأستاذ توفيق بكار، حيث "يمكن ذكر الأستاذ حسين الواد الذي كان أوّل من طبّق المنهج البنيوي على أثر تراثي ونقصد عمله الجامعي حول رسالة الغفران للمعري. ونذكر، كذلك، الأستاذ عبد السلام المسدي الذي أسس دعائم نقده على منهجيات اللسانيات فكانت له أبحاث حول الأسلوب والأسلوبية وحول الشّابي وابن خلدون والجاحظ والمنتبي وطه حسين إلخ... كما أنّ الأستاذ حمّادي صمود حاول من جهته أن يذهب بالنقد أشواطاً بعيدة في الحداثة، وقد تمحورت أبحاثه النقدية أساساً حول استكناه فضاءات الشعر. فتناول بالتحليل الشّابي. ولقد عرف كذلك بكتابه المتميز: ((التفكير البلاغي عند العرب))."² أضف إلى ذلك محمد الهادي الطرابلسي، محمود طرشونة، عبد الفتاح إبراهيم، الهادي خليل، حمدي الحمايدي... وغيرهم كثير، هذه الفئة التي التفت حول أستاذها ونحلت من دروسه "اختارت ركوب طرق البحث الصعبة معلنة انتصاب النقد الجديد باباً للمعرفة النقدية والفكرية معترفاً به ومؤهلاً لإثرائها وتعميقها"³.

لقد شكّل البحث الجامعي في هذا المضمار حضوراً دالاً وفعالاً. لكنّ هذا، لا يجعلنا نستثني من الحركة النقدية التونسية جهوداً حرة لباحثين آخرين خاضوا مجال النقد من خارج أسوار الجامعة، ويمكننا استحضار أقلام من مثل: "أبو القاسم محمد كرو"، و"أبوزيان السعدي"، أمّا من

¹ - محمد الناصر العجمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد النقد الغربية، ص: 134.

² - عبد العزيز بن عرفة: م س، ص: 23.

³ - محمد الناصر العجمي: م س ص: 134.



النقاد المبدعين، فنأتي على ذكر كل من: "منصف الوهايي" و"الطاهر الهمامي"...، كما لا يفوتنا ذكر نقاد المسرح من مثل "أحمد حادق العرف" الذي اشتغل على النقد المسرحي والروائي، فهؤلاء جميعا - وودونما استثناء-، ساهموا في إثراء وتنويع المدونة النقدية التونسية، وأضحت أعمالهم النقدية المنجزة تزخر بمصطلحات¹ ومفاهيم رائجة، وظفها أصحابها بدرجات متفاوتة، كل حسب وعيه بها ودرجة استيعابه لها.

لقد أسست جهود "توفيق بكار" النقدية، وما شاكلها من إسهامات أخرى سواء كانت من داخل الجامعة أو من خارجها لحظة تحوّل جديدة في مسار النقد الأدبي التونسي. إنَّها لحظة الانفتاح على المناهج الحديثة (البنوية)، وما بعد الحديثة (ما بعد البنوية)، التي فتحت شهية إقبال الدارسين على النصوص الإبداعية، يخللونها من منظور هذا المنهج أو ذاك. ولئن كان الدارس يلقي ذلك التباين في هذه المقاربات، فإنَّ مردّه يعود إلى طريقة إعمال المنهج من جهة، وإلى توظيف ما حبل به جهازه المفاهيمي والمصطلحي من جهة أخرى، وإلى جانب هذا كله، هناك الحضور الواعي للذات القارئة (الناقدة)، التي تضع لمستها الخاصة على الأثر الأدبي، فيغدو النقد الأدبي بذلك نقدا إبداعيا، "يغتذي من مناهج قراءة النص تمثلا لها ووعيا بخلفياتها الإبستمولوجية، مصحوبا بسعي دؤوب إلى تأصيل هذه القراءة عن طريق مساهمة الذات القارئة في إضفاء روح الخلق والإبداع على ما رسخ من قواعد بعض هذه المناهج أو ما ظنَّ أنه صار من ثوابتها"².

لقد تبلور الطرح البنوي في النقد العربي مع مطلع النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، كاتجاه نقدي عربي معتمد بفضل بعض التجارب العربية الرائدة التي أنجزت تباعا، كدراسة "صلاح فضل" (نظرية البنائية/1977)، ودراسة "زكرياء إبراهيم" (مشكلة البنية/1978)، ودراسة "كمال أبوديب" (جدلية الخفاء والتجلي - دراسة بنيوية في الشعر/1979).

¹ - من مفاهيم النقد الألسني التي أفادت النقاد في أبحاثهم نرصد: ثنائية اللغة والكلام، الإختبار، الكتابة، الخطاب، العلامة، السياق الأسلوبي، العدول (الانزياح)، النظم، البنية السطحية، البنية العميقة، شكل المضمون، مضمون الشكل، والدلالة لحافة...

² - خالد الغربي: منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس (من خلال بعض أعلامه)، ص: 115.



هذه الأعمال التي تأثنت بها مكتبة النقد العربي، شكّلت انطلاقة ذات بال في تلقي الدرس البنوي لدى بعض أعلام النقد بتونس، وقد نستحضر -على سبيل المثال لا الحصر- أسماء نشطت في الساحة النقدية التونسية منذ العقد الثامن حتى يومنا هذا، ك"الهادي الطرابلسي"، و"عبد الفتاح إبراهيم"، و"نور الدين الفلاح"، حيث جمعت دراساتهم بين التنظير والتطبيق، كشف أصحابها عن الخصائص التعبيرية والبنية الداخلية ودلالاتها في النصوص الأدبية، كدراسة (تحليل أسلوبية/ 1992) لـ"محمد الهادي الطرابلسي"، وهي عبارة عن قراءات لنصوص شعرية ونثرية. أما "نور الدين فلاح" فقد تناول بعض الأعمال الشعرية والروائية لأدباء شبان، ومثال ذلك، بعض الآثار الأدبية من أعمال الروائي والقاص "حسن بن عثمان"، حيث تطرق في تحليله للبنية البوليفونية (بنية تعدد الأصوات في النص الروائي)، مستندا في ذلك على أطروحات "باختين". ويتوقف عبد الفتاح إبراهيم عند الإشكالات السردية التي يثيرها وي طرحها المتن الروائي للقاص متوسلا بالمنهج البنوي¹.

فقد ألف نقدنا الأدبي دراسة الآثار الأدبية من منظور الأسلوب، دراسة كلاسيكية تحتكم للمبادئ والمفاهيم الإجرائية التقليدية التي نصت عليها البلاغة العربية القديمة، والتي يغلب على نتائجها المعيارية. وعليه، فإن الدراسات الأسلوبية قبل فترة السبعينيات لم يعرف لها تواجد في المشهد النقدي العربي ككل. ونعزو ذلك لعدم إلمام النقاد العرب بمعطياتها النظرية والإجرائية، حيث بقي الأمر على حاله حتى عام 1977، تاريخ صدور كتاب (الأسلوبية والأسلوب) للنقاد التونسي "عبد السلام المسدي"، الذي أحدث نقلة محسوبة في التعامل مع الأسلوبية داخل الخطاب النقدي العربي عامة، والتونسي على وجه الخصوص، حيث استطاع هذا الباحث -بفضل هذا الكتاب طبعا-، تجاوز المحاولات القبلية في دراسة الأسلوب، ليفتح الباب على مصراعيه للأسلوبية كعلم قائم بذاته، هو بمثابة "امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة جبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا"². من هذا، نلغيه ينحت في دراسته هاته منحى يبحث عن "...الكليات ومساءلة الأسس العميقة والقواعد التحتية المتحكمة في الاتجاهات

¹ - ينظر: عبد العزيز بن عرفة: مقدمات وممارسات في النقد، ص.ص: 25-26.

² - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا، 1977، ص: 52.



الأسلوبية الرئيسية والمحددة مشروعها التّنظيري، دون احتفال كبير بالجزئيات والمفاهيم الإجرائية المتجلية في بنيتها السّطحية، إلا ما كان منها وظيفياً مفيداً في إضاءة هذا الجانب أو ذلك من البنى التّحتية المولدة¹. إنّ رصد الباحث "عبد السلام المسدي" في دراسته للمفاهيم الأسلوبية، وثبته للمصطلحات الأجنبية بدقّة علمية، مردّه محاولاته تحقيق سمة الاختصاص التي لطالما صبا إليها، وهذا ما استطاع تحقيقه في كتبه اللاحقة خاصة منها كتابيه (قراءات) و(التقد والحداثة)، اللذان قدّم خلالهما دراسات أسلوبية تطبيقية في نصوص للمتني والشابي وشوقي... [على] ألا ننسى مواطنه الدكتور محمد الهادي الطرابلسي الذي اشترك معه في تأليف (الشّرط في القرآن)/ 1980²، وتعززت نزعة الاختصاص كذلك مع مواطنه "حمّادي صمود" في مؤلفه (الوجه والقفا في تلازم التّراث والحداثة-1988) وفيه "انصرف إلى التحليل المرّكز والصّارم للاتّجاه الأسلوبي، كما تبلور عند بعض أقطابه، ومنهم خاصة بالي وسبتزر وريفاتير"³.

من هذا نرى، أنّ هذه الأسماء قد تمكّنت من إبراز الاتجاهات الأسلوبية المعروفة (الاتّجاه التعبيري والدّاتي والبنوي)، وتقريبها من القارئ العربي برؤية علمية وصرامة منهجية إن على المستوى التّنظيري أو الإجرائي، وأنّ تراكم الدراسات التّقديّة من فترة السّبعينيّات وإلى غاية التسعينيّات من القرن الماضي، قد كشفت عن الحضور القار لمنهجين نسقيين هما: البنوية والأسلوبية. غير أنّه بعد هذه الفترة بقليل، وبعدما خبا وهج البنوية، تجلّى في أفق النقد التّونسي مفاهيم نقدية جديدة، لم يألفها الباحثون من ذي قبل في دراساتهم التي نحت المنحى الأسلوبي والبنوي، فبعدما كانت مقارباتهم للآثار الأدبية أفقية من المنظور البنوي، أضحت في البحث السّيميائي (السّيميولوجي) أفقية وعمودية في آن واحد، تستلهم من مبادئ وأطروحات النظريّة السّيميائية بصفة عامّة، كما تجلّت عند روادها من مثل "قريّماس" و"كريستيفا" و"بارت" وغيرهم.

لقد كشف البحث السّيميائي في الخطاب التّقدي التّونسي عن أسماء كـ"محمد الحمايدي" و"الهادي خليل" و"محمد الناصر العجمي". وقد اشتغل هذا الأخير على نظريّة قريّماس في كتاب

¹ - محمد الناصر العجمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص: 136.

² - يوسف وغلبيسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص: 147.

³ - محمد الناصر العجمي: م س، ص: 137.



نقدي، استهله منظراً لأطروحات قريماس السيميائية، وختمه مطبقاً على حكاية من حكايات أدبنا القديم الواردة في كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع، مع ثبت المصطلحات السيميائية السردية التي أعملها في دراسته وترجمها.

خلاصة:

إنّ المشهد النقدي التونسي الذي تشكّلت ملامحه من خلال تلك المنعطفات (انطلاق من مرحلة البدايات وإلى غاية تجربة التحديث)، تأثّر بالحركة النقدية بالمشرق في بداياته، لينفتح على ما جدّ في أفق النقد الغربي. ذلك أنّ رياح التجديد التي هبّت على الحركة الفكرية والأدبية، وطالت النقد بعد ذلك، دفعت بالتّيار التّقدّمي المجدّد إلى خطف مشعل النقد من التّيار المحافظ، فلاحت في أفقه أقلام نقدية تروم التّغيير، وتنتصر للجديد، حيث استطاعت من خلال ازدواجية الثقافة لديها العربية والغربية على حدّ سواء، من تأسيس نقد وفق منهجية علمية، وقد نستحضر من هؤلاء: "محمد فريد الغازي" و"توفيق بكار" و"حسين الواد" و"محمد صالح بن عمر" و"عبد السلام المسدي" و"حمادي صمود"... وغيرهم، هذه الأسماء التي روّجت للنقد الجديد نظيراً وتطبيقاً، فأضحى النقد الأدبي بتونس - من خلالها - يتّسم بالريادة من حيث التشكّل والانفتاح مقارنة بنظيره في كلّ من المغرب والجزائر.

2-2- الخطاب النقدي بالمغرب الأقصى (من التشكّل والتأسيس إلى التّأصيل والتّجديد):

تمهيد:

دراسات¹ كثيرة تلك التي تناولت تاريخ النقد الأدبي بالمغرب انطلاقاً من إرهاباته إلى غاية استوائه ونضجه، والمطلّع عليها يجد فيها تبايناً واضحاً نعزوه إلى خلفيات التّكوين ومرجعياته لدى

¹ - من هذه الدراسات نجد :

- قسم "محمد عفيفي" الحركة النقدية المغربية إلى أطوار ثلاثة هي: الطور الأول: (1900-1930): المدرسة التقليدية الأندلسية، والطور الثاني: (1930-1955): مدرسة الصحافة الوطنية، والطور الثالث: (1956-1971): المدرسة



الباحثين. لكنّ المتأمل في ذلك، واستنادا على ما جاء في هذه الدراسات، يمكنه ملاحظة أنّ النقد الأدبي المغربي شهد مرحلتين، أولاهما ما قبل الاستقلال (فترة الحماية)، وهي مرحلة التأسيس والتشكيل، وثانيهما ما بعد الاستقلال (فترة السيادة)، وهي مرحلة التأسيس والتجديد، والتي انتقل فيها النقد المغربي من الانطبائية إلى الواقعية، ومن ثمّ إلى البنوية والسيميائية والأسلوبية ليصل إلى جمالية التلقّي، متجاوزا في ذلك، كلّ ما له علاقة بالدّوق والمرجع، ومنتها عند النصّ والقارئ، أمّا اللافت للنظر في هذه الكتابات -رغم تباينها- هو اتفاقها على القطيعة مع النقد العربي والأندلسي القديمين.

2-2-أ- تاريخية الحركة النقدية بالمغرب ومرجعياتها:

1- مرحلة التأسيس والتشكيل:

اتّسمت الحركة الثقافية والأدبية والنقدية بالمغرب منذ بداية العشرينيات وإلى غاية نهاية الخمسينيات من القرن الماضي بالكتابة التاريخية والسياسية، عني أصحابها بتراجم الأعلام واستقراء النصوص الأدبية خاصة المغربية منها، وتمثل اهتمامهم بعرض "...معلومات عن سير بعض رجال الدولة ورجال الأدب، مرفقة أحيانا بشذرات من إنتاجهم الأدبي، شعرا ونثرا، وتدخل في هذا المضمار عدّة كتب منها: (إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) لعبد الرحمن بن زيدان، و(الاعتباط بتراجم أعلام الرباط) لمحمد بوجندار، و(المعسول..) لمحمد المختار

الواقعية الاشتراكية. ينظر: محمد الصادق عفيفي: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي (مدارسه - طرائقه - قضاياها)، ط02، مكتبة الرشاد، دار الفكر، د.م، 1971، ص: 89 - 91.

- صنف "محمد مصايف" أعلام النقد المغربي إلى ثلاث تيارات هي: تيار النقد التقليدي: منهم عبد الله الجزائري، عبد السلام العلوي، محمد عباس الفتاح، عبد الله كنون... وتيار النقد التأثري: من بينهم: عبد الحميد بن جلون، محمد التازي، عبد الله الخطيب... و تيار النقد الواقعي: من بينهم: محمد برادة، عباس الحراري، عبد الكريم غلاب، عبد القادر الشاوي... ينظر: محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية، الجزائر، 1979.

- الباحث "محمد أقضاض" في مقال له يجعل من النقد البنوي معلما لتجديد المراحل التي مرّ بها و هي: 1- النقد ما قبل البنوي، 2- النقد البنوي، 3- النقد ما بعد البنوي. ينظر: محمد أقضاض: النقد الروائي ما بعد البنوي مجلة علامات، ع6، مكناس - المغرب، 1996، ص: 78.

- أما عبد الحميد عقار فقسم مسارات النقد المغربي إلى لحظات، فطور فيها النقد الأدبي بالمغرب و هي: اللحظة الإحيائية (1920-1950) / اللحظة التنويرية (1950-1970) / لحظة التحرر الأدبي (1970- إلى اليوم).



السوسي، و(تاريخ تطوان) للفقير محمد داود، وغيرها كثير¹. وإلى جانب هذا، ظهرت كذلك كتابات عديدة مميّزة بطابعها التاريخي الأدبي، منها تلك "المقالات التي خصّصها محمد بوجندار للتعريف بالمقامات، محدّدا، في نفس الآن، خصائصها الفنيّة، ومسامرة أحمد النميشي بالعاصمة العلميّة حول (تاريخ الشعر والشعراء بفاس، وكتاب (فواصل الجمان في وزراء وكتاب الزمان) لمحمد غريط، و(الأدب العربي في المغرب الأقصى) لمحمد بن عباس²، أضف إلى ذلك، كتاب "مسامرة الشعر والشعراء" لعبد الله القبّاج 1928، "الكتابة والكتاب" لعبد الحميد الزندي 1924، و"تطور أسلوب الإنشاء في المغرب الأقصى" لمحمد الحجوي 1933.

يحاول أدباء ونقاد تلك الفترة من خلال هذه المسامرات إبراز قيمة الأدب المغربي ضمن خارطة الأدب العربي، ودعوتهم لمدارسته ونقده وتقويمه. لقد عرفت هذه المرحلة بمرحلة التّراجم والمنتخبات، وهي "لحظة إحيائيّة" بامتياز، أحيا فيها النّقاد تقاليد التّقريض والتّحلية، "ويتجلّى هذا الصّنيع في وضع المنتخبات والاختيارات الشعريّة المغربيّة، وفي تبني النّقاد والعلماء للأعمال الشعريّة الصّادرة حديثا بالمغرب عبر تصديرهم لها بالتّقريضات والتّحليلات"³، وهي أساليب هيمنت على الكتابة النّقديّة، وقد أتت في شكل تعليقات مقتضبة ومقدّمات موجزة وأحيانا مقالات أدبيّة، فلا نجدها تخرج -في مجملها- عن الموازنة والأحكام التّوعيّة والانطباعيّة، تتحسّس في الأثر الأدبي مواطن الحسن ومظاهر الجدّة، ولعل من النّماذج البارزة فيما ذهبنا إليه، نجد كتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى "لمحمد بن عباس الفتح"؛ إذ أنّه يشكّل قفزة نوعيّة في كتابة تاريخ الأدب المغربي، وفي الدّعوة إلى التّجديد في الشعر، اقتداء ومسايرة للنّمودج المشرقي (المصري منه خاصّة)، ويمثّل كتاب (النّبوغ المغرب في الأدب العربي 1938) ل"عبد الله كنون" إضافة أدبيّة ذات بال لخزانة المكتبة المغربيّة، فقد "اخترق حدود المرحلة السّابقة (أي مرحلة الكتابة التّاريخيّة

¹ - أحمد الياقوبي: النقد الأدبي في المغرب (مرحلة التأسيس 1920 - 1940)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يراير 2001، ص: 09.

² - نفسه، ص: 10.

³ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 22.



والسياسية) بتركيزه على (النبوغ) الذي يميّزه الإنتاج الأدبي المغربي في مجالات الإبداع والفكر¹، وهذا يعكس مدى الاهتمام بالظواهر الأدبية على حساب الظواهر السياسية، كون أنّ النقد المغربي مع مطلع الأربعينيات قد تجاوز تلك الدعوة التي اقترنت بتجديد الشعر، إلى الكتابة القصصية والروائية، وفق شروط وقواعد الكتابة الغربية تأثراً ببلزاك وأندري جيد... حيث أهتم² رأوا أنّ الكتابة التثريّة في شكلها القصصي والروائي أقرب من الشعر، في تصوير واقع المغاربة وإذكاء وعيهم في تحقيق الاستقلال، وبناء مغرب آخر، وهذا ما جعلنا نلمس التوافق والانسجام بين الخطاب النقدي المغربي والحركة الوطنية؛ حيث يجد الدّارس أنّ هذا الخطاب يحاول في مناسبات كثيرة، "أنّ يجسّد قيمها ومضامينها حتى وهو يوظف المعايير البلاغية والنحوية وتستميله النزعة التاريخية؛ إذ تلك المعايير جميعها لم تكن سوى علامات على إحساس بمهوية ثقافية ومكوّناتها الخاصّة"³.

لقد شهدت هذه المرحلة تفاقم أسئلة كثيرة، أثارها النّخبة المثقفة، وقد ارتبطت في الأساس بالمرجعيات الفكرية لهؤلاء. والدّارس ههنا يستوقفه من تلك الأسئلة المطروحة بحدّة وإلحاح في المشهد الثقافي المغربي ما يتعلّق بسؤال "الثقافة المغربية"⁴ الذي تباينت من حوله مواقف تلك النّخبة، بسبب ما خلفه من تشويش زعزعة لبعض المسلّمات على مستوى ذهنية هؤلاء. والنّاظر في نصيب هذا الإشكال ضمن خريطة النقد الأدبي بالمغرب، يلقي له وقعا وتأثيرا عميقين، فارتباطه به أدّى إلى اتّساع "...دائرة السّجال بين الأدباء والمثقفين المتأدّبين، هذا الاتّساع أملتته الصّراعات الثقافية والسياسية المحتمة بصدد الموقف من اللّغة، ومن الصّراع بين القدماء والمحدثين، ومن التّمودج الأنسب للاحتذاء: التقليدي الموروث، أو المشرقي الحديث، أو الغربي المنقول عبر

¹ - أحمد الياقوبي: م س، ص : 12.

² - من هؤلاء نجد: عبد الكبير الفاسي، أحمد أبا حنيبي، سعيد حجي، عبد الله إبراهيم.

³ - محمد الدغمومي: نقد القصة القصيرة والرواية بالمغرب، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يراير 2001، ص: 61.

⁴ - ينظر: عبد القادر الشاوي: ضمن ملف ندوة: قضايا النقد الأدبي بالمغرب، مجلة "فكر ونقد" السنة الأولى، ع06، المغرب، فبراير 1998، ص: 99.



الترجمة والاقْتباس، وبصدد الهوية الممكنة للأدب المغربي، لقد تغدّى هذا السّجال فكرياً من تباين الرّؤى والتّكوين التّقافيّ والمرجعيّ للمساهمين فيه...¹.

وبناء عليه، مهما كانت طبيعة المحاكاة محلّيّة أو مشرقية (التمّوج الشعري)، أو غربيّة (الواقعيّة الرّوائية الفرنسيّة)، فإنّ هذه الرّؤية توحى للدّارس - من ناحية - الحالة الصحيّة المُطمئنة للثقافة المغربيّة التي تفاعلت بوعي مع راهنها، ومن ناحية أخرى تنمّ عن درجة وعي المغاربة بالجنس الأدبي وأهمّيته، ما يعني التّحرّر التدريجي من قبضة التّاريخ والدّفع بحركيّة النّقد الأدبي نحو الأمام، من خلال الاهتمام بالقيم الأدبيّة الأصيلة، و"إضفاء الشّرعية الفنّية والجماليّة على نصوص الأدب المغربي الحديث تكريسا للهويّة الأدبيّة المغربيّة"²، وهذا هو الأسلوب الأمثل الملائم لتلك المرحلة، فالّتجارب المتراكمة لهذه المرحلة كانت منطلقاً لتأصيل النّقد المغربي في مراحلها اللاحقة.

2- مرحلة التّأصيل والتّجديد: من نهاية 50 إلى الآن.

توطئة:

رغم ما تميّز به الخطاب التّقدي المغربي في المرحلة السّابقة أي قبل السّتينيات من أنّه انطباعي وتعليمي وسجالي، حدّه وضع الملاحظات التّوجيهيّة وإصدار الأحكام القيميّة التي كانت تلوح على هامش بعض النّصوص الشّعريّة، فإنّ المحاولات التّقديّة لتلك المرحلة قد مهّدت الطريق لتأسيس نقد أدبي جديد مغاير تماماً لما كان مألوفاً. ذلك أنّ ما شهدته المغرب المستقل من تطوّر على مستوى كافة الأصعدة الاجتماعيّة والفكريّة والسّياسيّة قد انعكس صداه على النّقد الأدبي بالمغرب. ويمكن للدّارس أن يقف عند محطّتين شهدتا تحوّل الخطاب التّقدي المغربي، هما:

2-أ- المحطة الأولى (تأصيليّة):

تغطي هذه المحطة الفترة الممتدّة من نهاية الخمسينيات إلى موقّ السّبعينيات. يكاد يجمع جلّ النّقاد والكتّاب المغاربة على أنّ فترة السّتينيات من القرن الماضي هي نقطة انطلاق "الوعي

¹ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 27-23.

² - نفسه، ص: 23.



التقدي بالمغرب " نظريًا ومنهجيًا، ونعزو ذلك الوعي إلى جملة من العوامل المتداخلة¹ (سياسية وثقافية)، إنَّها بحق "اللحظة التنويرية بأفقه الجدلي" التي يبرز فيها الدور المنوط بالنقاد الحضيف في صقل وعي القارئ وإشراكه في تخطي القديم ومواكبة الجديد، ومن "خلالها سيعرف النقد الأدبي بالمغرب البداية المنظمة والمنهجية الأولى لبعض تحولاته الأساسية، والناسجة لبعض خصوصياته باعتباره خطابا ليس له موضوعه المحدد فحسب، بل له كذلك إطاره النظري الفكري والمنهجي المتميز والمتفاعل مع غيره من الدراسات والعلوم المجاورة"²، وهذا ما يبرر ذلك التعدد في المتن التقدي المغربي وتنوعه في تلك الفترة.

إنَّ هذا التحوّل الذي عرفه النقد الأدبي المغربي، تجسّد بظهور حركة طلابية، تجاوز النقد بفضلها حدود النقد القديم، وانفتح على التيارات الخارجية (الماركسية، الوجودية...)، وتأثّر بأفكار "جورج لوكاتش" و"لوسيان قولدمان" سواء على المستوى النظري أو على المستوى المنهجي والإجرائي، فتراكم النصوص الإبداعية المغربية (الروائية منها والشعرية) قد واكبه ظهور مقالات نقدية كتبت تباعا أو على فترات من طرف أساتذة وكتّاب، عرفوا بنشاطهم في حقل الأدب والثقافة، نأتي على ذكر بعضهم ك: محمد برادة، أحمد الياقوري، محمد السرغيني، أحمد المجاطي، حسن المنيعي، إبراهيم السولامي... فغالبية هؤلاء لا زالوا يمارسون الكتابة إلى يومنا، وعلى أيديهم كذلك تكوّن جيل من الطلبة المبدعين والنقاد (جيل فترة السبعينيات وما بعدها)، الذي وجد الساحة الأدبية والفكرية مهية ليعبر عن رأيه، ويدافع عن مواقفه كما هو الشأن مع كل من: "نجيب العوفي"، "محمد بنيس"، "سعيد علوش"، "عبد القادر الشاوي"، "إبراهيم الخطيب"، "إدريس الناقوري"، "أحمد المديني"،

¹ - أهم هذه العوامل : - تحقيق المغرب استقلاله السياسي (1956)/ تشييد مؤسسات الدولة من بينها الجامعات بفروعها / مباشرة التدريس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بها، والتي ستكون مشتملة تتعهد تربتها نمو الحركة الأدبية والنقدية الحديثة المغربية/ ظهور حركة إبداعية طالت الرواية والقصة والمسرحية/ انتعاش الصحافة الأدبية بفعل المقالات السجالية بين الأدباء والنقاد/ انفتاح المغرب على الحركة الثقافية والأدبية بالمشرق موازاة مع انفتاحه على الثقافة الغربية (الفرانكوفونية الخاصة).

² - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 23.



لقد كان لتباين التوجهات السياسية والإيديولوجية لنقاد تلك الفترة سواء من الأساتذة المؤسسين أو من الجيل الجديد، الأثر البارز في حمل الخطاب النقدي على التنوع في الرؤى والخيارات، ضمن مشهد نقدي عام متحوّل باستمرار، فدرجة الوعي لديهم، مكنتهم من خوض غمار معارك فكرية على الصحف الأدبية الممثلة بتلك الملاحق الثقافية، هذه الأخيرة حفظت للدارسين ذلك السجال الذي احتدم بين هؤلاء النقاد، والذي طال قضايا كثيرة منها ما تعلّق بالمنهج والمصطلح، ومنها ما تعلّق بقضايا الأدب والنقد الإيديولوجي بحثا عن إجابات تبرّر واقع الخطاب النقدي بالمغرب والمأمول منه في المستقبل؛ أي "التفسير عبر ربط الأدب والنقد بالواقع وبالإيديولوجيا، والتقوم منه خلال تحديد مكانة الأثر الأدبي والنقدي، ومنزلتها تجاه قضايا اللحظة الراهنة وأسئلتها، وتجاه الآثار النظرة مغربيا وعربيا، واتجاه حاجة المتلقين للأدب والنقد إلى تحقيق التوافق المفترض بين الفن والحياة"¹.

من هذا، جاء الانكباب على تحليل النصوص وسبر أغوارها من قبل من أسماه "عبد الحميد عقار" بناقد الجمهور، ضرورة حتمية، لكن ليس غاية في حدّ ذاتها؛ بمعنى ممارسة التحليل من أجل التحليل، وإمّا كانت الغاية من ذلك هو إبراز الدور النضالي للنقد الأدبي لارتباطه بما هو مجتمعي وإيديولوجي معبرا بذلك عن توجهات المجتمع لتلك الفترة. إنّ حماس جيل الشباب²، وتوقه للتغيير، مكّنه من تحطّي كلّ ما هو تقليدي ورجعي من أفكار خاصة في الأدب والنقد، متبنيّا بذلك فكريا تقدما متحررا.

¹ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 24.

² - من نقاد هذا الجيل الذين مثّلوا هذا الاتجاه - كما يرى جل الباحثين المغاربة - نجد: "إدريس الناقوري"، في مؤلّفه: المصطلح المشترك - 1977، و"نجيب العوفي"، في مؤلّفه: درجة الوعي في الكتابة - 1980، و"محمد بنيس"، في مؤلّفه: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب - 1979، و"سعيد علوش"، في مؤلّفه: الرواية والإيديولوجية في المغرب العربي - 1981. وفي هذا الصدد يستحضر "حميد حمداني" علمين بارزين في تلك الفترة، وهما "إدريس الناقوري" و"نجيب العوفي" يرى أنهما يمثلان هذه الفترة بامتياز، إذ يقول: "والكاتبان معا كانا ينتميان لحزب الاتحاد الاشتراكي الذي كان يمثل الطليعة السياسية مع حزب الاستقلال في ذلك الوقت، ونشعر أن المشروع النقدي لهذين الباحثين كان مكملا لمشروع الحزب على المستوى الثقافي"، حميد حمداني، النقد الأدبي في المغرب - رؤية تحليلية - ، ص: 47.



هذا التوجّه الذي أملاه الاتجاه اليساري - وقتذاك - على الحركة الفكرية والثقافية والأدبية في المغرب، اتخذ من الأدب قناة يمرّ من خلالها أفكاره الرافضة للواقع المتخلف، "هكذا سيصبح النقد الأدبي بالمغرب أحد مكونات الخطاب الاجتماعي الإيديولوجي، وسيمارس قراءة وتديسا من حيث هو موقف والتزام، أو من حيث هو ترجمة فكرية وأدبية لخطاب الثورة والتحرّر"¹، ولعل الدّرس يلمس من هذا تراجع كلّ ما هو جمالي في النصّ فاسحا المجال لكلّ ما هو إيديولوجي/واقعي، وهذا ما تحفّظ عليه باحثون آخرون معتبرين أنّ الذي كان سائدا "في الحقبة السّتينيّة والعقد الموالي [...]"، كان للمنظور الإيديولوجي، الإلتزامي أو الإلزامي - كما نشاء - سيادة كبرى. وهذا المنظور هو الذي تحكّم في فرض كم من النّصوص أو إخراجها. وبالتالي، فقد سمح بأن تواصل تجربة التّضح طريقها بتوصيفات ودلالات خطايبية ونقدية محدّدة؛ أي مقيدة"². وعليه، صار "التّركيز في النقد الأدبي على الدّات أو على الجوانب النّصية الجماليّة بمثابة محاولة ضالّة لإبعاد الأدب عن دوره النّضالي والاجتماعي. وكان من الطّبيعي أن يخلق هذا الحماس الإلتزامي معارك نقدية ذات خلفيات إيديولوجية يتخذ فيها جانب المعرفة موقعا متراجعا إلى الخلف لصالح البراغماتيّة، لذلك لم يتحصّل لدينا من هذه المرحلة النّقدية علما نقديا كثير الفائدة..."³.

إنّ المناخ التّقافي الذي ساد في المغرب بعد الاستقلال، قد رصد لنا على امتداد عقدين من الزّمن ذلك التّباين في وجهات النّظر لدى الكثير من النّقاد المغاربة في فهم وظيفة الأدب الحقيقيّة، ورغم محاولات البعض في "تسييس النّقد الأدبي على التّمايزات الإيديولوجية"⁴، من خلال ما أثاروه من أطروحات وتصورات متضاربة أحيانا ومتوافقة أحيانا أخرى، فإنّ ذلك الأخذ والرّدّ في تعاطي تلك الأفكار سيفضي - لا محالة - إلى إغناء السّاحة النّقدية المغربية

¹ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 24.

² - أحمد المدبني: من النصّ إلى النقد.. ذهابا وإيابا (حول إشكالية نشأة أدبية)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يراير 2001، ص: 58.

³ - حميد حمداني: النقد الأدبي في المغرب (رؤية تحليلية)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يراير 2001، ص: 47.

⁴ - حميد حمداني: م ن، ص: 48.



بالأدوات والمفاهيم، والمصطلحات الحديثة¹، التي "بقدر ما تحيل على التّصوّر المرجعي، تجدد بهذا القدر أو ذاك ما شهده النّقد الأدبي خلال هذه المرحلة من تحوّل وارتداد للجديد"². إنّ إعمال النّقاد لهذه المصطلحات في دراستهم على نحو متفاوت في درجة الوعي وطريقة الاستعمال، جعل السّاحة النّقديّة المغربيّة تعرف تراكما نقديًا تمثّل في الكتابات المقاليّة والبحوث الأكاديميّة التي سيمهد الانتقال إلى المرحلة التّالية، المتمثّلة في المحطّة الثّانية التي نعتناها بالمحطّة التّجديديّة).

2-ب- المحطّة الثّانية (تجديديّة):

تمتد من أواخر السبعينات إلى اليوم، وهي تغطّي الحقبة الممتدّة من نهاية السّبعينيّات إلى اليوم. تعتبر هذه المحطّة حاسمة في تاريخ النّقد الأدبي المغربي المعاصر، فبعدما كانت وظيفته خلال العقدين (السّتينيّ والسّبعينيّ) محصورة في استقراء التّصوص الإبداعيّة من منظور إيديولوجي واقعي (مادّي)، لا تخرج في تركيزها على مضمون الأثر الأدبي والوقوف عند أبعاده الدّلاليّة والاجتماعيّة، فإنّها في هذه الحقبة الما بعد السّبعينيّة، سوف يتحدّد النّقد المغربي بوظيفة مغايرة تماما لسابقتها على الصّعيد النّظري أو الممارسة الإجرائيّة، حيث أنّ وجهته ستكون "نحو محاولة استنتاج "المبادئ"، الشعريّة والسّيميائيّة العامّة، تلك التي تنظم اشتغال الخطابات الأدبيّة وتشكّلاتها، وتفسّر تداولها وتلقّيها وتحولاتها"³.

لم يعد الأثر الأدبي لتلك الفترة تحفة أثرية نراها من بعيد ولا نلمسها، بقدر ما هو ظاهرة لغويّة لها أبعاده الدّلاليّة والثّقافيّة والتّاريخيّة، وتأتي مقارنته من جوّانته (داخله)، يكتشف النّقد الأدبي من خلالها عوالم النّص الدّاخلية المتعدّدة والمتشعّبة، محاولا الإجابة عن سؤال مركزي، وهو: "كيف يقول النّص ما يقوله؟"، بهذا الشّكل، يصير النّقد وصفا وتحليلا وتقييدا، فهو قراءة على قراءة وكتابة على كتابة، كتابة أخرى لكنها "ليست مجرد تعليق على تعليق، وإنّما ينبغي

¹ - هناك تأثر واضح للنقاد المغربيّة بطروحات "لوسيان قولدمان" البنيوية (التكوينية) و"جورج لوكاتش" والنقاد الواقعيين الروس. وهو ما يفهم لاستحضار مفاهيم عدّة و إعمالها في مقارباتهم، منها على سبيل المثال: البنية والبناء -جدلية الصياغة والمضمون- السياق التاريخي والاجتماعي- الواقع الاجتماعي، الالتزام، البطل الإشكالي، الانعكاس، رؤية العالم... ينظر- في هذا الصدد-: عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 25.

² - م ن، ص : 25.

³ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص : 25.



أن تكون إنتاجا لمعرفة جديدة من خلال محاورته للنصوص¹. إنه إبداع ثان، يتداخل فيه النظري بالتطبيقي. يُراعى فيه الصرامة المنهجية وبعد النظرية من جهة، ومحاولة ضبط المفهوم والمصطلح من جهة ثانية، حيث أن كل دراسة نجد فيها تصديرا يعالج فيه صاحبه إشكالية النظرية وإعمال المنهج، والضبط المصطلحي. واللحظة التي نعتها "عبد الحميد عقار" بلحظة التجريب والتنظير، تمكن خلالها النقد المغربي من تخطي البنية التكوينية بما فيها من نظريات ومفاهيم "لوسيان قولدمان"، ويأتي هذا التجاوز إعلانا عن تبني أعلام² النقد المغربي، نظريات تحليل الخطاب وشعريات السرد والسيميائيات، حيث أن الدارس يلفي حضور اتجاهين أساسيين داخل الساحة الثقافية المغربية، وهما السرديات والسيميائيات، وأصبح التعامل مع أفكار الشكلانيين الروس، وأقطاب المدرسة الفرنسية من أمثال: ت. تودوروف، ر. جاكسون، ر. بارت، ج. جينيت، أ. قريماس، ج. كريستيفا، ج. كلود كوكي، ج. كورتيس... واضحا وحاضرا بقوة في المتون النقدية المغربية.

بيد أن التعامل مع النصوص الإبداعية المغربية أو العربية من حيث جنسها كان متفاوتا، وأن الدارس ليجد طغيان المقاربات التي تناولت النصوص السردية (الرواية منها خاصة) على حساب النصوص الشعرية، ونعزو ذلك الاهتمام بالسرد على حساب الشعر كون جنس الرواية يتصدر اهتمام الباحثين المغاربة، فقد استطاعت (الرواية) في زمن غير بعيد أن تحقق تراكما كشف عن وجود وعي الكتابة الروائية لدى المبدعين المغاربة، وهذا التراكم الروائي استطاع بدوره أن يطلق عنان حركة نقدية كبيرة في المراحل الأخيرة خصوصا³.

¹ - جهاد فضل: حوار مع محمد برادة، ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، د.ت، ص: 112.

² - ينظر على سبيل المثال لا الحصر كل من: "محمد مفتاح" في كتابه (في سيمياء الشعر القديم-1982)، وتحليل الخطاب الشعري-استراتيجية الناص-1985)، و"عبد الفتاح كيليطو" في كتابه (الحكاية والتأويل-1988)، و"سعيد يقطين" في كتابه (تحليل الخطاب الروائي-1989)، وانفتاح النص الروائي)، و"حسن مجراوي" في كتابه (بنية الشكل الروائي - 1990)، وأحمد اليابوري" في كتابه (دينامية النص الروائي - 1993)، و"محمد برادة" في كتابه (أسئلة الرواية أسئلة النقد - 1996).

³ - بديعة الطاهري: ملاحظات حول التجربة النقدية بالمغرب، مجلة علامات، ع17، مكناس-المغرب، 2002، ص: 67.



إنّ ما حبلت به السّاحة الأدبيّة المغربيّة من نصوص سرديّة، توازى مع منجز نقدي حصيب، أوكلّ لنفسه الدّراسة العلميّة للمتن الرّوائي، وفق ما تملّيه المرجعيّة النظريّة والرّؤية المنهجية على صاحب الدّراسة، هذا ما نلمسه في تباين المقاربات التّقديّة للخطاب السّردى (الرّوائي أو القصصي) بين النّقاد، ومرّد ذلك - في تقديرنا - نعزوه لاختلاف المرجعيّات والرّؤى لدى هؤلاء؛ فمثلا "سعيد يقطين" في كتابه "تحليل الخطاب الرّوائي" يغترف من معين السّرديات البنيويّة، وفي ذات السّياق وبغية التّحليل يوظّف التّراث العربي (النّحوي منه والبلاغي)، كما نجد "حسن بحرّوي" في منجزه "بنية الشّكل الرّوائي" ينطلق في مقارنته لهذا الشّكل من نظريّة الرّواية، ويتوسّل بأطروحات "فيليب هامون" فيما يتعلّق بسيميولوجيا الشّخصيّة، كما يأخذ بأطروحات "يوري لوتمان" فيما يتعلّق بشعريّة المكان.

بيد أنّ ما كان مواليا لنقد الخطاب الرّوائي بالمغرب، لم يكن كذلك بالنّسبة لنقد الخطاب الشعري، ويعود ذلك - في نظرنا - إمّا لافتقار السّاحة الأدبيّة المغربيّة للنصوص الشعريّة بسبب قلة الدّواوين، أو أنّها موجودة، ولكنّها لا ترقّ للدّراسة بسبب ضعفها مقارنة بما ينتجه المشرق من دواوين شعريّة، أو أنّ النّقد المغربي لم يواكب بشكل فعليّ التّناج الشعري المحلّي. وعليه، فإنّ قلة النصوص الشعريّة مردها نقص التّصنيف والمدارسة، فجلّ التجارب الشعريّة لم توفّر دراسة، وإن وجدت فهي في شكل أطاريح أكاديميّة في طور الإعداد أو مخطوطة لم يتسنّ لها أن تطبع، ويبقى ما هو متوفّر قليل، ولا يحقق المأمول مقارنة مع ما حقّقه النّقد الرّوائي، لكن ورغم هذا توجد دراسات رائدة في هذا المجال، أهمّها أعمال النّاقّد "محمد مفتاح" في كتابين مميّزين، هما على التّوالي: "في سيمياء الشّعر القديم (1982)" و"تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التّناص - (1985)". لقد انكبّ هذا الباحث في كتابه الأوّل على تحليل "نونيّة أبي البقاء الرّندي" من منظور التّعدي المنهجي (الشّعريّة والسّيميائيّة والتّداوليّة والفيلولوجيّة)، حيث استحضّر أفكار "رومان جاكسون"، و"جون كوهين" فيما يتعلّق بنظريّة الشّعر. أمّا في الكتاب الثّاني (تحليل الخطاب الشعري) يلمس الدّارس فيه وعيا معرفيا متقدما لدى "محمد مفتاح"، خاصّة لما وسّع المنهج البنيوي، واستثمر ما جاءت به نظريّة الأفعال الكلاميّة عند "أوستن" و"كرايس"....، وأيضا ما جاء به التّيّار السّيميوطيقي عند كلّ من "أ. غريماس" و"م. ريفاتير"...



خلاصة:

هكذا، يعزّز النقد المغربي المعاصر مكانته داخل السّاحة الأدبيّة في تلك الفترة، بما قدّمه من منحز مسابير للكتابة الأدبيّة ومنظرًا لها، سواء تعلّق الأمر بنصوص سردية أو شعريّة، تراثية كانت أو معاصرة. وهذا ليس بغريب على نقد نهل من روافد ثقافية متعدّدة، مكّنته من تبوّأ هذه المكانة الرّائدة محليًا وعربيًا، فنلفيه مشدودا إلى النتاج الأدبي والفكري بالشرق، ومطلّعا عليه، ومساائلًا إيّاه، ومحاورا. كما نجده مرتبطا بما جدّ على السّاحة الثقافيّة الغربيّة مكتشفا ومترجما.

إنّ التّحوّلات التي شهدتها هذا النّقد في هذه الحقبة، جعلته يراهن على التجريب كأفق بديل لما كان سائدا من ذي قبل، بغية إنتاج خطاب نقدي مغربي خاص، يمتح من المرجعيّتين المشرقيّة والغربيّة "بمحا عن التّكافؤ مع الحركة التّظيرة له عربيًا وكونيًا"¹، إلا أنّ هذا ما كان ليتحقّق لولا الدور الإيجابي الذي لعبته كلّ من الجامعة المغربيّة، والبعثات العلميّة إلى أوروبا، والصّحف والمجلات الأدبيّة. كما شكّل "اتّساع حركة التّرجمة لأصول النّقد الجديد بمختلف تياراتها وفلسفاتها وتصوّراتها بأوروبا وأمريكا"²، حضورا دالّا في المشهد النّقدي المغربي؛ إذ بفضلها تسارعت وتيرة تحوّله.

2-3- الخطاب النّقدي الجزائري: (التأسيس والسيرورة/الانفتاح).

توطئة:

إنّ المتتبع لحركيّة النّقد الأدبي بالجزائر، يجدها دائمة التّحوّل، فقد رصد بعض الباحثين مراحل تحوّلها من التّأسيس إلى ما هي عليه الآن من انفتاح وتفاعل، حيث صنّف هؤلاء المدونة النّقديّة إمّا على أساس منظور البعد الزّمني (الكرونولوجي) للحركة النّقديّة الجزائريّة، أو على أساس منظور المنهج أو على أساس منظور الاتجاه. ولنا في هذا نماذج كثيرة تتعلّق بكل تصنيف ممّا ذكرناه. فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الباحث شريط أحمد شريط³ يعتمد البعد الزّمني

¹ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 27.

² - نفسه، ص: 27.

³ - قسّم الباحث هذه الحركة إلى خمسة مراحل هي: المرحلة الأولى (1900-1939)، المرحلة الثانية (1939-1956)، المرحلة الثالثة (1956-1972)، المرحلة الرابعة (1972-1982)، المرحلة الخامسة (1982-إلى يومنا).



(التاريخي)، ويركز عليه في ضبط هذه الحركة، حيث يقول في هذا الشأن: "نستطيع أن نرصد المراحل التي تطوّر أثناءها المتن النقدي الجزائري منذ بداية القرن الحالي إلى الآن، في المراحل التالية، وإن كنا نرى أنّها ليست دقيقة، لأنّه من العسر أن يحدّد أيّ باحث كان تاريخ بدء حركة أدبيّة، وتاريخ توقّفها بدقّة"¹. أمّا الباحث يوسف وغيليسي²، فيعتمد التقسيم من منظور الاشتغال المنهجي، وكذا تبنيّه، إذ يصرّح: "...تأتي هذه المحاولة التي أزمعنا القيام بها على مجال منهجي واسع يبتدئ من "الانسونية" أبي القاسم سعد الله [...] وينتهي إلى "السنية" عبد الملك مرتاض..."³. وبالإضافة إلى ذلك توجد دراسات أخرى تعتمد هذا التصنيف منها صنيع الباحث عمار بن زايد في تقسيمه النقد الأدبي الجزائري الحديث⁴ إلى ثلاثة أقسام، هي: المنهج التاريخي، والمنهج التأثري، والمنهج الفني. هذا، ونجد في اقتراح الباحثين لتصنيفات أخرى للنقد الجزائري الحديث والمعاصر من منظور الاتجاه، ما قام به الناقد محمد مصايف من صنيع قسّم على إثره النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي⁵ إلى ثلاثة اتجاهات، هي: الاتجاه التقليدي، والاتجاه التأثري، والاتجاه الواقعي، وكذلك في صنيع الباحث عمار زغموش الذي قسّم النقد الأدبي المعاصر في الجزائر⁶ إلى اتجاهين، هما: الاتجاه الواقعي والاتجاه النصّاني.

ونحن ههنا، سوف لا نحيد في قراءتنا للمنجز النقدي الجزائري عمّا ذهب إليه هؤلاء؛ إذ سنجعل من البعد الزمني خيطا ناظما لرصد مراحل حركة النقد الأدبي الجزائري، ومن الأعمال المنهجية وسيلة نحدّد بواسطتها التحوّلات العميقة التي شهدتها الحركة النقدية الجزائرية.

¹ - شريط أحمد شريط: مباحث في الأدب الجزائري شريط أحمد شريط: مباحث في الأدب الجزائري المعاصر (بحث حول النصّ النقدي الجزائري: من الانطباعية إلى التفكيكية)، طبع بمؤسسة الشروق للإعلام والنشر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين بدعم من الصندوق الوطني لترقية الآداب والفنون وتطويرها، الجزائر، ص: 05.

² - جاء تقسيم الباحث لهذه الحركة إلى مرحلتين اثنتين هما: المرحلة السياقية وأخرى نصّانية (نسقية).

³ - يوسف وغيليسي: النقد الجزائري المعاصر، من اللانسونية إلى الألسنية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بوحدة الرغبة، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، 2002، ص: 10.

⁴ - ينظر: عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

⁵ - ينظر: محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

⁶ - ينظر: عمار زغموش: النقد الأدبي المعاصر في الجزائر - قضاياها واتجاهاتها -، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة (الجزائر)، 2001-2000.



2-3-أ- نشأة النقد الأدبي في الجزائر:

- التجارب النقدية التأسيسية:

لقد بدأت الحركة الأدبية والثقافية بالجزائر في التشكل مع بداية القرن الماضي، حيث استلهمت عوامل¹ عدة في ازدهارها وبلورة توجهاتها بفضل بعض الأعلام الإعلامية والثقافية والأدبية الذين "قربوا المعرفة الدينية والأدبية، والسياسية والتاريخية من القارئ في الجزائر، وجعلوه يسهم في إثرائها بالكتابة، والمناقشة"²، ويعود الفضل في انتعاش هذه الحركة الفكرية إلى "ظهور الصحافة الوطنية"³، وكذلك التأثير المادي والمعنوي الذي مارسه الصحف والدوريات، والمطبوعات المشرقية التي كانت تصل إلى البيئات الثقافية في الجزائر، وتوزع حلقة بعيدا عن عيون الرقابة الفرنسية المحففة"⁴.

لقد برزت بفضل هذه الإمكانيات الإعلامية أعلام محلية ك: عبد الحميد بن باديس، أحمد توفيق المدني، محمد العيد آل خليفة، والسَّنوسي والزهاوي، ومبارك الميلي وغيرهم، وإلى جانب هذا ساهمت في نشر النتاج الأدبي والفكري لكتاب مشاركة ك: صادق الراجعي، ومحمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان،...

في ظل هذه التحولات والتأثيرات، لم يكن النقد الأدبي بمنأى عما يحدث، بل واكب هذه الحركة بفضل جهود بعض الأدباء والنقاد، ك: رمضان حمود، ومحمد السعيد الزاهري ومحمد الهادي السنوسي، أحمد سحنون، أحمد بن ذياب ومحمد بن عابد الجلالي، ومبارك جلواح... وغيرهم، كان هذا في المرحلة الأولى لتنضاف أسماء أخرى في مرحلة لاحقة، ك: أحمد رضا حوحو، عبد الحميد

¹ - من أهم هذه العوامل نجد: - اتصال الأدباء و المثقفين الجزائريين بنظرائهم بالمشرق إن بطريقة مباشرة كالبعثات العلمية، أو غير مباشرة كالجرائد والكتب والمجلات / - ظهور وسائل الإعلام البصرية والنوادي، والجمعيات الثقافية.

² - شريط أحمد شريط: مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، ص: 15.

³ - أهم هذه الصحف: الشهاب لابن باديس، الجزائر لمحمد سعيد الزاهري، البصائر والشعلة لأحمد رضا حوحو وأحمد بوشمال...

⁴ - شريط أحمد شريط: م س، ص: 04.



الشافعي، وعبد الوهاب بن منصور، وعبد الوهاب شيبان، وحمزة بوكوشة، محمد البشير الإبراهيمي...

لقد جاءت نتائج هؤلاء في شكل مقالات منشورة في الصحف والمجلات شحيحة من القيم الجمالية والفنية، فهي لا تعدو أن تكون مجرد محاولات صحيحة ومقتضبة "التصوّر النظري والإطار المنهجي، تقوم على النظر الوظيفي (الرسالي) إلى النص الأدبي، برؤية تجزيئية تقوم على تصحيح الأخطاء (اللغوية والعروضية) التي تعترى النصوص، إضافة إلى بعض التعليقات السطحية العامة (البلاغة خصوصاً)، التي تفتقر إلى الشواهد الكافية، فضلاً عن نزعة توجيهية صارمة"¹.

إنّ مردّ ذلك - في نظرنا -، هو تلك المنابر الإعلامية التي كانت تضع شروطاً للأدباء النقاد، تخضع فيه العمل الأدبي للتوجيهات السياسية والاجتماعية والثقافية خدمة للقضية الوطنية، الأمر الذي جعل النقد الأدبي "طوال مسيرته الأدبية مجرد انطباعات تتحكّم فيها النظرة الشخصية الخاصة أو غير العلمية التي تنظر إلى الفعل الإبداعي من زواياه الضيقة"²؛ ذلك لأنّ كتابات الغالبية من هؤلاء تندرج ضمن الحركة الإصلاحية، التي تمتح من التراث العربي اللغوي والبلاغي معاييرها النقدية التي ظلّت - في مجملها - "عبارة عن شروح وحواشٍ وتعليقاتٍ نحوية ولغوية على النصّ الأدبي"³. وهو أمر، جعل تلك الكتابات لا تتجاوز في طرحها النظرة المعيارية المحدودة، التي لا تفضي إلى نتائج معتبرة. ورغم ذلك، فإنّ "هذا النقد ذو الملامح القديمة ظل مستمراً، يجد من ينتصر له، [ويرى فيه النموذج الأمثل الذي يحاكي]، لكنه كان يمثّل مكانة محدودة"⁴، وبالتالي، ما كان ليمنع من وجود تأثر ولو سطحي ببعض الأطروحات النقدية المشرقية⁵ التي عرفت

¹ - يوسف وعليسي: النقد الجزائري المعاصر، من اللانسونية إلى الألسنية، ص: 09.

² - بن جمعة بوشوشة: النقد الروائي في المغرب العربي، ص: 39.

³ - علي خذري: تحديث النقد الجزائري، مجلة حوليات الآداب واللغات، العدد الثاني خاص بفعاليات أعمال المنتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري المنظم بكلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، يومي: 21-22 ماي 2006، ص: 08.

⁴ - م ن، ص ن.

⁵ - على سبيل المثال: النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور 1946. ومناهج للدراسة الأدبية لشكري فيصل 1948. فهؤلاء ومن عاصروهم تفاعلت كتاباتهم مع المستجدات الثقافية والأدبية والنقدية في الغرب بفعل عامل المثاقفة، الذي وضعهم أمام اتجاهات نقدية توالى عليهم تباعاً كالنقد الرومانسي والتاريخي والاجتماعي والنفسي...



المناهج النقدية كالمناهج التاريخية، والمنهج التأثري والمنهج الفني، وإن كانت تطغى عليها النظرة التقليدية التي تفتقر للمنهج العلمي، فإنها ورغم قصورها

الفكري والجمالي نجدها قد فتحت الباب أمام جيل¹ أوكل لنفسه بعث الحركة النقدية والنهوض بها من جديد، عندها بدأت تجارهم "تباشر دراسة النص الأدبي بروح منهجية أخذت تتطور شيئا فشيئا"²، بتبني تلك المناهج النقدية في مقارباتهم، وكان ذلك مع بداية ستينيات القرن الماضي وحتى موقى الثمانينيات³.

لقد هيمن المدّ الثقافيّ المشرقي في هذه الفترة على تلك التجارب التأسيسية في المشهد الأدبي والنقدي الجزائري، وأصبح الباحثون الجزائريون مرتبطين أشدّ الارتباط بالمدرسة المشرقية، ومتفاعلين مع أطروحاتها، فكانوا إذ ذاك مشدودين إلى ثقافتها "عن خبرة ووعي، [...] يطبقون القواعد والتقاليد بإتقان، و[...] يعتقدون أنّ هذا هو السبيل الوحيد لتأسيس نهضة أدبية صميمة"⁴، لقد تأتّى لهم ذلك -بالفعل- بعدما أصبحت الجامعات المشرقية قبلة لهؤلاء، يقصدونها للنهل من عطاءات أساتذتها، فكان تأثيرهم واضحا على التوجّه النقدي للباحثين الجزائريين، وهو ما نلمسه في منجزاتهم البحثية خاصة بعد عودتهم إلى الجزائر، والسّياق يسمح لنا باستحضار بعض الأقلام النقدية التي تكوّنت بالشرق العربي (وتحديدا بمصر)، والتي أصبح حضورها فاعلا في السّاحة النقدية الجزائرية، من ذلك مثلا: الناقد "محمد مصايف" في تأثره بكتابات "سهير القلماوي" و"محمد مندور" من خلال تنظيراتهم حول النقد الانطباعي الجامع بين البعد الجمالي والدلالي والتي تتجلّى في كتابيه: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، وفصول

¹ - وهو جيل المرحلة السياقية وتمثّل في: النقد التاريخي ومن أعلامه: أبو القاسم سعد الله، عبد الله الركبي، صالح خرفي، عبد الملك مرتاض. النقد الاجتماعي، ومن أعلامه: محمد مصايف، الأعرج واسني، زينب الأعوج، مخلوف عامر، شايف عكاشة، محمد ساري، إبراهيم رماني. النقد الانطباعي، ومن أعلامه: أحمد منور، مخلوف عامر، محمد بوشحيط، عمر أزراج.

² - يوسف وغليسي: من اللانسونية إلى الألسنية، ص: 10.

³ - يحدّد الباحث يوسف وغليسي سنة 1961 بداية المرحلة السياقية للنقد الجزائري، وهي تاريخ صدور كتاب "محمد العيد آل خليفة" رائد الشّعر الجزائري في العصر الحديث لصاحبه "أبي القاسم سعد الله" وهذا الكتاب في الأصل رسالة ماجستير أنجزت بمصر تحت إشراف د. عمر الدسوقي. ينظر: يوسف وغليسي: م ن، ص: 22.

⁴ - علي خذري: تحديث النقد الجزائري، ص: 08.



في النقد¹. كما نجد تأثر "أبو القاسم سعد الله" بأستاذه "عمر الدسوقي" الذي أشرف على أطروحة الباحث في الماجستير حول الشاعر "محمد العيد آل خليفة"، والتي سترى النور في شكل كتاب جامع بين الأدب والتاريخ، وفيها نلمس إرهاصات تبني المنهج التاريخي في النقد الجزائري، الذي تبلور كذلك مع الباحث "عبد الله الركيبي" في رسالته المقدمة لنيل شهادة الماجستير من جامعة القاهرة عام 1967 تحت عنوان القصة الجزائرية القصيرة، والتي سترى النور كذلك في شكل كتاب تحت نفس العنوان، كما نجد الاهتمام بأدوات المنهج التاريخي في منجزات "صالح خرفي" المتمثلة في بحثه حول (شعر المقاومة الجزائري) المقدم إلى جامعة القاهرة عام 1966 لنيل شهادة الماجستير بالإضافة إلى رسالته في الدكتوراه التي أنجزها عام 1970 بالجامعة المصرية تحت عنوان الشعر الجزائري الحديث وكلاهما تين الرسائل ستنتشران فيما بعد في شكل كتابين²، وإلى جانب هذا نجد من المتأثرين بالفكر المشرق في مجال النقد "مبارك جلواح" و"عبد الملك مرتاض" في مرحلته النقدية السياقية.

أُسمت هذه مرحلة بالنزعة الواقعية، حيث شهدت حركة دؤوبة منطلقها السؤال، والبحث في قضايا الفنّ والأدب والسياسة واللغة العربية والثقافة القومية، كما ظهرت في خضمها فنون، ازدهرت كالقصة والشعر والرواية والمسرح، و"واكب هذه الأنواع نقد جزائري حديث، وكما هو الشأن دائما بالقياس لكلّ مولود جديد، احتاج هذا النقد إلى سنوات يستوي على ساقه وسلك السبيل السوي لبلوغ الحد الأدنى من الجودة والدقة"³.

وبناء عليه، فقد ظهرت أنواع عديدة من أشكال النقد التطبيقي على القصة والشعر، إلا أنّ اهتمام أصحابها بالسياق على حساب النص، أهمل جوهر النص الذي هو البحث في أدبيته، واهتمّ بما هو خارج النص (المؤلف، المجتمع، التاريخ)، فجاءت دراساتهم مكرورة في أحيان كثيرة

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - ينظر: بن علي خلف الله: النقد الجزائري من السياق إلى النسق - دراسة وتقوم -، شهادة دكتوراه في النقد العربي الحديث والمعاصر (مخطوط)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيلالي ليايس، 1433/1432هـ-2011/2012، ص.ص: 42-58.

³ - محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1981، ص: 05.



تقوم حول النص، ولا تقع على جوهره، فلا هي فحرت إنتاجيته، ولا هي استكثرت أسرارها، وهذا من المؤثرات التي أذرت بسقوط سرح المناهج السياقية، وأقول نجمها لتحل محلها مناهج نسقية (نصائية) مدججة بأحدث المفاهيم اللسانية، أعملها نقادنا في مقارباتهم بدرجات متفاوتة، وكان قصب السبق في التعامل معها وإدخالها إلى خطابنا النقدي من نصيب الناقد عبد الملك مرتاض؛ الذي اهتم بمعالجة مشكلات النص والمنهج والمصطلح وقضايا أخرى تتعلق بإشكالية التراث والحداثة.

2-3-ج- انفتاح النقد الجزائري على المناهج النصائية:

اقترنت بدايات النقد الألسني بالجزائر مع مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وتزامن ذلك مع ظهور كتاب "النص الأدبي، من أين؟ وإلى أين؟ سنة 1983 للدكتور "عبد الملك مرتاض"، وفيه إعلان عن بداية عهد جديد، وقطية صريحة مع ما سبق من مناهج تقليدية، التي كان شغلها الشاغل البحث عن حقيقة وكنه النص وتفسيره بما يمليه السياق الخارجي، الأمر الذي دفع بثلة من باحثينا إحداث انتفاضة ضد تلك المناهج العقيمة التي عجزت عن سدّ متطلبات النص الأدبي بسبب الدراسات السطحية التي لا تتحسّس تفرعات النص ولا تعيره بالا في الاستماع إلى منطق النص وقوانينه الداخلية وتبين لهم بعد فحص دقيق ضرورة "أن يعاد النظر في تلك الدراسات التي استمدت مناهجها وطرائق بحثها من علم النفس ومن التاريخ ومن علم الجمال..."¹؛ ذلك لأنّ هؤلاء غلبت على آرائهم النقدية الذاتية والتعصب واتّسمت مقارباتهم بالفجاجة والمفاضلة وعدم التمييز بين ما هو أساسي في النص وما هو غير ذلك والممارسة النقدية بهذا الشكل قد ولّت؛ إذ "... لم يعد النقد أحكاما اعتبارية انطباعية، ولا ذرية لفظية تقوم على سرد مصطلحات جاهزة، وتقليب جمل محفوظة [...] لم يعد النقد، نقد النص الأدبي شيئا من هذا أو شبهه، وإنما أصبح علما ذا أصول وقواعد لمحاولة فهم الأدب وتقويمه بموضوعية وحياد؛ وذلك بإبعاد الكاتب الذي كتبه أو الشاعر الذي أبدعه؛ والانصباب على النص وحده، والاحتكام إلى العلم وحده..."².

¹ - عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسة في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص:

² - عبد الملك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص: 07.



لهذا بات من الضروري التّأني عن هذا السائد التقليدي والانتصار للنّص على حساب ذلك بالتوسّل بمناهج النّقد الألسنيّة التي تعالج النّص من داخله. وبالفعل، فقد تعالت صيحات تنادي بأنّخاذ موقف حازم اتجاه السائد، فلا سلطة المؤلّف ولا قبضة التاريخ ولا علم النّفس وتحليلاته ولا المجتمع يثني من عزيمة الباحثين الجزائريّين من الاطلاع على النّظريّات المعرفيّة والنّقديّة من مظاهرها أو عبر الوسائط، ومن ثمّ إعادة النّظر في أدواتهم الإجرائيّة وآليات التحليل التي تحوّل لهم التّعامل مع النّصوص بطريقة علميّة موضوعيّة تتوسّل المنهج النّصائي ولا شيء سواه، فهو وسيلة تساعد الباحث في سبر أغوار النّص والبحث عن بنيانه المختلفة الخارجيّة والدّاخليّة، كون هذا الأخير (أي النّص)، مخادع مخاتل -على حدّ تعبير أحد النّقّاد¹-، فهو في أثناء تملّصه يضمّر عنّا أكثر ممّا يبديه لنا من مقاصد، و"يظلّ باستمرار زئبقياً ومراوغاً وعصياً على السيطرة الحاسمة والنّهائيّة، بسبب بنيته المجازيّة التّخييليّة، وبسبب خرقه لنواميس اللّغة ودلالاتها المعجميّة القارّة أو شبه القارّة، واختراقه لفضاءات دلاليّة بكر وجديدة"². وبالتالي، "لا توجد نقطة ارتكاز يمكن الانطلاق منها لتقديم تفسير معتمد أو قراءة موثوق بها أو حتّى عدد من التّفسيّرات والقراءات للنّص، وإنّ ما هو مركزي أو جوهرى في قراءة ما يصبح هامشيّاً في قراءة أخرى، وإنّ ما هو هامشي في قراءة ما يغدو مركزاً في قراءة ثانية"³.

لهذا السّبب، تعدّدت القراءات⁴، وتوّعت مقارباتها على نصوص جزائريّة وعربيّة في الشّعور والنّثر برؤية منهجيّة بنويّة أو سيميائيّة أو أسلوبية أو تفكيكيّة أو تداوليّة، كما قد

¹ - ينظر: علي حرب: نقد الحقيقة، المركز الثّقافيّ العربي، الدّار البيضاء (المغرب)، ط2، 1995، ص: 01.

² - جهاد فضل: حوار مع نجيب العوفي، ضمن كتاب (أسئلة النّقد)، الدار العربيّة للكتاب، د.ت، ص: 363.

³ - عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نيسان 1998، ص: 367.

⁴ - من نماذج القراءات النّصائية في الخطاب النقدي الجزائري نجد في:

1- البنوية: - عبد الملك مرتاض (الألغاز الشعبيّة الجزائريّة- 1982. والنّص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟- 1983).
وعبد الحميد بورايو (القصص الشعبي في منطقة بسكرة- 1986). 2- السيميائيّة: - عبد الملك مرتاض (ألف ليلة وليلة- 1989)، و(أ/ي- 1992)، وعبد القادر فيدوح: (دلائليّة النّص الأدبي- 1993)، و(الرؤيا والتأويل- 1994).
وعبد الحميد بورايو (منطق السرد- 1994). ورشيد بن مالك (مقدّمة في السيميائيّة السردية- 2000). و(قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنّصوص (عربي-إنجليزي-فرنسي)- 2000). و(البنية السردية في النّظرية السيميائيّة،- 2001). و(السيميائيّة: أصولها وقواعدها (ترجمة)- 2002). و(السيميائيّة: مدرسة باريس (ترجمة)- 2003). و(تاريخ



تتوسل بالتركيب المنهجي لمحاصرة الأثر الأدبي مهما كان جنسه. وأضحى النقد الجزائري بهذا الشكل، يشهد حالة هائلة من الانفتاح على المناهج النقدية المعاصرة، والأقلام النقدية الجزائرية واعية تمام الوعي بما يدور على الساحة النقدية المحلية والعالمية، ولهم دراية كافية، وإطلاع واسع على الأسس النقدية الجديدة المتداولة، ذلك لأن من ميزات الناقد الأدبي الحضيف المواكبة لكل جديد يظهر على الساحة النقدية خاصة إذا ما تعلّق ذلك بمجال تخصّصه. ولعلنا - في هذا المقام - نقرّ بفضل بعض الأقلام النقدية في محاولاتها النظرية أو التطبيقية توطين النظرية السيميائية ضمن المشهد النقدي الجزائري. فهذه الثلة النقدية¹ تطمح بإسهاماتها إلى ترسيخ الوعي بالخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري.

وبناء على ما أوردناه، لا يفوتنا تذكّر الجهود النقدية المضيئة للدكتور "عبد الملك مرتاض"، الذي يشتغل من خلالها على (مشروع/ رؤية) في مجال النقد، عايش به كلّ المراحل، وتبني فيه كلّ المناهج، ما مكّنه من الكتابة في نظرية الرواية، وفي نظرية النقد، وفي نظرية النص الأدبي...، ومن التأسيس للمصطلح النقدي (التأصيل والصناعة والإنتاج) نظريًا وتطبيقيًا. كما لا تفوتنا الإشارة إلى المنجزات النقدية للباحثين الآخرين الذين نهلوا النظريات النقدية من محاضنها وحملوا على عاتقهم مسألة التنظير والتأصيل والترجمة والممارسة التطبيقية. تأسيسا على هذا، باتت هذه الكوكبة تدرك بأنّ النقد لم يعد شطحات ثقافية، ولا اجتهادات تعوزها الرزانة، ولا وجهات نظر قاصرة، فبفضل إسهامات هؤلاء الباحثين، لا يزال يشهد الخطاب النقدي في الجزائر تحولًا كبيرًا، ومستمرًا على مستوى الكيف، كما على مستوى الكم، طال المرجعية والمنهج والمصطلح، فلا أحد ينكر اليوم، حجم التطبيقات السيميائية والأسلوبية والبنوية... التي تمارس داخل الحرم الجامعي.

السيميائية (ترجمة) - (2004). و(السيميائيات السردية - 2006). و(السيميائية: الأصول، القواعد، والتاريخ (ترجمة) - 2008). 3- الأسلوبية: - عبد الملك مرتاض (الأمثال الشعبية الجزائرية)، وعبد الحميد بوزوينة (بناء الأسلوب في المقالة عند إبراهيمي - 1988)، ورايح بوحوش (البنية اللغوية لبردة البوصيري - 1993).

¹ - هناك فريق من الباحثين ساهم في إثراء الحركة النقدية بكتب ومقالات ومحاضرات. قد نستحضر من هؤلاء مثلاً: عبد الملك مرتاض، وعبد الحميد بورايو، ورشيد بن مالك، وأحمد يوسف، وعبد القادر فيدوح، والسعيد بوطاجين، والحبيب مونسى، والطاهر رواينية، وأحمد شريط، ويوسف وغيلسي، وعبد القادر بوزيدة، وأحمد منور، وحسين خمري، وعقاق قادة، ومولاي علي بوخاتم، ونادية بوشفرة، وإبراهيم صحراوي،



هذا المعطى، يجعلنا نطمئن على صحّة النقد الجامعي الأكاديمي، فهو بفضل باحثيه يواكب المستجدات ولا يتوانى لحظة في تعصير آلياته باستمرار.

خلاصة:

من خلال ما سبق الوقوف عنده، يجد الدّارس أنّ النقد الأدبي الجزائري، قد وسمته محطات مضيئة، شكّلت منعطفات كان لها الأثر البالغ في تحولاته، فلقد كانت محاولات الناقد والشّاعر "رمضان حمود" أولى هذه المحطّات التّأسيسية، وثانيها كانت للناقد والأديب "أحمد رضا حوحو"، وهي محطة داعمة للأولى، وفيها إضافات تنم عن وعي نقديّ متأرجح يبحث عن التّوفيق بين ما هو تراثي أصيل وما هو غربي وافد؛ بينما شكّلت المحطّة الثالثة تحوّلا تأسيسيا دالا في المسار النقدي الجزائري، حيث تعتبر تجربة الناقد والمؤرّخ "أبو القاسم سعد الله" في هذا المجال واضحة المعالم بأطروحاتها، تعتمد المرجعية النظرية، وتتوسل المنهج السياقي الذي يتناول النص من خارجه، وتأتي في الأخير المحطّة الرابعة، تثبيتا لرؤى جديدة، لم يعهدها الخطاب النقدي الجزائري، وقّعها الناقد المبدع "عبد الملك مرتاض"، حيث ترى في المنهج التّسقي المقاربة الأصلى لتناول النص الأدبي، ومن حينها انطلق النقد الجزائري بخطى حثيثة، يتحوّل فيها باستمرار، مسيرا الجديد ومتجاوزا السائد.

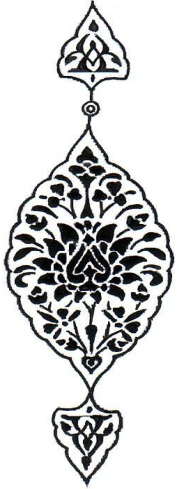
الباب الأوّل

الخلفيّة الاستعماريّة والعلميّة
للخطاب السّيميائي المغربي..

الفصل الأول

المرجعية التراثية للخطاب

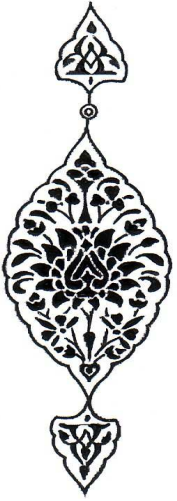
السِّيَميائي المغربي.



المبحث الأول

"العلامة" في الفكر العربي

(قديمًا وحديثًا).





– "العلامة" في الفكر العربي (قديمًا وحديثًا):

يشكّل النصّ الشرعي مدار اهتمام علماء المسلمين، والعلامة هي واحدة من تلك المسائل أو القضايا التي وقف عندها هؤلاء بغية خدمة أغراضه، بحيث ارتبط هذا المفهوم لديهم بالمباحث اللغويّة خاصّة، والتي جمعوا فيها بين تأملات الفكر وملاحظات الواقع؛ "إذ منذ نزل القرآن الكريم كان التأمّل في العلامة، واعتبار دلالتها بالنظر والتدبّر والتّفكّر...¹ . فكانت العلامة – عندهم – محكومة بإطار عام على أنّها "كون الشّيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر"² .

لقد جاء تصوّر مفهوم العلامة عند الأسلاف من منطلقهم العقدي الذي تركز حول الوحي، وهو ما جعلهم ينظرون إلى العالم (الكون) على أنّه علامة سيميائية كبرى، كلية، شاملة دالّة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، ومن صميم هذا التّعامل مع العلامة التقى مفهومها مع مفهوم الدليل، والسّمة، والأمانة، والقرينة. فهذا ابن فارس (ت395) يقول في معجمه في مادّة (دلّ): "الدالّ واللام أصل يدلّ على إبانة الشّيء بأمانة تتعلّمها، والدليل الأمانة في الشّيء"³ .

إنّ المطلع على المتون التراثية المختلفة والمتنوّعة التي خلفها علماء العرب المسلمين على اختلاف توجّهاتهم، يجد أنّهم عاجلوا بوعي مكين قضايا كثيرة ذات شأن، وتأتي العلامة على رأسها، فجهودهم في هذا الباب لا ينكرها إلا الجاحد. ذلك "لأنّ جلّ دراساتهم وملاحظاتهم قد بلغت درجة كبيرة من العمق والثراء. فكانت بحقّ قفزة نوعيّة ذات بال لا ترقى عنها دراسات العلامة في مطلع القرن الماضي إلّا في كونها محكومة بمنهج علمي مشفوع بإجراءات الملاحظة والتّجريب"⁴ . لقد تبوّأت العلامة اللغوية، وغير لغوية (كإشارات المرور،

¹ – أحمد حساني: العلامة في التراث، مجلة تجليات الحداثة، وهران، الجزائر، ع2، يونيو1993، ص: 30.

² – التحتاني، قطب الدين الرازي: لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار، نشرة الكردي، القاهرة، 1950، ص: 27، وينظر: عقاق قادة: في السيميائية العربية، ص: 17.

³ – أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (دلّ)، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

⁴ – عبد السلام مرسللي: تجليات التراث في الخطاب السيميائيّ عند عبد الملك مرتاض، أطروحة ماجستير (مخطوط)، ص: 107.



والأزياء، ونظام الأتعمة، والصور الأيقونية... مكانة مرموقة في الدّرس السّيميائيّ؛ لأنّها المفهوم الأساس في علم العلامات (السّيميائيّة)؛ إذ يقابل مفهوم العلامة في التّراث مفهوم الدّلالة.

إنّ جهود الباحثين المغاربيين المهتمّة بقضايا التّراث اللّغويّ والبلاغيّ نلفيها - إلى حدّ كبير - متوافقة في الرّؤية/الهدف في تعاملها مع هذا الإرث الخصب بمختلف مجالاته؛ ذلك لأنّ غالبيتهم رجعوا إلى التّراث بقناعة حدائيّة تتوسّل الحوار منهجا، تبغي من ورائه النبش فيما أثاره من مسائل لأجل اكتشاف ما يكتنزه من معارف ومعطيات تلميحية، يجدها الدّارس تلامس أو تكاد تطابق بعضا ممّا جاءت به النظرية السّيميائيّة الحديثة. وإن كان النّاطر - في هذا - يلمس مع هذا التوافق اختلافًا في طريقة المعالجة، فإنّه يعزو ذلك - ربّما - إلى الاجتهاد الفردي المشفوع بالمنهج المختار للمقاربة، وإلى ما تمّ توقّره أيضا من مادة تراثية محترمة تدعو للمدارسة. فهذا التباين - في تقديرنا - ترتّب عنه ثلاثة مواقف إن صحّ التعبير.

نلفي أولها وهو الأساس، مستأنسا بما وحده ميثوثا في ثنايا الكتب التّراثيّة، ويحقّق لهؤلاء رؤيتهم الحدائيّة التي رسموها في هذا الموروث من خلال تلك التأمّلات والملاحظات السّيميائيّة الحديثة والمعاصرة. والنظرة التقويمية لهذا الفريق، ترى أنّ ما ذهب إليه علماء العرب القدامى، يشكّل - بحقّ - إرھاصا لإمكانية تبلور ما يمكن أن نسّميه سيميائيّة عربيّة. ولعلنا في هذا المقام ندرج بعض النماذج المغاربيّة البحثية التي اهتمت بشؤون التّراث العربي، من ذلك ما قدّمه الناقد عبد الملك مرتاض من محاولات تأصيلية لبعض المصطلحات السّيميائيّة في تراثنا العربي ك(سمة/العلامة) مثلا، ممّا استأنس ببعض الممارسات السّيميائيّة المبكّرة لجهود أبي عثمان الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، وسيبويه، وابن جني، وعبد القادر الجرجاني، وغيرهم. وتستوقفنا - في هذا المقام - كذلك، دراسة مهمّة قام بها الباحث المغربي "مبارك حنون"، جاءت بعنوان (في السّيميائيّات العربيّة - قراءة في النصوص قديمة-) ¹، والملاحظ على هذه الدّراسة أنّ

¹ - نشر الباحث هذه الدراسة في مجلة دراسات أدبية ولسانية ضمن العددين: 5 و6، عام 1986. ينظر: محمد فليح الجبوري: الاتجاه السّيميائيّ في نقد السرد العربي الحديث، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 1434هـ - 2013م، ص: 137.



صاحبها "جعل من النصوص التراثية متنا لتطبيقاته"¹، حيث قاربها من منظور المنهج السيميائي، وتمثلها بما حبلت به النظرية السيميائية من أدوات ومفاهيم. لقد توصل مبارك حنون من خلال حفره في متون التراث، أنّ العرب المسلمين القدامى-على اختلاف توجهاتهم وفرقهم- قد "أبدعوا أفكارا أصيلة تتقاطع مع عدد غير يسير من أفكار أنتجتها الثقافات السيميائية الحديثة"²، على اعتبار أنّ التفكير السيميائي لدى هؤلاء انصبّ على قضايا دلالية كثيرة، باتت من صميم الطرح الحديث وما بعد الحديثي، "من ذلك (مثلا) ما قاموا به من تصنيف العلامات (يسمونها الدلائل)، سواء أمن حيث مكوناتها والعلاقات فيما بينها، أم من حيث المجالات الاجتماعية والمعرفية التي توظف فيها، أم أيضا من حيث منتجها ومستهلكها وممارسوها ومرؤجوها"³.

كما نجد الباحث أحمد حساني -في السياق نفسه-، قد رام النباش في ماهية العلامة ودلالاتها ضمن المتون التراثية بمختلف مناحيها اللسانية والبلاغية والفلسفية والدينية والاجتماعية، بما يتماشى والطرح اللساني الغربي لهذا المفهوم؛ وذلك من خلال أطروحته المتممة لنيل شهادة دكتوراه دولة⁴، أو من خلال ما نشره من بحوث حول هذه المسألة في مجالات متخصصة كمجلة (تجليات الحداثة)⁵، وغير بعيد عن هذه المسألة، تستوقفنا دراسة مغاربية محترمة أخرى لصاحبها الباحث قادة عقاق، التي عالج فيها موضوع السيميائيات في التراث العربي الإسلامي، وما من شأنه أن يتوافق مع الطرح الغربي الحديث والمعاصر. فجاء التناول معالجا لكل ما أثير من حول مسألتي العلامة واللفظ والمعنى).

¹ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 137.

² - مبارك حنون: في السيمياء العربية (قراءة في نصوص قديمة)، منشورات سليكي إخوان، طنجة، ط1، 2001، ص: 11. وكذلك ينظر: المرابط عبد الواحد: السيمياء العامة وسيمياء الأدب - من أجل تصوّر شامل -، دار الأمان، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط (المغرب)، الجزائر، لبنان، ط1، 1431هـ-2010م، ص: 31.

³ - المرابط عبد الواحد: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص: 31.

⁴ - ينظر: أحمد حساني: العلامة في التراث، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، جامعة وهران، 1999.

⁵ - ينظر: أحمد حساني: مجلة تجليات الحداثة، وهران، الجزائر، ع2، يونيو 1993.



واللافت للنظر -ههنا- فيما يتعلّق بهذا الموقف، هو أنّ جلّ الدّراسات التي تسنّى للدّارس الوقوف عندها، والتي رآها قد عنت فعلا بمسائل التّراث، وقارنته بما جدّ في ساحة النقد الأدبي، كانت للباحثين الجزائريين، ما يجعلنا نستنتج -في جانب آخر- حضورا قليلا للدّراسات المغربية، وغياب شبه التّام للدّراسات التونسية، ومرّد هذا -في نظرنا- يتجلّى في التّوجه الحدائبي للباحثين، والذي يمكننا تصنيفهم في الموقف الموالي. وهو ما فرض علينا -في هذا المقام- الوقوف عند بعض المقاربات الجزائرية كنموذج بحثي مغربي.

أمّا ثانيها، فإنّ ممثليه لم يبحثوا عن معطيات السّيميائية في التّراث العربي، وإنّما اهتموا بتعويم طروحات النظريات الحدائية وما بعد الحدائية التي تحتفي بالسّيميائية منهجا على المتون التّراثية الشعرية منها والنثرية. فلقد ألفينا بعضهم يقارب الشعر القديم (الجاهلي والإسلامي والعباسي والأندلسي)، وبعضهم الآخر يقارب الآثار النثرية منها خاصة المقامات، والنصوص الصوفية، والدينية، والحكايات من منظور النظرية السّيميائية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد من الباحثين في تحليل الخطاب الشعري القديم الناقد محمد مفتاح من المغرب، وفي تحليل الخطاب السردّي (الحكاية تحديدا) محمد الناصر العجمي من تونس، ورشيد بن مالك وعبد الحميد بورايو من الجزائر...

أمّا ثالثها، فإنّ باحثيه زاوجوا بين التّأصيل ومدارسة النصوص الأدبية التّراثية من منظور سيميائي؛ ورغم ما يشوب هذه الممارسة عدم الصفاء المنهجي، فإنّنا نرى أنّهم خاضوا تجريبا معتدلا واعيا، فهذا الصنف من الباحثين تتجاذبهم نزعتين إحداهما تراثية والأخرى حدائية، ما ترتّب عن ذلك وقوفهم موقفا وسطيا، مكّنهم من النّهل من رافدي التّراث والحدائبة. والنموذج المغربي الذي يكاد ينفرد بهذا التّوجه، يتجلّى في جهود الناقد عبد الملك مرتاض، الذي يحاول إلى جانب التّأصيل المعرفي الواعي، انتقاء بعض آليات المنهج السّيميائي المطعّمة بأدوات مناهج أخرى وتطبيقها على نصوص تراثية شعرية ونثرية كثيرة.

يسعى عبد الملك مرتاض من خلال هذا الصّنيع المساهمة في إرساء معالم مدرسة نقدية عربيّة، ترتكز على أصول وقواعد تراثية، تتواشج وتتعلق مع ما استحدثته النظريات الغربيّة.



وعليه، تغدو التجربة المترابطة - بهذا المعنى - غير مقتصرة في تحليلها للخطابات الشعريّة والسردية على المنجز من الموروث التقدي، بل تجاوزت ذلك إلى فضاءات الثقافة الغريية والتفاعل معها، والأخذ منها وتمثلها بتمكّن، ورأي "مرتاض" هو "أن نفيد من النظريات الغريية القائم كثير منها على العلم، كما نفيد من بعض التّراثيات ونهضم هذه وتلك، ثمّ نحاول عجن هذه مع تلك عجنًا مكيًا، ثمّ من بعد ذلك نحاول أن نتناول النصّ برؤية مستقلة مستقبلية"¹. وإذن، فبمراعاة خصوصيات الشعر والسرد العربيين، باتت جهود "مرتاض" موقّعة ترمي إلى تشييد مشروع نقدي، الذي أصبح المنجز منه في مجالي التّنظير والتّطبيق جديرًا بالدراسة والتحليل.

تأسيسًا على ما أوردناه، يتبيّن لنا أنّ محاولات الباحثين الجزائريين جاءت لتأصيل ماهية العلامة اللغوية في الخطاب التقديّ المغاربيّ من خلال مفهومها في التراث البلاغي العربي القديم، "لذا نجد هذا الخطاب يحرص في تعامله مع العلامة اللغوية على استلهاام التراث في معالجة النصّ الأدبي تماشيًا مع الطرح اللساني الغربي الحديث فيما يتعلّق بوجهي العلامة الدال والمدلول"²، من حيث هما وجهان لعملة واحدة؛ هذا المفهوم الذي طرحه "سوسير" في محاضراته، يرى فيه كيانا نفسيًا ينشأ من توحد الدال (*signifiant*) والمدلول (*signifie*)، وبعبارة أخرى فإنّ "سوسير" اتّخذ من هذا المفهوم بعدين متلازمين أحدهما: ذهني مجرّد، غير محسوس، ويتشكّل من (تصوّر + صورة سمعية). أمّا الآخر فهو حسّي مادّي، محسوس، ويشمل الشّيء في وجوده والأصوات (الحروف/الرموز). وعليه، ينشأ المدلول من اتّحاد التصوّر والشّيء، وبتّحاد الصّورة السّمعية والأصوات ينشأ الدال.

إنّ طرح "سوسير" حول مفهوم العلامة، جاء متأخرًا عن طرح قدماء علماء العرب، فهذا "الجرجاني" (740هـ-816هـ) يقدّم تعريفًا شارحًا فيه وجامعًا لمعناها في الثقافة الأصولية بقوله: "...والشّيء الأوّل الدال، والشّيء الثاني المدلول"³، وحسب هذا التعريف ندرك أنّ

¹ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى، ص: 12.

² - عبد السلام مرسلّي: تجليات التراث في الخطاب السيميائيّ عند عبد الملك مرتاض، ص: 107.

³ - الشريف الجرجاني: التعريفات، طبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، مصر، 1357هـ/1938م، ص: 215. وينظر:

عقّاق قادة: في السيميائيات العربية، ص: 17.



العلامة لا يستقيم مفهومها، ولا تتحقّق فاعليتها التّواصلية إلّا بتمثّل الدّال والمدلول واقترانها اقترانا مطلقا.

أمّا العلامة عند "ابن سينا" (ت:428هـ)، فهي "أنّ الإنسان قد أوتي قوة حسيّة ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، وتتأدّى عنها إلى النّفس، فترسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غابت عن الحس [...] ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذ ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النّفس معنى، فتعرف النّفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلمّا أوردته الحسّ على النّفس التفتت إلى معناه"¹. هذا التعريف لا يختلف عن تعريف "سوسير" (1857-1913)؛ حيث أنّه جعل للعلامة صورة لمسموع، وصورة لمعنى، وقد ذهب "ابن سينا" بطرحه هذا أنّ العلامة "كلّ متكامل يتحقّق إدراك الأشياء فيه عبر أشواط ومراحل، وتحت تأثير الحاجة والاضطرار"².

تأسيسا على ما تمّ طرحه، يتبيّن للدّارس وعي التّراث البلاغي العربي القديم في تعامله مع اللّغة على أنّها نظام من العلامات، وبهذا فلا ينبغي للصوت (المسموع) أن يكون صوتا معبّرًا، إلّا إذا عبّر عن فكرة أو نقلها، وإلّا فهو مجرد صوت مسموع، وإذا ما عبّر عن فكرة أو نقلها فيجب أن يكون بالضرورة جزءا من نظام تواضع عليه النّاس واتّفقوا، فيربط بين المسموع والفكرة؛ أي بعبارة أخرى هو اقتران بين الدال والمدلول. من هذا شكّلت العلامة في التّراث الموضوع الأساسي الذي تدور حوله المقاربات السيميائية في خطابنا التقديّ المغاربيّ المعاصر، سواء من حيث مفهومها أو دلالتها.

من خلال هذه الرّؤية، يغدو التّراث بما يزخر به من تعدّد وتنوّع معين لا ينضب، وجمرة لا يخبو نورها؛ إذ كلّما نفثنا فيها سطع وهجها وازدادت ضياء، يعترف منه الباحثون -على الدّوام- معارف ذات قيمة، الأمر الذي حتمّ عليهم احترام هذا الموروث والاعتزاز به دون تقديسه. وهو ما يلمسه الدّارس في تلك الدّعاوى التي يصدح بها بعض الباحثين المغاربيّين

¹ - ابن سينا، أبو علي الحسن بن عبد الله: الشفاء (العبارة)، تحقيق محمد الخضير، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، 1970م، ص.ص: 03-04.

² - مصطفى غربي: حدّ العلامة اللسانية بين التراث والحداثة، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، سيدي بلعباس، الجزائر، ع1، 1426هـ-2005، ص:249.



المولعين بالتراث. ومثالنا في هذا دائما ما يقوم به عبد الملك مرتاض، لما نجده -باستمرار وبلا كلل-، يحث نقاد العرب بضرورة العودة إلى التراث، والتّظر إليه بعين واعية؛ لأنّه أصبح "من البر أن نبحث في أمر تراث نقدنا الأدبي وننبش في التّطريات التي قد تكون واكبته، لنحاول تطويرها وتحديثها بناء على ما جدّ في سوق العصر من جديد، وبيعض ذلك يمكن أن نربط حبل الحاضر بالماضي"¹.

إنّ القلق المعرفي، وهاجس التّأصيل الذي يتملّك بعض باحثينا، أوجب عليهم التعامل مع التّراث بمنطق الاحترام، على اعتبار أنّ حدثهم منطلقها هذا التّراث. وفي محاولاتهم ربط التّراثي بالحدائي، ووصل الماضي بالحاضر، نلني بعض الباحثين المغاربيين ينوّهون في مقارباتهم بتلك الجهود التي بذلت من طرف قدماء البلاغيين العرب في الدّراسات السّيميائية، راصدين فيها أوجه الشّبه بين النّقد العربي القديم والسّيميائية كمنهج شكلاي حديث، فكانت المقارنة بين آراء "فردينان دي سوسير"، و"ش.س. بورس"، و"قريماس" من جهة، وآراء "عبد القاهر الجرجاني"، و"ابن سينا"، و"الجاحظ" و"قطب الدين الرازي"، وغيرهم، فأفضت مقارناتهم إلى وجود توافق عام عند العرب على تقسيمهم الدّلالة إلى ثلاثة أنواع: عقلية، وطبيعية، ووضعية، وهو تقسيم يقترب كثيرا من تقسيم "بورس" لأنواع العلامات حينما يصنفها في إطار بعدها الإجرائي إلى أيقونات ومؤشرات ورموز؛ حيث يرى الباحث أنّ التّنتائج التي حققتها جهود العرب في البحث الدّلالي تشكّل الإرهاصات الأولى للبحث السّيميائي².

هذه المقارنة تبرز لنا التّطلّعات الحدائيّة لعلماء العرب القدامى، من خلال نظراتهم الثّابتة في معالجة تلك القضايا التي عاصروها، والتي باتت الآن، تصبّ في صلب المواضيع الفكرية لدى الغرب. من هذا نخلص أنّ هؤلاء قد سبقوا زمانهم وتجاوزوه بأفكارهم. لكن والحالة هذه، فإنّ الأبحاث السّيميائية التي أنجزها الغرب، غيّبت الدّرس الدّلالي العربي، رغم أن التّراث الفكري العربي شكّل الحلقة المفقودة التي ربطت التّراث اليوناني بالفكر الغربي الحديث. وهو ما حدا

¹ - عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، ص: 07.

² - ينظر: رشيد بن مالك: السّيميائية بين النظرية والتطبيق (رواية نوار اللوز ل: "واسيني الأعرج" نموذجًا)، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة تلمسان، 1994م-1995، ص: 25.



بأحد الباحثين المغاربيين تبيانه. كونه يعدّ من بين الذين تشبّعوا بالنظريات الغربية، ونهلوا منها عن قرب، وأولوا اهتمامهم بالبحث السيميائيّ عند العرب؛ إذ يؤكّد قائلًا: "في البداية نذكر أنّ اهتمامنا بالبحث الدلالي عند العرب، جاء نتيجة لما قرأناه في المعاجم والدراسات السيميائية التي ظهرت بأوروبا وحاولت أن تؤرّخ للحركة الدلالية وتطورها عبر العصور، بل هذه الأبحاث لا تبدي أدنى اهتمام بما قدّمه العرب في هذا الحقل"¹.

استنادًا على ما أورده، نجد أنّ ما وقف عنده الدرس النقديّ المغاربيّ من مسائل وأطروحات تتعلّق بالبحث الدلالي العربي، والتي جاءت مبنوثة في ثنايا الكتب التراثية، يشكّل بالفعل إرهابًا يؤسّس لما يمكن أن نسميه (سيميائيات عربية). فعلى سبيل المثال نجد علماءنا قد تطرّقوا لإشكالية القصدية في العلامة والدلالة، فهذا "أبو هلال العسكري" يشير إلى العلامة بمفهومها الدلالي الواسع بقوله: "فيمكن أن يستدلّ بها قصد فاعلها بذلك أم لم يقصد، والشاهد أنّ أفعال البهائم تدلّ على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك"²، ويشترك معه في هذا الطرح "الراغب الأصفهاني"، الذي توسّع في مجال الدلالة لتشمل الفعل القصدية وغير القصدية حيث يقول: "الدلالة وما يتوصّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله، أم لم يكن يقصد"³.

يجد الدارس فيما أورده الشيخان، أنّهما تطرّقا لقضية جدّ حساسة، وهي إشكالية القصدية في العلامة، والتي احتدم الجدل من حولها كثيرًا بين اتجاهين في الفكر السيميائيّ المعاصر؛ حيث يؤكّد الاتجاه الأوّل -وهو اتجاه سيميائية التواصل- على الطّبيعة التّواصلية للعلامة، والذي يرى أنّ العلامة تتكوّن من "دال"، و"مدلول" والقصدية، وينسب هذا الاتجاه إلى كل من "أريك بويسنيس" و"بريطو" *J.L. Prieto* و"جورج مونان" *G.Mounin*.

¹ - رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية والتطبيق (رواية نوار اللوز ل"وسيني الأعرج" نموذجًا)، رسالة دكتوراة (مخطوط)، جامعة تلمسان، 1995م، ص: 11.

² - أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1963، ص: 13.

³ - الراغب الحسين بن محمد الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح. محمد بن أحمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، (د.ت.)، مادة (دلّ).



و"جان مارتيني" *G. Martinet*، حيث يركّز هؤلاء في أبحاثهم على الوظيفة التّواصلية للعلامة عن طريق اللّسان، أو غيره من الأنظمة السّيميائية أو بشرط توفير القصدية؛ "ويعني ذلك أنّ تحديد معنى تعبير رهين بتعيين مقاصد المتكلّمين والكشف عنها"¹. أمّا الاتجاه الثّاني -وهو اتجاه سيميائية الدّلالة- نجده يركّز على الجانب التّأويلي للعلامة، ومن أبرز ممثليه "رولان بارث" *R. Barthes*، "جوليا كريستيفا"، "إميل بنفنيست". وهؤلاء يبحثون في مدى "قابلية العلامة للتّأويل الدّلالي بالنسبة للمتلقّي"².

وغير بعيد عمّا ذكرناه، فإنّ البلاغيّين العرب أدركوا طبيعة العلاقة بين الدّال والمدلول، وسبقوا بذلك سوسير في معرفتها؛ وهي تلك العلاقة الاعتباريّة غير المعلّلة؛ حيث أنّ عبد القاهر الجرجاني تعرّف عليها، والفضل في ذلك هو إمامه المعرفي الكبير والمتشعّب، وتمكّنه العميق من اللّغة. كلّ هذا سهّل عليه الأمر في اكتشاف تلك العلاقة القائمة على التّواضع والاتّفاق، كما جعله يتفطن لتلك العلاقات التّحوية والسّياقية والمجازية التي يتميّز بها الدّال اللّغويّ في علاقاته بمدلوله، وبالتالي مكّنه اشتغاله في هذا الاتجاه من اكتشاف نظريّة النّظم، التي أحدثت بعده وقعا في الدّرس اللّغويّ وفي الأبحاث الدّلالية واللّسانية في العصر الحديث؛ حيث يقرر أنّ القرآن الكريم يكمن إعجازه في نظمه وطريقة تركيبه وتأليفه على نحو عجز العرب أن يأتوا ولو بسورة من مثله، ولعلّ طريقة التّركيب هي معرفة دور الألفاظ كونها علامات ذات دلالات تتفاوت قيمتها وجماليتها في بنية الجملة، "...فإنّا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع، وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنّما كان ذلك؛ لأنّ المزيّة التي من أجلها نصف اللفظ [...] من بعد أن يدخلها النّظم..."³. ويلتقي الجرجاني مع سوسير في وصف اللّغة كبنية من العلامات بقوله: "إنّ اللّغة تجري مجرى العلامات

¹ - عبد الله إبراهيم و(الغانمي سعيد، علي عواد): معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج التّقدّية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص: 17.

² - أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، (مبحث صوتي، مبحث تركيب، مبحث دلالي)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م، ص: 140.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح. محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط2، 1407هـ-1987، ص: 363.



والسّمات، ولا معنى للعلامة والسّمة حتى يحتمل الشّيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه...¹. يبدو تعريف الجرجاني للعلامة أوسع وأشمل من دلالة العرف اللّغويّ، فنحن إذًا، أمام نظرية نقدية، لا تقلّ عن نظرية سوسير اللّسانية التي اجتمعت لها تراكمات معرفية وخبرات علمية، هيأت لها الأرضية لترقى إلى نظرية، من هنا فالجرجاني يبني تفكيره اللّغويّ بعده اللّغة مجموعة من العلاقات لا مجموعة من الألفاظ؛ لأنّ المعنى لا يتحقّق فعلاً إلاّ في وجود نظام أو شبكة من العلاقات، وهذا ما نسميه النّظم.

لقد شكّلت نظريّة النّظم معينا لا ينضب؛ بحيث لا يزال النّقاد العرب عامّة، والمغاريّون منهم خاصّة يمتحون منها لمقاربة مفهوم العلامة. وهذا ما فتح الباب على مصراعيه أمامهم لنبش التّراث واكتشاف ما فيه من درر معرفية ومقارنتها بمستجدات السّاحة النّقديّة الغربيّة، ولعلّ النّاقِد "عبد المالك مرتاض" كان ولا يزال يمارس نشاطه النّقديّ اعتماداً على ما يغتفره من الذاكرة التّراثيّة وعلى ما يتلقّاه من مقولات ونظريّات غربيّة، وهو ينقّب عن الجذور السّيميائيّة في التّراث؛ حيث يرى "أنّ كثيراً من النظريات النّقديّة الحديثة نلّفي لها جذورا وأصولا، أو على الأقلّ إشارات وإرهاصات في الفكر العربيّ القديم"²، وبالتالي فنحن "في نهاية الأمر لم ننطلق من الصّففر، وإنّ الأدب العربيّ أحد الآداب العالميّة الكبرى، ويعسر أن نتناول مفهومها حدثياً ولا يصادفنا منه شيء فيه"³.

وغير بعيد عن هذا، فإنّ "الجاحظ" يعدّ من البلاغيّين الذين أسهموا في إرساء قواعد واضحة للتّعامل مع سيميائيّة العلامة، فلقد جاءت مقارنته لمفهوم الدّلالة اللّغويّة وغير اللّغويّة برؤية واضحة، فقد "عدّ خمسة أصناف من العلامة هي: اللفظ، والإشارة، والعقد، والخط، والحال أو التّصبة"⁴، وكما عدّها، قدّمها بوضوح وبطريقة تعليميّة حاسمة في كتابه "البيان

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982، ص: 325.

² - ينظر: عبد الملك مرتاض: (أ، ي)، ص: 10.

³ - عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة، قراءة القصيدة، ص: 42.

⁴ - عبد الجليل منقور: علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص.ص: 121-122.



والتبيين" بقوله: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخط، ثمّ الحال التي تسمى النّصبة، والنّصبة هي الحال الدّالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقتصر على تلك الدلالات، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صاحبها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثمّ عن حقائقها في التّفسير"¹.

إنّ دلالة هذه المصطلحات في تصنيف الجاحظ تتقاطع كثيرًا مع ما ذهب إليه المشتغلون في البحث السيميائي، حيث أنّ:

1- اللفظ: هو أداة تعبيرية عن المعاني بواسطة الصّوت، وهي لدى "الجاحظ" علامة لغوية قد تواضع عليها أفراد المجتمع اللّغويّ الواحد واتفقوا، وتجد ما يقابلها من مصطلحات البحث السيميائيّ المعاصر، فهي تتكوّن من اتحاد دال ومدلول؛ أي اقتران الصّورة السّمعية بالصّورة الدّهنية.

2- الإشارة: يقصد الجاحظ بهذا الصّنف، تلك الإشارات أو الحركات، أو الإيماءات الدّالة، والتي تكون باليد والرأس والعين والحاجب؛ فهي إذن، تقترب من المصطلح المعاصر (*signal*)²، حيث ترتبط دلالتها بدلالة الملفوظ اللّغويّ إذا ما صاحبت الكلام، أمّا إذا انفصلت عنه، فتكون بذاتها، نظرًا لطبيعتها الدلالية وقدرتها على التّوصيل.

3- العقد: يقصد به الجاحظ تلك الحركة التي تتمّ بأصابع اليد، التي تعني الاتفاق والموافقة على أمر ما، أو هي الحساب بدون اللفظ والخط، ويقابله المصطلح الحديث الرّمز (*symbole*) وله "دلالة مباشرة في إيصال المعنى إلى المتلقي، تمامًا كما اللفظ والإشارة"³.

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق د. علي أبو ملحّم، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، المجلد 1، ط 1، 1408هـ- 1988م، ص: 82.

² - ينظر: عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، الجزائر، ع 2، يونيو 1993، ص: 19.

³ - قادة عقاق: في السيميائية العربية، ص: 37.



4- الخط: وهو في عملية الكشف والبيان أوسع دلالة؛ إذ أنّه أبقى أثرًا، وأوسع انتشارًا، ذلك بأنّ "اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الرّاهن"¹. ويقابل الخط مصطلح الكتابة *Ecriture*.

5 - النّصبة: هي هيئة دالة على نفسها من غير وسيلة، ولا واسطة؛ "فهي الحال النّاطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السّموات والأرض، وفي كلّ صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن وزائد وناقص"².

نستخلص من قول الجاحظ أنّ النّصبة ماهي إلّا المعنى، إلّا أنّها تختلف عن غيرها من الدّلالات؛ كونها لا تتركّب من دال ومدلول؛ لأنّها "الوضعية التي تكون عليها الأجسام، والتي بفضلها يتوصّل الإنسان إلى استخراج المعنى الذي يكمن فيها"³، وبالتالي فهي الوضعية التي تقوم مقام الأصناف الأخرى كاللفظ أو الإشارة وغيرها. فمن خلال ما سبق نلاحظ أنّ "...التّصنيف الذي اعتمده الجاحظ للعلامات اللّسانية المحتملة في محيط الإنسان، يدلّ على إدراك واع بالجمال الدّلالي للوسائط التي يستخدمها الإنسان للتّعبير عمّا في ضميره من جهة، وحصول المعرفة والبيان بإنباء الأشياء عن نفسها من جهة أخرى"⁴.

¹ - أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ص: 85.

² - م ن، ص: 86 .

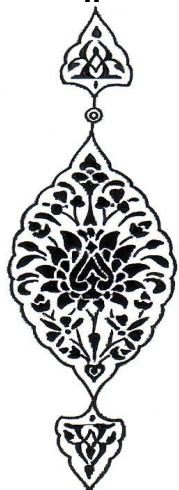
³ - محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994، ص: 77.

⁴ - أحمد حساني: العلامة في التراث العربي، رسالة دكتوراه (مخطوط)، جامعة وهران، 1999م، ص: 171.

المبحث الثاني

العلامة في الدرس

السِّيَمَاءِي المَغَارِبِي.





- العلامة في الدرس السيميائي المغربي:

1 - تأصيل العلامة في الدرس السيميائي المغربي:

تعتبر إشكالية تأصيل المصطلح السيميائي في طليعة انشغالات الناقد عبد الملك مرتاض، وأولى هذه المصطلحات نجد (السّمة)؛ وهي فيما ذهب إليه مجرد إشارات أو ألفاظ أو عناصر منعزلة. لقد عرف هذا المفهوم في ثقافتنا الإغريقية والعربية، وتعاملوا معه في جملة من المظاهر "أهمّها الإشارة، واصطناع اللّون، وإقامة الطّقوس المتمخضة لممارسة الشّعائر الدّينية، والتّعبير عن مناسبات الأفراح، وإبداء التّأمّل والتّوجع لدى حدوث الأتراح"¹.

فمن خلال تنقيب عبد الملك مرتاض عن المعنى المعجمي لمفردتي "السّمة" و"العلامة" وجد "السّمة" (*signe*) آتية من مادة (و س م)، والوسم هو إحداهن تأثير أو علم: بكّي، أو وشم، أو قطع... و "كلّ ما يجري من هذا التّركيب يدلّ على إحداهن علامة تعتدي صفة بادية للعيان-عارضة أو دائمة- في صفحة سوائها"².

أمّا مفردة (العلامة) فهي مأخوذة من مادة (ع ل م)، وهي آتية "من (العلامة والعلم). بمعنى الجبل، ومنه أخذوا الثوب لدى القصار حتى تتميز الأثواب بعضها عن بعض"³. وعلى الرّغم من استخلاص أوجه الاختلاف من قبل عبد الملك مرتاض وإقراره بأنّ التّركيبين (وسم- علم) متقاربان في الأصل العربي، وعبر المعاجم المؤسّسة، فإنّ ترجمة المصطلح الأجنبي (*signe-sign*) إلى العربية تباينت بين النّقاد والسيميائيين العرب واستعصى الأمر عليهم، "فإذا منهم من يسطع (السّمة) وهم قليل، وإذا منهم من يسطع (العلامة)، وهم خلق كثير، بل ألفينا منهم من يستعمل (الدليل) مقابلاً للمصطلح الأجنبي، والاستعمال الأخير مزعج إلى حدّ الإيذاء، ومحيّر إلى درجة السّمود"⁴.

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، ص.ص: 146-147. وينظر كذلك: عبد الملك مرتاض: بين السّمة والسيميائية، تجليات الحداثة، ص: 10.

² - م ن ، ص: 147.

³ - م ن، ص ن.

⁴ - م ن، ص: 149.



ولقد أحصى الباحث "مولاي علي بوخاتم" النقاد والسيميائيين العرب الذين دعوا إلى التسوية بين التّركيبين (وسم-علم) في معجم "بسام بركة" و"معجم رشاد الحمزاوي"، والنقاد الذين آثروا مصطلح "العلامة" ك: "محمد مفتاح" و"عبد السلام المسدي" و"سيزا قاسم" و"نصر حامد أبو زيد". أمّا النقاد الذين آثروا مصطلح "دليل" فمنهم: "محمد بنيس" و"حنون مبارك" و"عبد القادر الفاسي الفهري"¹. والناقد عبد المالك مرتاض يخالف هؤلاء جميعا مصطنعا مصطلح (السّمة) تحت جملة من المبررات وهي:

1- إنّ "العلامة" استعملت في الفكر النّحويّ العربيّ بمعنى لاحقة تلحق فعلا من الأفعال، أو اسما من الأسماء -دون الحروف- فيستحيل من حال إلى حال أخرى للنّهوض بوظيفة دلالية يقتضيها المقام، ولعلّ اصطناع ذلك المصطلح النّحوي في أصله في المفاهيم السيميائية، على عهدنا هذا، قد يزيد هذا الأمر اضطرابا والتباسا.

2- يبدو لنا، ولو من باب الحاسة الدّوقية فقط، من خلال تلقّي المعنى المتولّد عن اصطناع "السّمة"، أنّه أدنى ما يكون إلى ما يُطلق عليه السيميائيون الغربيون مصطلح (*signe*)، من مصطلح "العلامة" الذي ربّما انصرف إلى المعنى المادي فتمخض له.

3- إنّ إطلاق "السّمة" على مفهوم (*signe*)، عوضا عن مصطلح "العلامة" ولنكرّر -سيحلّ لنا مشكلة أخرى من مشكلات المصطلح- وهي أنّنا، حينئذ، نمحّض مصطلح "العلامة" لمفهوم آخر قريب منه وهو ما يُطلق عليه في الفرنسية (*La marque*)².

لقد تحدّد الاقتراح الذي طرحه الناقد في العنصر الثالث، لما صادفته مشكلة ازدواجية المصطلح في موقف واحد في الاستعمال الغربي: (*marque- signe*) لما قام بترجمة مقالة عن الأصول السيميائية في فكر "ش.س. بيرس" (1839-1914) إلى العربية، فقد لفت انتباهه ارتباط السمة لدى "بورس" *ch.s. pierce* "بشبكة من المفاهيم والعلاقات الثلاثية الأطراف يقيمها على عشرة مبادئ، كلّ مبدأ يتأسّس على ثلاثة فروع كالعلاقة التي تنهض بين

¹ ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغربي، ص.ص: 124-125.

² - عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، ص.ص: 148-149.



الأساس والسمة"¹، هذا التصنيف العام للسمات أقامه "بورس" من وجهة فلسفية، فتوزعت من خلاله السمة إلى فئات (مبادئ)، "هي نتاج توزيع ثلاثي ينطلق من ثلاث زوايا نظر: العلامة في ذاتها، والعلامة في علاقتها بموضوعها، والعلامة في علاقتها بالمؤول"²، ولعلّ ما استخلصه عبد الملك مرتاض من تلك العلاقات (التوزيعات)، هو ما يمكن أن ينضوي تحت مظلة العلامة (السمة) في ذاتها، وهي :

- السمة الوصفية (النوعية) " *Quali signe* "
- السمة الفردية (المفردة) " *sin singe* "
- السمة العرفية (المعيارية) " *légi signe* "

هذا، وقد تناولها من جهة صلتها باللغة ودلالاتها، حيث رأى أنّها تعادل الرمز (*Symbole*) والقرينة (*Indice*) والإشارة (*Signal*)، وهو ما يمكن أن يدرج في زاوية السمة في علاقتها بموضوعها. وهي نقطة لمس فيها الدكتور مولاي علي بوخاتم شيئاً من الاضطراب في رؤية الناقد عبد الملك مرتاض لدى ترجمته مصطلح السمة إلى مصطلح يعادلها وهو القرينة، كما أنّه لم يقف عند هذا الحدّ بل أضاف لمصطلح القرينة في ثقافة "بورس" مصطلحين اثنين هما: المؤشر والعلمية³. وما يراه الناقد كذلك، هو أنّ مصطلح "السمة" في الفكر السوسيري يقبل بمبدأ وجود اختلاف جوهري بين الدال والمدلول، من ذلك فاللغة في نظره "نظام من الاختلافات"⁴ أساسها السمة من حيث هي دال يثير في الدّهن مدلولاً.

إنّ محاولة عبد الملك مرتاض في تحديد طبيعة المصطلح عبر محور الحداثة؛ أي تحديدها من منظور "بورس" الفلسفي، ومن منظور "سوسير" اللغوي جعلته يتوصّل إلى أنّ اللّغة ما هي إلاّ

¹ - عبد الملك مرتاض: المرجع السابق، ص: 149.

² - أمبرتو، إيكو: العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، وراجع النص: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1428هـ-2007، ص: 109.

³ - ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغربي، ص: 125.

⁴ - عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتفكير، من البنيوية إلى التشرحية (*déconstruction*)، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1405هـ-1985م، ص: 30.



نظام من السمات. لم يتوقف الناقد عند هذا، بل عاد يحفر عن ماهية المصطلح (السمة) ودلالاتها عبر محور التراث، وإنّ كان الفكر العربي لم يتعامل مع السيميائية كنظرية مؤسسة كما عرفها الفكر الغربي المعاصر، لكن علماء العربية قد لامسوها في كتاباتهم المبثوثة هنا وهناك في ثنايا كتبهم، كما مارسوها عمليا في حياتهم الاجتماعية كوسم الإبل مثلا، والناقد بهذا الصنيع يحاول أنّ يكسب الشرعية لبحثه، فتناول ماهية "السمة" ودلالاتها من منطلق رؤية الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني.

فقد لاحظ أنّ "الجاحظ" حينما حصر الدلالة السيميائية في كتابه "البيان والتبيين" -والتي سبق وأنّ تطرقنا لها- أنّه ربط الدلالة باللّغة السيميائية، كما ربط السمة باللّغة على نحو ما، في أثناء حديثه عن نظرية "البيان" ونظرية "الإرسال" وقد استدّل الناقد بشرح "الجاحظ" لنظرية الإرسال والاستقبال معاً بقوله: "فيرى -يقصد الجاحظ- أنّ الله جعل اللّفظ للسمع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد، إلّا بما فضّل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر اللامس. وجعل الخطّ دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولا بينه وبين أعوانه (...). ولم يجعل للشّام والذائق نصيباً..."¹.

يرى عبد الملك مرتاض في حديث "الجاحظ" التفاتة حدائية؛ لأنّه يتحدث بوعي معرفي بخصوص أنواع التبليغ السيميائي؛ حيث أنّه جعل السمة اللّفظية (المنطوقة) أداة للاتصال بالسمع (المتلقي أو المستقبل)، فهي سمة مرقونة، والخطّ (الكتابة) سمة حاضرة دالة على سمة غائبة وهي المعنى، في حين جعل سمة الإشارة للناظر والمعروفة عند الناقد بالسمة البصرية²، من هذا فهو يعدّ الإشارة واللّفظ متكاملين للدلالة لأتهما "...شريكان ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخط"³.

أمّا "عبد القاهر الجرجاني"، وحسب الباحث فقد آثر اصطناع مصطلح السمة على مصطلح العلامة، وقد تناولها من منظور لغوي دلالي خالص عندما علّق على هذا التّركيب

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، ص: 167 .

² - ينظر: م ن، ص ن.

³ - ينظر: أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص: 55 .



التّحوي "زيد خارج" من الوجهة الدّالية والمدلولية له بقوله: "فما علقنا منه - وهو نسبة الخروج إلى زيد- لا يرجع إلى معاني اللّغات، ولكن إلى كون ألفاظ اللّغات سمات لذلك المعنى، وكونها مُراداً بها¹، من خلال قول "الجرجاني"، يرى مرتاض أنّ الشّيخ "يجعل هنا السّمة لفظاً دالاً على معنىّ يجيل عليه في الخارج، وقد لحّن إلى أنّ سيميائية التّواصل بين النّاس باستعمال مصطلح السّمة، وأنّها مساوية للألفاظ، بل أمانة على معانيها"². إلى جانب هذا، فقد اصطنع الشّيخ مصطلح "الإشارة" لما جاء بمثال "خذ ذاك" وهذا التّركيب كما يراه الباحث عبد الملك مرتاض عبارة سيميائية اختزلت عالماً واسعاً من المعاني، "ولقد يعني هذا الملفظ، كما هو واضح، الاستغناء عن التّواصل باللّغة التي قد يكون الالتحاد إليها في مثل هذا الموقف مضيقاً للوقت، ومفسدة للجهد، ففزع المرسل إلى اصطناع لغة الإشارة، لا لغة الألفاظ، فأفهم وحسّم"³.

وبناء على ما ورد ذكره، وأمام تعدّد الاستعمال لمفهوم (علامة، أو سمة، أو دليل، أو أمانة أو إشارة) في مدوّنات نقادنا، يكون حقل البحث في مشهدها النقدي المغربي قد توسّع في ضوء هذه الآراء النقدية المتصلة بإشكالية مفهوم العلامة، ودلالاتها لتشمل جهوداً متضافرة، طرحت لنا مؤلفات كثيرة، حوت في متونها أطروحات النّظرية الشّكلانية التي جعلها الخطاب النقدي المغربي قاعدة لتأصيل النّظرية السيميائية المعاصرة، وهو أمر دفع ببعض نقادنا إلى قراءة التّراث بفكرٍ حديثي. ولما كان التّراث متعدّد المجالات ومتنوع الاتجاهات، فقد تعدّدت المقاربات بين اللّغة والتّقد، والبلاغة والعلوم الدّينية، وشكّلت هذه الدّراسات تجارب جزئية متنوّعة تهدف إلى اكتشاف الرّوابط الخفية بين مجالات الفكر التّراثي وصولاً إلى وحدته⁴؛ لأنّ التّراث العربي على تعدّده وتنوّعه، يظلّ منظومة فكرية موحّدة.

من هذا ندرك، أنّ القراءة مهما كانت واعية ومتخصّصة في وقتنا الرّاهن، تعتبر جزئية وقاصرة في تحديد مفهوم العلامة (السّمة) التّراثية، واكتشاف مدلولها الحقيقي؛ لأنّه ليس

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 416، وينظر: عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، ص: 169.

² - عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، ص: 170.

³ - م ن، ص: 170.

⁴ - ينظر: نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التّأويل، ص: 05.



من السهولة بمكان تناول العلامة (السمة) في كلّ هذا التعدّد والتنوّع. والسبب في رأينا يعود إلى أنّ كتباً تراثية كثيرة لم تحقّق بعد، إمّا لاندثارها، وإمّا لاحتكارها من طرف المكتبات العالمية الاستعمارية، وهذا عائق منيع يقف في وجه خطابنا النقدي، ولو تسنّى لباحثينا ونقادنا جمع ما اندثر منها، وعالجوه، وأضافوا له ما حقّوه، لأصبح تراثنا اللغوي كلّ نظاماً من العلامات (السّمات) اللغوية، يكون فيه "الدال" و"المدلول" وجهين لحقيقة واحدة، حيث التراث هو "الدال" ومدلوله هو بنية نظامه الثقافي.

ويعدّ "مرتاض" واحداً من بين النقاد المغاربة الذين تبنى منهجاً شمولياً في تعامله مع العلامة (السمة)، يجمع فيه بين إيجابيات الحداثة والتراث، محاولاً الإفادة من القطبين للحديث عن سيميائية العلامة (السمة) وتصنيفاتها المختلفة. فقد قام هذا الناقد عبر محوري الحداثة والتراث من تحديد مفهوم السمة بنوعيتها اللسانية وغير اللسانية، وراح يسوق جملة من الأمثلة من خلال معالجته لبعض النصوص الأدبية (الثّرية والشّعريّة) ضمن بعض التّماذج من كتبه ك: تحليل الخطاب السردّي لرواية "زقاق المدق" من منظور منهج مركّب تفكيكي سيميائي، وألف ليلة وليلة، الذي عالج فيه حكاية "حمال بغداد" من منظور منهج مركّب سيميائي تفكيكي، و(أ/ي)، الذي قارب فيه نصاً شعرياً "أين ليلاي" من منظور منهج مركّب سيميائي تفكيكي، وشعرية القصيدة القصيدة القراءة، دارس فيها قصيدة أشجان يمانية من منظور منهج مركّب سيميائي تفكيكي.

- فكيف استطاع "عبد المالك مرتاض" تناول العلامة (السمة) في مقارباته؟.

سوف نختار نموذجين من تحليلات الباحث لهذه الدراسة، أحدهما يتناول نصّاً شعريّاً، والآخر يتناول نصّاً سرديّاً.

- التّموذج الأول: العلامة (السمة) في النّص الشعري:

لقد قام الناقد في كتابه (أ/ي) بمقاربة النّص الشعري "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة بغية "الكشف عمّا يمكن أن يكون فيه من الخفايا والكوامن، بتفكيك بناءه الداخلي وملاحظة



الشّفرات والعلامات التي تطبع لَعته، وتحدّد دلالاته وتتحكم في خطابه"¹. والذي يلفت انتباه القارئ عنوانه الغريب؛ الذي لم يحدث - في حدود اطلاعنا- أن اصطنع باحث عربي مشرقيا كان أم مغاربي عنوانا مثله، وهذه من بين ميزات "عبد الملك مرتاض" الطامحة دوما وبلا كلل للتفرد، فتراه لا يستأنس بما هو موجود من دون مساءلته ومراجعته؛ ليتحدّد له من بعد ذلك قبوله كما هو، أو مخالفته، أما هذا العنوان الذي شكّله، وإن كان متناصا فيه مع عنوان (s/z) لـ"رولان بارت"، فإنّه يمثّل عتبة نصية، وسمة دالّة من حيث بنيته وإنتاجيّته، وطاقته الرّمزية، وكذا حملته التّعبيرية. الأمر الذي دفع "مرتاض" من أنّ يتخذ من عنوان كتابه (أ/ي) سمة دلالية سيميوطقية رامزة؛ لأنّ الرّمز هو سمة السّمات؛ "أي العلامة التي تنتج قصد النّياية عن علامة أخرى مرادفة لها..."² من هنا كانت قراءة "مرتاض" للعنوان تأويلية، فتساؤل الشّاعر عن "ليلاه"، دفع بالنّاقد للبحث عن الرّمز (سمة السّمة) المتمثّل في "ليلي"، والحديث عن ليلي في نص شعري عربي في هذا السّياق يعني أسطرته"³؛ لأنّ "ليلي" لها دلالة عميقة في التّراث وتعني ليلي/الأسطورة، ليلي/التاريخ ومن خلال هذا العنوان خلّص "مرتاض" إلى أنّ النّص تحكّمه شبكة من العلاقات والمعطيات والقيم، حيث تتجلى لنا تلك العلاقة الفاعلة بين موضوع النّص الشعري والشّخصية الشعريّة والمتجسّدة في عنصر الحرمان⁴.

لقد تبين للنّاقد -وهو يرصد ما ورد في النّص من سمات لسانية للبحث في دلالاتها- أنّ تكرار السّمة "ليلي" إمّا كمفردة أو كضمير يعود عليها على لسان الشّاعر، فهو لم يتوقف عن طرح الأسئلة الحيرى عن "ليلي" رمز الحرية، وكأثما شيء بعيد المنال، فيخيم عليه اليأس والانكسار. وفي هذه النّقطة يستحضر النّاقد قول الشّاعر:

لَمْ يُجِنِّي سِوَى الصِّدَى ** أَيْنَ لَيْلَايَ ؟ أَيْنَهَا ؟

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 34.

² - الحبيب مونسي: القراءة والحداثة، (مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص.ص: 233-234.

³ - عبد الملك مرتاض: م س، ص: 96.

⁴ - ينظر: نور الدين السّد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للنشر، الجزائر، ج 2، 1997، ص: 136.



والواقع أنه يستخلص من معنم "الصدى" سمة صوتية يُمثل فيها السّمع وحده الأداة الواسطة بين الشّيء المسموع، والشّيء المنبثق عنه، في تكوين الإدراك وهُنا "العلاقة المدركة لها هي سمع الشخصية الشعريّة، أمّا الفاعل أو العالم الخارجيّ، أو صاحب الصوت، وهو هنا، على كلّ حال، غير حقيقيّ، فلا نعرفه، ولكنّ "الصدى" كان سمة له استطاع أن ينقله من حال الغياب إلى حال الحضور"¹. ودلالة "الصدى" في الشّعْر من المنظور السيميائي تأتي لتعبّر عن موقف يمتزج فيه الوهم واليأس والخيبة، وهذا ما يفسّر لنا خيبة أمل الشّاعر في العثور على ليلاه (الحرية).

إنّ سعي الناقد "عبد المالك مرتاض" إلى تحليل النّصوص، وفق الإجراءات السيميائية والتي أهمها "السّمة" (العلامة)، كان الهدف منها تلطيف الذّوق العربي في فهم الظاهرة الشعريّة. وعليه، استحالت السّمة (العلامة) في التّراث، مفهوماً ودلالةً إلى قطب منير، تهتدي به القراءة السيميائية في الخطاب التقدي المعاصر.

2- النموذج الثاني: العلامة (السمة) في النصّ السردّي:

لقد قارب الناقد "عبد الملك مرتاض" حكاية "حمال بغداد"؛ وهو نصّ سردي مأخوذ من رائعة "ألف ليلة وليلة"، والتي شغلت حيّزاً زمنيّاً مقدراً بعشر ليال؛ أي من اللّيلة التاسعة إلى اللّيلة التاسعة عشر، على ضوء منهج مركب سيميائي-تفكيكي، يهدف إلى تحديد المميزات اللّسانية والسيميائية والتفكيكية للنّص من خلال دراسة وحداته الخارجيّة المشكّلة لعلاميتها، بدراسة نسيجه اللّغوي وتشريحه من حيث الحدث والشّخصيات والحيّز والزّمن وتقنيات السرد وبنية الخطاب والمعجم الفنّي؛ كي يتسنى للباحث تحديد الرّؤية وبناء التّائج المترتبة عن المقاربة.

يجد الدّارس في هذا المنجز أنّ عبد الملك مرتاض قد حدّد رؤيته، وخرج بنتائج تدحض بعض المسلمات، التي كانت ترى أنّ حكاية "ألف ليلة وليلة" انصهار لثقافات العرب والهند والفرس وشعوب لا حصر لها. وأنها مجهولة المؤلّف، وأنّه- أقصد مؤلّفها- يكمن في الذّاكرة الجمعيّة للشّعوب، ليثبت طابعها العربيّ الخالص من حيث واحديّة مؤلّفها، فهو "بغداديّ الدّار، رشيديّ العهد، عربيّ الثّقافة، وطنيّ النّزعة، كأنّه كان مندسّاً في بعض قصور هارون الرّشيد، حتّى كأنّ هذه

¹ - عبد الملك مرتاض: شعريّة القصيدة قصيدة القراءة، ص: 235.



الحكايات إنّما كانت ضرباً من الدّعاية العظيمة لشخصية هارون الرّشيد وحلمه وكرمه وتواضعه وعدله وظرفه وأدبه فمعظم الحكايات تنطلق من مدينة بغداد وتنتهي إليها...¹. وانطلاقاً من تتبعه ألفاظ/سمات الحكاية من بداية السرد إلى نهايته، لاحظ الناقد انشغال ذهن السارد بتكرار ألفاظ (سمات دنيا)، وعبارات بعينها (سمات مركبة)، لا يكاد يجيد عنها في مواقف عاطفية وفكرية متشابهة، وقد جاءت هذه الملاحظة "بطريقة تشبه المصادفة في بداية الأمر ثمّ بدافع حبّ الاستقراء والتّطلع المعرفي الخالص"²، لذا تساءل طويلاً عن كيف يتعدّد هؤلاء المؤلفون، وتتّوحد اللّغة الفنية للسرد؟ بتكرار عبارات بعينها من بداية السرد إلى نهايته، وتتّوحد المواقف، وتشابه الشخصيات على امتداد الليالي واختلافها³، وأمام هذه الأسئلة ينتهي إلى إثبات الوحدة السردية التي تميّز الحكاية بدحض فكرة تعدّد المؤلفين، وحصر معالم الوحدة الفنية كما يلي:

- الشكل السردى (البناء العام للحدث) .
- وحدة اللّغة الفنية واتفاق أسلوبها لدى الوصف، وذكر المواقف التاريخية أو العاطفية المثيرة .
- ترداد عبارات منذ بداية السرد إلى نهايته .
- غطرسة الشخصيات والأدوار .
- بياض الحدث والجنس في النصّ الحكائي .

إنّ هذه النتائج التي استوحاها الناقد من حكاية "حمال بغداد"، تشكّل نموذجاً تقاس عليه جميع "حكايات ألف ليلة وليلة"، وإن كان كذلك، فهي جزء من نظام ثقافي عام، لا يمكن فصلها عن أنماط السلوك والتّصورات الخاصّة وبنية الأمكنة والأزمنة، وكلّ ما يدخل في تشكيل هذا النظام، فتغدو مدلولاً (*signifie*) متحوّلاً عن طريق السّمطقة*⁴ إلى نسق لغوي دال (*signifiant*).

¹ - عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ص: 232 .

- عبد الملك مرتاض: م ن، ص: 230. ²

³ - ينظر: م ن، ص: 231.

⁴ - "السّمطقة" (*semiosis*): تعني "عملية التّوليد المعنى المجازي" أو كما يعرف ب: "التّوليد السيميائي"، ينظر: شولز روبرت: السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص: 244. ينظر كذلك: أمبرتو إيكو: العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، ص: 46.



نلفي أنّ النّاقِد "عبد المالك مرتاض" - من هذا المعطى -، على وعيٍ معرفيٍّ تامٍّ بخصوص تحوّل نصوص هذا الأثر التّراثي من أنظمة لغوية (سمّات دنيا ومركبة) إلى أنظمة دالة أو سمات كبرى (سمّات الخطاب)، منتقلة من دال اللّغة إلى مدلول الثقافة؛ إذ أنّ الدّلالة لا تُنتج من الألفاظ/السمّات، ولا من التّراكيب/التّحو وحدها، بل تُنتج من خلال تحويل "الدّلالة الكلية، النّاتجة عن تفاعل دلالات الألفاظ، وعلاقات التّركيب إلى "عملية كلية" تميل إلى دلالة أخرى"¹، ذلك أنّ نصوص هذا الأثر التّراثي توارثها العرب جيلاً بعد جيل في شكل مخطوط، والخط أو الكتابة، ما هو إلى سمة تبليغية، وكما سبق وعرفنا، فقد اعتبرها "الجاحظ" مظهرًا سيميائيًا يتمّ بواسطته التّواصل والتّفاهم بين النّاس على تباعد الزّمان وتناهي المكان². وحديث "الجاحظ" عن سمة الخط - كما يراه النّاقِد - جاء متقدّمًا عن حديث النّظريّات الغربيّة بخصوص سيميائية الكتابة " *La sèmiologie de L'écriture* " بقرون من الزّمان³.

والنّاقِد ههنا، ومن خلال ثقافته التّراثية المكيّنة، وتشبّعهُ بأطروحات النّظريّات الغربيّة، استطاع تحديد سيميائية الخط حيث يرى أنّه "... في أيّ صورة اعتبرتّه فيها؟ أو صرفته إليها كان سمة (*signe, sign*). وقد يختلف صنف هذه السّمة بحيث يمكن تصنيفها في صنف المماثلات (*icones*) [...] أو في صنف المؤشّرات أو القرائن (*indices*)، بل وربّما في صنف الإشارات (*signaux*) أيضًا فكل ممكن"⁴. في حين يبقى ما قام به النّاقِد "عبد المالك مرتاض" - حسب أحد الباحثين - من تعديلات وإضافات لا يكاد يتجاوز شرحًا لفكرة غامضة لدى النّقاد الغربيين، أو إعادة صياغتها بلغة ولمسة عربيّتين، وإمّا أنّ هذه الفكرة تناولها الأجداد في تراثها العربي فأراد أنّ يُحييها⁵؛ أي أنّ اجتهادات النّاقِد ما هي إلاّ شرح ومحاكاة، وهي نظرة نحسبها قاصرة، لأنّ مرتاض - والحال هذه - ما كان له طرق باب النقد لولا ثقافته المزدوجة بالإضافة إلى ذائقته النقدية التي

¹ نصر حامد أبو زيد: السلطة، النّص، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2000، ص: 217.

² ينظر: عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، ص: 111 .

³ ينظر: م ن، ص: 113.

⁴ م ن، ص ن.

⁵ ينظر: بن علي خلف الله: النقد السيميائي في الجزائر - اتجاهاته وأصوله - (مخطوط) رسالة ماجستير، جامعة سيدي بلعباس، 2007 - 2008، ص: 52.



بواسطتهما استطاع قراءة التراث وغربلته من ناحية، والاطّلاع على منجزات العقل الغربي وإعماله من ناحية أخرى، فلقد تأتّى له بفضل ذلك إحياء قضايا تراثية كثيرة كانت مدفونة في بطون الكتب، ومناقشتها بأدوات نقدية حديثة في محاولة منه خلق انسجام بين ثنائية التراث والحداثة، لقد أضحى بمراه القرائي المزدوج إلى ما يمكن أن نعتبه بالباحث الموسوعي في عصر التخصص، وهذا - في تقديرنا - لا يتحقّق إلاّ لناقد حصيف. وبالتالي، فجهود الباحث لا يمكنها أن تكون شرحا وتعليقا فحسب، بل نلمس فيها من التأسيس المعرفي ما يفتح للدارسين آفاق البحث، وهي في مرامها البعيد انفتاح واع على ثقافة الآخر، وردم هوّة بين ثقافتين (تراثية/حداثة).

2- مكانة "العلامة" ونوعيتها في الدرس السيميائي المعاصر:

- الباحث "قادة عقاق" في قراءته للمنجز التراثي "مثالا" -

يعدّ مؤلّف الباحث "قادة عقاق" من الكتب التأسيسية للمنحنى التراثي في البحث السيميائي المغربي، فلقد قامت هذه الدراسة الرائدة بالنبش والتنقيب في متون التراث الفكري العربي الإسلامي، عن القضايا التي أثارها علماء العرب المسلمين، وباتت متقاطعة في كثير ممّا جاء في أطروحاتها مع الدراسات الغربية اللغوية الحديثة. ورغبة من الباحث ربط القديم بالجديد، والتراثي بالحداثي وسم كتابه ب"في السيميائيات العربية -قراءة في المنجز التراثي-".

جاء هذا الكتاب في شكله المتوسط حجما وسمكا، موزّعا على مدار 122 صفحة، وحاويا بين دفتيه -إلى جانب المقدمة والمدخل والخاتمة- فصلين مستقلين بمادتهما وحواشيهما، لكنهما في نفس الوقت متواشجان، ومتكاملان من حيث الرؤية والهدف.

فكيف جاء تعامل الباحث مع هذا المنجز الضخم؟، وهل استطاع الإمام -في طرحه هذا- بكل ما يكتنزه هذا الموروث العربي؟، وما مدى نجاعة المقارنة التي عقدها بين ما حبل به هذا التراث من قضايا، وبين معطيات الحداثة الغربية؟.

طريقة الدراسة:

لقد آب الباحث إلى التراث منقبا برؤية حداثيّة عن تجلّيات العلامة من حيث مفهومها وطبيعتها في هذا الموروث العربي، ومن حيث ارتباطها بالدلالة، وهي التفافة تنمّ عن قناعة



الباحث الحدائث الذي لا يتنكر لتراثه، ولا ينسلخ عنه، إنما يثمنه في ضوء حاضره وواقعه المعيشيين. بهذا الطرح الواعي حاول الباحث في هذا الكتاب "تحديد الإطار العام الذي نشأ ضمنه الاهتمام بهذا العلم "علم العلامات" عند أسلافنا العرب القدامى، وبيان مدى الإسهامات الأصيلة التي قدمها هؤلاء في هذا المجال، مع الإشارة - كل ما أمكننا ذلك- إلى ما يتقاطع فيه الموروث (العربي الإسلامي) مع بعض الدراسات اللغوية الحديثة"¹.

وفي السياق نفسه، لا ينصب نفسه قاضيا يمنح لهذا الموروث حقّ السبق، وأن الفضل يعود للأول دون المتأخر، بحيث نلمس من هذا التصرف دحض لفكرة وشعار "سبقناهم" التي لا طالما يردّها بعض الباحثين هنا وهناك. ذلك، لأن هذا الموروث -في نهاية الأمر- لا يعدو أن يكون انشغالات شدّت فكر أسلافنا، فاجتهدوا في ضوء ما توقّر لهم من إمكانات في إثارة قضايا وقفوا منها مواقف اختلافية لا خلافية، الأمر الذي أسهم في تبلور أفكار بتنا الآن نتدارسها. ومن هذا، لا ينبغي تحميل هذا التراث بما لا يحتمله، أو تقويله ما لم يقله، أو اتهامه بما لم يقترفه.

استنادا على هذا الموقف المتشبع بالموضوعية، نلغي الباحث يلمح إلى ضرورة احترام هذا الموروث بقراءة متونه المتعدّدة والمتنوّعة -في الآن نفسه- قراءة احترافية واعية من "دون تعسف في تطبيق بعض المفهومات الحديثة للأبحاث الدلالية والنظريات السيميائية على الأعمال اللغوية والبلاغية والنقدية العربية القديمة"²، وفي محاولة منه إقناع القارئ بهذه الرؤية، أرجع وجهة نظره هذه إلى أسباب تتعلق أساسا في اختلاف السياق، والمنطلق وطريقة التناول (المنهجية)، وقد نضيف -إلى جانب هذا- تباين الزمان والمكان والثقافة. وفي هذا المضمار، يدعم الباحث طرحه هذا، الداعي إلى استحالة المقارنة بين الموروث العربي والحداثة الغربية بأسباب نراها مقنعة ومنطقية؛ والتي يعزوها إلى تباين السياقات والمنطلقات، وكذا المنهج المتبع بين الطرفين³، على اعتبار أن موروثنا تركز حول الوحي (القرآن الكريم)، ومن خلال هذا التمرکز الذي كان

¹ - عقاق قادة: في السيميائيات العربية -قراءة في المنجز التراثي-، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، 1425هـ-2004، ص: 04.

² - قادة عقاق: م س، ص: 04.

³ - ينظر: م ن، ص: 05.



مؤداه تعالق علم الدلالة بعلم البلاغة "ارتبط البحث الدلالي العربي القديم بالقرآن الكريم وعلوم الدين وانطلاقاً من هذا الارتباط، تمكن التراث من تقديم كثير من الإسهامات الأصلية التي يمكن أن تدخل في نطاق الدرس الدلالي والسيميائي بكيفية أو بأخرى"¹.

يستهل الباحث كتابه بمدخل جزّاه إلى عنصرين هما: وعي التراث وإشكالية قراءته، والعنصر الثاني يتجلى في صعوبة الإحاطة بالبحث الدلالي العربي وإشكالية المداخل المنهجية. فلطالما راودت الدكتور "قادة عقاق" أسئلة حيرى، تتم عن قلقه المعرفي، خاصة إذا اعتبرنا أنّ الباحث يحاول خلق توليفة بين هذا التراث الذي أنجز منذ زمن بعيد، وبين هذه الحداثة التي يعيشها ويتنفسها. وبناء عليه، إذا كانت الحداثة بين يديه، فإنّ التراث يسكنه ويحتويه، وعى بذلك أم لم يعه. من هنا بات الإشكال متعلقاً بهذا التراث تحديداً؛ أي بكيفية وعيه وقراءته، وكذلك بكيفية التعامل والتفاعل معه، حتى تتحقّق لديه الوسيلة الأنجع لمحاورته وتأويله.

يعدّ هذا منطلق رؤية الباحث الرامية إلى أنّه لا يتم فهم العلامة التي هي قضية من بين قضايا أخرى أوسع إلا إذا فقه التراث، ولا يتحقق ذلك طبعاً إلا بالتنقيب فيما يكتنزه من مدوّنات لغوية وبلاغية ونقدية... فبرغم ما يكتنف هذه الخطوة من معوقات أقلها تأثيراً تبدّى لنا في كون غالبية الكتب التراثية مندثرة أو غير محقّقة أو مسلوّبة أو محتكرة في مكتبات عالمية. وعليه، فالقول بالإحاطة التامة لهذا التراث ضرب من المستحيل، لكن -في ظل ما هو متوفر- يطرح الباحث رؤيته من منطلق قناعته الذاتية قائلاً: "ونحن ننقب في متون هذا التراث ومدونات الفلسفية واللغوية والبلاغية والنقدية، بحيث ثبت لنا أن هذا التراث قد لامس كثيراً من إشكاليات البحث الدلالي، وتعرض لأدق مسائله وأكثرها تعقيداً، والتي نراها تشكل البدايات الأولى لبحث سيميائي عربي ذي مميزات خاصة، حتى وإن لم يكن يتقاطع مع البحث السيميائي المعاصر- وهذا أمر مبرز زمانياً- فإنه يجاوره ويقدم نفسه جنباً إلى جنب معه في كثير من الأحيان وفي العديد من القضايا"².

¹ - م ن، ص ن.

² - قادة عقاق: م س، ص: 07.



لأجل هذا، يبرّر الباحث توجّهه في محاولة منه شرعنة التراث بإمكانية تناوله بالدراسة وفق ما تمليه الحداثة، وما يتوافق ومنطلقا الفكرية والحضارية البعيدة عن إرغامات وإكراهات تعسفية تخدم الذاكرة ولا تبنيتها، فيصرح بقوله: "فإن استهللنا بالتراث - في إطار مشروع سيميائي شامل، نهدف من خلاله المواءمة بين القديم والجديد- جاء من أجل ردم تلك الهوة العميقة الموجودة بين المنجز الدلالي التراثي والتأريخ السيميائي المعاصر، ومحاولة ربط الحلقة العربية المقصّاة بما قدم في البحث السيميائي حتى الآن"¹.

قد يتحقّق هذا الطلب من جهة إذا تمّت قراءة نصوص التّراث بوعي واحترافية، ومن جهة أخرى إذا تمّت مراعاة تباين الظروف وحيثيات الكتابة لهذه النصوص، من دون تجاهل توافر الرؤية والمنهج، والباحث يعي ذلك تماما، لكننا -والحال هذه- نلفي الباحث تعترضه صعوبة الإحاطة بالبحث الدلالي نظرا لشساعته وتعدّد رؤاه المترتبة عن تعدّد معالجه من مناطق وأصوليين وفلاسفة ولغويين ونقاد، ومفسّرين وفقهاء... وهذا طبعا يستدعي عملا جماعيا جبارا لا عملا فرديا منعزلا لا ينتمي إلى أي حلقة بحث، وإن كان جهدا محمودا، فإنه يعوزه التناول الشامل لإشكالات البحث الدلالي العربي، وهذا ما ألمح إليه الباحث عندما اعترضه سؤال رئيس مفاده "من أين نبدأ؟"، ومهما تكن هذه البداية "احصاء نتاج البحث الدلالي" أو "مساءلة هذا النتاج" أو "البحث في كيفية الربط بين هذا النتاج وبين السيموطيقا"، فإنّ "عقاق قادة" يحاول الإجابة عنها بقناعة الباحث الواثق، التي تنأى بنفسها عن الغرور والاحتماء بالتراث، فلا تكاد ترمي بخطاها إلى الأمام، وفي الوقت نفسه تتحاشى الاستئناس والذوبان في ثقافة الآخر.

يضاف -إلى هذا كلّ- التوسل بالقراءة الاحترافية المنتجة لا القراءة العقيم؛ كي نحقق غاية "إلقاء مزيد من الضياء على هذا التراث، وبالتالي مزيد من الوعي به، بغية اكتشاف بعض جوانبه التي يمكن أن تساعدنا السيموطيقا -هذا العلم الجديد- على اكتشافها"²، ذلك لأننا -يضيف الباحث-: "نعتقد أن النزوع نحو إعادة اكتشاف بعض جوانب التراث في ضوء المفاهيم الغربية الحديثة أمر مشروع -لأن الأخذ بالمناهج الحديثة وآليات التحليل المستحدثة

¹ - عقاق قادة: م ن، ص: 07.

² - عقاق قادة: في السيميائيات العربية، ص: 13.



في مثل هذا المقام يسهم في إثراء التراث وإعادة قراءته وفقا لمعطيات الفكر الحديث، وتبعاً للتطور الذي جازته مناهج الدراسة بسبب التقدم العلمي الذي مسّ جميع مناحي الحياة. وفي هذا وصل للماضي بالحاضر، وفق أسس سليمة واستراتيجية مضبوطة تجمع بين الأصالة المتجذرة والتجديد المتغير دوماً¹. إن هذه الأسئلة المقلقة والمزعزعة لبعض الثوابت والأفكار في ذهنية الدارسين، حاول الباحث تبريرها بغية الخوض في مفهوم العلامة وإشكالية المعنى في التراث الفكري العربي وتحقيق "الرغبة العلمية - لا غير- في فهم طروحاته العلمية اللغوية وغير اللغوية - باعتبارها علامة دالة- ومعرفة التصورات المنهجية لدى القدماء العرب في تعاملهم مع النصوص والمستوى الذي وصلت إليه الدراسات النصية، وذلك من خلال تأصيلها في نصوصها الأصلية"².

لقد حاول الباحث في ربطه التراثي بالحدائي "التعرف على علاقة هذه العلامة الألسنية بالأنظمة العلامية أو الدلالية الأخرى، كل هذا ضمن نصوصها الأصلية - كما أسلفنا القول- من خلال تقديم بعض الشذرات من اجتهادات المفكرين العرب والمسلمين في المجال المعرفي للتراث رابطين ذلك ومقارنين إيّاه بالبدايات السيموطيقية الأولى، وبخاصة عند الرائدتين: (ش. ش. بيرس) (*Charles. Sanders. Peirce*)، و(فريناند دي سويسر) (*F. de Saussure*)³.

لقد أبرز الباحث - في الفصل الأول- ماهية العلامة وطبيعتها في التراث العربي، ومكانتها النوعية في الدراسات السيميائية المعاصرة معتمداً - في ذلك- على أقوال "إيميل بنفنيست" و"بيرس"، ليخلص إلى أن مفهومها التراثي قريب من مفهومها الحدائي، مستدلاً ببعض ما طرحه علماء العرب القدامى - في ثنايا كتبهم- من تعريفات للعلامة كما ذهب إلى ذلك قطب الدين الرازي والسيد الجرجاني والتهاوني، فهذه المقارنة مكنته إلى جانب ما وجدته من توافق بين مفهومي العلامة التراثي والحدائي، من نقطة تباين بين ما ذهب إليه علماءنا، وما توصل إليه

¹ - م ن، ص ن.

² - م ن، ص: 14.

³ - عقاق قادة: م س، ص: 15.



أساطين الحداثة الغربية في شأن مفهوم العلامة، وجوهر الاختلاف بينهما يكمن في أنها (أي العلامة) في تراثنا متمركزة حول الوحي والعلوم الدينية، بحيث ساعد هذا التمركز من انتشار التحليل الدلالي في حقول معرفية متنوعة¹، وهي النقطة التي وقف عندها الباحث مستحضرا آراء علماء العرب القدامى من مثل الجاحظ والحرث بن أسد المحاسبي، فكل هؤلاء وغيرهم، تشبعوا "على اختلاف تخصصاتهم العلمية ومنطلقاتهم الفكرية بالثقافة الدينية والسير على هديها وفق ووفق توجيهات أهم نصوصها - القرآن الكريم - الذي يلح على ضرورة قراءة "الوجود الخارجي" وتأمله [...] وإعمال العقل فيه ..."².

فهذه القناعة - كما يذهب إلى ذلك الباحث - قد تساوت فيها فرق كثيرة منها المعتزلة والمتصوفة، ومن خلالها توصل الباحث عقاق قادة إلى نتيجة مهمة، تبين له منها، أنّ ما ذهب إليه علماء المسلمين في تعاملهم مع العلامة يتوافق مع ما ذهب إليه "بورس" في مفهومه لها؛ كونها شيء حاضر ينوب عن شيء غائب³، ودعم هذه النتيجة بما ذهب إليه "القاضي عبد الجبار"، و"ابن سينا"، و"الراغب الأصفهاني"، والذي اقترن مفهوم (العلامة) لديهم بمفهوم الدلالة، وهي رؤية أكّدها كذلك "عبد الرحمن ابن خلدون". فيغدو - بذلك - مفهوم العلامة مقابلا لـ "الدلالة" في التراث، ونجده كذلك يتجاور مع مفهوم (السمة) و(الأمرة) و(الدليل)، ومن التّقابل إلى التجاور. اهتم العلماء سواء أكانوا أصوليين أو بلاغيين أو لغويين بالدلالة، واتفقوا على حدّتها [الدال والمدلول] والعلاقة بينهما، وفي هذا يذهب الباحث إلى أن الاتفاق لم يكن نهائيا؛ إذ "أنهم يختلفون بعض الاختلاف في وجوب توافر (القصدية) في العلامة أو عدم توافرها؛ أي تركها لأفق انتظار القارئ ومقدرته التأويلية، وفق السياق الذي قبلت فيه"⁴.

لقد انقسم - في شأن هذه الاشكالية - العلماء إلى فريقين، فريق انتصر للقصدية، وترعّمه "القاضي عبد الجبار"، بينما انتصر الثائي للتأويلية، وترعّمه "أبو هلال العسكري"، ومن هذه

¹ - ينظر: م ن، ص: 18.

² - م ن، ص: 19.

³ - ينظر: م ن، ص: 20.

⁴ - عقاق قادة: م س، ص: 22.



الإشكالية يستخلص الباحث أن موقف الفريقين من القصدية والتأويلية يتقاطع "مع قضية تعد الآن موضوع جدل كبير بين أقطاب الفكر السيميائي المعاصر، حيث أن هناك اتجاه يؤكد على الطبيعة التواصلية للعلامة باعتبارها تتكون أساسا من: دال ومدلول وقصد، والمسمى باتجاه (سيمولوجيا التواصل)، في حين يركز الاتجاه الثاني على الطبيعة التأويلية للعلامة، وهذا من حيث قابليتها للتأويل من جانب المتلقي، ونعني (سيمولوجيا الدلالة)"¹.

ينتقل الباحث إلى إظهار صور الدلالة من لغوية (لفظية) أو غير لغوية (غير لفظية)، وكذا ارتباط معناها المعجمي بمصطلح (علم) بالإضافة إلى طابعها التواصلية وقيمتها الدلالية، ليقف عند طبيعتها في التراث، وفيها يبرز الباحث توافق رؤى علمائنا - (ابن سينا) مثلا - مع طرح "سوسير" من حيث اعتبارهما العلامة وحدة نفسية مركبة من مسموع (أو صورة سمعية) ومفهوم (أو معنى أو تصوّر)، وكذلك من استعمالهما المصطلحات نفسها تقريبا، وهي مقارنة ضبطها الباحث بمخطط شارح²، وزيادة على هذا، وجددهما الباحث يلغيان المرجع (الواقع الخارجي) من مفهوم العلامة، فهذا الطرح - كما يرى الباحث - "هو نفسه محور الموضوع الذي دارت حوله أبحاث "أولمان" (*ulmann*) في المعنى، حينما راح يعالج العلاقات القائمة (بين الأشياء) و(المفاهيم) و(التسميات الألسنية)"³. وبناء عليه، تتوافق رؤى ابن سينا والفخر الرازي مع ما ذهب إليه "سوسير" و"أولمان".

إذا كان إلغاء المرجع يعدّ طرحا استثنائيا في بعض الدراسات العربية القديمة، فإنّ اعتباره طرفا أساسيا في العلامة قد مثله علماء كثر من قبل أبو حامد الغزالي الذي جعل مفهومه للعلامة مكوّنا من (الموجود في الأعيان والموجود في الأذهان، والموجود في الألفاظ)، بحيث يقابله على الترتيب (المرجع والمدلول والدال)، وهي نقطة عالجها الباحث بالمخطط الشارح، ويعقد مقارنة بين ما ذهب إليه هذا الإمام، وما توصل إليه العالمين الانجليزيين (أوجدن وريتشاردز) في كتابهما (معنى المعنى) سنة 1923، ومدعما كذلك هذا الطرح بمخطط توضيحي لهذين

¹ - م ن، ص: 23.

² - م ن، ص: 28.

³ - عقاق قادة: م س، ص: 29.



العالمين¹، ليثبت بوعي أن إسهامات القدامى فيما يتعلق بالعلامة (الدلالة) لا يقل شأنًا عما توصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة، فقد تدعو من أي دارس عربي، أن ينفذ الغبار عن هذا التراث، ويقرؤه قراءة واعية منتجة، تروم نبشه والحديث معه ومساءلته بغية إيجاد إجابات لراهننا من دون اتهامه أو التطاول عليه.

ولعلّ ما يدعم قيمة التراث، وما حدّده الجاحظ من أنواع الدلالة الخمسة، وهي اللفظ والإشارة والعقد والخط والنسبة. وأورد الباحث صور الدلالة (لفظية وغير لفظية)، كما أورد أنواعها (العقلية، الطبيعية، الوضعية)، وما ينضوي تحتها من عناصر، والباحث ههنا، استطاع وضع مخطّط كبير شارح وجامع لكل صور الدلالة وأنواعها². استخلص منه، أنّ البحث الدلالي عند العرب، وما يميّز به من ثراء وتنوّع وتعدّد، يشكّل حجر الأساس لعلم العلامات، الذي تأسّس فعلياً على يد "بيرس" و"سوسير"، وتوصّل -إلى جانب هذا- إلى وجود تقارب في الرؤى بين البحث الدلالي العربي القديم، وتوجّهات السيميائية الحديثة.

خلاصة:

وصفوة القول، أنّ أوبة الباحث إلى التراث الفكري العربي مكنته من الوقوف على بعض القضايا المتعلقة بالبحث الدلالي؛ بحيث قارن طريقة تناولها ومعالجتها مع طروحات النظريات الغربية، من ذلك ما تعلّق بالعلامة (الدلالة)، التي قابلها بما ذهب إليه كلٌّ من "سوسير" و"بورس"، وما تعلّق كذلك بالبحث عن (المعنى) و(معنى المعنى)، التي قابلها بما ذهب إليه كل من أودغان وريتشارد وأولمان. وعليه، فإنّ غاية هذه العودة، هي إضفاء شرعية التراث في الخطابات النقدية الحديثة. كل هذا، ترتّب عنه جملة من الملاحظات، نوردّها كما الآتي:

- أنّ التراث الفكري العربي الإسلامي، منظومة فكرية موحّدة، متمركزة حول الوحي، ما جعل كل القضايا التي أثارها، لم تنجز منعزلة عن بقية المجالات من تفسير وفقه...، والدارس ههنا، لا يمكنه الإحاطة بهذا كله، لذلك ألفينا ما أنجزه الدكتور "قادة عقاق" رغم فرادة طرحه

¹ - ينظر: م ن، ص.ص: 35-48.

² - ينظر: م ن، ص: 48.



وتميزه، يبقى غير كاف، ويحتاج لتضافر الجهود الجماعية في شكل حلقات بحث إن على الصعيد المحلي أو على الصعيدين الإقليمي والعربي.

- إنّ ما أثاره الباحث في هذا المنجز من قضايا، وما اشتغل عليه من كتب تراثية، هو جزء من كل، ذلك لأن قضايا كثيرة - قد لا تخطر ببالنا - وقف عندها الأسلاف، ولم تصل إلينا، وسبب ذلك - في نظرنا - أنّ غالبية الكتب التراثية طالها الاندثار انطلاقاً من حملة التتار على بغداد وصولاً إلى الاستعمار الأوربي الحديث، وإن كان هناك نصيب منها، فإنه مركون في رفوف المكتبات العالمية، أو أنه لم يحظ بالتحقيق.

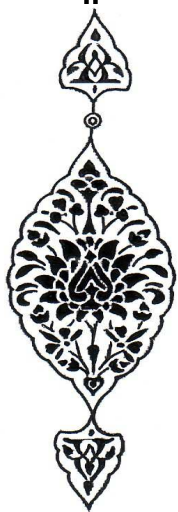
- إن هوامش الفصل المتنوّعة من مصادر تراثية ومراجع عربية وكذلك أجنبية، تنم عن رؤية الباحث الحدائثة، التي تعي أنّ الانفتاح على الآخر لا يعني إحداث القطيعة الاستيمولوجية مع التراث، بله ترومه بغية التّأصيل المعرفي مع الرّاهن العلمي. بهذه الرّؤية المزدوجة، يتمكّن الباحث العربي - بصفة عامّة - من مواكبة كلّ الجديد يطفو على سطح الحدائثة الغربية، وهو محصّن بالرّافد التّراثي. هذا الصّنيع، يجعل المنجز التّقدي العربي الحديث والمعاصر يتموقع في خريطة التّقدي الأدبي العالمي - كما كان شأنه في العصر الذهبي لحضارتنا العربية الإسلاميّة -، وذلك بالمساهمة الفعلية التي تربط الماضي بالحاضر، والتّراثي بالحدائثي. وبناء على هذا كلّه، نرى أنّ هذا المنجز يشكّل إسهاماً ذات بال، وجهد مضاف لخطابنا التّقدي العربي عموماً، والمغربي منه تحديداً.

المبحث الثالث

اللفظ والمعنى

في الفكر العربي

(قديمًا وحديثًا).





- اللفظ والمعنى في الفكر العربي (قديمًا وحديثًا):

توطئة:

منذ نشأ الإنسان، وهو يُعَمَلُ فكره لتفسير الظواهر انطلاقًا مما يحيط به ويشاهده في هذا الكون. وتعدّ مسألة (الثنائية) إحدى المسائل التي واكبت هذه النشأة. تطوّرت مع تطور تفكيره، وصار الإنسان -من خلالها- يفسّر الوجود والموجودات انطلاقًا من ثنائية الحضور والغياب، فالحياة تقابلها موت، والروح يقابلها جسد، من هذا تعتبر مسألة "اللفظ والمعنى" واحدة من تلك الثنائية الأعم، التي تجلّت بوضوح حينما شغل الإنسان فكره بموضوع اللغة والأدب.

من هذا، باتت هذه القضية ضاربة بجذورها في الفكر البشري منذ القدم، تناولها اليونان والهنود والعرب بالتأمّل والمدارسة. حيث مع مطلع النصف الثاني من القرن الهجري أضحت واحدة من القضايا الأساسية في تاريخ نقدنا الأدبي، شغلت مع نظيراتها بالقدماء العرب من النقاد واللغويين والبلاغيين، الذين تمكّنوا بإسهاماتهم ملامسة إشكاليات البحث الدلالي، وعلى غرار ذلك "أنشأوا نظريات نقدية رصينة تتعلق بعمود الشعر، ونظرية اللفظ والمعنى، كما نقرأ ذلك لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طبا طبّا العلوي في كتابه عيار الشعر أو المرزوقي في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، وهي المقدمة التي زعمت الموسوعة العالمية أنّها أصل التقدّ النبوي، وأنّ العرب ببعض ذلك عرفوا البنيوية قبل الغربيين، باثنتي عشر قرنًا [...]"، ومسألة النظم كما نظر لها عبد القاهر الجرجاني، ومسألة المعاني والأفكار بالقياس إلى الأفكار كما أومأ إليها أبو عثمان الجاحظ في كتابه الحيوان ونظرية التّواصل كما عاجلها في كتابه البيان والتبيين...¹.

والدّارس ههنا، يقف أمام قضية "اللفظ والمعنى" التي لا تقلّ شأنًا عن سابقتها -العلامة بنوعيتها- لأنّها تمثّل بحق جوهر الإشكالات التّراثية والحداثيّة في الدّرس العربي، والتي تناولها -كما سبق وذكرنا- النّحاة والبلاغيون، وكذلك الأصوليون والمناطقة بشكل لافت للانتباه؛ إذ نلّفها تمثّل "زوجا إشكاليا في التّراث على نحو عام، واللّغوي والبلاغي والنّقدي على وجه

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة، ص.ص: 19-20.

الخصوص¹. وهو أمر عزّز النقاش من حولها، وأدّى بهؤلاء إلى تبني مواقف متباينة من أجل تحديد مزية كل طرف فيها في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية.

إنّ المنحى الذي سار عليه علماؤنا بخصوص ثنائية "اللفظ والمعنى" غلب عليه الطابع العقدي، "فكلّ ما نشأ وما حدث من أقوال وآراء حول هذه القضية إنّما مردّه الإعجاز القرآني"²، وبما أنّ مدار النقد الأدبي في هذا مرتبط بمضامين فكرة الإعجاز، فإنّ النزاع بين النقاد يتجلى في معرفة أي طرف من هذه الثنائية يكمن فيه الإعجاز:

أفي اللفظ وتأليفه؟، أم في المعنى ودلالته؟، أم فيهما معاً؟.

انطلاقاً من هذه الإشكالات، تباينت مواقف النقاد قديمًا وحديثًا بخصوص ثنائية "اللفظ والمعنى"، بين منتصر للفظ، أو منتصر للمعنى، أو جامع بينهما. من هذا راح الخطاب النقدي المغربي يبحث عن وشائج القرى لتعزيز شرعية التراث في الممارسة النقدية الحداثيّة لما أثارته هذه المسألة من زوبعة معرفية في الأوساط البلاغية آنذاك، وفي الأوساط اللغوية في عصر الحاضر، ويمكن للدارس أن يقف عند كل موقف ليبرز آراء نقادنا العرب القدامى والمحدثين من هذه الثنائية، باعتبار أنّنا إذا نظرنا إليها بعين حداثيّة نجدها "تمثّل بحق قاعدة من القواعد المهمّة التي أرسى من خلالها البحث السيميائي المعاصر دعائمها"³.

يكاد يجمع المحدثون رأيهم على "أنّ الجاحظ كان أوّل بلاغي أو ناقد عربي أثار جدلية اللفظ والمعنى"⁴ إثارة واسعة، ومن هنا "لا نستبعد أن تكون مكانة هذه الثنائية -اللفظ والمعنى-

¹ - طارق النعمان: اللفظ والمعنى بين الإيدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1994، ص.ص: 8.7.

² - صلاح الدين ززال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1429 هـ-2008م، ص: 68.

³ - عقاق قادة: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص: 62.

⁴ - عبد العزيز بن حمودة: المرايا المقعّرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ع272، أغسطس 2001، ص: 273.

في تفكير الجاحظ الأصل في تولّد مسلك في البحث يتمثّل تقسيم مختلف المساهمات البلاغية وتصنيفها طبق موقف أصحابها من اللفظ والمعنى...¹.

يمكن للدّارس - في هذا الصّدّد - أن يقف على ثلاثة اتجاهات، كانت بمثابة سجلّ دار بين أقطاب النقد العربي القديم، تباينت من خلاله مواقفهم وآرائهم، ما أدّى إلى إثراء الدّرس العربي البلاغي واللغوي بآراء نقدية حسيّفة، نهل منها النقاد العرب المحدثون، وقارنوها مع صميم البحث الغربي، فوجدوا أنّ ما أثاره العرب القدامى من حول قضية اللفظ والمعنى ومن قبلها العلامة بنوعها، قد شكّلت مدار الدّرس النقدي الحديث والمعاصر، وتبيّن للباحثين العرب عموماً والمغاريّين منهم على وجه الخصوص، أنّ هذه القضايا قد لامست أطروحات كثيرة مما توصّلت إليه نظريات النقد الغربي. من هذا سنعوج على هذه الاتجاهات واحداً بواحد، نقف عند طرح العربي القديم، ونبرز الموقف النقدي لأحد الباحثين المغاريّين، ونختّم هذا العنصر مع الفصل الذي خصّصه باحث مغاربي آخر حول هذه القضية.

- الاتجاهات النقدية لثنائية اللفظ والمعنى (قديمًا وحديثًا):

- الاتجاه الأوّل:

يدعو أصحاب هذا الاتجاه إلى الإعلاء من شأن اللفظ، والتّعصب له، ويمثّله ثلّة من علماء العرب القدامى، كالجاحظ (ت. 255هـ) وأبي هلال العسكري (ت. 395هـ)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت. 808هـ)، وغيرهم. لقد أثار هذا الاتجاه مساءلة معرفية ذات بال، تمحورت حول أهمية اللفظ في تحقيق المعنى، وقد تزعم هذا الاتجاه أبو عثمان الجاحظ "بل وقد سبق النّقاد في بيان هذه المفاضلة، و كان يذهب في الغالب إلى تفضيل اللفظ عن المعنى"² في مواطن كثيرة من كتبه، و نلفيه في كل شق منها "يرفع شأن اللفظ، ويغضّ من شأن المعنى،

¹ - حمّادي صمود: التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره، إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص: 272.

² - علي زوين: منهج البحث اللّغوي بين التّراث وعلم اللّغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1986، ص: 40.

بل إنّه ليستقطه إسقاطًا، فليس له فضل ولا مزية، ولا قيمة فنية¹. إنّه في الوقت الذي نظّر فيه التّفاد من معاصريه وسابقيه إلى الشّعْر كأنّه نتاج فلسفي، وأنّ التّظّر فيه إلى المعنى أكثر من التّظّر إلى البنية الخارجية عدّه الجاحظ بماء ألفاظه، وجمال نسجه وحسن إيقاعه. والثّابت من هذا، أنّه يرى "المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقرويّ، وإتّما الشّأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك، فإنّما الشّعْر صناعة وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير"²، يجد الدّارس أنّ الجاحظ يضع الأناقة والجودة والجمال للألفاظ، ونفهم من هذا الطّرح أيضًا، أنّ اللفظ عنده سابق عن المعنى، وهي رؤية يعتبرها الباحث المغاربيّ عبد الملك مرتاض حدّاثية جدًّا، وقد سبقت عصرها بأكثر من عشرة قرون، فالمدرسة التّقديّة الجديدة هي وحدها الآن التي فصلت بعد قرون متطاولة من الجدال العقيم: هل المضمون أولى في العملية الإبداعية أم الخطاب؟ في القضية بعنايتها القصوى بالشّكل الخارجي للنّص الأدبي وهو الخطاب³.

يحدو أبو هلال العسكري حدو أستاذه، من خلال موقفه الداعم لمنزلة اللفظ، فهو يرى أنّ سلامة الكلام تكون باختيار اللفظ، حيث يقول: "الكلام أيّدك الله. يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر ألفاظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، وليس مقاطعه، [...]، حتى لا يكون في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقًا، وبالتحفظ خليقًا"⁴. يتّضح للدّارس أنّ أبا هلال العسكري يعلي من شأن اللفظ، وينتصر له على حساب المعنى، لأنّ هذه الأخيرة -حسبه- لا يراد منها سوى الدّقة والصّواب. نستشف من هذا الطّرح،

¹ - شوقي ضيف: في الأدب والتّقّد، دار المعارف، القاهرة، 1999، ص: 65.

² - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تح. عبد السلام هارون، ج3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ-1965، ص: 131-132.

³ - ينظر: عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية)، دار الحدّاث، لبنان، بيروت، ط1، 1986، ص: 23.

⁴ - أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري: كتاب الصناعتين، تح. علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1971، ص: 61.

أنّه يقدّم الصياغة اللفظية في القول على المعنى، وهو ما يؤكّده بقوله: "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحّة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف"¹. يعلّق أحد الباحثين على هذا التّعبص والانتصار للفظ بالقول على أنّ أبا هلال العسكري "معني بالهيكل وأناقته، ومفتتن بالألفاظ وإطارها باعتبارها الوسائل التي يتفاضل بحسن اختيارها الأدباء"². يجد الدّارس من قول أبي هلال أنّ ما تناوله من كشف وإيضاح حول مكانة اللفظ عند الأدباء قد تجلّى فيما قرّره الجاحظ. وعليه، لا نكاد نقع على جديد عنده عليه إلا أنّهما يمثّلان موقفًا ينمّ عن قناعة فضلة اللفظ على المعنى.

لا نكاد ننأى عن هذا الاتجاه حتى نجد "عبد الرحمن ابن خلدون" يدعم مقولة "الجاحظ" بقوله: "صناعة الكلام نظامًا ونثرًا، إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنّما المعاني تتبّع لها وهي أصل [...]"، والذي في اللسان والنطق، إنّما هو الألفاظ وأمّا المعاني، فهي الضّمائر"³. وقد استحسّن عبد الملك مرتاض ما ذهب إليه الجاحظ وابن خلدون فيما يتعلّق بهذه المسألة، فهما يتقاطعان في القول الذي "يجسد وجهها آخر من وجوه حدائثية التّراث في النّقد العربي الذي كان يقرّر في كثير من نظرياته [...]" أنّ الألفاظ هي الأساس والأصل واللّب والوجه [...]" إذ لم تكن المعاني إلاّ تتبّع لها في تصوّر ابن خلدون، وإذ لم تكن هذه المعاني إلاّ مطروحة في الطّريق في تصوّر أبي عثمان الجاحظ"⁴.

إنّّه من خلال هذا الطّرح، يتبدّى لنا أنّ "مرتاضًا" في كتاباته خلال مرحلة التأسيس والتّجريب كان ينتصر للفظ على حساب المعنى معتبرًا أنّ "منظور الجاحظ وابن خلدون حدائثي جدًّا لمحاولتهما فصل اللفظ عن المعنى؛ أي جعل اللّغة هي التي تقوم بنفسها في نسج الكتابة،

¹ - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص.ص: 63-64.

² - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة)، موسوعة الدراسات القرآنية (9)، دار المؤرّخ العربي، بيروت-لبنان، (د.ت)، ص: 20.

³ - عبد الرحمن ابن خلدون: المقدّمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص.ص: 110-111.

⁴ - عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، ص: 39.

وأنّ المدار على اللفظ لا على المعنى لدى النسيج اللغوي¹. فما أبداه الباحث عبد الملك مرتاض من استحسان لرؤية الجاحظ وابن خلدون يرر أمر تأثره الواضح بطروحات الجاحظ، ولعلّ تواجد آراء هذا الأخير وأحاديثه في ثنايا كتبه، للدليل واضح على محاولة الباحث الجمع بين الحداثة والتراث من خلال تصوّرات الجاحظ وآراء بعض أساطين الحداثة الغربيّة. وقد أكّد ذلك بعقد مقارنة بين الجاحظ وجان كوهين بقوله: "فانظروا إذن كيف يلتقي جان كوهين وهو ناقد من أصحاب المدرسة المعاصرة، مع أبي عثمان الجاحظ على الرغم ممّا يفصل بينهما من زمان ومكان وحضارات، فكوهين لا يحفل بالمعاني لأنّ الشّاعر في رأيه شاعر لا بما يفكّر أو يحسّ، ولكن بما يقول ويبدع من ألفاظ، ثمّ بفضل الطّريقة التي يقول بها، لأنّ الشّعر، في رأيه ألفاظ قبل أن يكون معاني[...] والألفاظ التي نريدها هنا هي ذلك النّسج البديع الذي كان أبو عثمان يتحدّث عنه، وهي أيضًا تلك العبقرية المتجسّدة في كيفية الإبداع التي يتحدّث عنها جان كوهين"².

لقد أثمر المقارنة التي اعتمدها "مرتاض" بنتائج ذات بال، "فهي تبرز أنّ نتاج الجاحظ قد انطوى على سمات كثيرة من البحث الشّكليّ الحداثي؛ فالجاحظ في تعريفه للشّعر، ركّز على (تخيّر اللفظ)، و(سهولة المخرج)؛ وتخيّر اللفظ الذي أشار إليه الجاحظ، هو ما يعرف لدى المنظرين والنقاد بـ (البنية الخارجيّة للنّص)³، وهي بهذا -وكما أوماً إليه "أبو عثمان"- ليست "مجرّد صيغ وقوالب لغويّة وصرفيّة، كالأطر الفارغة، والطّبول الباردة، ليس لها حركة وليس فيها حياة، وإمّا البنية التي نما إليها هي: أمّا حياة جديدة تولد في قوالب معجمية قديمة، أي ألفاظ منقّرة في المعاجم اللّغوية، وإنّ المبدع ليعمد إلى البنية (نقصد هنا بالذّات إلى البنية الخارجيّة التي تنصرف إليها الألفاظ والجمل) فيحمّلها من المعاني والقيم، ويلبسها من البهاء والجمال، ويضفي

¹ - م ن، ص: 39.

² - عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية)، ص.ص: 17-18.

³ - عبد السلام مرسلّي: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، أطروحة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربيّة وآدابها، المركز الجامعي د. الطاهر مولاي، سعيدة، 2006-2007، ص: 136.

عليها من الظلال الشعريّة ما يجعل المتلقي يشعر بأنّ هذه البنية كأنّها لم يصنعها أحد من قبله، فهي ابنة إبداعه وحده، فكأنّ البنية هي منح الشخصية الذاتيّة للدّوال¹.

إنّما يبرز الذي ذهب إليه مرتاض من مقارنة بين طرحين متباعدين في الزمان، ومتباينين في الثقافة والمرجعيات، هو تقارب رأيي الجاحظ وكوهين في تحديد مفهوم الشعر² إنّ هذه المقارنة التي عمد إليها الناقد عبد الملك مرتاض، تنمّ عن ذلك التّأثر بالجاحظ من جهة، والقناعة الدّاتية من جهة أخرى، وهو ما ترجمه إجراء من خلال تخصيص فصل كامل من كتابه "بنية الخطاب الشعري" للبنية، والتي تناول فيها الخصائص المرفولوجية الخالصة للخطاب الشعري متوسّلاً بالإحصاء. فنجاح الباحث في إظهار التقارب والتلاقي والتقاطع بين آراء الجاحظ وكوهين ليس بأمر عسير على ناقد مسلّح بثقافة تراثية مكينة ومتشبع بثقافة غربية حديثة، حيث أنّنا نلفيه يتبّى هذه النّظرية ويضفي عليها مسحة عربية لتظهر في صورة جيّدة، ومن خلال ذلك يظل الاعتبار في الشعريّة لدى الباحث مرتاض قائماً على النّسج الشعري وبنية اللّغة لا على المعاني...³، وهذا ما يتجلى -بالضّبط- في رأي جان كوهين.

- الاتجاه الثّاني:

يعدّ عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ) رائد اتجاه المعنى في النقد، من خلال ما بثّه في ثنايا كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) حول قضية "اللفظ والمعنى". فهذا الاتجاه ينظر إلى أسبقية المعنى على اللفظ، ويتزعمه "عبد القاهر الجرجاني" - كما ذكرنا - الذي يرى أنّ المدار في الكلام على المعاني لا على الألفاظ، كون هذه الأخيرة مجرد هياكل تقتفي آثار معانيها، ففي نظره "الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يدلّ عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها، لأنّه إذا لم يكن في القسمة إلّا المعاني والألفاظ، وكان لا يعقل تعارض في الألفاظ المجردة إلّا ما ذكرت لم يبق إلّا أن تكون المعارضة معارضة من جهة

¹ - عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، ص.ص: 10-11.

² - ينظر: نور الدّين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، دار هومة للنشر، الجزائر، 1997، ص: 33.

³ - عبد السلام مرسللي: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، ص: 142.

ترجع إلى معاني الكلام المعقولة دون ألفاظه المسموعة"¹. لقد أدرك هذا الناقد ببراعة فذة سرّ العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأنّ المدار - في ذلك - على المعنى لا اللفظ، وفي هذا معارضة لمزية الصياغة اللفظية في القول التي أسّس لها أبو عثمان الجاحظ، "فقد هذب عبد القاهر من المفاهيم المرتجلة لدلالة الألفاظ والمعارف وأقامها على أصل لغوي وعلمي رصين"²، ورأى أنّ الألفاظ ماهي في الأصل "إلا خدم للمعاني"³.

لقد وفق الجرجاني في تشييد قانونه لغوي، الذي يعرف بنظرية النّظم، فقد قال به تارة، وبالتأليف تارة أخرى، ليغدو النّظم عنده "عبارة عن العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وأتمّها تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"⁴. يقوم القانون اللغوي (النّظم) للجرجاني على أساس علم النحو الذي "يعنى ببناء الكلمة وإعرابها، ومعرفة هذه الصيغة، وإن كانت منصبة على اللفظ، فإنّها ترتبط بمعنى اللفظ في وضعه بمكانه من المعنى المراد، لأن المعاني لا يحل إبهامها ما لم يقصد إليها من خلال الألفاظ، والألفاظ لا يفهم مؤدّاها ما لم تضبط صياغة وتصريفًا ونحوًا بناءً وإعرابًا على حدّ سواء، وهما متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبر عنها بالنّظم"⁵ أو بالتركيب.

يجد الدّارس أنّ ما ذهب إليه الجرجاني في قانونه اللغوي، يتقاطع كثيرًا مع البحوث اللسانية والسيميائية، وهو بالفعل ما توصل إليه أحد الباحثين من أنّ "عبد القاهر الجرجاني"

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح. محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط2، 1407هـ-1987، ص: 402.

² - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 37.

³ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة أسرار البلاغة في علم البيان، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982، ص: 05.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 40. وينظر: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 37.

⁵ - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 38.

يتقاطع بطرحه هذا مع "فرديناند دي سوسير" في جملة من النقاط تنحصر في مصطلح تأليف/ تركيب، وفائدة الكلمة داخل التركيب وليس في حالة أفرادها، وفي الصورة الكلامية¹.

هذا، ولم يتوقف الشيخ عند هذا الحدّ، بل استطاع أن يميّز بين صنفين من المعنى، وبدأ بشرح فكرته، "أن نقول المعنى ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، ومعنى المعنى، أن تعقل من اللفظ معنىً ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"². فهذه الزوابع المعرفية التي أثارها "الجرجاني" انتهت به إلى تأسيس نظرية "معنى المعنى" في الكلام، وقد تلقّفها العالمان "ريتشارد" و"أوجدن" وأحدثا بها ضجّة من خلال كتابهما "معنى المعنى" *The meaning of the meaning*، الذي ألفاه عام 1923، منطلقين من إشكالية ماهية المعنى لا عن تطورها³.

ويدلي باحث مغاربي آخر بدلوه باحثًا في جوهر العلاقة بين طرح "الجرجاني" وما جاء في كتاب العالمين "ريتشاردز" و"أوجدن" ليبرز أنّ الطرحين يلتقيان في نقطتين هامتين تعتبران أساسيتين في فهم العملية الإبداعية، وهما في قولهما بأنّ المعنى الظاهري يخص معنىً خفيًا لا يحصل إلاّ بالتدبر وإمعان النظر، وهو المعنى الذي يحاول كلّ ناقد كشف أسراره، أمّا النقطة الثانية فهي ربطهما التجربة الشعريّة بالتجربة النفسية، وهذه النقطة تعتبر أساسية ورائدة بالنسبة للجرجاني الذي لم يكن يعرف علم النفس ودراساته حول الإبداع⁴، ولعلّ خير مثال استحضره الشيخ عبد القاهر الجرجاني هو "نؤوم الضحى"⁵.

¹ - ينظر: محمد عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1999، ص: 27.

² - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 258-259.

³ - عبد الجليل منقور: علم الدلالة، ص: 154.

⁴ - ينظر: حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية (الحضور والغياب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص: 192.

⁵ - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد، ص: 218-219.

ما يستخلصه القارئ من هذا السياق، هو أنّ الترابط الدلالي بين الألفاظ ومعانيها يقوم فيما يراه الجرجاني على مبدأ أسبقية المعاني الذهنية على الألفاظ، كون المعاني تعرف وتدرّك أولاً، ثمّ يتواضع أهل اللغة على الألفاظ الدالة عليها، وهذا عكس ما ذهب إليه اللفظيون من خلال طرحهم الذي بات يشكّل "خطراً على النقد والبلاغة معاً: أمّا على المستوى النقدي، فإنّ الانحياز إلى اللفظ قتل الفكر، الذي يعتقد الجرجاني "أنّه وراء عمليّة أدقّ من الوقوف عند ميزة لفظة أخرى؛ أمّا على المستوى البلاغي فإنّ الجرجاني لم يستطع تصوّر الفصاحة في اللفظة وإنّما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيباً من عدّة ألفاظ"¹.

وقد ذهب -بحسب رأينا البسيط- إلى أنّ "مرتاض" حينما نعت "الجاحظ" وابن خلدون" بالحدائثين جداً، كونهما من أنصار اللفظ، فإنّ معنى ذلك أنّ "الجرجاني" ومن سار على نهجه -من أنصار المعنى- تقليديين، ذلك لأنّ المعاني لا تأتي في تصوّره إلّا "تحت مفعول الألفاظ وتأثيرها ودلالاتها"²، وفي هذا موقف نحسب أنفسنا نختلف مع "مرتاض" في تصنيفه للبلاغيين العرب القدماء إلى تقليديين وحدائثين من منطلق طروحاتهم المتأينة التي تتفق مع "مرتاض" أنّها تختلف في التفاصيل والمنطلقات، لكنّها تنتهي في النهاية إلى مقولات، هي أشبه ما تكون بتلك التي تشكّل النظريات الحدائثة.

فما ذهب إليه الناقد عبد الملك مرتاض "لا يسعنا إلّا أن نعتبره نقداً انطباعياً تقليدياً، الذي لم يستطع التخلّص منه حتى وهو في مرحلة الحدائثة، لأنّنا متفقون أنّ النقاد العرب القدماء قد لامسوا كثيراً من المسائل النقدية، هي الآن من صلب مواضيع الحدائثة الغربيّة، من هذا فقد أثار الناقد العربي القديم كثيراً من القضايا، فنلّفنا بعضها من الحدائثة، ونلّفنا بعضها الآخر بعيدة كلّ البعد عن الحدائثة؛ أي أنّنا قد نجد الناقد حدائثياً في مسألة ما، وتقليدياً في مسألة أخرى"³.

¹ - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص:429.

² - عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، ص:40.

³ - عبد السلام مرسلني: تجليات التراث في الخطاب السيميائي، ص: 145.

ف"عبد القاهر الجرجاني" - كما رأينا- قد انصبَّ اهتمامه على المعنى، ومعنى المعنى، لدرجة أنه استطاع تأسيس نظرية، وهي التفاتة لا يختلف فيها اثنان، من هذا فإن الناظر لهذا التراث يجده "توليفة عجيبة من النظريات النقدية المتعددة والمتباينة في الوقت ذاته، وهي تأتي متداخلة في المؤلفات النقدية بحيث يصعب على القارئ أن يجزم بأن هذا الناقد أو ذاك نموذج لغوي؛ لأنهم في الحقيقة قد خلطوا بين هذه الأمور جميعًا، ومن ثم فإن كتابا نقديًا واحدًا قد يجيء ليحوي بين دفتيه نماذج للنظريات اللغوية والبلاغية والدينية والمنطقية، جنبًا إلى جنب، ممزوجة ومتداخلة، وأحيانًا في نسيج يصعب استلال خيط واحد منه، إلا إذا كان الهدف هو تمزيقه أو الاستغناء عنه"¹. ومن هذا، فإن أحكام "عبد الملك مرتاض" بشأن "الجاحظ" و"ابن خلدون" تبقى ذاتية، فانتصاره لهذين الطرحين، هو محاولة منه الإعلاء من شأن اللفظ، والتقليل من شأن المعنى. وهذا الصنيع، لا نحسبه يرفع من قيمة الحداثة فحسب، بل ربما يقلل من شأن بعض ما أورده هذا التراث من قضايا.

الاتجاه الثالث:

يلمس الدارس في هذا الموقف طرفين، أحدهما يدعو إلى الجمع بين اللفظ والمعنى، ويمثله ابن قتيبة (ت. 276هـ) وقدامة بن جعفر (ت. 337هـ)، وأما الآخر فيدعو إلى الوحدة بين اللفظ والمعنى، ويمثله ابن طباطبا العلوي (ت. 322هـ) وابن رشيق (ت. 456هـ). والدعوة ههنا إلى الجمع أو الوحدة بين طرفي هذه الثنائية لدى هؤلاء نلفيها متميزة من حيث الرؤية والهدف. ولنا أن نقف عند كليهما بالشرح والتوضيح.

يرى الطرف الأول في الجمع بين اللفظ والمعنى مقياسًا للبلاغة وميزانًا للقيمة الفنية، وأن الشعر يسمو بسموِّهما، وينخفض تبعًا لهما². إن المساواة بين عنصري هذه الثنائية التي ناد بها هذا الطرف، تكشف للدارس أن اللفظ والمعنى حسن وقبح، وحسب الصفة التي يتحلَّى بها

¹ - أحمد طاهر حسين: حول روافد النقد الأدبي عند العرب (نظرة تحليل وتأسيس) مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985، نقلًا عن: هامل بن عيسى: واقع الخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، وهران، 2005، ص: 111.

² - ينظر: محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 30.

كل عنصر يرفع من قيمته أو يحطّ. ومن خلال هذه النظرة بنى ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) فكرته الداعية لتقسيم الشعر إلى أربعة أضرب، هي:

- 1- ضرب حسن لفظه وجاد معناه.
- 2- ضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.
- 3- ضرب منه جاد معناه، وقصرت أفاضه.
- 4- ضرب منه تأخّر معناه، وتأخّر لفظه¹.

يتجلّى منهج ابن قتيبة بخصوص هذه المسألة في رؤيته المساوية بين عنصريهما، فهو لا ينحاز لأحدهما على حساب الآخر؛ إذ لا نجده يعلي من شأن أحدهما على نظيره، ولا يقلل من قيمة أي منهما. وبناء عليه، فإن الشيخ يتبنّى منهجا محايدا في طرحه، على اعتبار أنّ عنصره هذه الثنائية "يتعرّضان معا للجودة والقبح، ولا مزية لأحدهما على الآخر، ولا استئثار بالأولوية لأحد القسيمين، فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنى، وقد يتساويان في القبح، وقد يفترقان"².

إنّ النظرة المحايدة في التعامل مع اللفظ والمعنى التي ذهب إليها ابن قتيبة، وجدت دعمها ومساندتها من قبل قدامة ابن جعفر من خلال رؤيته التوافقية مع طرح ابن قتيبة. فهو في تعامله مع ثنائية اللفظ والمعنى في كتابه (نقد الشعر)، يخصص الفصل الثالث منه لعيوب الشعر المتعلقة بالعناصر الأربعة التالية: عيوب اللفظ، وعيوب الوزن، وعيوب القوافي، وعيوب المعاني. حيث يجعل من عنصريهما (اللفظ والمعنى) قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملامح الجودة فيما أورده من آراء في عيوب الألفاظ والمعاني³.

¹ - ينظر: ابن قتيبة الدينوري (أبي محمد عبد الله بن مسلم): الشعر والشعراء، تصحيح وتعليق مصطفى أفندي السقا، المكتبة التجارية الكبرى (مطبعة المعاهد)، مصر، ط01، 1350هـ/1933م، ص.ص: 8-11.

² - محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي - رؤية قرآنية-، ص: 30.

³ - ينظر: قدامة بن جعفر (أبو الفرج): نقد الشعر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد منعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ت)، ص.ص: 171-211.

أما الطّرف الثّاني من هذا الاتجاه، فإنّه يرى بالمطابقة بين اللفظ والمعنى؛ ذلك لأنّ ائتلافهما يشكّل وحدة، فابن طباطبا العلوي ومن بعده ابن رشيق القيرواني يعتبرانها شيئًا واحدًا متلازمًا ملازمة الروح للجسد. ويذهب كلاهما إلى تصوّر علاقة الائتلاف بين اللفظ والمعنى في القصيدة على نحو الرّوح والجسد. وبناء على هذا الطّرح، نجد أنّه من الاستحالة بمكان الفصل بينهما، فهما كما الوجهين للعملة واحدة. هذا ما يحاول ابن طباطبا توضيحه بقوله: "والكلام الّذي لا معنى له كالجسد الّذي لا روح فيه [...] للكلام جسد وروح، فجسده النّطق وروحه معناه"¹. وتماشيا مع هذا القول، يرى ابن رشيق أنّ "اللفظ جسم وروحه معناه، وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم واختل بعض اللفظ كان نقصا للشّعر وهجنة عليه [...] فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه"².

تأسيساً على هذين القولين، يخلص الدّارس إلى الفكرة الدّاعية للوحدة بين اللفظ والمعنى، وفكرة صاحبي هذا الطرف تعتمد المطابقة في تناول، وتبرز العلاقة الجامعة بينهما؛ التي لا يمكننا قطعها أو فصل طرفي ثنائيتها. هذا التّصوّر المنهجي الذي تشكّل في مهد النقد العربي القديم، وجد صدى كبيراً وحضوراً طيباً في البحوث اللسانية والسيمائية؛ التي تدعو إلى المؤالفة بين الدّوال ومدلولاتها والفصل بينهما ضرب من المستحيل.

لقد تلقّف التّقاد العرب المحدثون هذه الفكرة، ونسجوا من حولها أبحاثاً لما وجدوا ما ذهب إليه الأقدمون، يندرج فعلاً في صميم الطّرح الذي روّجت لها النظريات الغربية الحديثة. وكلّ هؤلاء يؤكّدون أنّ اللفظ والمعنى حقيقتان متماسكتان، يستحيل الفصل القيمة الفنية بينهما، ومرّد ذلك يرجعه أحمد الشايب لـ "شدة الارتباط بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنى،

¹ - ابن طباطبا (أبو الحسن محمد): عيار الشعر، تح. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1965، ص: 11.

² - ابن الرشيق (أبو علي الحسن): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص: 112.

أو بين الفكرة والعاطفة من ناحية، والخيال واللفظ من ناحية ثانية؛ إذ كان هذان صورة لذنيك، وأي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح¹.

وفي السياق ذاته، يدعو ناقد آخر الباحثين إلى وجوب التأيي عن المفاضلة بينهما بغير وجه حق، والاحتكام إلى المناصفة بينهما، والتي إذا ما تمتّ تنعكس بالإيجاب على العمل الأدبي وقيمتها الفنية². وعلى نفس الشاكلة، يؤكّد شوقي ضيف على تواشج العلاقة بين اللفظ والمعنى بالقول: "فليس هناك محتوى وصورة، بل هما شيء واحد، ووحدة واحدة، إذ تتجمع في نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ تصويرها بعبارات يتم بها عمل نموذج أدبي، [...] فهو يعبر عن الجانبين جميعاً مرة واحدة، وليساً هما جانبين، بل هما شيء واحد، أو جوهر واحد ممتزج متلاحم، ولا يتم نموذج فني بأحدهما دون الآخر..."³.

لم يتحاش الخطاب النقدي المغاربيّ هذه المسألة النقديّة، بل وقف عندها بعض الباحثين، حيث تناولوها بالتنظير والمناقشة استناداً على آراء النقاد العرب القدامى، وعلى ما جدّ في ساحة النقد الأدبي الحديث والمعاصر من أطاريح لها صلة بالمسألة. هذه الأخيرة التي توقّف عندها الموروث الفكري العربي القديم - كما أسلفنا الذكر-، كانت حاضرة بشكل واضح في النقد الشكلاّني الحديث، من ذلك فهي التفاتة حدائثة تجعل من النصّ الأدبي سردياً كان أم شعرياً لحمة واحدة، دفعت بالباحث المغاربيّ عبد الملك مرتاض في مرحلة ما بعد الحدائثة إلى مراعاة النصّ الأدبي في شموليته، حاسماً بذلك مسألة اللفظ والمعنى من خلال اصطناعه منهجاً مركّباً، فنراه يصرّح بلغة صارمة لما حاول مقارنة نص "حمّال بغداد" المأخوذ من حكايات "ألف ليلة وليلة" بقوله: "...أروني برّبكم لفظاً واحداً ورد في نص من التّصوص ولا مضمون له، وكيف يجوز التّعامل مع جسم لا روح فيه؟ ثمّ كيف يمكن الرّعم أنّ اللفظ فضلة في رأي بعض التّقاد المعنويين والاجتماعيين، وأنّ المعنى فضلة في رأي الشكلاّنيين والبنويّين الذين لم يكن موقفهم،

¹ - أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1968م، ص: 246.

² - بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954، ص: 138-139.

³ - شوقي ضيف: في النقد الأدبي، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966، ص.ص: 163-165.

فيما يبدو، إلاّ ضربا من ردّ الفعل المتطرّف؟ والحقّ أنّ لا هؤلاء ولا أولئك ولا آخرون محقّون، وأولى لنا أنّ ننشد منها شموليا¹.

والدّارس ههنا، يجد في قناعة مرتاض ما يتوافق تماما مع آراء النقاد القدماء، ولنا في موقف ابن طباطبا، وابن رشيق القيرواني خير مثال فيما يتعلّق بمسألة الائتلاف بين اللفظ والمعنى، فمناشدة الناقد عبد الملك مرتاض للمنهج المركّب في معالجة النّص الأدبي جعلته يتعامل مع الإبداع ككّل متكامل (لفظا ومعنى)، بحيث يستطيع الانطلاق من لفظه إلى معناه، كما يستطيع الانطلاق من معناه إلى لفظه في حركة مستمرة دون أن يحدث ذلك خلافا منهجيا في فهم النّص، وبهذا استطاع أن يقرأ النّص - كما ذكرنا سابقا - بمنهج شمولي²، متناولا إيّاه من مستويات مختلفة. وهي القناعة التي انتهى إليها مرتاض في مرحلته الأخيرة من مساره النقدي. ولتوضيح ذلك، سنأخذ كتاب (أ/ي) كنموذج لإبراز ما ذهبنا إليه من صورة الائتلاف بين اللفظ والمعنى في النّقد عند "عبد الملك مرتاض"، ويتجلى ذلك تحديدا في الفصل الثّاني حين سلّط الضّوء على طبيعة البنية في النّص.

لقد رصد الناقد في قصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد ألفاظا وعبارات موحية بمعانيها حينما وقف عند المعجم الفنيّ أو القاموس اللّغوي كما يراه البعض، مبيّنا أنّ النّص الأدبي لم يكن له أن يرقى إلى مستوى الأدبية إلاّ بتوافر معجم فنيّ خاص به، يميزه عن غيره من النّصوص. فهناك من يتعامل مع النّص على أساس التّنقيب عن الألفاظ، ورصدها دون البحث فيما تحمله من معاني ودلالات، وهناك من يغوص فيه ليستخلص جملة من التّائج تفضي به الكشف عن مراكز التّقل النّصي في هذا المعجم. هذا ما يراه الناقد عبد الملك مرتاض مناسبا حيث يقول: "ونحن نميل إلى اعتبار هذا الضّرب من الدّراسة من أساسيات الطّرائق التي تفضي إلى فهم النّص وإدراك بعض أسرارها الكامنة وراء اللّغة المستعملة؛ وإنّه فاصل بين النّظرة الانطباعية أو الدّوقية التي لا تخلو

¹ - عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية "حمال بغداد"، ص: 16.

² - من بين النّماذج التي أرست أسس المنهج الشّمولي، في المشروع النقدي المرتاضي، نجد: كتاب (ألف ليلة وليلة)، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية "حمال بغداد"، وكتاب (أ/ي) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، وكتاب تحليل الخطاب السّردية، معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية "زقاق المدق"...



من فجاجة، والتي كانت سائدة منذ زمن، لدى دراسة أي نص أدبي ما، والرؤية الجديدة التي نحاول جهدنا ترسيخها في تقاليد البحث عن هوية النص والكشف عما في طياته من مكامن...¹.

إنّ المهتم، بالتّاج التّقدي لعبد الملك مرتاض يتوصّل إلى إنّه في دراساته للتّصوص السّردية أو الشّعريّة يتناول المعجم الفني، الذي يسهب في الشّرح من حوله، ويغوص في مكامن النصّ للكشف عن خباياه بالاعتماد على ما يلاحظه وما يحصيه. فقد استنتج أنّ نص "أين ليلاي" يقوم على محورين اثنين: أمّا الأوّل فقد اشتمل على الألفاظ التالية: "ليلاي، المحبين، القلب، عشق، الزّين، التّعلّق، الطّيوف، ما ليلى؟، لم تصل مهجات فديناها، قلوبا علقناها، ليلى". وهي مواد لغوية جامدة، ازدهرت باحتمالها معاني الحبّ والعشق والصبابة. وأمّا المحور الثاني: فقد رصد فيه النّاقّد الألفاظ التالية: "الحيلولة، البين، الدّين، اتصّلت القلب نارها، الحين، التّرويع بالبين، الدّعاء على البين، بكاء العيون، تذرّاف الدموع، الاحتكام على الصّدى العايب... ليثبت أنّها جميعا مواد لغوية جامدة، حيّيت بالإستعمال، وشحنت بمعاني البين والعذاب. تبين للنّاقّد من خلال رصده وإحصائه لمفردات النصّ الشعري أنّ الشّاعر انتقى هذه الألفاظ بعناية ونسجها فأبدع فيها، فهو من جهة يتصيّد الألفاظ المناسبة، ومن جهة أخرى يريد لها معاني. فأضحت بذلك المفردة (لفظا ومعنى) وجهين لعملة واحدة، استطاع النّاقّد إبرازها في هذا النصّ الشعري. والملاحظ حين يقابل بين المحورين اللّذين رصدهما النّاقّد يجد صراعا بين دلالات المحور الأوّل والثّاني. وقد نتج عن هذا الصّراع انصهار بين ألفاظ هذين المحورين التي تولدت عنه شحنة دلالية في النصّ ككل من أوّله إلى آخره، وهي اليأس والأمل.

إنّ ما قام به النّاقّد من ملاحظات وإحصائيات على المعجم الفني (القاموس اللّغوي) للنّص، مكّنه من الكشف عن مركز الثّقل التّصي الذي يتمثل في اللفظ "ليلى" كونها "المتحكّمة في كل علاقة دلالية بين التساؤلات المثارة (أين)، والعين، والقلب الهاوي، والبين الواقع، والدّين المعلق، والبكاء على هذه الشّبكة من المعاني التي لم تفض إلى بلوغ الغاية من ليلى التي تظلّ كأثما

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ/ي)، ص: 73.



مستحيلة المنال"¹، فأضحى اللفظ "ليلي" هو "الأسطورة" و"الموضوع" و"القيمة" و"الحقيقة" جميعًا.

خلاصة:

لقد حسم الناقد المغاربي موقفه تجاه مسألة اللفظ والمعنى؛ إذ بعدما تشبّع بالطرح المنهجي لما بعد حدثي، يجده الدّارس يسعى إلى دحض الفكرة المنادية بالفصل بين اللفظ والمعنى، وتفضيل أحدهما على الآخر. فهاهو الباحث عبد الملك مرتاض ينتقد طرح "جان كوهين" في معرض حديثه عن عمليّة الكتابة، واعتبر أنّ "القول بانفصال الأفكار عن الألفاظ [...]"، ليس قولاً مسلماً²، وهي دعوة صريحة بضرورة ائتلافهما، انطلاقاً من تضافر شبكة من الأجهزة ترى في مطابقة اللفظ والمعنى حتمية لا بدّ منها، "وإلاّ فماذا كانت الجدوى من وراء قبوع الأفكار في عالم العدم، لو ما الألفاظ التي كستها، ثمّ جلّتها وأخرجتها إلى الوجود؟ ثمّ ماذا كانت تكون الجدوى من وراء ألفاظ طائفة شاردة، غير منتظمة، قابعة في بطون المعاجم وهي في أصلها مجتزئة بدلالاتها الأولى لو ما الأفكار التي تتيح لها أن تكون؟..."³. هذه الأسئلة الحيرى، التي تعكس القلق المعرفي للباحث الحدثي، الذي يتوق باستمرار إلى مراجعة أدواته المنهجية وتحديثها كل حين تماشياً مع ما جدّ في السّاحة النّقديّة، هي التي دفعت بمرتاض إلى عدّ النّص الأدبي نثرًا كان أو شعريًا كتلة متماسكة، فصرامة المناهج النّصانية التي أعملها الباحث، أملت عليه تناول النّص الأدبي تناولاً كليًا، معتبرة إيّاه لحمة واحدة، يستحيل فصل أجزائه بعضها عن بعض، وهو ما سمح له في أثناء معالجته للأثر الأدبي أن يلج إليه من خارجه إلى داخله أو ينطلق من داخله إلى خارجه دون إحداث خلل منهجي يذكر.

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ، ي)، ص: 75.

² - عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، ص: 133.

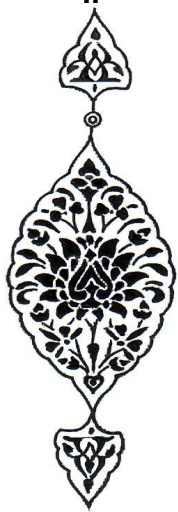
³ - م ن، ص: 133.

المبحث الرابع

اللفظ والمعنى

في الخطابة السيمياءية

المغاريبي.





- اللفظ والمعنى في الخطاب السيميائي المغربي:

- قراءة في كتاب (السيميائيات العربية) للباحث "قادة عقاق".

لقد تعدد الاشتغال النقدي المغربي على هذه المسألة، فغير بعيد عما ذهب إليه عبد الملك مرتاض، نجد باحثا مغاريا آخر، يتوق بوعي للحدثة والتحديث من دون افتتان أو ذوبان، وفي الوقت ذاته يحجّ للتراث وما يزخر به من معرفة بلا تعصب. بهذه الحركة المعتدلة في الرؤية. يسعى الباحث قادة عقاق تناول قضية اللفظ والمعنى تناولاً موضوعياً، يقارن فيه الموجود مما طرحه علماء العرب القدامى، وما توصلت إليه الأبحاث السيميائية، فلقد خصص الفصل الثاني لهذه المسألة مقارناً وشارحاً لأهم الأقوال التي حفل بها الدرس العربي (النقدي واللغوي والبلاغي والأصولي...). هذا ما سنقف عنده في هذا العنصر.

- قراءة وصفية تشريحية:

لم تكن قضية العلامة الشاغل الفكري الوحيد في تراثنا العربي، بل واكبتها قضايا أخرى مهمة كقضية اللفظ والمعنى، والتي وقف عندها علماءنا يدارسونها بوعي كبير. وهو أمر دفع بباحثينا معالجتها، من ذلك ما قام به الباحث الجزائري "عقاق قادة" في الفصل الثاني من كتابه "في السيميائيات العربية"، والذي سمي بـ "قوانين النظم ونظرية المعنى في الموروث اللغوي والنقدي البلاغي"، حيث نجده موزعاً على ثلاثة عناصر رئيسية هي:

1- من ثنائية اللفظ والمعنى إلى دلالة التركيب.

2- المجاز اللغوي ونظرية المعنى ومعنى المعنى.

3- بلاغة (النص) لا (الإشارة).

تتخلل هذه العناصر عناصر أخرى ثانوية تآزرها وتقويها، والتي سوف نقف عندها في حينها.

لقد عمد الباحث في هذا الفصل إلى الإقران بين القوانين النحوية والدرس البلاغي والمقاربة النقدية بحيث يرى أن المبحث الدلالي "يرتبط من جهة أولى باللغة واستعمالاتها من طرفيها النحو والبلاغي [...] ومن جهة أخرى، وفي إطار النقد فهو يضيء النص الأدبي

- بما في ذلك النص القرآني- ويقاربه في ضوء هذه القوانين التحوّية والمفاهيم البلاغية¹. يسعى الباحث في هذه الرؤية لتبليغها ضمن هذا الفصل، وذلك من خلال تلك العناصر الرئيسية والثانوية.

يبرز الباحث في العنصر الأول، ذلك الانتقال في تناول، والمتمثل في تجاوز البحث الدلالي العربي لشئائفة اللفظ والمعنى "إلى مجالات أخرى أكثر عمقا وتجريدا وتعقيدا، متناولة بذلك هذه الدلالات، وبخاصة اللغوية منها، في حالتها أفرادها وتركيبها، محاولة ضمن ذلك استنطاق بني هذه التراكيب في دوالها ومدلولاتها، وتفسير طبيعة الاقتران بين هذه الدوال وتلك المدلولات، من أجل تبين أدبيّة النص، وسرّ تحوّل من أداة بلاغية صرفة إلى بنية إبداعية جمالية"².

هذا التحوّل ترجمه ثلّة من علماء العرب والمسلمين ك: الفراء، ابن نديم، ابن حزم، الخوارزمي، أبي حامد الغزالي، وابن قتيبة وغيرهم. وفي هذا، يستحضر الباحث ما ذهب إليه "أبو نصر الفراء" حول علم اللسان، وما طرأ عليه من تفرّعات تتعلّق بعلم الألفاظ، وعلم القوانين، وبخصوص مسألة تفرّقه بين اللفظ المفرد والقول (المعنى)، يجد الباحث أن تحليل وتصنيف (الفراء) لعناصر هذه المسألة "تتداخل فيه المصطلحات التحوّية مع المقولات المنطقية [فهذا الصنيع] يمكن أن ينحرف بالقول وبخاصة الأدبي منه عن مساره من خلال تحليله بأدوات خارجة عن إطاره، ومقارنته لمفاهيم هي أكثر التصاقا بعلم المنطق منه بعلم الأدب، الذي له خصوصياته ومميزاته"³.

يذهب الباحث إلى اعتبار ما ذهب إليه "الفراء" -رغم ما شاب طرحه من تداخل- ارهاصا قامت عليه مرحلة أخرى "نفض بها نقاد متميزون وعلماء بلاغة مشهورين، خلّصوا الأدب -الذي من أهم مميزاته الانزياح والعدول والانفتاح والتمرد على النمطية- مما علق به من تصوّرات منطقية، وتحديدات علمية صارمة"⁴، ويستحضر الباحث -في هذا المقام- جهود

¹ - عفاق قادة: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص: 62.

² - م ن، ص ن.

³ - م ن، ص: 63.

⁴ - م ن، ص ن.

الجرجاني البلاغية والمتمثلة أساسا في نظرية النظم: التي بواسطتها تجاوز تلك المعالجات النمطية لثنائية "اللفظ والمعنى"، إلى معالجة أكثر عمقا من خلال "البحث عن خصائص الفارقة بين كلام وكلام"¹؛ أي برده إلى قانون لغوي هو (نظرية النظم)، الذي يتأسس (هذا القانون) على العلاقات الداخلية للفظ والمعنى داخل التركيب، ذلك لأن قيمة اللفظ المجرد لا تتحقق، وكذلك المعنى المنعزل، وما يحقق قيمتها يتمظهر في وجودها داخل نظام. فهذا الطرح الذي ذهب إليه الجرجاني، قد وجده الباحث يتقاطع مع ما طرحته بعض النظريات النقدية الحديثة، خاصة ما تعلق بالجانب اللغوي للنص الأدبي، والذي يتحلى في طبيعة العلاقة بين اللفظ ومعناه، وبين الفكرة وأسلوبها، واستنادا على هذا المعطى، يرى الباحث قادة عقاق أنّ "هذا التصور الذي يصر على تعليل الأحكام النقدية والتأسيس لمقولاتها، هو الأساس الصلب الذي قامت عليه نظرية النظم عند عبد القاهر، والتي يربط بموجبها البحث الأدبي والبلاغي بالروابط النحوية واللغوية، حيث تشترك المعرفة الأدبية بالمعرفة اللغوية وتتواشجان..."².

إنّ دعوة الجرجاني الزامية إلى تجاوز المعالجة السطحية لثنائية "اللفظ والمعنى" نحو البحث في دلالة التركيب من خلال قانون النظم الذي وضعه، ينم عن ذلك التحول في التصور، وهو ما استطاع الباحث الوقوف عنده، وقد مكّنه ذلك من تناول عنصر آخر لا يقل أهمية عن سابقه والموسوم بـ"دلالة النظم والمعنى السياقي للتركيب"، وفيه يوضح توافق الرؤى بين الباحثين العرب القدامى والطرح السيموطيقي الحديث حول المعنى أو الدلالة في أن قيمتها لا تكون إلا داخل التركيب، وفي هذا يحدّد الباحث أربع نقاط تتحقّق بموجبها قيمة المعنى أو الدلالة، من خلال علاقة اللفظة بغيرها داخل التركيب اللغوي، أو من خلال سياق قبلت فيه إتيانها من شحنة انفعالية تعززها علاقة المرسل بالمتلقي أو نتاجها عن وضعية وظروف وثقافة المتلقي³. ومن أجل تفصيل أكبر لهذه النقاط، يحاول الباحث إبرازها ضمن عناصر ثانوية ثانوية تحت العنصر الرئيس

¹ - عقاق قادة: المرجع السابق، ص: 63.

² - م ن، ص: 65.

³ - ينظر: م ن، ص: 66.

وهي "دلالة التركيب والبعد السيمانطيقي (الدلالي) للعلامة اللغوية، وفيه يقف الباحث عند إشارات كل من العلاقات التحوّية التي تحكم مسارها"¹.

ويتحلّى ذلك خاصة في العنصر "معاني النحو ودلالة التركيب"، والذي نجد فيه الباحث يعقد المقارنة بين ما ذهب إليه الجرجاني والجاحظ، وما ذهب إليه باحثون عرب آخرون كابن الجني، والسكاكي، وابن القيم الجوزية، والرّماني من جهة، وما ذهب إليه أساطين البحث الغربيين ك: ديتشيس، وبوجين نيد، واللغوي ن. تشومسكي من جهة أخرى، فيما يتعلّق بالتركيب ليستخلص "أن هذه الظواهر الدلالية والبلاغية المتجلية في التراث العربي تتجاوز في ما تذهب إليه مع بعض ما تقول به الدلالية الحديثة من حيث أنّ أولى المجالات التي تصب عليها هذه الأخيرة اهتماماتها هي هيئة الكلمات في النصوص"².

هذا فيما يتعلّق بالتركيب، أما ما يخصّ "دلالة السياق"، فيرى الباحث أنه من أهمّ نتائج البحث الدلالي التي عني بها الباحثون القدامى، من ذلك ما ذهب إليه "الشافعي"، وما أشار إليه الجاحظ في ثنايا كتبه، أما فيما يتعلّق بهذه الدلالة وقصد المتكلم، يخلص الباحث إلى أن مقارنة "ابن القيم الجوزية" بينهما، وما خلص إليه "التهاوني" من جهود العلماء في ميدان الدلالة، وما توصل إليه الجرجاني في قضية القصد بتفريقه بين المعنى الناتج عنها وبين مسألة (الغرض)، وما قدمه "ابن خلدون" من تصور عن الدلالة السياقية التّصيّة³، فهؤلاء سواء أكانوا لغويين أو دلالين تجاوز اهتمامهم الدلالات المركزية والسياقية إلى ما يحيط بها من شحنات عاطفية وحمولات فكرية⁴. ففي هذا السياق، يستشف الباحث "الفهم التّراثي للطبيعة النفسية للظاهرة اللغوية، ودورها الاجتماعي ومنطقها العقلي ممثلا في (الاصطلاح) أو (التواضع العربي)،

¹ - ينظر: عقاق قادة: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التّراثي، ص.ص: 66-68.

² - م ن، ص: 72.

³ - ينظر: م ن، ص.ص: 74-77.

⁴ - م ن، ص.ص: 77-78.

ومقاييسه وقواعده التي ينبغي ألا تخرج عن الحدود الثابتة لصياغة الكلمات أو التراكيب، يقترب بعض الاقتراب من التحليل الدلالي الحديث¹.

أمّا ما يتعلق بـ"دلالة السياق وكفاءة المتلقي"، يرى الباحث أنّ العلماء العرب لم يتوقّف اهتمامهم على دلالة السياق وقصد المتكلم بل تعداه إلى حال المتلقي، جاء هذا لأجل تبيان دوره و أهميته في العملية الدلالية، في أثناء حديثهم عن الدلالة الحقيقية والإضافية والهامشية والعرضية وغيرها² مستندا على آراء الأصوليين العرب وعلى رأسهم "ابن القيم الجوزية" الذي ربط الدلالة الحقيقية بقصدية المتكلم وإرادته، بينما ربط الدلالة الإضافية أو الهامشية أو العرضية بفهم السامع وإدراكه هذا التصور - كما يراه الباحث - يتقارب مع ما طرحه العلماء الغربيون المحدثون على اختلاف تخصصاتهم، واهتماماتهم البحثية من أمثال النمساوي "ليوسبيتزر" (*Lio Spitzer*)، المهتم بالدراسات الأسلوبية النفسية، والعالم السويسري "ف. دي سوسير" (*F. Dessusure*)، ورائد المدرسة الاجتماعية اللغوية (السياقية) "فيرث" (*J. R. Firth*)، والعالم اللغوي "هيلمسليف" (*L. Hyelmsleve*). وتخلص مقارنة الباحث هاهنا، إلى نتيجة مفادها أن الأطارح الدلالية التي حبل بها التراث الفكري واللغوي العربي، تلتقي مع المعالم الرئيسية التي أفرزتها البحوث الدلالية الغربية الحديثة، رغم وجود "بعض الاختلافات في التفاصيل طبعا والتي لها أسبابها المتعددة، ولا يتسع المجال لذكرها - سواء من حيث العناصر المكوّنة للسياق والعلائق الرابطة بين هذه العناصر وأهميتها في إدراك المعنى، أم من حيث قصد المتكلم وحالته وحالة السامع وتكوينه الثقافي ومقام التلفظ، أم من حيث تلك التغيرات التي تطرأ على العلامة اللغوية في أثناء وضعها في جملة أو ضمن سياق معين، أو حين ارتباطها بما قبلها وما بعدها، ونقصد هنا تحديدا (الدلالة التحوّلية)³".

وبعدما تسنّى للباحث ملامسة ذلك التحول من ثنائية "اللفظ والمعنى" إلى دلالة التركيب في المتون التراثية للبلاغيين والأصوليين، ومدى تقاربها مع ما جاءت به النظريات الغربية،

¹ - م ن، ص: 78.

² - عقاق قادة: م ن، ص: 78.

³ - م ن، ص.ص: 80-81.

ينتقل إلى معالجة عنصر آخر لا يقل أهمية عن سابقه، والمتمثل في "المجاز اللغوي ونظرية المعنى ومعنى المعنى"، بحيث تناول من خلاله بعض العناصر المنضوية تحته، والتي منها: (البعد الإيحائي لدلالة التركيب)، و(نظرية "المعنى" و"معنى المعنى")، و(المجاز: بين المنطلق اللغوي والأفق البلاغي)، وفي جميعها يلمس الباحث جهود عبد القاهر الجرجاني التنظيرية أو الإجرائية، لما كان بصدد إثبات صحة نظريته في النظم. وهنا، تستوقف الباحث رؤية الجرجاني الثابتة في تمييزه بين ضربي الكلام: السطحي أو الظاهري (المعنى)، والعميق (معنى المعنى)، هذه الأخيرة التي تقاطعت "في كثير من مفاصلها مع آليات التحليل السيميائي المعاصر"¹.

يحاول الباحث في هذا المقام تبيان جهود الجرجاني، وكذلك ما أنجزه الباحثين الغربيين على اختلاف مشاربهم، منهم "روني ويلك" (R. Wellek) و"واستن وارن" (A. Warren) في أثناء محاولتهما تأسيس نظريتهما في الأدب²، وكذلك جهود كل من "شارل بالي" (Ch. Bally) ومن بعده "رومان جاكبسون" (R. Jakobson) "في تحديدهما للقيمة الإبداعية للأدب في تمايزه عن أضرب الكلام الأخرى من حيث المستوى وبخاصة التواصل..."³. وبالوتيرة نفسها يعالج الباحث عنصر (المجاز: بين المنطق اللغوي والأفق البلاغي)، يتناول فيه جملة من العناصر تدور حول (تحليل الخطاب الأدبي بين علمي النحو والبلاغة)، و(دلالة الاستعارة والموقع البلاغي المتحول)، وكذلك (المجاز بين ثبات القوانين التحويلية وديناميكية المكونات الدلالية)، بالإضافة إلى (البعد الدلالي (الإيحائي) للمجاز وقابلية التأويل)، وفي جميعها، لا يكاد الباحث يبرح الفكر الجرجاني⁴.

يختتم الباحث هذا الفصل بعنصر بحثي، بـ"بلاغة (النص لا (الإشارة)، حيث يستحضر فيها الباحث المقولة العربية التي جاء بها الجرجاني (كثير الرماد)، وعالجها معالجة بلاغية، وهنا

¹ - عفاق قادة: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص: 82.

² - ينظر: م ن، ص: 83.

³ - ن، ص: 84.

⁴ - ينظر: م ن، ص.ص: 86-94.

نجد الباحث يستند على القراءة السيميائية التي قدمها الناقد "عبد الملك مرتاض" بخصوص هذا القول.

يلفت الكاتب انتباه القارئ، أنه رغم التوافق، والتقاطع، وكذلك الالتقاء بين ما جاء به المنجز التراثي العربي وما طرحه الفكر الغربي الحديث حول مسألة "اللفظ والمعنى"، يوجد اختلاف يلمسه المطلع على ما حبل به هذا التراث وما طرحته هذه النظريات الغربية، ونعزو ذلك إلى تباين الظروف والمنطلقات لكليهما.

- قراءة نقدية تقويمية:

إنّ المطلع على هذا المنجز، لسوف يجد زادا معرفيا كبيرا، وقيمة علمية تحتاج منا الوقوف عندها ومدارستها.

- وتأسيسا على ما تمّ استحضاره في هذا المقام، يبدو للدّارس من معالجة الباحث لبعض قضايا التراث، والتي أصبحت من صميم البحث في الطرح الغربي طبعاً، أنه توسّل بالمنهج الوصفي المقارن رغم أن الباحث لم يصرّح به في مقدمة كتابه، حيث نلفيه قد اعتمد مبدأ التدرج في التناول والمعالجة؛ إذ يعرض بداية القضايا التي تنبّه إليها علماء العرب المسلمين، ثم يصفها، وبعد ذلك يعقد المقارنة بينها، وبين ما طرحته النظريات الغربية، ومن خلال العرض والوصف والمقارنة والتحليل، يخلص إلى نتائج يجدها القارئ منطقية؛ لأنه يقرنها بالحجج المقنعة. وفي هذا نجد أنّ الذي قام به الباحث محكوما بالصرامة المنهجية، بحيث يتجلى ذلك الحذر المنهجي لديه في طريقة تناوله للعناصر الرئيسة، وكيفية تفريعها إلى عناصر بحثية ثانوية، فانطلاقه من الكل إلى الجزء ثم البرهنة بالتراجع لاستخلاص النتائج، لهي فعلا لعبة التفكيك والتركيب التي تعتمدها المناهج الحدائية وما بعد الحدائية.

- إن المقارنة التي عقدها الباحث بين المنجز التراثي وما توصلت إليه السيميائية، تبرز فطنته ووعيه بقيمة ما يقوم به، ومسؤوليته تجاهه، فمقارنته تنأى عن إسقاط لاحق على سابق دونما مبررات لإثبات صحّة الطرح أو دحضه، فهو يدرك أن صنيعا كهذا لا يستقيم، لما فيه

من مغامرة محفوفة بمزالق كثيرة، خاصة إذا ما تعلقت المقارنة بين تراث عربي ضخم ومتشعب، وطرح غربي متجدد باستمرار.

- إنّه رغم الحذر المنهجي الذي وسم هذه الدراسة، وكذا المقارنة الواعية التي اعتمدها الباحث، نرى أنّه في ظل غمرة حماسه -ربّما- وتوقه للمغامرة، نجده يحاول المقارنة بين طرحين غير متكافئين، على اعتبار أنّ المدونات التراثية المدروسة محدودة -من جهة-؛ كون أنّ أغلبها مندثر أو مسروق أو محتكر. ومن جهة أخرى، أنّ البحث الغربي في تحوّل مستمر، وتراكم متزايد لحظة بلحظة. وإلى جانب هذا كلّه، هناك تباين في السياقات والأيديولوجيا بينهما. وبالتالي، باتت المقارنة بهذا الشكل، تستدعي الإحاطة الجيدة بهذين الطرحين. وأمر كهذا، لا يحقّقه جهد فردي، رغم ماله من أهمية وحضور.

- ما يميّز توجه الباحث في هذا الكتاب، هو أنّه مشدود بنزعتين واحدة تراثية وأخرى حديثة، فهو بهذا يحاول خلق توليفة بين التراثي والحداثي، وحدائته ههنا، لا تدعو إلى القطيعة المعرفية (الابستمولوجية) مع التراث؛ إذ نجده يعالج بموضوعية بعض القضايا التراثية كالعلامة وثنائية اللفظ والمعنى... كما راجت في بيئتها، ويبحث عن نقاط موضوعية لا ينتصر فيها لطرف حساب آخر، إنّها الموضوعية ولا شيء سواها.

- إنّ ما يشدّ انتباه القارئ، هو عنوان الكتاب الذي اختاره الباحث، وهو "السيميائيات العربية -قراءة في المنجز التراثي- فالعنوان بهذا الشكل، يثير أسئلة كثيرة في ذهنية القارئ، أشدها إلحاحا هي: هل -فعلا- لدينا سيميائيات بما يعنيه هذا المصطلح من دلالة، باعتبار أنّها علم علامات قائم الأركان والأسس، ومحكوم بأدوات التحليل؟.

- إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة -كما يراها الدّارس- فيها ضرب من المبالغة، وربّما المغالطة؛ ذلك لأنّ العرب حاموا حول هذا العلم، ولم يقعوا عليه فعلا كما نعرفه نحن الآن. وعليه، فما توصل إليه العرب القدامى لا يعدو أن يكون تمظهرها لبعض القضايا والمسائل، وقف عندها النقد الأدبي العربي القديم. من هذا، يتوصّل القارئ إلى أن إيراد الباحث هذا العنوان ينمّ عن انتصار ضمني بأسبقية الطرح العربي للسيميائيات، وكأنّ العرب عرفوا هذا العلم كفاية، والذي

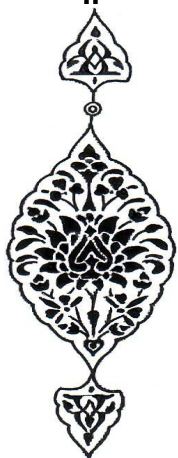


نقرّ حقيقة أنّه لم يكن في الأصل سوى ملامح لتفكير جنيني للسيميائي، بثّه علماء العرب المسلمون على شكل أفكار عابرة هنا وهناك في ثنايا مؤلّفاتهم، حتى أنّ الدارسين للمدونات التراثية لم يقفوا على ما يوحي أنّ هؤلاء قد تنبّأوا بميلاد علم يدرس العلامات، لهذا نرى في صنيع بعض الباحثين بأوبتهم إلى التراث هو وضعه تحت إرغامات وإكراهات تقوّله أقوالا هو منها براء، رغم أنّ الباحث حدّر في مواطن كثيرة من كتابه - من مغبّة الوقوع في مزالق المقارنة التي لا تستقيم - لا من حيث المنطلقات ولا من حيث المرامي.

الفصل الثاني

المرجعيّة الغربيّة للخطاب

السّيميائي المغاربي.



الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



- التفكير السيميائي "من الرؤية الفلسفية إلى الرؤية النقدية":

اشتغل فكر الانسان منذ زمن بعيد على البحث في ماهية الكون ووجوده وحقيقته وتفسير ظواهره؛ كي يخضع ما فيه لسلطته ويوجهها إلى ما يخدم مصالحه. أمر كهذا، حذا بالفلاسفة للبحث عن نظرية المعرفة* لدى الإنسان، على اعتبار أنّ فضوله وحبّه للمعرفة مكّناه من الاطلاع والدراية بما يحيط به ويفسره من منطلق تجاربه الحياتية المرتكزة على تأملاته الدلالية. فهذه التجارب، جعلت "حياة الإنسان قائمة على الدلالة، إذ في إطارها بنى قيمه الأخلاقية والمعرفية والجمالية، وبها ومن خلالها طوّرت تجربته بشقها المادي (الحضارة) وشقها الفكري والروحي (الثقافة)"¹.

لقد أضحت التفكير السيميائي للإنسان يعتمد البحث في طريقة اشتغال الأنساق الدلالية التي يستعملها. وفي خضم هذا، يريد الإنسان "أن يعطي دلالات لنفسه ولسلوكه وللعالم من حوله، وأن يتواصل مع الآخر بتلك الدلالات ومن خلالها، مستنفرًا لذلك طاقاته التعبيرية والتفسيرية والتأويلية من جهة، وساعيا من جهة أخرى إلى تأمل تلك الطاقات وتطويرها؛ وهذا ما يجعله كائنا سيميائيًا بالدرجة الأولى"².

تأسيسا على هذا المعطى، يقف الدّارس على مكانة اللّغة التي تبوّأتها المعرفة، والأهميّة التي أولاها الفلاسفة لها؛ إذ يجدهم قد تناولوها بالدراسة والبحث في ماهيّتها وكيفية تكوّنها واستقبالها وإيجادها وكذلك في عملية توظيفها في التعبير عن أفكار مستعملها، لتغدو لديهم -في نهاية

* - تستحضر هذه النظرية ثلاثة آراء متباينة حول معرفة الإنسان تتجلى في الآتي: يرى الفريق الأول أن المعرفة هي مصدر خارجي تحتله السلطة الدينية أو ما يسمونها بالصوفية وفيها تكون عملية إكساب بواسطة قوى غيبية عظيمة لا دخل للإنسان فيها، ثم جاء فريق آخر بعد قرون من هيمنة الفكر الصوفي المغربي، وقال: إن المعرفة هي معرفة ميتافيزيقية تكمن فيما وراء الأشياء ذاتها وليست متأية من مصدر خارجي لاهوتي، ثم جاء فريق ثالث وعزّف المعرفة بأنها اكتساب عقلي يكتسبه الإنسان عن طريق التجارب التي يمرّ بها في حياته. لمزيد من التوسع ينظر: بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة -قراءة في التصور التحليلي-، منشورات الاختلاف (الجزائر)، الدار العربية ناشرون (بيروت)، ط1، 1431هـ، 2010م، ص: 64.

¹ - عبد الواحد المرابط: السيميائية العامة وسيميائية الأدب -من أجل تصور شامل-، دار المان، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط (المغرب)، الجزائر، لبنان، ط1، 1431هـ- 2010م، ص: 07.

² - عبد الواحد المرابط: م ن، ص: 07.

الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



الأمر - رموزا يعبر بها عن الأفكار، وأتّما صورة ومفهوم أو محمول وموضوع¹. وهي في نظرهم، ليست مجرد وسيلة تواصل وحوار وتقارب بين البشر، وإنما هي هدف البحث الفلسفي المنكب على دراسة العلامة من حيث ماهيتها ونشأتها، وتطورها، واستعمالاتها... "بصفتها شيئا يدل على شيء آخر بموجب علاقة رابطة هي الدلالة "Signification"². وهو ما جعلها تتشكل تدريجياً عبر محطات زمكانية بارزة في مسار تاريخ التفكير الفلسفي، "...فقد ورد ذكرها وتوضيحها عند كل من أفلاطون وأرسطو، والأمر نفسه نجده عند الرواقين، إذ ظهر أول مرة التقسيم الثلاثي للعلامة بشكل صريح ولم يغيب مفهوم العلامة، بل حتى مصطلح (السيميائية) عن "جاك لوك" الذي يعد أول من أطلق عليها هذه التسمية، أما "ديفيد هيوم" فقد عالج موضوع العلامة بشكل متميز عن طريق تناوله الفلسفي لقضية العلة والمعلول والحالة الخارجية ولم يخرج عن "مانويل كانت" عن الإطار الفلسفي للعلامة من حيث هي جزء من نظرية المعرفة"³. والعنصر الأساس لهذا التحوّل الذي وسم مفهوم العلامة انطلاقاً من تأملات فلاسفة اليونان، مروراً بالرواقين ثم علماء العرب المسلمين على اختلاف حقولهم وفرقهم، وصولاً إلى فلاسفة العصر الحديث (جاك لوك، ديفيد هيوم، وإيمانويل كانت)، يوضح لنا، أنّ مفهوم العلامة يضرب بـ"جذوره في تاريخ التفكير الفلسفي بجميع مشاربه الثقافية"⁴، وأنّ الظواهر السيميائية تمتد إلى الثقافة اليونانية والتراث العربي الإسلامي. والمتأمل في تلك الظواهر يجدها حقيقة مجردة إرهابات سيميائية تحتضنها مجالات معرفية متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً، وعدم تواشجها، هو الذي جعلها تحتاج "...لبنية تؤطرها كلها [وإلا] بقيت عاجزة عن أن تبني لنفسها كيانا مستقلاً ونسيجاً نظرياً مستقلاً"⁵.

¹ - ينظر: حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى السيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت، ط1، 1428هـ - 2007م، ص: 284.

² - عبد الواحد المرابط : السيمياء العامة و سيمياء الأدب - من أجل تصوّر شامل -، ص: 08.

³ - محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، منشورات الاختلاف، منشورات الضفاف، دار الأمان، الرباط، الجزائر، ط1، 1434هـ - 2013م، ص: 36.

⁴ - أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة، المنطلق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، الجزائر، بيروت، المغرب، ط1، 1426هـ - 2005م، ص: 09.

⁵ - حنون مبارك : في تقديمه كتاب "الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة لـ"مارسيلو داسكال"، ص: 04.

الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



لكن مع توالي الأزمان، وفي ظلّ التراكم المعرفي، لم تبق تلك المحاولات مجرد آراء سيميائية عفوية عابرة، بل أضحت فكرة واضحة، اتفق من حولها جلّ الباحثين، وأقروا أنّ هوية السيميائية النقدية والمنهجية والمفاهيمية، لم تتضح إلا في القرن العشرين، وأنّ سماتها أخذت تتكشف ابتداء من منتصفه؛ وذلك من خلال أربعة مصادر تأسيسية هي: الفلسفة التداولية التي بلورها "شارل ساندرس بورس"، واللسانية البنيوية التي شيدها عالم اللغة السويسري "فيرديان دوسوسير" (*F. De Saussure*) وفلسفة الأشكال الرمزية التي بلورها الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر (*E. Cassirer*) وأبحاث فلسفة اللغة والمنطق بالأكاديمية الأمريكية، والتي تبلورت انطلاقاً من تصوّرات "المنطق الرمزي" لمدرسة فيينا مع "فريج" (*G. Frege*) و"كارناب" (*R. Carnap*)، وروسل (*B. Russell*) وفيتغنشتاين (*L. Wittgenstein*)¹.

لقد ساهم التأسيس المزدوج (اللساني/المنطقي) لهذا العلم في انتشاره ضمن المشهد النقدي المعاصر الأوربي والأنجلوساكسوني؛ بحيث لا يكاد يصل النصف الثاني من القرن العشرين (ق.20)، حتى تجد السيميولوجيا (السيميوطيقا) نفسها قد تبوّأت مكانة مرموقة في الساحة النقدية، ولعبت دوراً مشجعاً على البحث عن المعنى الثاوي داخل النصوص الأدبية؛ إذ أنّها "ساهمت بقدر كبير في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى، ولقد قدّمت في هذا المجال مقترحات هامة عملت على نقل القراءة النقدية من وضع الانطباع والانفعال العرضي الزائل والكلام الانشائي الذي يقف عند الوصف المباشر للوقائع النصية إلى التحليل المؤسّس معرفياً وجمالياً"²، المبني على شمولية الطرح، وصرامة المنهج، ومرونة الإجراء. نستشفّ من هذا المعطى، الذي ميّزها عن غيرها من النظريات والمناهج أنّها فعلاً "نشاط معرفي بالغ الخصوصية من حيث أصوله وامتداداته ومن حيث مردوديته وأساليبه التحليلية"³.

¹ - ينظر: عبد الواحد المرابط: م س، ص.ص: 07-08.

² - سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها - منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص: 07.

³ - سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها -، ص: 16.

الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



يجد الدّارس في هذا التّشاط المتميّز تمكينا للسّيميائية في شلّ المدّ البنيوي الذي وصل إلى طريق مسدود بسبب انغلاقه على نفسه، وهو ما فسح المجال أمام السّيميائية كي تتقاطع مع حقول معرفية كثيرة كاللّسانيات والفلسفة والمنطق والتّحليل النّفسي والانتروبولوجيا وغيرها، حيث استقت منها بعض أدواتها، وتفاعلت معها. لقد ترتّب عن هذا التّداخل تطوّر واتساع مجالات البحث السّيميائيّ، ما جعلنا نقف أمام سيميائيات لا سيميائية واحدة، "وهذا يدل -من ضمن ما يدل عليه- على أنّه لم توجد بعد "سيميائية" واحدة تشتمل على مجموعة من المفاهيم والمناهج المشتركة بين أولئك الذي يدعون أنّهم "سيميائيون"¹. وبناء عليه، فإنّ السّيميائية لم تتضح معالمها النّظرية والمنهجية بعد وبشكل جليّ للباحثين فهي "...في طموحها غير المحدود إلى الشّمولية [...] ما زالت في طور الإنجاز والتّشكّل الهشّ، بحيث لم تبلور ملامحها بعد بصفة متكاملة، ولم تزل مجرد اقتراحات، أو علم من بين علوم أخرى تعدّ ضرورية، لكنّها غير كافية"².

لقد تولّد عن كثرة الدّراسات السّيميائية وتشعبها ظهور مدارس وتيارات واتجاهات متعارضة، سواء من حيث اقتراحاتها المتعلّقة بالنّظريات السّيميوطيقية المتنافرة، أو من حيث تصوّراتها في تشكيل نظرية "سيميوطيقية" أو "سيميولوجية"³، ويمكن للدّارس -في هذا الصّدّد- أن يرصد أهمّ الاتجاهات التي حفل بها الدّرس السّيميائيّ، ويقف على أبرز تقسيماتها المقترحة والتي منها التّقسيم الثنائي والثلاثي والخماسي⁴. أمّا أولى الاشكالات التي واجهت الباحثين

¹ - هيام عبدالكريم عبد المجيد علي: دور السّيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية -شعر البردوني نموذجاً- رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها (مخطوط)، الجامعة الأردنية، الأردن، أيار 2001، ص: 18.

² - قادة عقاق: الأصول العلمية للنظرية السّيميائية (مدخل نظري)، مجلة الموقف الأدبي، 465، اتحاد الكتاب العرب، السنة 38، سورية، 2009، ص: 09.

³ - ينظر: مارسيليو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد الحمداني وآخرون، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص: 18.

⁴ - من النماذج الحاضرة معنا نجد: - في التّقسيم الثنائي الذي اقترحه مارسيلو داسكال «*Marcelo Dascal*»، مدرستان: المدرسة الأمريكية المنبثقة عن أفكار بيرس ويمثلها موريس كارناب و"سيبوك"، والمدرسة الفرنسية المنبثقة عن طروحات "سوسير" ويمثلها كل من "بويسنس" و"بريطو" وجورج مونان ورولان بارث... أما التّقسيم الثلاثي فيتجلى في

الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



المغربيين تلك المتعلقة بالمنهج السيميائي، إذ منذ لحظات استقباله في الدرس النقدي المغربي وإلى يومنا، يلفيه الدارس لا يكاد يتجاوز "...حدود الملاحظة والوصف، ولا يتعدى ذلك إلى التقويم والتوجيه الذي يعدّان من أهم عناصر النقد الأدبي..."¹. وما يزيد من حدة إشكالية المنهج، هو إعماله غير الصّافي على كثير من الدراسات النقدية بسبب ما ينحوه النقّاد - في هذا الشأن - من انتقاء أو تلفيق منهجي.

وأما ثاني الإشكالات التي يتخبّط فيها الباحث المغربي والعربي عموماً تظهر في ترجمة المصطلح النقدي العربي، فلقد واجهها باحثون باجتهادات فردية في الغالب، وعالجوها بفهم منقطع النظير، فوقفوا على أسبابها وما ترتّب عنها من مزالق، وقدموا في شأنها اقتراحات محمودة ترمي للحدّ من غلواتها. كل هذا، تحسّسه الباحثون المغاربة في دراسات جادة² ومسؤولة قرّبوا من خلالها المصطلح السيميائي إلى القارئ العربي، وجعلوه في متناوله.

وتأسيساً على ما تمّ ذكره، فإننا نجد في غالبية الدراسات النقدية المغربية المعاصرة انتصاراً للتنظير على حساب الممارسة، "...حيث يقع تأمل القارئ على تفاوت كبير بين التنظير والإجراء، فهناك طرح غنيّ وثرّي على مستوى التنظيري، يقابله اختزال كبير وتعميم واضح على مستوى الإجراء"³. نلمس هذا خاصة في مقارنة النصوص الشعريّة، ولئن كانت الغاية من وراء هذا الصّنيع تعليمية وتأسيسية وتأصيلية، فإنّ السيميولوجيا (السيموطيقا) كنظرية وكمنهج ليست تنظيراً فقط، وإنما هي ممارسة كذلك.

اقتراح "محمد السرغيني" المتمثل في الاتجاه الأمريكي والفرنسي والروسي... أما التقسيم الخماسي فهو من اقتراح مبارك حنون، والمتمثل في سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة وسيموطيقا "بورس" ورمزية كاسيرز وسيميولوجيا الثقافة.

¹ - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 113.

² - سنكتفي بذكر بعض الدراسات المغربية الجادة في هذا الشأن لكل من: -مولاي علي بوخاتم: مصطلحات النقد العربي السيماءوي (الإشكالية والأصول والامتداد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005. / -يوسف وغيلسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، (1429هـ - 2008م).

³ - بشير محمودي: التحليل السيميائي للخطاب الشعري لقراءة قصيدة "الحنن" لصلاح عبدالصبور"، مجلة الموقف الأدبي، ع 404، السنة الرابعة، كانون الأول، 2004، دمشق، سوريا، ص: 34.

الباب الأول/الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي.



لقد شهد النقد السيميائي المغربي عدة ممارسات إجرائية على آثار أدبية سردية وشعرية، إلا أنّ "ما يلاحظ على هذه التطبيقات السيميائية أنّها عبارة عن تمارين شكلية تغفل الجوانب المرجعية والمضمونية والأبعاد الأيديولوجية..."¹، كل هذا أفضى إلى نتائج، يعتقد أحد الباحثين أنّ أغلبها يبقى "...تحصيل حاصل، وذلك بعد تسويد العديد من الأوراق المرفقة بالأشكال والجداول والرّسومات الهندسية والأسهم التّواصلية، ولكن الفائدة القليلة جدّاً تتمثّل في لعبة التّفكيك والتّركيب، دون الحصول على معارف جديدة، ما عدا القليل من الدّراسات والأبحاث الجادّة"² التي طبّق فيها بعض الباحثين المغاربة المنهج السيميائي تطبيقاً صافياً، بعيداً عن التّهجين، من ذلك ما قدّمه رشيد بن مالك، سعيد بنكراد، محمد الناصر العجيمي،...

- استناداً على المنجز النقدي المغربي، يحاول الدّارس تحديد أهمّ الرّوافد العلميّة التي اتّكأ عليها الباحث المغربيّ في أثناء مدارسته للنّظرية السيميائية. وعليه، ينبغي البحث في فحوى السّؤال التّالي:

- ما هي الأصول المعرفية الغربية التي استند عليها الباحث المغربيّ في بناء صرح درسه السيميائيّ؟.

هذا ما سيعالجه الدّارس في المباحث الموالية.

¹ - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 113.

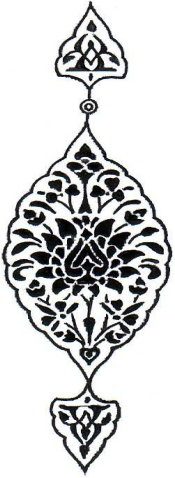
² - م ن، ص ن.

المبحث الأول

المعطي اللساني

في

الخطاب السيميائي المغربي.





– المعطى اللساني في الخطاب السيميائي المغربي:

يجمع جلّ الدارسين المهتمين باللغويات، أنّ "ف. دي سوسير" *F. De Saussure* (1857-1913)، هو رائد البحث اللغوي في العصر الحديث بلا منازع، بحيث ما طرحه من أفكار رائدة تجاوز بها الدراسات اللغوية التقليدية السابقة الفيلولوجية والتاريخية، جعلته فعلا "مؤسس العلوم اللسانية الحديثة"¹ التي تتوسل بمنهج دقيق وأدوات فعّالة، وقد تجلّى ذلك لما حدّد خياراته المنهجية المؤطرة لبحثه اللغوي، من خلال اعتماده المنهج الوصفي، "الذي لا تحتكم قوانينه إلى العوامل التاريخية أو الخارجية الأخرى، بل إنّ اللغة في إطار هذا المنهج مغلق لا يؤمن بما يقع خارجه من عوامل"².

وفق هذا التصوّر، وهذا التوجّه الجديد، حمل على عاتقه تقديم محاضرات على طلبته تحمل صبغة فريدة، وتناول متميز لعلم اللغة الحديث والمعاصر والتي رأت النور بعد وفاته، حينما جمعها طلبته، ووسمها بدروس في اللسانيات العامة *Cours de linguistique générale* وأوضحوا فيها أفكاره، التي أحدثت ثورة عارمة على الصّعيد الفكري والمنهجي واللغوي (اللساني) ما جعلها تشكّل "مرجعا لكثير من الباحثين في مختلف الاختصاصات سواء أكانت لغوية أم أدبية، بل حتى اجتماعية ونفسية، ولعلّ سبب ذلك يعود إلى أنّ سوسير تناول اللغة بوصفها أداة اتّصال فحاول الوقوف على ماهية تكون اللغة ذاتها وفقا للثنائيات المطروحة في نظريته"³ كمثل: مفهوم العلامة والدال والمدلول، اللغة والكلام، الآنية والتزامنية، العلاقات التنظيمية والعلاقات الاستبدالية، الصّوت والمعنى، التسق، اللسان، المحور التركيبي والاستبدالي.

وعليه، لا يمكن –من منظور هذه التصوّرات والمفاهيم التي استعرضها- إيجاد بحث طويل كان أم قصير، إلا وفيه حضورا مقنعا لرؤى هذا العالم اللساني؛ ذلك لأنّ أفكاره جعلت "البحث

¹ - جونثان كلر: فردينان دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأدبية، القاهرة، ط1، 2000، ص: 58.

² - فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت، 2010، ط1، ص: 40.

³ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، ص: 52.

الألسني واسعاً مرناً، يسمح بتوظيفه في دراسة الميادين الأخرى¹؛ بحيث باتت تصوّرات الطّرح اللّغوي معوّمة بشكل أو بآخر في علوم إنسانية كثيرة كعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، والتاريخ، والأدب. إنّ هذا الواقع يبرز تلك المكانة التي حظيت بها اللسانيّات بين تلك العلوم، وما كان لها أن تتحقّق، لولا إسهامات سوسير، الذي استطاع بتصوّراته أن يغيّر طبيعة العلاقة التي كانت سائدة بين اللسانيّات وتلك العلوم، "فبعد أن كانت اللسانيّات خاضعة لهذا العلم أو ذاك، أصبحت علماً مستقلاً ينطلق من طبيعة موضوعه (اللغة)، فقد تستثمر اللسانيّات معطيات علم النفس أو علم الاجتماع أو غيرهما، لكنّها توجّه هذه المعطيات نحو خدمة التحليل اللساني²".

يشكّل الأنموذج اللّغوي أساس علم العلامات، وقد تبلور ذلك خاصّة، فيما أشار إليه "سوسير" في محاضراته، التي تنبأ فيها بميلاد علم جديد يعنى بدراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعيّة، وأوضح فيها الرّابطة القويّة والمتينة بين اللسانيّات والسيميائيّات. هذا الأخير الذي يشكّل الكلّ واللّسانيّات ماهي إلا جزء من هذا الكلّ، حيث يقول -في هذا الصّدّد- "إنّ اللّغة نسق من العلامات، يعبر عن أفكار، ومنه فهي مشابهة للكتابة، وأبجديّة الصّم والبكم، والطقوس الرّمزيّة، وأشكال المجاملة والإشارات العسكريّة... إلخ إنّها-و فقط- الأهمّ بين كلّ هذه الأنساق، يمكننا -إذن- أن نتصوّر علماً يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعيّة؛ قد يشكّل قسماً من علم النفس الاجتماعي، وإذن من علم النفس العام، سنسميه السيميولوجيا -Sémiologie- (من الكلمة الإغريقيّة *Séméion*، بمعنى علامة/*Signe*) التي يمكن أن تنبئنا بما تتكوّن منه من العلامات، والقوانين التي تحكمها، وبما أن هذا العلم لما يوجد بعد، فإنّنا لا نعرف ما سيؤول إليه، لكنّه حقيق بالوجود، ومحدّد المكانة سلفاً، إنّ الألسنيّة ليست قسماً من هذا العلم العام الذي ستغدو القوانين التي يكتشفها قابلة للتطبيق على الألسنيّة، وهكذا ستجد هذه الأخيرة نفسها مرتبطة المجال دقيق التّحديد ضمن مجموع الوقائع البشريّة³".

1 - محمد فليح الجبوري: م س، ص: 52.

2 - المرابط عبد الواحد: السيميائيّة العامة، وسيميائيّة الأدب، ص: 54.

3- Ferdinand De Saussure: Cours de Linguistique Générale, 2eme éd, ENAG /Edition, Alger, 1994, P33.

وينظر كذلك: يوسف وغليسي: محاضرات النقد المعاصر، منشورات جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2004-2005، ص: 61.



عظما على التصور السوسيري الذي يجعل من اللسانيات مجرد قسم من بين الأقسام السيميائية الأخرى، نرى أنه رغم فرعيتهما، فإن حضورها مكين في بناء صرح السيميائية، على اعتبار أن هذه الأخيرة -في عمومها-، "لا تستطيع أن تعين الوقائع الدالة موضوعا لها إلا انطلاقا من مفهوم العلامة اللسانية"¹ التي عدّها "سوسير" مثلا لجميع العلامات السيميائية. من هذا تنبني سيميولوجيا الألسنية لدى "سوسير" على اللغة؛ كونها تمثل ذلك النظام الاجتماعي الذي يقوم عليه البحث السيميائي، بل وتغدو واحدة من بين الظواهر السيميولوجية التي تستقطب اهتمام الباحثين. وعليه فالسيميولوجيا كما نعتها "سوسير" هي جزء من علم النفس العام الذي يدرس "كلّ العلامات الدالة التي لا تدرس اللسانيات إلا اللفظية منها، حيث تعنى أساسا باللسان"².

لقد احتفى "سوسير" بـ"اللسان"، وأرسى معالمه النظرية بوصفه نظام من العلامات، وأنّ "المشكل اللسانيّ هو قبل كلّ شيء مشكل سيميولوجي"³، وفي هذا نلمس مقصدية "سوسير" التي تعتبر أنّ أصل العلامة اللسانية إنّما هو اللسان، الذي سبق وأن أكد مرجعيته الاجتماعية و"عدّه خزّانا للتعاقدات والاتفاقيات (conventions) المتبناة من طرف المجتمع، كما أوضح سوسير هذا التصور أيضا في المستوى التحليلي حين رأى أنّ اللسان يتكوّن من وحدات صغرى هي العلامات"⁴.

يستشف الدارس -من هذا- أنّ السيميولوجية السوسيرية تحفي في المقام الأول بالعلاقة الماثلة بين العلامات كونها تمثل قيمة سيميوطيقية، بحيث لا تستوحي دلالتها (معناها اللغوي) من اقتران شيء باسم، وإنّما تستوحيه من ترابط الدال (Signifiant) والمدلول (Signifie)، على اعتبار أنّ الدال صورة سمعية تولّد الأصوات، فتغدو -بذلك- العلامة لدى سوسير "وحدة

¹ - عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسمياء والأدب، ص: 37.

² - عبد الحميد العابد: سيميائيات الخطاب الروائي: "اللص والكلاب" و"ذات"... رؤية جديدة، كتاب الرافد، ع59، ديسمبر 2013، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ص: 16.

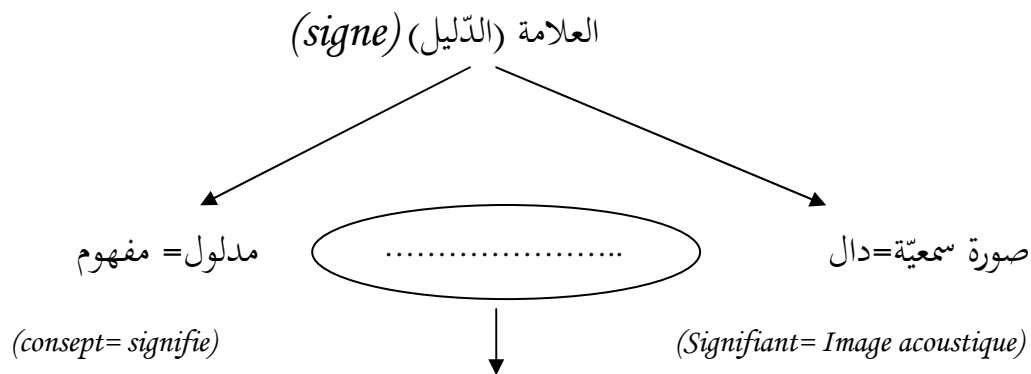
³ - دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2004، ص: 51.

⁴ - عبد الواحد المرابط: م س، ص: 66.

الباب الأول/الفصل الثاني/المبحث الأول: المعطى اللساني في الخطاب السيميائي

المغربي.

نفسية ذات وجهين مرتبطين ارتباطا وثيقا، ويتطلب أحدهما الآخر¹، وفي قيامها على هذه الثنائية يتم إقصاء المرجع (تغييبه)، فتحضع العلاقة بينهما لمبدأ لا يمكن تفسيره (تعسفي) كونه لا يخضع للعلية أو السببية، وتصور سوسير -هنا- يرى "أنّ كلّ علامة تتكوّن من دال ومدلول يقوم ارتباطهما على مبدأ الاعتباطية (*arbitraire*)، الذي هو مبدأ إجتماعي بالدرجة الأولى"²؛ ذلك لأنّ العلاقة بين الدال والمدلول "لا تقوم على المناسبة والمشابهة"³، وإنما تقوم على عادات جماعية متواضع عليها، ويبدو لنا "أنّ ثمة علاقة بين اعتباطية الدال والمدلول والسيميولوجيا، بل نجد سوسير يذهب إلى أنّ الموضوع الأساس للسيميولوجيا سيكون دراسة الأنظمة التي تقوم على اعتباطية العلامة، فإذا ما توقّرت هذه الاعتباطية فإنّها سوف تحقّق الحالة المثالية للعملية السيميولوجية"⁴. وبالتالي، القيمة السيموطيقية التي تنشدها العلاقة بين الدال والمدلول، وهذا ما سنبرزه بالمخطط البياني التالي:



تكمن القيمة السيموطيقية في ربط بينهما

تأسيسا على ما سبق، يرى الدارس أنّ جميع الأنظمة السيميولوجية يتم إخضاعها إلى الأنظمة الألسنية، ما يجعل العلامة تكتسب مفهومها داخل النظام اللغوي لا خارجه، وبالتالي، لا يتم فهم العلامة السيميولوجية إلا من خلال العلامة اللغوية، لكن نظرة "سوسير" هذه، قد ضيّقت من أفق السيميولوجية، ذلك لأنّ "الطرح السيميولوجي يركّز على العلامات

¹ - عصام كامل خلف: الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص: 24.

² - عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص: 66.

³ - م ن، ص: 42.

⁴ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميولوجي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 56.

في أي نظام قائم في ثقافة معينة، وليس فقط على النظام الصوتي اللغوي، لكنه في الوقت نفسه يسحب على هذه العلامات ما يسحبه من سوسير على علامات الصوتي اللغوي¹.

إنّ تنبأ "سوسير" بعلم العلامات (السيميولوجيا) في محاضراته، يشكّل سبقاً نوعياً على الرغم من عدم تحديده للأطر العامة التي يتأسس عليها هذا العلم؛ ذلك لأنّ اهتمامه انصبّ على تحديد موضوع اللسانيات الوحيد، وهو دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، وأنّ جلّ الثنائيات التي تدرس بها اللغة ك: اللسان/الكلام، الدال/المدلول، محورا التركيب/الاستبدال، التزامني/الدياكروني، "لا تدخل في ماهية التفكير السيميولوجي للعلامة، بل نجدها تخصّ البحث الألسني"².

من هذا، تغدو الإشارة العابرة والعرضية لهذا العلم من طرف سوسير في أثناء تناوله العلامة اللسانية لا تعني أنه أصل لهذا العلم؛ إذ يرى بعض الباحثين أنّ التصنيف الثنائي للعلامة الذي اقترحه هذا العام اللغوي، يحتاج إلى مراجعة وتدقيق³، لكنّ الدّارس يجدها قد "تحوّلت إلى مواقف تبنّاها النقاد السيميائيون، ويتّضح ذلك في ما تزخر به دراساتهم اللغوية من جماليات في سياق العلاقات الاعتبارية التي تفرض دلالات غير منتهية"⁴. وعليه، فلا أحد ينكر فضل الطرح السوسيري على تلك الجهود النقدية في مجال السيميائيات والتي تشكّل "بتصوّراتها المختلفة أطروحة ترعرعت في مهد اللسانيات الغربية، ويظهر ذلك عملياً وتطبيقياً في تأثر الدرس السيميائي بالنظرية اللغوية السوسيرية"⁵. وقد يتجلّى هذا التأثير على وجه أخصّ في السيميائية الأدبية، التي تعنى في المقام الأول بالمادّة اللغوية للأدب وهو "ما يجعلها أقرب المباحث السيميائية

1 - بتول قاسم ناصر: محاضرات في النقد الأدبي، مركز الشهيدان الصدرين للدراسات والبحوث، العراق (د. ط)، (د. ت)، ص: 64.

2 - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 57.

3 - ينظر: محمد فليح الجبوري: المرجع نفسه، ص.ص: 55-58. وينظر كذلك: ستروك جون: البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص: 14.

4 - كمال جدي: المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، أطروحة ماجستير (مخطوط)، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2011-2012، ص: 19.

5 - كمال جدي: م س، ص: 20.

إلى اللسانيات، بل هنا من يحسبها فرعا من فروعها...والحقيقة أنّ سيمياء الأدب شكّلت حقلا خصبا للعديد من المحاولات التي تسعى إلى توسيع المفاهيم اللسانية وتمديد معطياتها في أفق تأسيس السيمياء العامة¹.

بناء على هذا الطرح، فإنّ التوجّه السيميولوجي (السيميوطقي) يحتفي ببحثه بالمعنى في أثناء استجلائه الآثار الأدبية، ويتمّ ذلك من خلال بعض المبادئ التي كرّسها الطرح السويسري والتي منها مبدأ المحايثة *Immanence*، ومبدأ الاختلاف *Déférence*. تسعى السيميائية -بالاستناد على هذه المبادئ اللسانية- إلى تناول النصوص الأدبية عبر لعبة الهدم والبناء؛ أي عبر التفكيك والتّركيب أو كما نعتها أحد الباحثين المغاربة². وتحقيق هذا المعطى، تحاول السيميائية "إعادة بناء النص من جديد وتحديد ثوابته البنيوية"³. وعطفا على ما سبق ذكره، فإنّ هذه المبادئ اللسانية التي احتاجتها السيميائية في بناء صرحها قد استوقفت النقاد المغاربة لما لها من فاعلية في مقارنة المسائل الدلالية، من ذلك شروحات رشيد بن مالك، عبد الحميد بورايو، نادية بوشفرة، محمد الناصر العجمي، سعيد بنكراد، جميل حمداوي وغيرهم.

1- مبدأ المحايثة *Principe Immanence*:

تستثمر السيميائية المبدأ اللسانيّ في استجلاء الدلالة من النصوص الأدبية، ذلك لأنّ هذا المبدأ إنّما يقوم على "البحث عن الشروط الداخليّة المتحكّمة في تكوين الدلالة، وإقصاء المحيل الخارجي. وعليه، فالمعنى يجب أن ينظر إليه على أنّه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرابطة بين العناصر"⁴؛ أي أنّ المعنى وفق هذا المبدأ يولّد نصّا مستقلا بنفسه. من هذا، يأتي التّحليل المحايث ك"طريقة في التّحليل تأتي لمراعاة انقسام النصّ إلى محتوى (*contenu*) وتعبير (*expression*)

1 - المرابط عبد الواحد: السيمياء والعامة وسيمياء الأدب، ص: 24.

2 - يرى الباحث المغربي "جميل حمداوي"، أن الممارسة السيميائية تقوم اعتمادا على لعبة الهدم والبناء، أي لعبة التفكيك والتّركيب، ينظر: جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 106-107.

3 - جميل حمداوي: م ن، ص: 107.

4 - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 107.

مقترحة لوصف الدلالة¹. فلا يفهم النص إذن، ولا تنجز قراءته إلا بالاستناد على هذا المبدأ، كونه الوحيد الذي يمتلك حق الإجابة عن كلّ الأسئلة وإدراك المعاني².

إنّ فاعليّة هذا المبدأ في الدرس السيميائيّ، قد دفع بالباحثين المغاربة إلى تقريبه من القارئ العربي شرحا وإفهاما. وقد خصّص سعيد بنكراد -في هذا المقام- فصلا مستقلا للمفاهيم السيميائية³ محاولا تحديد بعض مضامينها من منظور سيميائي؛ حيث وقف عند كلّ واحد منها على حدة شارحا ومبسّطا ومتتبعا لسيرورته وكيفية تبلوره، لتغدو بذلك مفاهيم مركزية يستند عليها الناقد في فهم النص؛ لأنّها "تشكل الحجر الأساس الذي انبنت عليه السيميائيات، وتشكّلت كمنشآت معرفي مستقل [...] وثيقة الارتباط بالمعنى من الوجود والمادّة والتداول والسيرورة..."⁴. إنّ الاجتهاد الفردي للباحث الذي غطّى في عرضه جزءا من المفاهيم التي ترومها السيميائيات في كشف المعنى، يبقى التفاتة محمودة تقف عند حدود استقراء هذه المفاهيم ضمن المنهج السيميائيّ وتقريبها من القارئ العربي. تتجلى هذه المفاهيم في: المحايثة *Immanence*، المعنى *Sens*، الدلالة، التأويل، مستويات الدلالة، الرمز *symbol*، السيموز (السيرورة المنتجة للدلالة *semiose*).

أمّا رشيد بن مالك فقد خصّص حديثه في القسم النظري من كتابه "مقدمة في السيميائية السردية عن الأصول اللسانية والشكلانية للنظرية السيميائية؛ إذ في معرض حديثه عن "الأصول اللسانية للنظرية السيميائية" تناول مبدأ المحايثة الذي توصلت به السيميائية للتّحليل والكشف عن الدلالة رادا هذا المبدأ إلى أصله اللسانيّ، انطلاقا من طرح سوسير في محاضراته ووصولاً إلى ضبط "لويس هيالمسلف" *l.hjelmslev* لموضوع اللسانيات باعتباره شكلا، حيث أصبح

¹ - لويس باني: القراءة السيميائية والمشروع اللاهوتي -وقائع وتساؤلات-، تر: نزار التجديني، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية (دراسات سال)، العدد 05، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، فاس (المغرب)، خريف-شتاء 1991، ص.ص: 108-109.

² - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات -مفاهيمها وتطبيقاتها- منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص:165.

³ - ينظر: سعيد بنكراد: م ن، ص.ص: 166-183.

⁴ - نفسه، ص: 164.

هذا التحديد يشكل منعطفًا في الدراسات اللسانية لما بعد سوسير¹. وهو فعلا - كما يذهب إلى ذلك الباحث - سيمكن أ. غريماس من "...صياغة مبدأ المحايثة في البحوث السيميائية، وفق منظورين، يبني المنظور الأول على مقولة التصديق *véridiction* المتمفصلة إلى محوري المحايثة (الكينونة) والتجلي (الظاهر) [...] ويؤسس "غريماس" المنظور الثاني على المقابلة: المحايثة/السمو ..."².

2- مبدأ الاختلاف *déférence*:

لقد شكّلت الثورة اللسانية التي أعلنها ف. دي سوسير على الدراسات اللغوية السابقة منعطفًا هامًا انعكس تأثيره على الدراسات اللغوية اللاحقة، ذلك لأنها حدّدت موضوع دراستها وكذا هدفها بدقة، حيث جعلت من اللغة موضوعًا، وأنه لا بدّ أن تدرس بذاتها ولذاتها من منظور المنهج الوصفي، والفكرة الرئيسية لـ "سوسير" من خلال هذا التوجه الجديد اعتبره "أنّ اللغة شكل وليس مادّة - جوهرًا - هي آليّة معقّدة، تحمل مجموعة من العناصر المتماسكة فيما بينها، ذات طبيعة تعارضية، وهي لا تعتبر رموزًا إلا بالقدر الذي يميّز بعضها عن بعضها الآخر، فالوحدات -العناصر- اللغوية مختلفة واختلافها يميّز بينها ليعطيها قيمة متباينة"³.

إنّ المطلع على المفاهيم التي كرّسها الطرح اللسانيّ السوسيري يلفيها كثيرة ومتنوّعة خاصّة تلك التي استخدمتها السيميائية في تشييد صرحها، والتي منها ثنائيتة (الوحدة/الاختلاف)، التي تكوّن بين عناصر النصّ إن اتّلافا أو اختلافًا، وهو ما يكسبها صفة التميّز داخل النظام. لقد أرسى سوسير مبدأ الاختلاف "حين وجد أنّ المعنى لا يكون إلا مع وفي الاختلاف، وهو المبدأ الذي توجّهته الدلالية مسار بحث لها في تطوّر الدراسات البنيوية"⁴، وفي هذا الصّدّد يستخلص الباحث المغربي "رشيد بن مالك" أنّ هذا المبدأ قد تمثّله غريماس من بعد "سوسير" لكن برؤية

¹ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 09.

² - نفسه، ص: 9 - 10.

³ - نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو - الجزائر، 2008، ص:

09.

⁴ - نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، ص: 10.

جديدة، يحاول بواسطته ملامسة المسألة الدلالية داخل النصوص الأدبية، واستيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى فيها من خلال علاقة تربط بين عنصرين الأقل¹.

إنّ ما خلص إليه "رشيد بن مالك" بخصوص المسألة الدلالية وفق هذا المبدأ، يؤكده باحث مغربي آخر من خلال نعتة هذا المبدأ أو كما أسماه تحليلًا بنيويًا في "أنّ إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام مبنين من العلاقات. وهذا بدوره يؤدي بنا إلى تسليم أنّ عناصر النص لا دلالة لها عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها. لذا، لا يجب الاهتمام إلا بالعناصر إلا ما كان منها داخلاً في نظام الاختلاف تقييماً وبناءً، وهو ما نسميه شكل المضمون، أي بعبارة أخرى تحليلًا بنيويًا لأنّه يهدف إلى وصف المعنى نفسه، وإثما شكله ومعمارهِ.."².

يوضح "رشيد بن مالك" للقارئ العربي محطّات تناول هذا المبدأ وتحوّلاته، انطلاقاً من لحظة تبنّيه من قبل "سوسير" مروراً بالتصوّر الجديد الذي توصل إليه "غريغاس" وفق هذا المبدأ اللسانيّ، وصولاً إلى "هيالمسلف"، الذي ارتكز عليه في بلورة فرضية تقتضي بإمكانية فحص ماهية المضمون بواسطة الأدوات المنهجية المطبّقة على صعيد التعبير³. وعليه، فإنّ تفصيل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغرى (السيمات) يناظر السمات المميزة لصعيد التعبير. إن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقّق وجوده إلا في علاقته بعنصر آخر، ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنّه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية⁴. يشرح الباحث فرضية "هيالمسلف" باستحضار مثال توضيحي يتعلّق بالليكسيمين "ولد" و"بنت"، يبيّن فيه أنّ أيّ واحد منهما لا يحقّق وجوده داخل النظام إلا بعلاقته بالعنصر الآخر من منظور مبدأ الاختلاف. بحيث تتمثّل وظيفة "ولد" و"بنت" "في/الذكورة/ (س1) و/الأنوثة/ (س2) ومحور الجنس (س)، وتنضوي داخل

¹ - ينظر: رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 10.

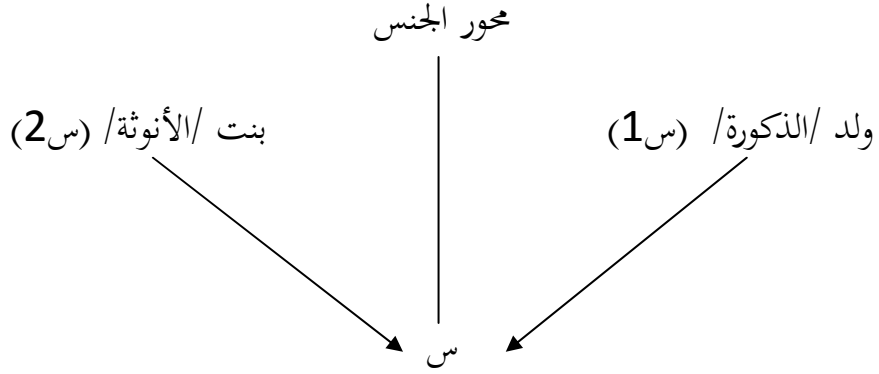
² - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، ط1، 2010، ص: 107.

³ - ينظر: رشيد بن مالك: م س، ص: 10.

⁴ - م ن، ص ن.



نظام تحكمه علاقات التقابل (بين س1 وس2) والتدرج¹. ويمكننا أن نوضح ما ذهب إليه الباحث بهذه الخطاطة:



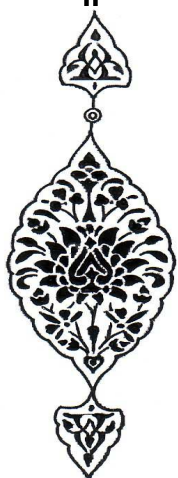
¹ - رشيد بن مالك: م س، ص: 10.

المبحث الثاني

المعطي الشّكّاني

في

الخطاب السّيمائي المغربي.





- المعطى الشكلي في الخطاب السيميائي المغربي:

ظهرت حركة الشكلايين الروس كاتجاه أدبي جديد مناهض، ومعارض للمناهج التقليدية التي كانت رائجة وفاعلة وقت ذلك في العقد الثاني من القرن العشرين، وتحديدًا خلال الفترة الممتدة ما بين 1915 - 1930. فقد توجت جهودهم ضمن حلقة موسكو اللغوية (اللسانية) (1915)، وجمعية دراسات اللغة الشعرية، والتي تعرف بالعبارة الروسية المختصرة « *Opoyaz* » الأوبياز (1916)، لها أعلامها النشيطون في مجال الممارسات النقدية والدراسات الأدبية. نذكر من منهم: بوريس ايخنباوم *B.Eikhenbaum*، أوسيب بريك *Ossip Brik*، فيكتور شلوفسكي *V. chloveski*، رومان جاكسون *R.Jakosbon*، ميخائيل باختين *M.Bakhtine*، فلاه ميربروب *V.Propp*، ...

لقد سعى هؤلاء إلى تأسيس علم أدبي مستقل يدرس الأدب "بوصفه مجموعة شكلية تحكمها قوانين خاصة مع التركيز على العناصر النصية والعلاقات المتبادلة بينها وعلى الوظيفة التي تؤديها في جمل النص"¹. جاء هذا، لما رغب هؤلاء - وكان على رأسهم ر. جاكسون - في تجسيد فكرة خلق الشعرية (*Poétique*) كعلم يبحث في أدبية النصوص، وهو ذات المبدأ الذي تعززت به دراسات الحركة الشكلاية الروسية، الذي أوجزه "جاكسون" في عبارته الشهيرة أنّ "موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما "الأدبية" (*Litérarité*)؛ أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً"².

يستشف القارئ من هذه العبارة، أنّ الشكلاية الروسية تقيدت بما في النص الأدبي، وأقصت كلّ عامل خارجي عنه "وحجتها في ذلك أنّ الدراسات التي تتناول الأثر الأدبي من الوجهة النفسية والاجتماعية وغيرها تخرج عن نطاق علم صناعة الأدب أو الانشائية، لتدخل

¹ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 29.

² - الشكلايون الروس: نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلايين الروس، تر: ابراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط-المغرب، 1982، ص: 34-35. وينظر كذلك: عبد الواحد المرابط: السيميائية العامة وسيميائية الأدب، ص: 127.

في نطاق علم الاجتماع وعلم النفس... إلخ، فالشكلائية اعتبرت نوعا من الثورة ضد التطريبات السياقية التي وضعت المشكل الفني أو البناء الدرامي أو الابداع الجمالي في خدمة الرسالة السياقية التي اعتبرتها الشكلية مجرد مضمون مستقلّ تماما عن الحياة التي أخذ منها بمجرد اندماجه في العمل الأدبي وتحوّله إلى عنصر لا حياة له خارجه¹.

استنادا على هذا الطرح، جاءت دراسة أدبية النص مشفوعة بأسس استقتها الشكلائية من المعطى اللساني السويسري، والمتمثلة في جملة من الأدوات والآليات التي مكّنت الحركة الشكلائية من استخلاص المظاهر اللغوية للآثار الأدبية المشكّلة للأدبية (Littérature). فما يخلص إليه الدارس، أنّ منطلقات جلّ الأبحاث الشكلائية هو لساني محض؛ على اعتبار أنّ اللسانيات تشكّل المرجع العلمي لباحثي هذه الحركة "ومن أهم المنطلقات اللسانية التي اعتمدها الحركة الشكلائية في مجال النقد والنظرية الأدبيين، التمييز بين "اللغة الشعرية" و"اللغة اليومية"، والحسم في قضية "الشكل" و"المضمون"².

لقد استطاع الشكلائيون من منظور المعطى اللساني تحديد مرمى اللغتين اليومية (النثرية) والشعرية، فإذا كانت الأولى منها تحقّق الهدف العملي التواصلي و فقط، فإنّ الثانية، تسعى لتحقيق القيمة الجمالية المستقلة للمكونات اللسانية داخل الأثر الأدبي. وعليه، فإنّ كلا اللغتين لها قوانين مميزة تختلف بها الواحدة عن الأخرى³، "ومن هنا يقال عندهم أنّ اللغة العملية تجد تبريرها خارجها سواء في نقل الفكرة أو في الاتصال بين الناس، إنّها وسيلة إذن وليست غاية. أمّا اللغة في الشعر، فأمرها يختلف تماما إذ تحقّق قيمتها في ذاتها، كما تجد أيضا تبريرها لتصبح بذلك غاية في ذاتها. فما تحمله من تراكيب وأصوات، وإيقاع وصور، وكلّ العلاقات المتشابكة هي هدف الشعر، وهي ما يسعى إلى انتاجه وتشكيله، فمثلا يصبح للأصوات قيمة مستقلة في ذاتها من

¹ - فيصل الأحمر: الدليل السيميولوجي، دار الألفية للنشر والتوزيع، قسنطينة-الجزائر، ط1، 2011، ص: 35.

² - عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة و سيمياء الأدب - من أجل تصوّر شامل-، ص: 127.

³ - ينظر: نفسه، ص: 127.

حيث كيفية انسجامها، أو تناغمها، أو ترابطها أو علاقتها التناظرية، وما تشكّله من تواريات، وتكرارات دورية... إلخ، على نحو ما نجد في القصائد المعاصرة (قصيدة النثر والشعر الحر... إلخ¹.

وفي جانب آخر، ومن منظور المعطى اللساني دائما، نلفي الشكلائين قد رفضوا ثنائية (الشكل والمضمون)، واستبدلوها بثنائية (المادة/الأداة)². أما إطحتم لهذه الفكرة، فقد جاءت ردا على طريقة إعمالها في الدراسات السابقة، التي كانت تدعو للفصل بين طرفيها، وتنتصر بذلك للمضمون على حساب الشكل؛ أي تجعل من الشكل تابعا للمضمون ليس إلا. وعلى هذا النحو، كانت النصوص الأدبية تقارب بطريقة تجزيئية. وهو الأمر، الذي جعل الشكلائين يدحضون فكرة الفصل بين طرفي هذه الثنائية، وتعزيز الدعوة إلى ائتلافها، ليغدو حضور أحدهما يستدعي بالضرورة حضور الآخر، بحجة أن النص الأدبي لديهم "هو بنية واحدة لا يمكن تقسيمها إلى شكل ومضمون، فالعملية هنا يمتزج فيها كلاهما معا بحيث عندما نقرأ نصا أدبيا فكأننا نقرأ شيئا واحدا، وهو النص الأدبي ذاته"³. بهذه النظرة الشمولية، يغدو الأدب من منظورهم شكلا فقط، فيتحوّل المضمون إلى شكل بينما يبقى الشكل شكلا⁴. وعليه، فإنه تأكد للشكلائين، بالاستناد على المبادئ اللسانية التي كرستها الحركة في دراساتها "أن الاختلاف النوعي للنتاج الأدبي يكمن في الاستعمال النوعي للغة، وفي الإدراك الجمالي القائم على الاحساس بالشكل، أي أن جمالية النص الأدبي تكمن في بنيته الشكلية"⁵.

لقد انعكس تكريس هذه المبادئ على تصوراتهم، فترجمتها ممارساتهم النقدية والأدبية، بحيث نلفي على مستوى هذه الممارسات التي طالت مجالي الشعر والسرد جهود "أوسيب بريك" حول دراسة الأبنية التركيبية داخل المتن الشعري وارتباطها بالإيقاع، وكذا جهود "بوريس اينباوم" حول

¹ - فيصل الأحمر: الدليل السيميولوجي، ص: 36.

² - تتأسس ثنائية (المادة/الأداء) في الاصطلاح الشكلائي على مرحلتين متقابلتين قبل الجمالية؛ إذ تمثل المادة "الخام للأدب"، أما الأداة فتمثل المرحلة اللاحقة التي يتحول فيها الخام للأدب إلى تشكيل فني جمالي، ينظر: فيصل الأحمر، الدليل السيميولوجي، ص: 37.

³ - م ن، ص: 37.

⁴ - ينظر: م ن، ص ن.

⁵ - عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص: 128.

طبيعة اللغة الشعرية وتحديد القيمة المهيمنة المنتظمة للأسلوب النغمي. أما في مجال السرد الأدبي فإننا نقع على جهود كل من "فيكتور شلوفسكي" في برهنته على وجود أنساق خاصة بالتركيب المبني الحكائي تقوم على مفهوم التحفيز (*Motivation*) وجهود "توما شيفسكي" التي صاغ من خلالها نظرية متكاملة حول السرد، تشمل التمييز بين (المتن الحكائي) و(المبني لحكائي)، معتمدا على مفهوم الحافز (*Motif*) كما ميّز هذا الباحث في نفس السياق (المتن الحكائي) (*Fable*) المتضمن المادة الولية للحكاية من (المبني الحكائي) (*Sujet*) المتعلقة بتقدم المتن¹.

يستنتج الدّارس - من هذا- أن دراسات الشكلائين الروس التي أولت اهتمامها البحثي لأدبية الأدب، إنّما كان لغاية تأسيس مبادئ تقوم عليها كلّ من نظرية الشعر ونظرية النثر. لقد وجدوا - في هذا الصدد- أنّ الإيقاع من أهم المبادئ التي تقوم عليه الأشكال والأنواع الشعرية، في حين، وجدوا أنّ السرد أساسي في نظرية القص. ورغم جدارة الدراسات التي قدّمها "بريك واينباوم" و"توما شيفسكي"...تبقى غير مكتملة من دون جهود "فلاديمير بروب" (1895-1970) « *V. Propp* ». هذا الأخير الذي أعطت دراساته في مجال التحليل السردى للخطاب دفعا معنويا وحافزا للباحثين من بعده في حقل السيميائية، لم يكن سيميائيا وإنما كان بنيويا، اشتغل بشكل عميق على دراسة مائة حكاية خرافية روسية ضمن كتابه "مورفولوجية الحكاية العجيبة الروسية" *Morphologie du conte merveilleux russe*. الذي صدر عام 1928، ويعدّ هذا الكتاب من الكتب الحاسمة في تطور الدراسات البنيوية والسيميائية، والنموذج الأكثر نضجا في بحوث الشكلائين². لقد رام "بروب" من وراء هذه الدراسة تأسيس نظرية تقوم على البحث في بنية الحكاية الشعبية الروسية العجيبة؛ أي دراسة هذه النصوص الحكائية دراسة بنيوية "لاستنباط قوانين عامة تحكم الحكاية الخرافية وتخضعها لمنهج واحد يمكن أن يكون أداة فعالة لدراستها"³.

¹ - ينظر: عبد الواحد المرابط، المرجع السابق، ص.ص: 128 - 129.

² - رشيد بن مالك: مقدّمة في السيميائية السردية، ص: 29.

³ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 59.

تمكّن "بروب" وفق هذا النهج من إيجاد عدد من العناصر المتغيرة وأخرى ثابتة داخل الحكايات الروسية المدروس، فما يتبدّل هو الشّخص (أسماءها، صفاتها، وطريقة أدائها للفعل)، أما ما يبقى ثابتا فأفعالها، أو كما اصطلح عليها "بروب" بـ"الوظائف" (*Fonctions*)، ويعني بها "تلك الوحدات التركيبية، التي تبقى ثابتة طيلة الحكاية، على الرّغم من تنوّع مضمونها، حيث يشكّل تتابعها مجمل الحكاية"¹.

لقد ارتأى "بروب" دراسة الحكاية من منطلق وظائف (أفعال) شخصها، ذلك لأنّها تنماز بالثّبات على خلاف الشّخص التي تختلف من حكاية لأخرى، حيث استطاع استخلاص عدد لا يتعدّى الواحد والثلاثين وظيفة من المتن الحكائي المدروس، ولاحظ أنّ بعض هذه الوظائف قد يختلف من أي حرافة أو حكاية ما، ولا يؤثّر ذلك على نظام التّتابع المتسلسل الذي يشكّل المنطق السّردي للخرافة أو الحكاية، ويؤوّل كقصدية دالة²، ويشير "بروب" إلى أنّ هذه الوظائف المستقاة لا تتعلّق بالحكاية أو الخرافة الروسية فحسب، وإنّما هي صالحة لكلّ حكايات أو خرافات الأمم، وبهذا تغدو هذه الوظائف مثلا صالحة لدراسة أيّ حكاية أو خرافة. واعتماد بروب على العناصر الثّابتة في الحكاية والممثّلة في "الوظائف"، "إنّما هو بحدّ ذاته إنجاز لمنهج سيميائي متفرد؛ إذ حوّل الأحداث والأفعال إلى علامات دالة - يمكنها أن تفتح على كلّ تنوّعات المتن الخرافي المتعدّد على مستوى الحكايات الروسية أو حكايات الأمم الأخرى، فكلّ وظيفة هي علامة تدلّ على مجموعة دلالات يجمع بينها الفعل النهائي لذلك الحدث"³.

لقد أغوى التّراث السّردي البروبي باحثين كثير، نذكر منهم: أ.ج. غريماس، ج.جنيت، ك. بريمون، ج. كريستيفا... وجعلهم يقدمون عليه، باتباعهم المنهج الذي رسمه بروب للدراسة الشّكلية، "مع محاولة إثرائها بإضافات قصد التّطوير والاعناء، من بينهم غريماس [الذي] يعترف بأنّ الحكاية الشّعبيّة بالخصوص تظلّ موضوعا خصبا للدراسة، لما لها من بساطة في الاستيعاب

¹ - نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، ص: 21.

² - الطاهر رواينية: قراءة في التحليل السرد للخطاب، ص: 11.

³ - محمد فليح الجبوري: المرجع السابق، ص: 63-64.

وثبات في النسق وعالمية في الانتشار تحمل أعلى درجة في الاستقلالية¹؛ ذلك لأنّ النموذج الوظيفي البروي - كما يذهب إلى ذلك رشيد بن مالك - "يستمد قوّته الاجرائية من مرونته وقابلية تطبيقه على التصوص السردية، وتكمن أهميته المنهجية وفائدته العلمية في قدرته على إبراز مبدأ الاختلاف على طول الخطّ السردية"².

لم يبق التأثير البروي محصورا في دائرة الدرس التقدي الغربي، بل تخطى حدودها، وامتدّ صدها إلى البحث التقدي العربي عموما، وبمكنا تبين ذلك التأثير خاصة لدى الباحثين المغاربة من زوايا متعددة نجملها في التلقي المباشر (التلمذة) أو غير المباشر (الترجمة)، بحيث شكّلت الدروس التي قدّمها قريماس، وبارت، وكريستيفا، وجنيت، ولفي شتراوس... للطلبة المغاربة القاعدة المتينة التي أرسى عليها الدرس التقدي المغربي المتخصص قواعد، والتي فتحت الشهية لهؤلاء بعد عودتهم إلى أوطانهم من تمثّل الطرح البروي بشكل أو بآخر، آخذين في الاعتبار تعديلات لفي شراوس وقريماس على هذا النموذج. وبالإضافة إلى ذلك، شكّلت الكتب الوسائط لباحثين آخرين وسيلة أخرى لتلقي المثال البروي، بحيث تسنى لهؤلاء الاطلاع على ترجمة كتابه التي اشتغل عليها الباحث المغربي "إبراهيم الخطيب" وقدّمها للقارئ العربي، فكانت خير معين لفهم المعطى الفكري البروي، ونموذج تطبيقي أمثل لسبر أغوار الآثار الأدبية السردية. وعليه، فإنّ الدارس لا يكاد يقع على دراسة مغربية متخصصة تتناول بالتحليل نصّا سرديا طويلا كان أم قصيرا إلا ويجد كتاب (مورفولوجية الحكاية) ل"ف.بروب" حاضرا ومعتمدا كمصدر رئيس على مستوى التمثل والإحالة سواء كانت نسخة الكتاب أصلية أو مترجمة.

- تأثر الباحث المغربي بالنموذج الوظيفي البروي:

لقد حفلت دراسات مغربية كثيرة بالنموذج التحليلي البروي، لكن ما يستوقف الدارس في تلك الدراسات تفاوت الباحثين في درجات أعمال الطرح البروي؛ إذ نلفي فريقا منهم يتعرّض للتراث السردية البروي بالتنظير والشرح التعليمي والممارسة التطبيقية، كما نجد فريقا آخر

¹ - نادية بوشغرة: مباحث في السيميائية السردية، ص: 21.

² - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 30.

من الباحثين قد تأثروا بأفكار أساتذتهم الذين نهلوا -بدورهم- من التراث البروبي، فطوروا نظريته، وأسسوا عليها منهجهم السيميائي. وهذا بعدما وجدوا امكانية نقل نموذج "بروب" من الأدب الشفوي إلى الأدب المكتوب سواء أكان ذلك رواية أو قصة أو حكاية.

يمكننا -في هذا المقام- تفحص بعض النماذج البحثية المغاربية لكلا الفريقين، فمن الدراسات التي تناولت التراث السردى البروبي شرحا وممارسة نجد دراسة¹ للباحث "عبد العالي بشير". عالج فيها حكاية شعبية بالاعتماد على وظائف بروب، بحيث تناول في الشق النظري ماهية الوظيفة من منظور "بروب"، وبعد مدارستها وتعدادها من طرف الباحث، انتقى بعضها وأعملها على حكاية "جني الهيدور". لقد لاحظ أحد الدارسين على طريقة تطبيق بعض هذه الوظائف على الحكاية أنه "قد اختصرها اختصارا شديدا، وكانت كالتالي: الاستنطاق (Interrogation)، الانطلاق (départ)، المنع (Interdiction)، والاساءة (Méfait)، الخدعة (Tromperie)، استلام الأداة السحرية (Réception de l'objet magique)، العودة (Retour)..."². إنَّ منهجية الباحث -ههنا- التي تناولت هذه الحكاية من منظور (البنية والوظيفة والدلالة) توحى بوفاء الباحث للنموذج التحليلي البروبي، لكن اختزاله للوظائف من 31 وظيفة إلى 07 وظائف، وكذلك اعتماده الانتقائية، قد لا تتيح للقارئ الرؤية الكاملة والاحاطة الشاملة ببنية ودلالة هذه الحكاية، وبالتالي قصور الفهم في تحليل الحكاية الشعبية بصفة عامة. سوف يعاين الدارس في هذا العنصر دراستين مغاربيتين، هما:

- 1- عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبية -مقاربة منهجية-، تحليل نموذج لحكاية "الطامة أم سبع روس".
- 2- نصر الدين بن غنيسة: مقاربة سيميائية لجدلية الأنا والآخر في رواية "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس، وردت هذه الدراسة ضمن كتابه "فصول في السيميائيات".

¹ - عبد العالي بشير: حكاية جني الهيدور (البناء، الوظائف، الدلالة)، مجلة بحوث سيميائية، دار العرب للنشر والتوزيع، جامعة تلمسان، ع01، سبتمبر 2002، ص: 181.

² - بن علي خلف الله: التقد السيميائي في الجزائر (اتجاهاته وأصوله)، ص: 80.

- وينظر كذلك: عبد العالي بشير: حكاية جني الهيدور (البناء، الوظائف، الدلالة)، ص.ص: 183-184.

النموذج الأول:

تناول الباحث "عبد الحميد بورايو" في هذه الدراسة¹ حكاية شعبية جزائرية، هي "الطامة أو سبع روس"، حيث قام بتحليل خطاب هذه الحكاية تحليلا نموذجيا، مستهلا حديثه -في الشق النظري- عن بعض المفاهيم الأولية، المتمثلة في ماهية مصطلح الخطاب الأدبي، والخطاب الأدبي الشعبي وسلطة الكتابة، ثم قدم إثر ذلك عرضا منهجيا وقف فيه عند المتواليات والوظائف، الوساطة، تصنيف الوظائف، نظام الشخص و دلالة الحكايات، وكذلك دراسة الصور والتجسيّدات ودراسة السياقات (المقدّمات)، ويختمها بالدراسة المقارنة بين الحكايات التي تكون من نفس الشكل. وبعد هذا البسط النظري، سعى الباحث -في الشق التطبيقي من الدراسة- لمعالجة حكاية "الطامة أم سبعة روس" معالجة نموذجية بعدما بسط لوقائع القصة كاملة.

لا يحاول "عبد الحميد بورايو" في هذه الدراسة التّقيّد التّام بنموذج التحليل الوظيفي لبروب، فهو يسعى في مقابل ذلك إعمال ذائقته التّقديّة التي تحوّل له وضع لمسته في التحليل. هذا ما يلمسه الدّارس في قول بورايو: "لقد حرصنا في معالجتنا المختلفة لخطابات الحكاية الشعبيّة الجزائريّة على استبعاد المفاهيم المنقولة بشكل حرّفي عن الدّراسات الغربيّة، كما عملنا على تجاوز التّطبيقات الميكانيكيّة التي تعتمد على أدنى جهد تأصيلي وتمثلي لهذه المفاهيم، وذلك درءا للمزالق التي تقع فيها عادة التّناولات التّقديّة الضحلة المستكينة لراحة السّهولة والكسل المعتمدة على اجترار المفاهيم السّطحيّة المستهلكة"².

انطلاقا من قناعة الباحث التي تروم التّجديد في طرائق تحليل الخطاب الأدبي الشعبي. قدّم هذه المفاهيم الأوليّة التي أومأنا إليها سابقا بغية توضيحها، وتأصيلها في الدّرس النقدي المغربي، ومن ثمّ تقريبها من القارئ العربي. وهذا ليس بغريب على الباحث "عبد الحميد بورايو" الذي يسعى دوما إلى تكريس الشّرح التعليمي النظري والتّطبيقي لمنهجيّة تحليل خطاب الحكاية

¹ - عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبيّة -مقاربة منهجية-، تحليل نموذج لحكاية "الطامة أم سبع روس"، ضمن أعمال الملتقى "السيميائيّة والنّص الأدبي"، معهد اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة باجي مختار -عنابة-، الجزائر، أيام 15-17 ماي 1995.

² - عبد الحميد بورايو: المرجع نفسه، ص: 83.

الشعبية، وهو ما تمليه عليه مسؤوليته كباحث أكاديمي يسعى "لتهيئة الظروف التي تسمح بتراكم العمل التطبيقي والمنهجي من أجل تحقيق مشروع معرفي يساهم في تحقيق حداثة الدراسات الشعبية العربية باعتبارها حلقة هامة من حلقات الثقافة العربية"¹.

وفق هذه الاستراتيجية، حدّد بورايو بإحكام المقاربة المنهجية لهذه الحكاية الشعبية من خلال تقطيع هذا النصّ الشعبي إلى متواليات²، على أن يتمّ تقطيع هذه الأخيرة إلى وظائف، وهنا يأتي على تعريف الوظيفة من منظور الطرح البروي بقوله: "نقصد بالوظيفة فعل الشخصية منظور إليه من خلال دلالاته على تطوّر الحكمة القصصية من منظور الأطراف الأساسية المشاركة في الفعل"³. ويواصل الباحث قوله: أنّ "كلّ وظيفة تدخل كوحدة مكوّنة للمتوالية [و] يقابل التوالي المنطقي لثلاث لحظات متتابعة: الما قبل/أثناء/الما بعد، سوف نسمح لأنفسنا بالتصرّف بحرية مطلقة مع خطاطة وظائف "بروب"، بحيث سوف نعيّن كلّ وظيفة عن طريق مراعاة وجهة نظر البطل (كما فعل بروب)، وكذلك وجهات نظر الشخصيات الأخرى في الحكاية (كما نبتّه إلى ضرورة ذلك كلود بروموند)"⁴.

يحاول الباحث -بالاستناد على هذه التوليفة- التعرف على الوظائف من خلال استخراج الأدوار الغرضية التي تمكّنه من تمييز علاقة الأفعال بالشخصيات⁵؛ ذلك لأنّ "وظيفة فعل ما لا يمكن أن تتحدّد إلا بالنظر للشخصية المستفيدة أو بمبادرة منها"⁶. ما يمكن ملاحظته على صنيع الباحث، هو أنّه لم يعتمد كلياً على نموذج التحليل الوظيفي لبروب، بل استحضر معه التعديلات والإضافات التي اقترحها من جاء بعد "ف. بروب" كغريماس مثلاً، ونلمس ذلك في كون أنّ حكاية "الطامة أم سبع روس" الشعبية "تبرز -ولو تحت أشكال متنوّعة- تمثيلاً عاملياً

¹ - عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبية -مقاربة منهجية-، ص: 83.

² - المتوالية: "هي أصغر مقطع في الحكاية يجسد مشهداً قصصياً متكاملًا"، ينظر: بورايو عبد الحميد: المرجع نفسه، ص: 84.

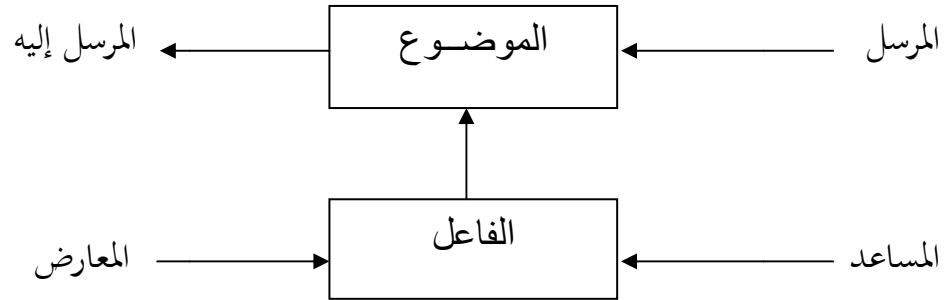
³ - م ن، ص ن.

⁴ - م ن، ص ن.

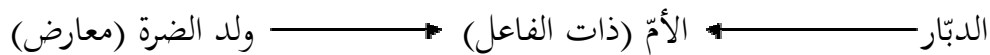
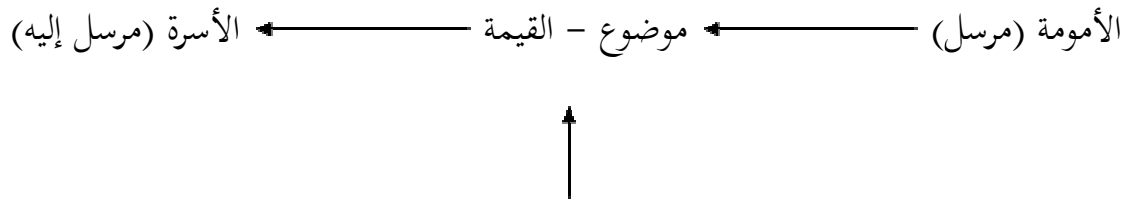
⁵ - م ن، ص ن.

⁶ - عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبية -مقاربة منهجية-، ص: 84.

مشروطا بطبيعة العلاقات التي تقوم بين الشخصيات والوظائف المسندة إليها في صلب القصة¹. يعتمد الباحث في تبيان هذا التمثيل داخل الحكاية المدروسة على الرسم العملي لـ"أ. ج غريماس"²، والتمثل في:



حيث تناول البرنامج السردي الثانوي للحكاية الذي تأسست عليه المتوالية التمهيدية في مقارنته الأطراف المحققة لهذا البرنامج. والمتمثلة في: الأمّ/ الولد/ الدبّار/ ابن الضرة. فتمكّن بذلك من تمثيل البنية الفاعلية لهذه المتوالية بالترسيمة التالية:³



أمّا المتوالية الرئيسية فقد قامت على برنامج سردي وحيد، شاركت في تحقيقه الأطراف التالية: السلطان/ أهل المملكة/ العجوز/ الطامة، لقد قدّم الباحث في هذا الشأن تلخيصا لتلك العلاقات القائمة ما بين الأطراف الفاعلية من خلال النموذج التالي:

¹ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 30.

² - voir : A.J Greimas, *Sématique structural*, P. U. F, Paris, 1986. P: 180.

³ - ينظر: عبد الحميد بورايو: المرجع السابق، ص: 90.

السُّلطان (المرسل) ← الماء / الفتاة / الحكم ← أهل المملكة (مرسل إليه)



العجوز (مساعد) ← البطل (ذات الفاعل) → الطّامة (معارض)

لقد أفضى تحليل الحكاية - في الختام - إلى تمكين الباحث من توزيع الأدوار الفاعليّة المساهمة في مسار أحداث الحكاية ككلّ الأطراف التّالية، المرسل المتمثّل في طبيعة العلاقة بين الأبناء والأمهات في نطاق الأسرة، والمرسل إليه والمتمثّل في المجتمع، وموضوع القيمة تمثله المرأة بصفة عامّة، وذات الفاعل وهو البطل، أمّا القوّة المساعدة فتمثّلت في الأخ ثم العجوز والسلطان، بينما تمثّلت القوّة المعارضة في زوجة الأب، ثم الوحش (الطّامة)¹. ومن خلال توزيع هذه الأدوار تمكّن الباحث من تمثيل العلاقات المذكورة بالتّرسّيم التّالية:

المرسل _____ ت _____ موضوع القيمة _____ المرسل إليه

(المجتمع)

(المرأة)

(طبيعة العلاقات ما بين الأفراد داخل الأسرة).

المساعد _____ ذات الفاعل _____ المعارض.

(زوجة الأب، الوحش الخرافي)

(البطل، الطفل، الشاب، الزوج)

(العجوز، السلطان)

خلاصة:

يرمي اهتمام الباحث بالمحكي الشعبي المحلّي (الجزائري) - في بعده العام - إلى إيقاظ الذاكرة الشعبيّة المغاربية من أجل العناية بهذا النوع من المحكي الشّفهي، وحمايته من الاندثار والتّسيان لما يحمله من نظم وقيم اجتماعيّة وثقافيّة ميزت قاطنة هذه المناطق عن غيرها من الشّعوب. هذا، ويتجلّى اهتمام الباحث بالتّنتاج الشّفهي أيضا - في بعده الخاص - إلى محاولة إعطائه الإمكانية اللائقة التي يستحقها كحقل أدبي ضمن حقول الأجناس الأدبيّة الأخرى. من هنا، يحاول الباحث

¹ - ينظر بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشّعبيّة - مقارنة منهجية -، ص: 92.

"عبد الحميد بورايو" تقرب النظريات الحدائية بأدواتها الإجرائية من القارئ العربي، فجاءت الممارسات التطبيقية للباحث تبسيطا لأطروحات تلك النظريات والتي منها - كما أسلفنا الذكر- مبحث بروب الذي شكّل "قاعدة رئيسية في التحليل البنيوي للفولكلور السردى"¹، والذي امتد تأثيره بصفة عامة في الدراسات السردية التي أنجزها بعض الباحثين الغربيين أمثال تودورف، كلود بريمون، وأ.ج غريماس. فلقد اتخذ هؤلاء من طرح "بروب" منهجا للتحليل، ومن مؤلفه "مورفولوجية الحكاية" مصدرا رئيسا في كلّ دراساتهم، لكن رغم المكانة التي تبوّأها هذا الكتاب في مشهد النقد الأدبي بأوربا، فإنّه "ظهرت في الستينيات في أوربا نزعة تتوخى تطبيق نموذج التحليل الوظيفي للحكاية عند بروب تطبيقا آليا"²، حيث أنّها وقفت على بعض مآخذ³ الطرح البروبي، منها خاصة تلك التي تعرض لها كل من ليفي شتراوس، وجورج دوميزيل *J. Dumézil*، وهو ما "أدى إلى إعادة النظر في منهج بروب والاستعاضة بفكرة الملفوظ السردى عن الوظيفة، والاشارة إلى وجود وحدات سردية تتصل أحيانا بجدول الاختيار، وأحيانا أخرى بجدول التوزيع، كما أصبح ينظر للحكاية أو القصة بعامة كبنية سردية كامنة، أي كشبكة من العلاقات المنظمة للخطاب القصصي"⁴.

النموذج الثاني:

يستعين الباحث المغربي "نصر الدين بن غنيسة" بالنموذج الوظيفي لبروب في مقارنته السيميائية لجدلية الأنا والآخر في رواية "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس⁵، ولتحقيق مبتغاه، انطلق باحثا عن إجابة شافية لسؤال راوده في أثناء قراءته للرواية، مفاده (لماذا سافر البطل

¹ - الطائع الحداوي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، بيروت (لبنان)، ط1، 2010، ص: 49.

² - الطاهر رواينية: قراءة في التحليل السردى للخطاب، مجلة التواصل، عدد 4، جامعة عنابة، الجزائر، جوان 1999، ص: 15.

³ - ينظر: الطاهر رواينية: قراءة في التحليل السردى، ص، ص: 12-15. وينظر أيضا: نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، ص، ص: 15-20.

⁴ - الطاهر رواينية: المرجع نفسه، ص: 15.

⁵ - ينظر: نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، عالم الكتب الحديثة، إربد (الأردن)، ط1، 1432هـ-2011، ص.ص: 131-179.

إلى الغرب؟)، من أجل ذلك، عمد "إلى عقد مقارنة بين رحيل البطل في الحيّ اللاتيني ورحيل البطل في مجموعة الحكايات الشعبيّة العجيبّة الروسيّة والتي اهتم *Vladimir Prop* بدراستها"¹ في كتابه "مورفولوجية الحكاية". استند الباحث في دراسته على منهجية جديدة تعينه على تحليل النصّ الروائي، وعلى استنباط العلاقات التي تربط بين مختلف وظائفه في مسار قصصي معين². يقول الباحث في هذا الشأن: "نودّ توضيح نقطة مهمّة تتعلق بالتعامل مع التحليل الوظيفي للرواية، إن اعتمادنا منهج بروب الذي استنبطه من الحكايات الشعبيّة جاء كخيار إجرائي يعيننا على قراءة الرواية ليس إلا، بعيدا عن كلّ التهوريمات التّنظيريّة ودون رغبة منّا في إثبات صلاحية هذا المنهج للتعامل مع كلّ إبداع انطلاقا من تجنب التّصنيف المسبق للأنماط الأدبيّة، حتى لا نسقط في أدلجة هذا المنهج، خاصة إذا علمنا أنّ دراسة بروب لم تتجاوز خصوصيّة الحكاية الشعبيّة الروسيّة، فضلا عن أنّها اقتصرّت على نمط الحكاية ولم تتعدّاه إلى الرواية"³. يرى الباحث أنّ "رواية الحيّ اللاتيني" هي حكاية رحيل (ذهاب/عودة)، حيث يمكن للدارس أن يوضّحها بهذه الخطاطة الأولى:

ذهاب

نقطة الانطلاق الشّرق ← نقطة الوصول (تحوّل)

(بيروت) → (الغرب (باريس))

عودة

وعليه، فإنّ رحلة البطل (إلياس الخوري) إلى الغرب تشكّل بنية دائريّة، منطلقها الشّرق، ومنتهاهما الشّرق بعد ذلك أيضا، حيث يمكن توضيح هذه الرّحلة بالخطاطة التّالية:

¹ - نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، ص: 141.

² - ينظر: م ن، ص ن.

³ - م ن، ص.ص: 141-142.



الشرق (المنطلق والمنتهى)

وهنا نستحضر تساؤل الباحث (لماذا سافر البطل إلى الغرب؟).

يعزو الباحث سبب السفر إلى بحث البطل عن هوية ضائعة، والذي قد يتحقق فقط على المستوى المكاني. أما على مستوى التحوّلات النفسية والذهنية، فقد أفضت قراءة الباحث لسيرورة أحداث هذه الرواية على مستواها السطحي إلى أنّ "خروج البطل من بيروت يبرره طلبه لفضاء أكثر رحابة يوفر له الأجواء المناسبة للتملّص من ضغط منظومة قيم مهيمنة على كلّ مناحي الحياة" أما على المستوى العميق "فإنّ المبرر لهذا الرحيل هو التحرّر من هيمنة الأمّ التي باسم هذه القيم تفرض عليه سيطرة شبه كليّة شلّت حركته واغتالت فيه روح المبادرة".

بيروت ← باريس

فضاء الأناضول ← الفضاء الأجنبي

يستوقف الباحث "مفهوم خاصية الأناضول في نظرية بروب على أنّه "مرتبط بتوافق مبدئي بين البطل ومنظومة القيم السائدة"¹، أما مفهوم خاصية الأجنبي "فمنبثق أصلا من طبيعة الحدث الذي يحتضنه هذا الفضاء الذي أقلّ ما يقال عنه أنّه مغامرة"². استخلص الباحث من دراسة بروب للقصة الشعبية العجيبة تقسيمه للفضاء، اتخذه نموذجا تحليليا؛ إذ يرى أنّ "انتقال البطل من بيروت إلى باريس يمكن أن يعادل قطيعة مع الفضاء الأول (أو ما يمكن

¹ - نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، ص: 143.

² - نفسه، ص: 143.

تسميته بفضاء الأُنس (*Espace Fammlier*)، والتحاما بالفضاء الثاني (أو ما يمكن أن نطلق عليه بالفضاء الأجنبي *Espace etranger*)¹. حيث يمكن تمثيله بهذه الخطاطة:
(انتقال القطيعة)

فضاء الأُنس (بيروت) ← فضاء الأجنبي (باريس)

يرى الباحث أنه إذا كان البطل من منظور الطّرح البروبي - من خلال تقسيم الفضاء إلى (فضاء أُنس وفضاء أجنبي) - " يظهر في معظمها إنسانا اجتماعيًا منسجما كليّة مع نمط القيم المتعارف عليها"² على اعتبار أنّ مفهوم خاصيّة الأُنس لدى بروب "مرتبط بتوافق مبدئي بين البطل ومنظومة القيم السائدة، و[أن] مفهوم خاصيّة (الأجنبي) فمنبثق أصلا من طبيعة الحدث الذي يحتضنه هذا الفضاء [باعتباره] مغامرة"³ فإنّه (أي البطل) في رواية "حي لايني" معاكس تماما لهذه النظرة البرويّة، ذلك ما يلّمسه الباحث في رفض البطل للقيم الذي كان يحملها من الشّرق (فضاء الأُنس)، بل يتمرّد على كلّ ما هو شرقي، إنّه هروب "أو ما يمكن ترجمته بمشروع (البحث عن التّحرر) من ريقّة (الشّرق/الماضي)"⁴.

- البطل في الحكاية الشّعبيّة:

انتقال البطل

فضاء الأُنس (حامل لقيم مجتمعه ونسبه) ← فضاء أجنبي (مغامرة).

- البطل في رواية الحي اللاتيني:

انتقال البطل

فضاء الأُنس (فضاء معاد، مقيد للحرية) ← فضاء أجنبي (مغامرة)
قطيعة/هروب/تحرر

يتحوّل فضاء الأُنس في "بطل" الرّواية إلى فضاء معاد، متمرّد على منظومة القيم ليصبح الفضاء الأجنبي فضاء أكثر رحابة وحرية وعتق من عبوديّة منظومة القيم الشّرقية. يواصل الباحث

¹ - نصر الدين بن غنيسة: فصول في السيميائيات، ص: 143.

² - م ن، ص ن.

³ - م ن، ص ن.

⁴ - م ن، ص ن.

استعانته بالطرح البروي المتعلق بعلاقة البطل في الحكايات الشعبىة العجبية الروسية بمنظومة القيم التي ينتمي إليها؛ كي يجري مقارنة بينها وبين بطل الحي اللاتيني ومنظومة القيم الشرقية. والتي أفضت إلى استخلاص الثوابت المشتركة بين تلك الحكايات الشعبىة والوضع القائم في الحي اللاتيني، والمتمثلة أساسا في: النظام الاجتماعي القائم الذي ينظم شؤون الجماعة (منظومة القيم الشرقية)، والتمرد على هذا النظام (خرقه)¹. يخلص الباحث من هذه المقارنة إلى أنّ بطل "الحي اللاتيني" الذي حاول ردم ماضيه، والتنصل من القيم الشرقية، أصبح يعيش ما يسمى بحالة فراغ أو حالة افتقار، التي طالما كان يعاني منها وحده فأثرت عليه، دون أن يتأثر منها النظام الاجتماعي (الشرق)، وهو ما حدا به (أي البطل) للبحث عن منظومة قيم جديدة، يحقق بها التحرر من قيود (الشرق/الماضي وقيمه).

خلاصة:

من خلال ما تمّ عرضه، نجد أنّ تأثير النموذج الوظيفي لبروب لم يبق حبيس البحوث الغربية، بل امتد ذلك إلى الدرس المغربي، شأنه في ذلك شأن الدراسات العربية المتأثرة بالتحليل البروي، وهو ما نلمسه متجليا خاصة في السيميائية السردية لغريماس.

- استعان الباحث هنا بالنموذج البروي، ليتمكن من مقارنة رواية الحي اللاتيني سيميائيا. فقد اعتمد في هذه المقارنة على المقارنة بين الرحلة في الحكاية الشعبىة ورحلة البطل في رواية "الحي اللاتيني"، ومن خلالها ذلك، استحضر الأفضية (فضاء الأنا/الفضاء الأجنبي) في الحكاية الشعبىة والرواية...

- يبحث الباحث -من كلّ هذا- عن مسوّغات التحليل لاستخلاص النتائج، فرغم أنّه لم يعتمد النموذج التحليل الوظيفي برمّته، إلا أنّه انتقى منه ما يتناسب ومنهج التحليل لديه.

- يقتطع الباحث بعض الملفوظات السردية من الرواية ليستعين بها كشواهد داعمة لتحليله. هذه الطريقة، تعتمدها مدرسة باريس المتأثرة بالتحليل الوظيفي لبروب. وبناء عليه، نجد في مقارنة الباحث إخلاص للسيميائية السردية.

¹ - ينظر: نصر الدين بن غنيسة: م س، ص: 144.

إنّ هذه التعديلات التي طرأت على منهج بروب، لم تكن من الحضور اللافت لكتابه و"من التأثير القوي الذي مارسه على مباحث وأعمال المنتسبين للدلالة البنيوية والسيميائيات وتحليل المحكي في تساوق مع التطور الملحوظ الذي شهدته اللسانيات"¹. فكل البحوث التي قدّمها هؤلاء انطلاقاً من "ج. دوميزيل"، و"ك. ليفي ستراوس" وانتهاءً إلى أساطين المدرسة الفرنسيّة، يرجع الفضل فيها إلى أعمال بروب، ورغم نقد ليفي ستراوس للبحث البروي، نجدّه يشيد بهذا الكتاب، ويرى أنّ عملية نشر مورفولوجية الحكاية، قدّمت للمهتمين خدمة جليّة في ميدان العلوم الانسانية².

شكّلت نظريّة بروب مصدر إلهام الباحثين الغربيين، وقد تجلّى ذلك خاصة في مدرسة باريس، إذ نجد رائدها غريماس قد استوعب جيداً المثال البروي، الذي مكّنه من بلورة رؤيته المعرفيّة في تحليل النصوص السردية، حيث تكلّلت اجتهاداته في هذا الحقل بتأسيس نظريته في "السيميائية السردية"، ومن هنا نلمس امتداد النموذج الوظيفي البروي إلى الباحثين المغاربة من خلال أطروحات غريماس خاصة والمدرسة الفرنسيّة عامّة. فقد جاء هذا، لما حاول هؤلاء استلهام النظريّة الغريمائيّة: "المقاربة المظاهر الضمنيّة الداخليّة في النسق السردية، عبر البحث في البنى السردية وتفصيلاتها الدلاليّة، في القصّة القصيرة والرواية، وفي الأدب الشعبي والأدب العربي، إلاّ الشعر لم يكن أوفر حظاً في هذا الخطاب إلاّ ما جاء لماماً لدى بعض النقاد"³ من ذلك الدّراسات التأسيسية لمحمد مفتاح، وعبدالمملك مرتاض، وعبد القادر فيدوح..، ثم دراسات أخرى، أنجزت في مراحل تالية لباحثين ك: أحمد يوسف، نادية شقروش، وغيرهم. فمن خلال هذا المعطى، بات لزاماً على الدّارس تبيان الدور الذي لعبته نظريّة غريماس في توجيه الخطاب النقدي المغربي نحو السيميائية السردية.

¹ - الطائع الحداوي: النصّ والمفهوم، ص: 49.

² - voir: C. Lévi-strauss, *La structure et la forme, Cahiers de l'institut de science économique appliquée* ; n99, p4.

- وينظر: نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، ص: 19.

³ - هامل بن عيسى: واقع الخطاب السيميائي في النّقد الأدبي الجزائري، ص: 07.



ولأجل الوقوف على تجليات هذه النظرية، ينبغي طرح السؤال التالي:

- ما مدى تأثير هذه النظرية في المشهد النقدي المغربي؟.

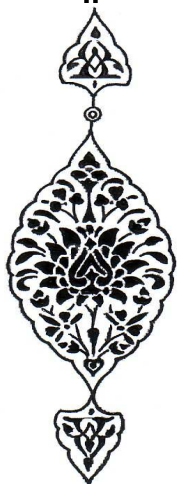
هذا ما سنعرفه في المبحث الموالي.

المبحث الثالث

المعطي الفرنسي

في

الخطاب السيمبائي المغربي





- المعطى الفرنسي في الخطاب السيميائي المغربي:

تأسست هذه المدرسة على يد أ.ج. غريماس (*A.J. Greimas*) بمعية أتباعه من مثل ج. كلود كوكي (*J.C. Coquet*)، وم. أريفني (*M. Arrivé*)، وجون ماري فلوش (*J.M. Floch*)، وجاك فونطاني (*J. Fantanille*) وغيرهم. لقد تمكن هؤلاء من تشكيل هذه المدرسة بعد لقاءات متكررة تحت اسم "مدرسة باريس السيميائية" *Sémiotique de l'école de Paris*، تيمنا بمؤلفهم الجماعي الشهير الموسوم بـ (السيميائيات: مدرسة باريس) 1982، الذي طرحوا فيه كل التصورات النظرية والمنهجية والاجرائية لهذه المدرسة. من ذلك، الأدوات الدقيقة التي اهتمت إليها غريماس وأتباعه من خلال مقارباتهم للنماذج السردية المتنوعة، و"اعتبروها ثوابت وقواسم مشتركة مستخلصين مفاهيم وقوانين مركزية مثل العوامل، العلاقات، البرامج السردية، المرجع السيميائي"¹، وقد تواجه الدارس تسميات أخرى لهذه المدرسة ك: المدرسة الفرنسية، سيميائيات غريماس، السيميائيات السردية...

تبلورت معالم النظرية السيميائية السردية *Sémiotique narrative* بفضل الجهود البحثية لـ"غريماس" في حقل البحث الدلالي، الذي تكفل بمؤلفات نشرها على فترات زمنية متباعدة نوعا ما، انطلاقا من كتابه "الدلالة البنيوية" (1966) *Sémiotique structurale*، ويعد أول بحث في السيميائية اللسانية²؛ إذ أرسى -من خلاله- "غريماس" أسس نظريته، ثم تلتها مؤلفات أخرى داعمة للتصور الغريماسي، وهي: في المعنى (1970) *(Le sens)*، وفي المعنى II (1982) *(Le sens II)*، ومعجمه السيميائي المشهور الذي أنجزه بالاشتراك مع تلميذه "ج. كورتيس" *J. Courtés*. وعليه، فإن هذه الأعمال المنجزة وغيرها، ساهمت بشكل بارز -على مدار عدة عقود- في تشييد المشروع البحثي لغريماس، والمتمثل في جانبه الإجرائي في تلك الكيفية التي تقارب بها النصوص السردية مهما كانت أنماطها. ومن حينها، اكتسبت مشاريع السيميائيات السردية شرعية تناول، وأضفت على جهود أعلامها صفة التفرّد بعدما انكبّت

¹ - حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت-لبنان، ط1، 2010، ص: 117.

² - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 07.

على البحث "في شكل المعنى"، وهو الأمر الذي "منح هذا التصور المفتوح لنظرية غريماس قدرة هائلة على تحليل السرد، بل واختيار أدواته السيميائية أيضا في تحليل خطابات غير سردية مثل الخطاب الإشهاري والخطاب القانوني والخطاب الصحفي والخطاب السياسي، على اعتبار أنّ هذه الأنماط كلّها خطابات إنسانية أو دوال لها مدلولات معينة يجب ضبطها وتحديدتها وتحليل أشكالها لتبين معناها أو ما ترمز إليه"¹.

من هذا، فإنّ عام 1966 يشكّل لحظة فارقة في تعامل الباحثين مع "مسألة الدلالة"، فبعدما كان أي حديث "يثار حول المعنى في تقدير الظاهرة اللسانية إلا وينزلق إلى إشكالية هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى اللسانيات"² على اعتبار أنها مجردة، ولا تخضع لمعايير التجربة العلمية المبنية على الملاحظة والقياس والنتيجة، وبالتالي فهي "لا تشكّل موضوع بحث حقيقي"³ من منظور الدراسات اللسانية. أصبح البحث في شكل المعنى منذ ذلك التاريخ لدى غريماس قمين بالدراسة، وخصوصية ميّزت الدراسات السيميائية في المجال السردية عن باقي النظريات الأخرى، فالسيميائية السردية التي تنماز بـ "...شموليتها في التصور وعمقها في التحليل، وقدرتها على النفاذ إلى باطن النص من خلال الكشف عن آليات انتظامه وتحديد القواعد المتحكّمة في تنظيم مستوياته [والتّي] تتميز أيضا بصرامة منهجية ودقة علمية واضحة، يعضدها في ذلك توافرها على حشد هائل من المصطلحات ندر وجود نظير له في نظريات أخرى معاصرة ومجايلة"⁴، وترى أنّ مقارنة أيّ نصّ تكون بلا جدوى إذا لم تركز على المعنى الثاوي فيه، وتجعل منه هدفا أساسا للتحليل، "فالتعرف على المعنى وتحديد حجمه لا ينفصل عن الميكانيزمات التي أنتجته. ومن هنا، فالتحليل لا يعني تعيين المعنى بشكل حسيّ دون تحديد لسيرورة نموه وموته، ذلك أنّ التساؤل عن الشروط المنتجة للمعنى وعن كيفية إنتاج هذا المعنى لا ينفصل عن تحديد حجم وطبيعة هذا المعنى. وعلى هذا الأساس فغاية أي تحليل هي مطاردة المعنى وترويضه وردّه إلى العناصر التي أنتجته. وتبعا

1 - حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، ص: 118.

2 - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 08.

3 - م ن، ص ن.

4 - عقاق قادة: الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظري)، مجلة موقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد 456،

السنة السابعة والثلاثون، سوريا، نيسان 2009، ص: 12.

لذلك، عوض أن يكون الأثر الجمالي قوّة حدسيّة لا يتحكّم فيها ولا يحدّد حجمها إلا الذات المتلقية، سيتحوّل إلى عمليّة تحليليّة تستند إلى العناصر النصيّة بانزياحاتها وتقابلاتها وتماسكها¹.

يحاول غريماس -من وراء هذا- تشييد مشروع سيميائي طموح، يهدف إلى استثمار معطيات النظريّات والعلوم الأخرى، من ذلك معطيات المنطق الرياضي التجريدي (أعمال برونالد) واللسانيات المتمثلة خاصة في تصوّرات هيلمسليف الغلوسيماتية والشكلانية والأنثروبولوجية البنيوية المتمثلة في تلك النتائج التي توصل إليها كل من ف. بروب *V. Propp*، وك. ليفي شتراوس *C. Lévi Strauss* حول بنية الدلالة في الحكايات الشعبيّة والأساطير و"سوربو" في المسرح². فلقد تمكّن غريماس من استيعاب جملة من المفاهيم والقوانين التي بموجبها استطاع "صياغة نظرية شاملة يمكن بمقتضاها تحليل مختلف الخطابات والأنشطة الإنسانيّة"³؛ أي أنّه نباهة عالية استوعب "غريماس" هذه النظريات والعلوم. وهو الأمر، الذي مكّنه من "توظيفها بذكاء وفق استراتيجيّة دقيقة ورؤية شموليّة وعميقة، لا تجعل من هذه النظريات والعلوم مجرد جزر معزولة، أو معارف بعيدة عن موضوع اهتمامه الذي هو شكل المعنى، بل لكونها نظريّات قادرة على مدّنا بمقومات التحليل"⁴. الذي بواسطته يمكن سبر أغوار الخطابات السردية وغير السردية. ومن هذا، يغدو التحليل السيميائي (السيموطيقي) لدى مدرسة باريس "غالبا ما ينصبّ على تناول المعنى النصي من خلال زاويتين منهجيتين: الزاوية السطحية التي يتمّ فيها الاعتماد على المكوّن السردية، والذي ينظّم تتابع تسلسل حالات الشخصيات وتحوّلاتها، والمكوّن الخطابية التي يتحكّم في تسلسل الصوّر وآثار المعنى؛ [أي أنّه] يدرس على المستوى السطحي البرنامج السردية ومكوّناته الأساسيّة كالتحفيز والكفاءة والانجاز والتّقويم، مع التّركيز على صيغ الجهات،

¹ - سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003، ص: 07.

² - ينظر: - عبد الواحد المرابط: السيميائية العامة وسيميائية الأدب، - من أجل تصور شامل، - ص: 43، 44.

- محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي، ص: 69.

- قادة عقاق: الأصول العلمية للنظرية السيميائية -مدخل نظري-، ص: 56.

³ - قادة عقاق: الأصول العلمية للنظرية السيميائية -مدخل نظري-، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية، مكتبة الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ع1، 2005، ص: 156.

⁴ - حسن مسكين: م س، ص: 118.

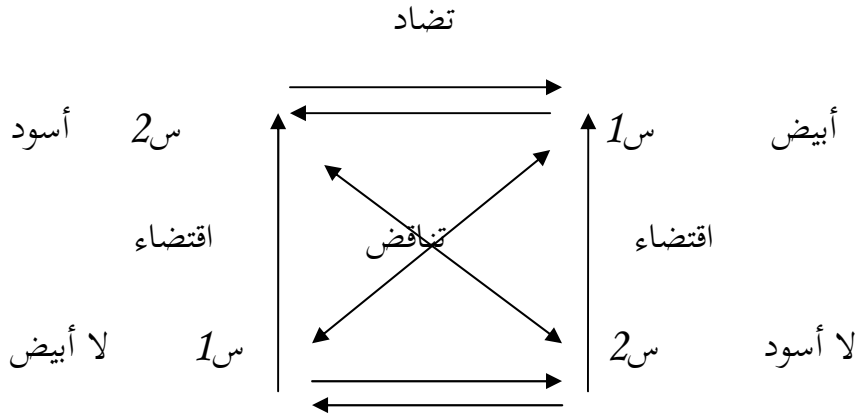
الباب الأول/الفصل الثاني/المبحث الثالث: المعطى الفرنسي في الخطاب السيميائي

المغربي.

ودراسة الصور باعتبارها وحدات دلالية وصور معجمية مع إبراز مساراتها والأدوار التيماتية، وربطها بالبنية العاملية والإطار الوصفي.

وفي الزاوية العميقة ترصد شبكة العلاقات التي تنتظم قيم المعنى حسب العلاقات التي تقيمها، وكذلك تبين نظام العمليات التي تنظم الانتقال من قيمة لأخرى؛ [أي أنه] على المستوى العميق يدرس المكون الدلالي والمكون المنطقي باستقراء التشاكل *Isotopies* والمربع السيميائي *Carré sémiotique* والذي يوكد التظاهرات النصية سردا وحكيا¹؛ إذ من خلاله يتمكن الباحث السيميائي (السيموطيقي) من تحديد نسق من العلاقات الناشئة بين القيم الدلالية (المضمونية) في أي خطاب سردي كان أو غير سردي (إشعاري، صحفي، سياسي...)، حيث تكون هذه العلاقات إما ضدية، أو تناقضية، أو اقتضائية (استلزامية).

ويمكن تمثيل² هذا المربع السيميائي أو كما يصطلح عليه في بعض الكتابات بالتمودج التكويني، والمربع العلامي، والمربع التمثيلي، والمربع التقابلي:



- تأثر الباحث المغربي بسيميائية غريماس السردية:

لم يكن اهتمام البحث السيميائي المغربي بالدراسات السردية وليد الصدفة، بل تبلور كمنجز بفضل تأثيرات آراء وأطروحات "أ.ج. غريماس" وأشيعه على الواقع النقدي العربي ككل؛ ذلك

¹ - جميل الحمداوي: مناهج النقد العربي الحديث المعاصر، ص: 132.

² - ينظر: سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، ص: 34.

لأنّ نقدنا الأدبي الحديث والمعاصر لا يزال يلعب دور المتلقّي للمعرفة الغربيّة، والحريص على مواكبة كلّ ما استجدّ في السّاحة الفكرية والثّقافية بالغرب لأجل توطينه في البيئة العربيّة، وهذا المسعى -في تقديرنا- ينمّ عن وعي الناقد العربي بالخصائص المعرفي الذي يشوب خطابات نقدنا الأدبي، وأنه بات لزاما تحديته بنظريات محكمة وأدوات إجرائية أكثر مرونة، وهي ميزات لا تتوفر في المناهج السياقية، وحتى في المنهج البنوي، من ذلك كان لتوظيف المنهج السيميائي في المشهد التقدي العربي ما يبرره.

وقد يلمس الدّارس -بوضوح- سبق هذا التأثير على الخطاب التقدي المغربي، الذي بفضلته تبوّأ ريادة البحث السيميائي المتخصّص في العالم العربي من خلال الأبحاث المنجزة حول السيميائيات السردية التي تراكمت عبر مراحل متلاحقة من سيرورته التاريخية، فنقل هذه النظرية وتوطينها عربيا إنّما تمّ -ولا يزال كذلك- عبر ترجمة الكتب المتخصّصة لبعض الأعلام الغربيين بالإضافة إلى دراسات معتبرة اشتغلت على التّظهير والممارسة. كل هذا، اكسب البحث السيميائي المغربي الأفضليّة، وجعل من أعلامه أيقونات الدّرس السيميائي العربي، يحتفي بهم القارئ الحصيف قبل العادي.

-أمّا، لماذا هذا السّبق؟، فمرّدّه ارتباط المنطقة المغاربية (تونس، الجزائر، والمغرب الأقصى) في تاريخها الحديث بالكولونيالية الأوربية*¹، وهو واقع فرض مبدأ المثاقفة على الطّرفين (الغالب والمغلوب)، فإذا نظرنا إلى الأمر من جانبه الايجابي ألفينا الإرث الحضاري والثّقافي للغة الفرنسيّة غنيمة حرب استخلصها المغاربيون لأنفسهم؛ إذ بواسطتها تمكّن الباحث المغربي من تلقّي النظرية السيميائية السردية من مظاهرها وبلغتها من دون عناء، ثم تطبيق آلياتها ومفاهيمها على النّصوص السردية، والوقوف على تمفصلاتها الدّلالية، أمّا ما يمكن ملاحظته، هو سمة وفاء الباحث المغربي للطّرح الغريماسي، وتقيّده بصرامة المنهج.

*¹- تمثلت الظاهرة الكولونيالية لهذه الدّول في الاستعمار الفرنسي تحديدا، الذي سعى جاهدا لطمس الهوية المغاربية (الإسلام، اللغة، والانتماء العربي/الأمازيغي/الأفريقي). أما باقي دول هذه المنطقة، فتوزعت بين الاحتلال الايطالي للأراضي الليبية، والاحتلال الإسباني للأراضي الموريتانية وأراضي الصحراء الغربية.

وبناء عليه، يمكن القول أنّ أطروحات مدرسة باريس في السيميائية قد تركت انطبعا حسنا في نفسية الباحث المغربي، ترجمتها الأبحاث السيميائية المختلفة التي أنجزها، والتي لا تنفك تبدي إخلاصها لأفكار غريماس وأتبعاه؛ إذ نجد غالبية هذه الدراسات تحاول تقريب هذه النظرية من القارئ العربي، من خلال الوقوف على مصادر ومشارب هذه النظرية، والمتمثلة في المرجعيات المعرفية والفكرية لمؤسسها "أ. ج. غريماس"، من ذلك مثلا مؤلفات: "سعيد بنكراد"، "عبد المجيد التّوسي"، "عبد اللطيف محفوظ"، "عبد الحميد بورايو" "رشيد بن مالك"، "السعيد بوطاجين"، "محمد الناصر العجمي"، "حسين خمري"، "نادية بوشفرة"،... وغيرهم.

لكن ما يلمسه الدّارس في تبنيّ الباحثين المغربيين لهذه النظرية، ومحاولاتهم الجادة في اختبار نجاعة أدواتها الإجرائية المطبقة على الآثار الأدبية العربية المختلفة، هو ذلك التّفاوت الظاهر على مستوى الممارسة بين هؤلاء، ومرّد ذلك - في تقديرنا - نعزوه لتفاوت درجات وعيهم في استيعاب معطيات هذه النظرية، فمنجزاتهم النقدية في حقل السيميائيات السردية - حسب أحد الباحثين - "لم تستطع بعد تحقيق ذلك التّراكم التّوعي والكمي الذي يسمح بطفرة متميزة"¹.

وبالتالي، فإنّ تجاربهم البحثية لم ترق إلى بناء تصوّر سيميائي عربي شامل وطموح، يستجلي بواسطته الباحث العربي أيّ نصّ عربي. وسبب ذلك، - كما يعتقد أحد الباحثين المغربيين - يتجلى في وجود عوائق تتصل أساسا بالمفاهيم والانجازات²، فالسيميائية لم يكتمل نموها بعد. وهي بهذا، لاتزال مشروعا طموحا في طور التّشديد. وعليه، فإنّ هذه العوائق التي اعترضت سبيل هذه النظرية في بيئتها، سوف تطالها كذلك وهي خارج بيئتها. كلّ هذا، يستشعره الدّارس من تلك الاعترافات الصريحة للباحثين المعلنة منها أو ضمنية حول صعوبة مهمّتهم في التحليل النّصوص سيميائيا، وعسر محاولتهم في القبض على "شكل المعنى" التّأوي في متون هذه النّصوص. لكن رغم هذا، يجد الدّارس أنّ النّقد المغربي المعاصر يحفل في حقل السيميائيات السردية بدراسات نقدية كثيرة، تراكمت عبر مراحل متعاقبة، يسّرت على القارئ العربي تناول هذا النّجّج بالقراءة والتّمحيص والإحاطة بالنّظرية السيميائية في مجال السرد تنظيرا وتطبيقا. والمتصفّح في منجز

¹ - حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة - من التاريخ إلى الحجاج -، ص: 119.

² - ينظر: م ن، ص: 119.

هذا الخطاب، يستطيع تصنيفه إلى صنفين: أحدهما تنظيري خالص، والآخر جامع بين النظري والتطبيقي.

1- التّظير السيميائي في الخطاب النقدي المغربي:

اشتغلت الكتب التأسيسية للخطاب النقدي المغربي على التّظير السيميائي، فلقد تكفل الرّعيّل الأول من الباحثين بعملية نقل النّظرية السيميائية إلى ثقافتنا العربية من أجل توطينها في مشهدها النقدي، وجعلها في متناول القارئ العربي. وضمن هذا السياق، سوف يختار الدّارس لهذا الصّنف نموذجاً تأصيلياً للمعطى السيميائي في السرد. ويتمثل في كتاب (مدخل إلى السيميائية السردية 1994) لسعيد بنكراد.

إنّ أولى الدّراسات المغاربية التي تناولت نظرية "غريماس" في السرد، ما قدّمه "سعيد بنكراد" مع مطلع تسعينيات القرن الماضي (1994) في مؤلّفه "مدخل إلى السيميائيات السردية". وهو كما أسلفنا الذّكر كتاب تنظيري شارح للسيميائيات السردية التي جاء بها "غريماس"، فبعد المقدّمة التي حدّد فيها (بنكراد) دوافع تأليفه للكتاب، وكذا أسباب اختياره لنظرية غريماس¹. نجده في الجزء الأول قد تناول بالشرح والتبسيط التّراث البروي، إلى جانب هذا، أبرز أهمّ الملاحظات التي طرحها كلود ليفي ستروس من حول الفكر البروي، ليقف بعد ذلك عند قراءة غريماس لمشروع بروب، ثمّ يعرّج في آخر هذا الجزء على واقع السرديات بعد بروب².

أمّا الجزء الثاني فقد خصّصه للسيميائيات السردية عند غريماس، حيث تناولها بالتفصيل منطلقاً من التّظيم العميق، هذا العنصر حدّد فيه ثلاث مستويات: هي مستوى البنيات العميقة، مستوى البنيات السطحية، ومستوى بنيات التّجلي. وبالاستناد على المستويين (الأول والثاني)، عرض الباحث ضمن التّظيم العميق دائماً تقنية النّموذج التكويني (المرّج السيميائي)، وبين كيفية توظيفه في كشف البنية العميقة. ثمّ وقف في التّظيم السطحي على البنية العاملة والمتمثلة بالنحو

¹ - ينظر: سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، ص.ص: 5-9.

² - ينظر: م ن: ص.ص: 9-28.

السردى وعلاقته بالبنية السطحية. هذا، ولا اعتبارات منهجية، لن يورد الدّارس كلّ ما جاء في هذا الكتاب، لأنّه سوف يستحضره في فصل لاحق في أثناء التّطرق لمرحلة التّأسيس.

ما يمكن الوقوف عنده في هذه الدّراسة، أنّها تندرج ضمن المرحلة التّأسيسية التي تتميّز بخطابها التّنظيري والتّأصيلي لنظرية غريماس في المشهد التّقدي المغربي، حيث ارتكز (بنكراد) في تنظيراته ضمن هذا الكتاب على إبراز منطلقات السيميائية السردية، والتي ما هي في الأصل إلا امتدادا لمشروع بروب، وكلود ليفي ستراوس، وفي هذا تظهر براعة غريماس في استفادته من الإرث البروبي، وكذلك من ملاحظات ستراوس وج. دوميزيل، في صياغة نظريته في السرد.

شرح (بنكراد) نظرية غريماس شرحا مستفيضا، مبرزاً مكوّناتها، ومحدّدا أسسها المعرفية التي انبنت عليها، ومشيرا إلى التّوافد المبلورة لمعلمها. كلّ هذا، يجد فيه الدّارس حصافة الباحث في سعيه الحثيث لتوطين هذه التّظرية في بيئة التّقدي العربي، من خلال اعتماده على أعمال غريماس، وبعض الدّراسات التي أنجزت من حول هذه التّظرية، ولعل ما يشدّ عضد هذه الدّراسة مكتبة البحث التي اعتمدها (بنكراد) وهي في مجملها كتب غربية¹، ويبرز التّلقي الصّافي لمعطيات هذه التّظرية من مظانها، ورغم أنّه اجتهد فردي في مجال التّنظير إلا أنّ الباحث يرى أنّه لم يحط بكامل مكوّنات هذه التّظرية. وعليه ينبغي التّوسل بالممارسة التّطبيقية؛ كي تتّضح الرّؤية².

اختتم الباحث منجزه بثبت المصطلحات الواردة في بحثه، وتعتبر من المفاهيم الأساسية في السيميائيات السردية، والتي تقدّر بحوالي 170 مصطلحا. كلّها مترجمة، ولا يوجد فيها مصطلحا معرّبا. هذا المعطى، يبرز براعة الباحث وتمكّنه من إيجاد المقابل العربي بدقّة، والذي يعكس إلمامه بالتّقافة الأمّ من ناحية، وتشبّعه بالتّقافة الغربية من ناحية أخرى. الأمر الذي أوحى إليه النّهل من المرجعيّتين (التّراثية والحداثيّة) بواسطة اللّغات التي يمتلك ناصيتها. وهي إلى جانب اللّغة العربيّة، هناك اللّغتين الفرنسيّة والإسبانيّة. فإتقان اللّغات، وكذلك وعيه بالسيميائيات أهله لممارسة التّرجمة المتخصّصة المحترفة.

¹ - ينظر: سعيد بنكراد: المرجع السابق، ص.ص: 101-110.

² - ينظر: م ن، ص: 91.



2- التطبيق السيميائي في الخطاب التقدي المغربي:

يحاول الباحثون المغاربة استثمار التنظير السيميائي في الممارسة التطبيقية. وقد تحقّق هذا فعلا من خلال ما يجده الدّارس في مقارباتهم الحافلة بالطّرح النظري المعضد بالمعالجة التطبيقية. فدراسات هذا الصّنف - في عمومها - قدّمت في شقّها النظري شرحا تفصيليا لمعطيات نظرية غريماس في مجال السرد من خلال الوقوف على المرجعيّات والأصول العلميّة للنظرية السيميائية الغريماسية. أمّا في شقّها الإجرائي فقد تعدّد الاشتغال، وتوزّع على الخطابات السردية المختلفة الأنماط والأنواع (حكاية، قصة، رواية..)، كما توزّع أيضا على الخطابات غير السردية كالخطاب الإشهاري والسياسي والقانوني... وغير ذلك. استنادا على هذا، سوف يخصص الدّارس لهذا الصّنف نموذجين لتحليل الخطاب السردية، وهما: كتاب (في الخطاب السردية - نظرية غريماس - *Greimas*) ل"محمد الناصر العجمي"، الذي يقارب فيه نصّ حكاية شعبية. وكتاب (مباحث في السيميائيات) ل"عبد المجيد العابد"، الذي يقارب فيه خطابا صوفيا.

2-أ- مقارنة الحكاية الشعبية:

تعتبر الحكايات الشعبية المحلية المحفوظة في الذاكرة الجمعية المغربية والحكايات العربية الموجودة في كتابي "كليلة ودمنة" لابن المقفع، وكتاب "حكايات ألف ليلة وليلة"، المعين الذي يغترف منه الباحث السيميائي مادّته الأدبية التي يختارها للدراسة؛ على اعتبار أنّ هذه الحكايات تشكّل حقلًا خصبا تتعالق فيه عناصر السرد لبناء المعنى، حيث أنّ البحث في (شكل المعنى) هو موضوع السيميائية السردية وضالّتها.

تزخر خزانة النّقد الأدبي المغربي بمقاربات سيميائية معتبرة، متعدّدة ومختلفة تناول فيها أصحابها الحكاية الشعبية لتوفّرها على السردية. والمقام لا يسمح لجرد جميع هذه الدّراسات، لذلك سنكتفي بذكر بعضها على أن نختار نموذجا واحدا منها لقراءته قراءة وصفية تحليلية نقدية. فمن هذه النّماذج التي قاربها أصحابها من منظور المعطى السيميائي السردية نجد:

2-أ-1-الحكايات الشعبية المحلية: نذكر منها:

- حكاية "أم سبع روس"، وهي حكاية شعبية جزائرية، قاربها الباحث "عبد الحميد بورايو"¹.
- حكاية "مائة ليلة وليلة"، وهي حكاية شعبية تونسية، قاربها الباحث المغربي "الطائع حداوي"².

2-أ-2-الحكاية الشعبية العربية: نذكر منها:

- حكاية "الأرانب والفيلة"، وهي حكاية مأخوذة من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، قاربها الباحث التونسي محمد الناصر العجيمي³.
- حكاية "الأرنب والأسد"، وهي حكاية مأخوذة من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، قاربها الباحثة الجزائرية نادية بوشفرة⁴.

- قراءة في كتاب "في الخطاب السردى - نظرية غريماس (Greimas):

سوف نقتصر على تناول الجزء التطبيقي من الكتاب ونترك الجانب النظري منه للفصل اللاحق، كون هذا الكتاب يندرج في خطاب التأسيس والتنظير للسيميائية السردية في الخطاب النقدي المغربي. خصّص الباحث جزءاً من هذا الكتاب الكاشف عن نظرية السيميائية السردية للممارسة التطبيقية؛ أي أعمال أدوات المنهج السيميائي في السرد، التي طرحها أ.ج.غريماس في كتبه: (الدلالة البنيوية 1966)، و(في المعنى 1970)، و(في المعنى II 1982)، حيث وسم هذا القسم بـ"من النظرية إلى التطبيق"، استهله ببسط نظري مقتضب، يبرز فيه الباحث نجاعة

¹ - ينظر: عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبية - مقارنة منهجية -، تحليل نموذج لحكاية "الطامة أم سبع روس"، ضمن أعمال الملتقى "السيميائية والنص الأدبي"، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار - عنابة -، الجزائر، أيام 15-17 ماي 1995.

² - ينظر: الطائع حداوي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب) بيروت (لبنان)، ط1، 2010.

³ - ينظر: محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردى "نظرية غريماس (Greimas)"، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

⁴ - ينظر: نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2008.

الجهاز المفاهيمي لنظرية غريماس؛ لما يزرخ به من طاقة إجرائية هامة وترسانة مصطلحاتية معتبرة. كل هذا، يشكل معطى قادرا على مقارنة النصوص على اختلاف أنواعها وأنماطها.

هذا الأمر - كما يبدو - للدّارس، قد شجّع "العجمي" على خوض مغامرة التحليل السردّي للخطاب بأدوات سنّها غريماس في مشروعها، يقول الباحث - في هذا الشأن - "ولما كنّا ننشد في دراستنا الإمام بأهم جوانب المنهج نظريا وتطبيقيا، توفّرنا على نص يحوي، فيما نعتقد، من الخاصيات ما يؤهلنا لبلوغ هذه الغاية في المستوى التّطبيقي حريصين على الوفاء قدر المستطاع للأسس النظريّة دون تعسف، آمليّن في الآن ذاته أن نسهم، وإن بحظ متواضع جدا، في قراءة نصوص من التراث من وجهة تأخذ بأسباب النقد الحديث لإيماننا بجدوى هذه التجربة"¹. بعد هذه الافتتاحية المنهجية، يبسط "العجمي" النّص مدار دراسته الموسوم بـ"الأرانب والفيلة"، وهو نص مجتزأ من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، أخضعه الباحث للتحليل السيميائي وفق معايير النظريّة الغريماسية.

— طريقة التناول (المعالجة):

إشكالية تقسيم النّص:

تواجه الباحث إشكالية تقسيم هذا النّص التّراثي على نحو حاسم، على اعتبار أن "كل تقسيم مهما تكن وجاهته لا يستقيم بالضرورة منهجا وحيدا ملزما لنا باتباعه ذلك أنه يعتمد هذا النظام تارة وذاك النظام تارة أخرى"². وعليه، فمعيار التقسيم حسب الباحث لا يستقيم باعتماد المستوى الزماني، كما أنه لا يتحقق بالمدى المكاني، باستثناء ما جاء في القسم الأول منه "استنادا إلى الإشارة التي تفيد بانتقال الفيلة من موطنها المألوف إلى موطن مجاور له طلبا للماء"³.

¹ - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردّي "نظرية غريماس" (Greimas)، ص: 109-110.

² - محمد الناصر العجمي: المرجع السابق، ص: 114.

³ - م ن، ص ن.

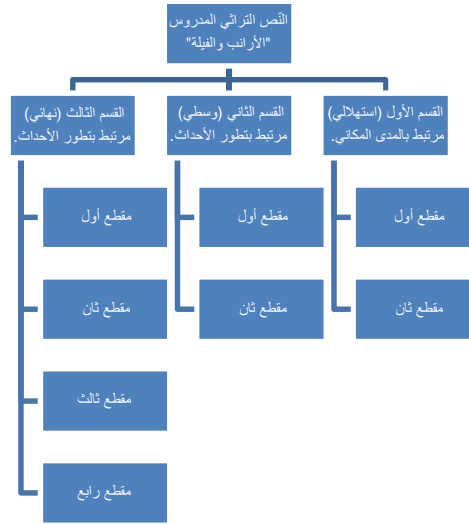
- تقطيع النص:

تأسيسا على الاشكالية التي طرحها الباحث، قام بتقطيع نصّه كاملا إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول (استهلالي) مرتبط بالمدى المكاني، ويجوي مقطعين.
- القسم الثاني (وسطي) مرتبط بما تبقى من هذا النص، يتحقق هذا القسم استنادا على تطور الحدث ومراحل صيرورته، ويتكون من مقطعين.
- القسم الثالث (نحائي) متعلق بالخطة التي وضعتها فيروز لصرف الفيلة عن العين.

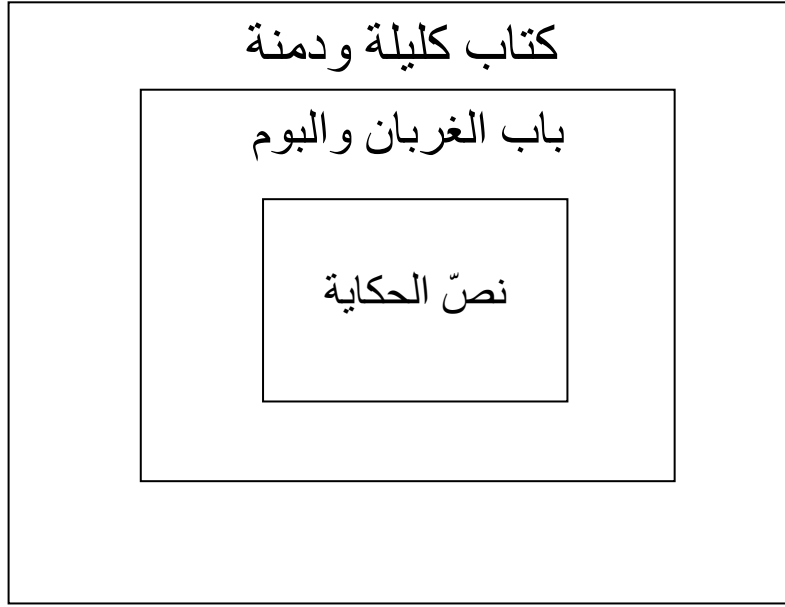
يمكن للدارس أن يوضح الطريقة التي هندس بها الباحث تصوّره في تقطيع النص من خلال هذا

المخطط:



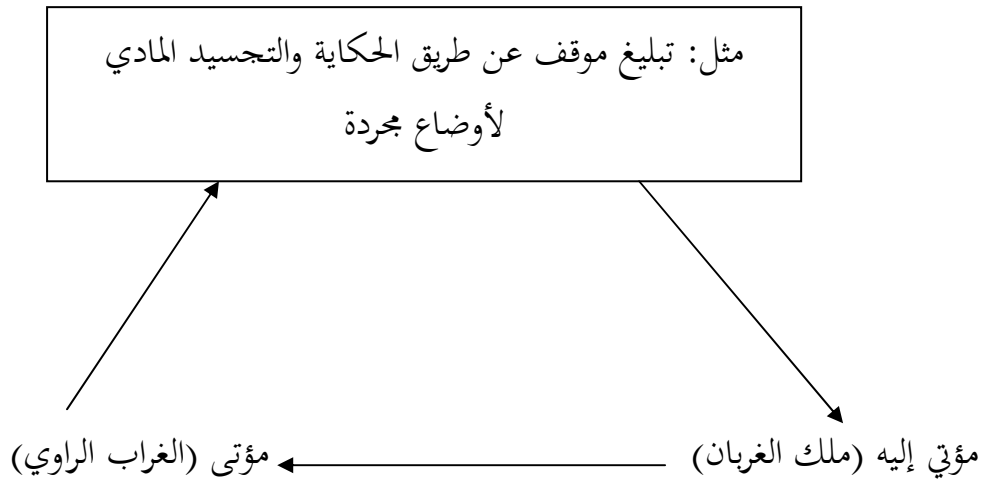
من خلال هذا التصور، تناول الباحث هذا النص، الذي يبقى "في حدّ ذاته عالما مغلقا مكتفيا بذاته"¹، بحيث لا نفهم المقصدية منه إلا بفهمه في سياق عرضي هو "باب الغربان والبوم". هذا الأخير، كذلك لا يمكن استيعاب مقصدية إلا في إطار سياق أكبر هو كتاب "كليلة ودمنة"، أي استيعاب الحكاية - في مرماها البعيد - لا يتحقق إلا باستيعاب الإطار الذي أدرجت فيه، والذي يتحقق من خلاله الفهم النهائي. فما هذا النص الحكائي إلا جزء من كل، الذي بدوره يعدّ جزءا من كل أكبر. ويمكن توضيح ذلك بهذا المخطط:

¹ - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردية "نظرية قريماس" (Greimas)، ص: 115.



من هذا، فإنّ النصّ المدروس من منظور الباحث "يعدّ توسّعا في الفكرة وتجسيدها سرديا لها، وله بذلك مدى استقرائي بحكم أنه ينطلق من الخاص ليلبغ العام، ويعرض للجزئي المحسوس ليصل إلى الكلي المجرد"¹.

لخصّ الباحث رؤيته تلك "حول عملية التبليغ" في المخطط التالي:



يبين الباحث الغاية من هذا المخطط والمتمثلة في:

¹ - م ن، ص: 116.



- ملك الغرban يسأل الغراب (الراوي) رأيه في كيفية مواجهة الوضع.
- الغراب (الراوي) يبدي رأيه (موقف غير مصرح به) بطريقة القص والحكاية.

التماس طريقة القص والحكاية هي محاولة من الغراب (الراوي) لإقناع ملك الغرban بجدوى فكرته لمواجهة الوضع¹، "وهكذا يكتسي المثل طابعا جدليا إذ يتردد بين التجريد والتجسيد المادّي، فهو ينطلق من وضع قائم ليختزله ويجرده ثم ينقله إلى وضع واقعي آخر يشيبه أو يعادله، وفي مرحلة ثانية يعمد إلى تأويل الوضع الجسد في المثل وتسقط النتائج النظرية المستخلصة على الوضع الأول المعني بالوصف والتجاوز"².

إجرائية تقطيع النص:

تنطلق استراتيجية الباحثين المغاربيين في تحليلهم للخطابات السردية من منظور المنهج السيميائي ابتداء من تقطيع النص، كونه عملية إجرائية ضرورية ومطلوبة مؤداها "فهم النص والأخذ بتلابيب تشكل دلالاته، وكل مقطع سردي قادر على أن يكون لوحده حكاية مستقلة بذاتها، كما يمكنه أن يدخل ضمن حكاية أوسع..."³. وفق هذه الرؤية، هندس "العجمي" الكيفية التي يتم بها تقطيع هذا النص التراثي، حيث قام الباحث بتقسيم النص إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول (قسم استهلاكي)، نلفيه مرتبطا بالمدى المكاني، ويتوزع على مقطعين:

- **المقطع الأول:** يمتد من [زعموا] إلى [عطش شديد]، وهو "يتضمن وصفا لحالة الوطن الذي تقيم فيه الفيلة"⁴، بحيث يستخلص الباحث من هذا المقطع، أن الحيز الفضائي (موطن الفيلة) تميزه مرحلتين:

- مرحلة ما قبل الجفاف (سابقة) وهي "في حال اتصال بالماء أي بالحياة (ماء[^] أرض[^] حياة)⁵".

¹ - ينظر: محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردية "نظرية قريماس" (Greimas)، ص: 116.

² - م ن، ص: 117.

³ - عبد المجيد العابد: مباحث السيميائيات، دار القرويين، المغرب، ط1، 2008، ص: 60.

⁴ - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردية "نظرية قريماس" (Greimas)، ص: 114.

⁵ - م ن، ص: 117.

- مرحلة ما بعد الجفاف (راهنة)، وهي في حال انفصال عن الماء "متصلا بما يشبه الموت (ماء √ أرض ^ ± موت)¹.

يستخلص الباحث من عملية الانتقال من وضع سابق إلى وضع راهن إلى أن:

الماضي ← رمز عطاء وحياة.

والحاضر ← رمز الإمساك والموت.

- **المقطع الثاني:** من القسم الاستهلاكي: يمتد بين [فشكون] إلى [هو وفيلته] يعالج موضوع "تذمر الفيلة من سوء حالها والتماسها النصيحة من ملكها لإيجاد مخرج لها"².

يبرز الباحث هنا تحول العلاقة القائمة بين الفيلة (ذات حالية) و موطنها (الفضاء المؤلف) نتيجة ما أصابها من عطش، حيث كانت العلاقة في مرحلة ما قبل الجفاف بين الذات والموضوع علاقة اتصال، وأضحت العلاقة بينهما في مرحلة ما بعد الجفاف علاقة انفصال. يصوغ الباحث حالة الاتصال والانفصال بين الذات الحالية (ف1) (الفيلة) وموضوعها (م) (الفضاء المؤلف) بعدما أخذ في حسابانه عملية التحول (ت)، والقائم بفعل التحويل (م) الذي هو "السماء" على النحو الآتي: ت(ف) [ف1 ← م √ ف1].

أمّا القسمان الثاني والثالث فمرتبطان بما تبقى من النص، وهما كالآتي:

القسم الثاني (الوسطى): يستند على تطور الحدث ومراحل صيرورته، ويتكون من مقطعين

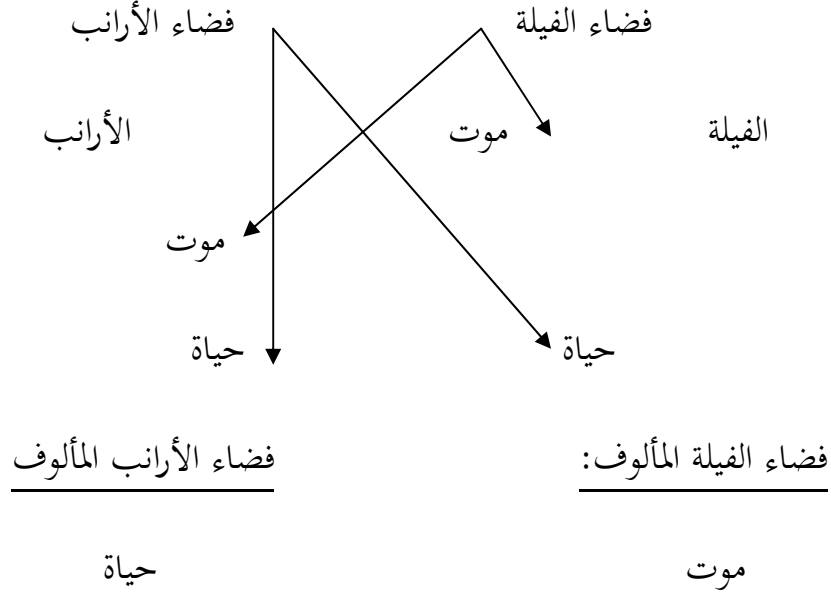
هما:

¹ - م ن، ص ن.

² - م ن، ص: 114.

-المقطع الأول: يمتد من [كانت العين] إلى [فأهلكن كثيرا].

يبرز هذا المقطع ارتحال الفيلة من موطنها إلى موطن آخر (فضاء الأرناب المؤلف) بغية استيطانه (خرق): يعد هذا الموطن الجديد بالنسبة للفيلة فضاء حياة، بينما يصوغ الباحث هذا كما الآتي:



تبرز هذه الترسيمية النزاع من حول الفضاء المرتاد من طرف الفيلة، المؤلف للأرناب والذي تنهض فيه أسباب الحياة. وقف الباحث في مستوى المحور التقويمي على الاحتمالات التي تقوم بها الأرناب، ووضع في السياق ذاته كامل الأوصاف المتعلقة بالفيلة والأرناب ليخلص إلى أن بؤرة الصراع بين الطرفين (الفيلة/الأرناب) تنتظم في ثلاثة محاور¹:

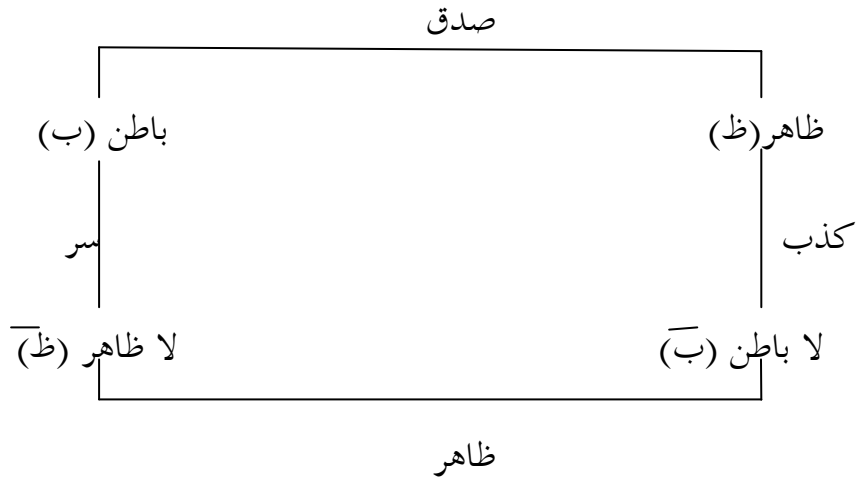
يتمثل لفظ "العين" موضوع النزاع بين الطرفين، وهو ذا قيمة، ويرتبط مع هذا اللفظ لفظ "القمر"، ولكليهما دلالات، ستقضي في الأخير إلى رحيل الفيلة².

¹ - ينظر: محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردى "نظرية غريماس" (Greimas)، ص.ص: 123 - 124.

² - ينظر: م ن، ص.ص: 125 - 126.

- المقطع الثاني: يمتد من [فاجتمعت...] إلى [... إذا خرق].

يتمحور هذا المقطع حول ملك الأرانب ورعيته. يستشف الباحث العلاقة الوثيقة بين هذا الملك ومحكوميه من مجتمع الأرانب من خلال العبارات الواردة في هذا المقطع، وتدعمت نظريته كذلك من خلال المقارنة التي عقدها "العجيمي" بين علاقة الأرانب وملكها، وبين علاقة الفيلة وملكها، والتي استخلص منها الاختلاف النوعي في العقد المنظم لعلاقة طرفي كلتا المجموعتين، القائم على قرائن نصفية تعكس طابع الفردية *Contrat individuel* الذي يميز حكم ملك الفيلة من جهة، وتعكس -من جهة أخرى- "العقد الشوري التفاوضي الذي يميّز حكم ملك الأرانب"¹. من هنا برزت "فيروز" وهي واحدة من عامة الأرانب معروفة بينهم بالنباهة وسدادة الرأى، والتمست منه الإذن بالتصرف والاجتهاد، فكان أن أوكل إليها هذه المسؤولية، هذا الفعل جعل "العجيمي" يتساءل من موقف الدّارس الباحث عن جنوح ملك الأرانب إلى اللين والمهادنة، هل هذا التصرف نابع من قبيل الصدق أم الخداع؟. ارتأى الباحث الإجابة في المربع السيمائي (العلامي)².



استنادا على المعطيات التي طرحها الباحث، توصل إلى حقيقة صدق ملك الأرانب مع رعيته. أما الدور العاملي (*rôle actancier*) للأرانب ويتلخص في كفاءة "فيروز" ودورها

¹ - ينظر: م ن، ص: 126.

² - ينظر: م ن، ص: 127.

في صرف الفيلة عن فضائها المؤلف. يصوغ "العجمي" المشروع الذي ستنجزه "فيروز" في الصياغة التالية: ف3 (الأرانب الفاعلة)، ف2 (مجموعة الأرناب)، ف1 (الفيلة):

ت(ف3) ← [(ف2V م) ← (ف2A م)]

[(ف1A م) ← (ف1V م)]

← [(ف2V 1) ← (ف1A م 1V)]

القسم الثالث (النهائي): يتمحور حول الخطة التي وضعتها "فيروز" لصرف الفيلة من العين، واشتمل على أربعة مقاطع.

- المقطع الأول: الاستعانة بالمساعد (*adjuvant*): [ثم أن الأرناب.. انتهت إلى الفيلة]، في هذه المرحلة تحاول "فيروز" تنفيذ خطتها في ليلة مقمرة، ثم هذا عن قصد منها وتديير، إذ رأى في "القمر والضوء الصادر عنه دور المساعد في إنجاز المشروع وتحقيق الطلبة"¹.

- المقطع الثاني: [وكرهت... الجبل]، في هذه المرحلة، شرعت الأرناب في تنفيذ الخطة، بتسلق الجبل والاشراف منه على الفيلة خاشية أن تدوسها أقدام الفيلة، هذا التصرف أكسب الأرناب القدرة وأهلها لمخاطبة الملك من موقع المسيطر المنذر بحلول البلاء"².

- المقطع الثالث: [ونادت... فإنه موافيك بها]. تتلخص هذه المرحلة في: ملابسات الخطاب، حيث أظهرت الأرناب في خطابها عزمًا وحدة، وكى لا تحتقر بسبب ضالة جسمها، قدمت نفسها على "أنها مرسله من القمر، معنى هذا علاميا أنها تدعي القيام بدور عاملي هو أنها فاعل مفوض *sujet délégué* من مؤت صنديد يفترض أنه يمتلك القدرة بحكم علو موقعه"³ الذي هو القمر، وبتفويض منه تأمر الفيلة بإخلاء لموطن الأرناب كي تتجنب (الفيلة) العقاب.

¹ - محمد الناصر العجمي: م س، ص: 129.

² - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردى، ص: 130.

³ - م ن، ص: 131.



- التلاعب بين الظاهر والباطن (العقل الإقناعي):

يستشف العجيمي من مضمون خطاب الأرنب وتصرفاتها، "أنها انتحلت لنفسها دورا عامليا زورا وخداعا"¹، ومن منطلق الحرب خداع، فإن الباحث يرى استعمال القيم المنبوذة (الكذب، الخداع)، مثلا في هذه الحالة يصبح مشروعاً في حالات خاصة، إذا كان الضعيف مغلوب على أمره يريد رفع الظلم عن نفسه، ولم يجد وسيلة لردّ حقّه من ظالم متسلّط، وبالتالي الجنوح إلى الحيلة أمر مشروع في مثل هذه الظروف ما أخذ قهراً منه.

المقطع الرابع: من [يتعجب... إلى نهاية النص]، تتلخّص هذه المرحلة، في سعي الأرنب (فيروز) إلى إتمام خطتها، يرى (العجيمي) أن حيلة انطلت على ملك الفيلة لسببين هما: معرفة الأرنب من ناحية وجهل ملك الفيلة من ناحية أخرى، و"النتيجة أن المعرفة-معرفة عن كيان الآخر (*Savoir sur l'être*) ومعرفة بحقائق الطبيعة- أسعفت الأرنب بالقدرة وأهلتها لتحقيق ما لم يكن بوسعها أن تحقّقه لولاها"². على مستوى بنية النص السطحية، يحضر الباحث الأدوار الغرضية وما يوافقها من مشاريع للقائمين بالفعل: ملك الفيلة، ملك الأرنب، فيروز، وجمعها في جدول³. وبعدها يقف عند الأقطاب الدلالية (*Isotopies*) ليخلص "في نهاية التحليل إلى تحديد الثنائية الرئيسية المولدة للنص والجامعة للثنائيات الدلالية بمختلف تفرعاتها، وفي ظننا أنّ النص يبني في جوهره على الثنائية التالية: معرفة/ جهل، فالمرء ينال حظاً من السعادة بمقدار ما يصيب من المعرفة"⁴.

قراءة تقويمية للمبحث:

يعدّ كتاب "محمد ناصر العجيمي" مشروعاً تأسيسياً للخطاب السيميائي السردّي في النقد

الأدبي المغربي.

¹ - ينظر: م ن، ص: 132.

² - م ن، ص: 134.

³ - ينظر محمد ناصر العجيمي: م س، ص.ص: 134-135.

⁴ - م ن، ص: 138.



- أسهب الباحث في البسط النظري للطرح الغريماسي (حوالي 107 صفحة). وهو صنيع هندس له الباحث لضرورة تعليمية، يروم منها تقريب هذا المنهج، وتبسيطه للقارئ العربي، وجعله في متناوله. لكن هذا لا يتم كما ينبغي إلا بوجود قسم تطبيقي توضيحي يعمل فيه الباحث الأدوات التي طرحها في الشق النظري على النص المختار للدراسة. و"العجمي" ههنا، من خلال استحضاره للنموذج التطبيقي (حكاية شعبية)، والتي شغلت حوالي 30 صفحة من الكتاب، بدا فيه مخلصا للمنهج السيميائي السردية. وعليه، فتقيدده بالصرامة المنهجية -وفق ما يستدعيه البحث العلمي- التي بدت في القسم النظري والإجرائي من هذه الدراسة، إنما تنم عن وعي الباحث بأهمية وضرورة التطبيق الصافي للمنهج من جهة، والنأي عن التركيب المنهجي الذي كثيرا ما يؤدي إلى مزالق معرفية من جهة أخرى.

- تزخر هذه الدراسة (تنظيرا وتطبيقا)، بمصطلحات سيميائية كثيرة، استحضرها الباحث حسب السياق، وقد وُفق في ترجمة أغلبها، عدا بعض المصطلحات التي غلب فيها الباحث الذاتية والفردانية في ترجمتها على حساب الاجتهادات الجماعية، منها (المؤتى بدلا من المرسل، المؤتى إليه بدلا من المرسل إليه، علم الدلالة (العلامية) بدلا من السيميائية...)، فهذا الصنيع، يشوش فكر القارئ، وينفره، ويعيق كل مساعي التعاون لاحتواء إشكالية المصطلح النقدي عامة والسيميائي منه خاصة.

- أنهى الباحث دراسته بخاتمة، بدا فيها إسقاط الأحكام المعيارية واضحا، حين أسقط صورة الحاكم المتسلط الطاغية على "أبي العباس" أو "أبي جعفر المنصور" الذي ستكون نهايته غير محمودة. يرى أحد الباحثين في هذه النقطة أن العجمي "يتعامل مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة إلى المجتمع العربي الإسلامي، وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع"¹.

- يبقى أن نقول -في الأخير- أن هذا المؤلف رغم الملاحظات التي طالته. يجب أن يناقش طرحه في سياقه الزماني، فلو نظرنا إلى سنة التأليف وهي (1993)، قد نلمس العذر

¹ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ -2006م، ص: 39.

للباحث "العجمي" في بعض القضايا المتعلقة بالمنهج أولا ثم المصطلح ثانيا، فإذا كان وفاء الباحث للنظرية السيميائية تاما وظاهرا للعيان - كما يبدو - من تعامله معها، وكأنها "حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديدة بالطرح والمساءلة"¹، فلأنه يحاول أن يوظف هذه النظرية الجديدة في المشهد النقد المغربي من خلال هذه الدراسة التي تنشده الدقة في التناول والنقل؛ ذلك لأن مناقشة القضايا وقتذاك، وأعني به مرحلة التلقي الأولى والاحتكاك بهذه النظرية، يكون أمرا صعبا، خاصة إذا وضعنا نصب أعيننا أنّ هذه مقارنة اعتمد فيها صاحبها على اجتهاده الفردي. إلا أنه قد يكون ذلك ممكنا في مرحلة مواءمة لو أنّ الباحث أعاد طبع هذه الدراسة، ونقحها بما جدّ على ساحة النقدية في الغرب، وبما توفّر له من دراسات عربية قيمة حول النظرية، وهو ما لم نصادفه طبعاً.

أمّا ما يتعلّق بالمصطلح، فإنّ الدقة التي أرادها الباحث من دراسته بخصوص ضبط الجهاز المفاهيمي والمصطلحي للسيميائية، والتي نراه قد وفق - إلى حدّ بعيد - في ترجمة أغلبها، ووجدت - من منظورنا كذلك - توافقا مع بعض الترجمات العربية، لم تمنع من وجود ترجمات عديدة لبعض المصطلحات قد خضعت لاجتهادات "العجمي" الفردية، إلا أنّه رغم ما لهذا الصنيع من مآخذ، فإنه يكشف لنا عن غياب التنسيق بين الباحثين من ناحية، وبين هؤلاء والمجامع العربية من ناحية أخرى. هذا، ونرى في غياب المتابعة الفعلية لتوافد المصطلحات من طرف هذه المجامع أكبر معيق شجّع على استفحال اشكالية المصطلح النقدي في الخطاب النقدي العربي عامة.

2-ب- مقارنة الخطاب الصوفي:

اختار الدّارس لهذا العنصر دراسة أنجزها الباحث "عبد المجيد العابد" في كتابه (مباحث في السيميائيات) حول النصّ الصوفي "كرامة الفقيه أبي حفص"، وقد تناولها الباحث من منظور سيميائي. وقبل الوقوف على أهم ما جاء في هذه الدّراسة، ارتأى الدّارس بداية تقديم الكتاب.

¹ - رشيد بن مالك: م ن، ص: 38.



- هذا الكتاب:

يحتوي هذا الكتاب أنماطاً متعددة من الخطابات. أراد الباحث مقارنتها من منظور سيميائي نظراً لمرونته التحليلية، ونجمته التفاعلية مع هذه الخطابات. والتي تنماز بـ"طبيعتها المختلفة في الأشغال ونمطها المخصوص في التدليل"¹. هذه الخطابات صاغها الباحث في مباحث أساسية هي كما يلي:

- القياس في السيميائيات البصرية.
- النقل الديدانكي للمفاهيم السيميائية.
- الصورة الإشهارية بين الإنتاج والتلقي.
- التحليل السيميائي للخطاب الصوفي: كرامة الفقيه أبي حفص مثالا.
- الوصف البصري للشخصيات في رواية "البعيدون" لبهاء الدين الطود.
- بناء الصورة في ألف ليلة وليلة.
- الصورة الساخرة في رواية "السوق الداخلي" لمحمد شكري.
- الصورة والبيداغوجيا.
- ما العلامة الأيقونية؟

يتجلى المبحث الأساسي الذي اختاره الدّارس في التحليل السيميائي للخطاب الصوفي:

- كرامة الفقيه أبي حفص مثالا، يندرج هذا النص ضمن النصوص السردية

التراثية.

يتبدّى للدارس نيّة الباحث من خلال العنوان، حيث نلمس من عتبة هذا المبحث، تعالق مفهومين أساسيين شكّلا معا قصديّة الباحث من وراء هذه المقاربة. نجد العنوان يتركّب من كلمات مفاتيح هي: التحليل السيميائي + الخطاب الصوفي + تحديد التّموذج المدروس.

يعوّل الباحث في مقارنته على "استثمار مقتضيات وإجراءات السيميائيات السردية الغريغاسية، التي تضع في صلب اهتماماتها الرئيسية دراسة شكل الدلالة في كل الخطابات

¹ - عبد المجيد العابد: مباحث السيميائيات، دار القرويين، المغرب، ط1، 2008، ص: 12.

السردية بحثا عن المعنى¹. يرى الباحث في استناده على هذا، أن نجاعة أدوات سيميائية غريماس يمكنها الخوض في كل خطاب سردي. وعليه، فإنّ "دراسة الكرامة الصوفية باستثمار المنهج السيميائي السردية في البحث عن شكل دلالتها يعدّ أمرا واردا"². كون الخطاب الصوفي شأنه في ذلك شأن كل خطاب سردي يحوي عناصر سردية تساهم في بناء المعنى.

استنادا على هذا، يحاول الباحث تحليل نصّ "كرامة الفقيه أبي حفص".

- المصطلح:

يلحظ الدّارس ورود مصطلحات السيميائية بكثرة تجاوزت الأربعين مصطلحا ضمن التحليل، استطاع الباحث إعمالها بشكل يراعي فيه الضبط المنهجي والترتيب في الطرح. يستعين الباحث بفاعلية الترجمة؛ إذ نجده يستحضر المصطلح السيميائي بلغته الأم، ويضع له مقابلا عربيا ينتقيه بوعي. من هذه المصطلحات نجد: السردية *Narrativité*، مؤنسن دور *Anthropomorphe*، التخطيب *Discursivation*، دور ثيماتي *Thématique*، دور تصويري *Figuratif*، الصورة *Figure*، مسارات سيمية *Parcours sémique*، المسار التصويري *Parcours figuratif*، التشكلات الخطائية *Configurations*، الاندماج والاندماج *discursives*، الاندماج *Enbrayage Débrayage*، التفضية والترميز *Spatialisation et temporalisation*، المحلّاتية *Localisation*، التضمين *Emboitement*، الحالات *Etats*، التحولات *Transformations*، ملفوظ حالة *Enoncé d'état*، الذات *Sujet*، الموضوع *Objet*، ملفوظ الفعل *Enoncé de faire*، ملفوظ حالة اتصال *Conjonction*، ملفوظ حالة انفصال *Disjonction*، برنامج سردي *Programme narratif*، موضوع القيمة *Objet valeur*، الترسيم العامة *Schéma*، انجاز *Performance*، مرسل *Destinateur*، تحفيز *Manipulation*، وجوب الفعل *Devoir faire*، القدرة على الفعل *Pouvoir faire*، معرفة الفعل *Savoir*، إرادة الفعل *Vouloir faire*، القدرة *Compétence*، الجزاء *Sanction*.

¹ - عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 59.

² - عبد المجيد العابد: م ن، ص: 59.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه المصطلحات في مجملها، استقاها الباحث من حقل السيميائية السردية لغريماس، بحيث لا يكاد يخرج عمّا تواضع عليه الباحثون المغاربة حول الترجمة، فكل المصطلحات التي استحضرها متداولة بين هؤلاء، ولا تسبّب نفورا للقارئ على الإطلاق، وفي هذا إعلان عن التزام وتقيّد الباحث بإعمال المصطلحات السيميائية السردية الشائعة، وكذلك بضرورة الأخذ بما تطرحه حلقات البحث الجماعي.

- المصادر والمراجع:

أثّ الباحث مكتبة بحثه بمجموعة كتب مهمة، فبالإضافة إلى المصدر الذي انتقى منه النصّ المدروس والمتمثل في: ابن الزيات، أبو يعقوب بن يحيى التادلي، "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص ووثائق 1، ط 1، 1984/1404. يقع الباحث على كتب أجنبية تنمّ عن وفاء الباحث للطرح الغريماسي، منها:

Greimas (AJ), du sens I (1970) et II (1983).

Greimas (AJ), courtes (J): sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage, 1979.

courtes (J): Analyse sémiotique de discours, 1991.

Courtes (J): Introduction à la sémiotique narrative et discursive, 1976.

Groupe d'entrevenes: Analyse sémiotique des textes, 1987.

من خلال هذه الكتب الغربية والتي هي غالبا لـ"غريماس" أو "كورتيس" ولهما معا، تحدد مدى اطلاع الباحث على معطيات المدرسة الفرنسية الممثلة في "غريماس" وتلميذه (كورتيس)، فهذه المراجع استند عليها الباحث في مقارنة هذا النصّ الصوفي وتحليله تحليلا سيميائيا يبرز من خلالها الاتجاه الباريسي للباحث.



– طبيعة النص المدروس:

يتجلى هذا النص في: كرامة الفقيه أبي حفص بحيث يندرج هذا النص في النصوص التراثية القديمة: بحيث قام الباحث بسبب هذا النص في بداية هذا المبحث، وهذا حتى يتسنى للقارئ الاطلاع على النص المدروس، أما اختيار الباحث لهذا النص/النموذج بغية تحليله، نابع من قناعته أن السردية (*Narrative*) حاضرة في مثل هذه النصوص، ما يستدعي تضافر عناصر السرد ضمنها في تشييد الدلالة، الذي تحاول السيميائية السردية بكل ما تملكه من أدوات إجرائية وترسنة مصطلحية الولوج إلى مكامن النص لأجل الكشف في شكل المعنى، وهو غاية الباحث "عبد المجيد العابد" في هذا المبحث.

– طريقة التناول (المعالجة):

إن محاولة فهم النص، وسبر أغواره، وتقصي تشكّل دلالاته، دفع بالباحث إلى تقطيع النص كإجراء يستدعيه المنهج السيميائي السردية مستندا في ذلك على جملة من المعايير التي صبّها "غريماس" ك: الفضاءات النصية، والقيمات المتتالية في التناسل خطاب النص، والمكونات الخطابية المختلفة مثل: التزمين والتفضيء، وبنية الممثلين¹. ارتكازا على هذه المحددات، قسم الباحث النص الصوفي إلى ثلاثة مقاطع أساسية هي:

المقطع الاستهلاكي: [حدثني... فسأعود لك]؛ يرى الباحث أن هذا المقطع "لا يشير إلى العلاقة المرادية من عبد الله الردعي والشيخ أبي حفص"².

المقطع الوسيط (الوسيط): [فأحضر لي... أغمات وريكة]؛ يبرز الباحث في هذا المقطع أن رحلة عبد الله الردعي إلى مدينة أغمات تمت من دون معاناة السفر، بسبب دعوة الشيخ أبي حفص المستجابة³.

¹ – ينظر: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 60.

² – ينظر: عبد المجيد العابد: م ن، ص: 61.

³ – ينظر: م ن، ص ن.

المقطع النهائي: [سألت... فدخل داره]؛ "يهم لقاء عبد الله الردعي الشيخ عبد الجليل ومناولته كتاب أبي حفص وغرائره"¹.

انطلق الباحث محلاً لهذه الكرامة (النص الصوفي) وفق المسار التوليدي للسيميائية السردية، بحيث استهله بـ:

البنية الخطابية: "تقوم البنية الخطابية على مكونين اثنين: المكون التركيبي والمكون الدلالي؛ إذ تعدّ هذه البنية بالأساس تجل للبنية السيميائية السردية وتحويلها إلى بنية خطابية بوساطة عملية التخطيب *Discursivation* [والتي] تستند في الانتقال من المجرد إلى المحسوس، على ثلاثة مستويات، هي: مستوى صوغ المؤلفين ومستوى التفضيء، ومستوى التزمين"².

من هذا نجده يعالج تحت هذه البنية: بنية الممثلين: التي تمثلها الشخصيات التالية: (أبو عبد الله الردعي، والفقيه أبو حفص، وعبد الجليل وغيرهم)، هؤلاء جميعاً يقومون بدورين هامين على مستوى الخطابي:

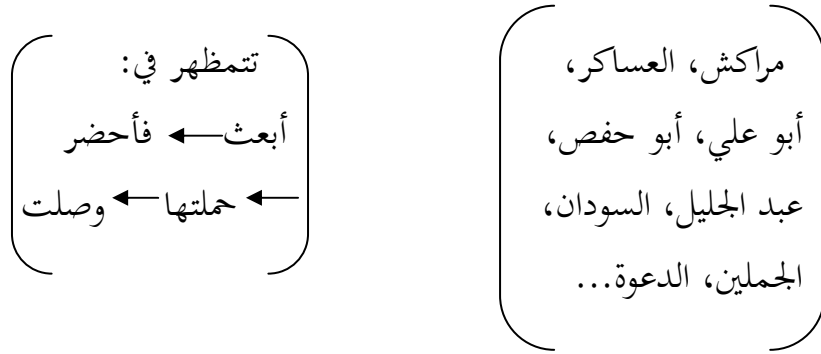
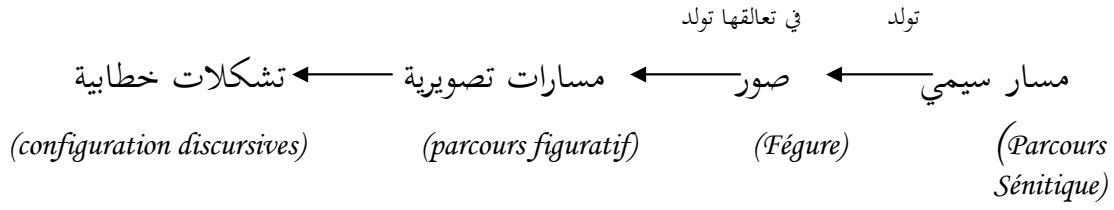
- دور تصوّري *Figuratif*.

- دور تيماتي *Thématique*.

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - ينظر: م ن، ص.ص: 61 - 62.

يقوم الدور التصويري على سلمية محدّدة في التحليل¹:



أمّا في الدور التيمي، فإنّه "يقوم تحليل جميع ما هو محقق نصيًا من خلال المسارات التصويرية إلى أنواع من الأدوار الخطابية يمكن تسميتها بالأدوار التيمائية"²، وقد حدّد الباحث في هذه الكرامة (النص الصوفي) تيمتين مهممتين هما "التنقل" و"الإجائية الدعوة" المرتبطة بتيمات "الفقيه" و"الولي" و"الرحالة"³. ينتقل الباحث بعد ذلك إلى تحديد البنيات السردية السيميائية وتحليلها في هذا النص الصوفي، تتكوّن البنيات السيميائية السردية في هذا النص من مكونين هما: المكوّن السردى السطحي، والمكوّن العميق. يشرح الباحث المكوّن السردى السطحي شرحا مستفيضا مستحضرا - في ذلك - آراء غريماس المتعلقة بالبنية العاملية بوصفها سلسلة من الحالات (Etats) والتحوّلات (Transformations) بحيث يتشكّل في تتابع الحالات والتحوّلات برنامجا سرديا⁴ (programme narratif). فهذه الآراء التي تبنّاها الباحث، ساعدته في تقديم النموذج العاملي بوصفه نسقا⁵ من خلال هذه الخطاطة:

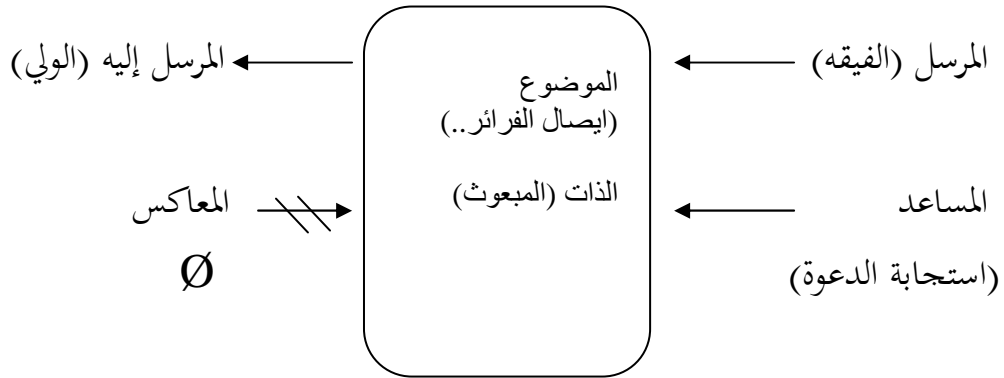
¹ - ينظر: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص.ص: 62 - 66.

² - ينظر: نفسه، ص: 65.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص.ص: 68 - 69.

⁵ - ينظر: م ن، ص.ص: 70 - 71.



أما تقديم البرنامج العملي بوصفه إجراء، فإنّ الباحث يرى أنّ "هذا النموذج باعتباره نسقا [هو] بنية ساكنة، ولا يمكن تحريكها إلا عبر الانطلاق من النسق إلى الإجراء"¹. يتم هذا عبر أربعة مواقع هي: التحفيز (*Manipulation*)، القدرة (*Compétence*)، الانجاز (*Performance*)، والجزاء (*sanction*)، وهي مراحل شرحها الباحث، واختزلها في جدول جامع²:

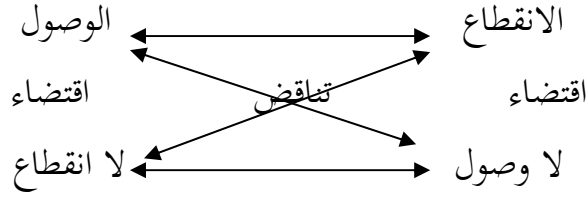
تأويل	قدرة	إنجاز	جزء
فعل الفعل	كينونة الفعل	فعل الكينونة	كينونات الكينونة
علاقة مرسل	علاقة فاعل	علاقة - فاعل	علاقة مرسل
فاعل إجرائي	إجرائي	إجرائي -	فاعل إجرائي
(إقناع - تأويل)	برنامج استعمال	برنامج أساس	(تقويم)
	(مواضيع جيهية)	(مواضيع قيمية)	

على طريقة الشرح نفسها، يعالج الباحث المكوّن العميق في النصّ الصّوفيّ المدروس مستعينا بالمرّبع السيميائي "الذي يمثّل الوحدات الدلالية من أجل توليد مكوّن دلالي قابل للتّجلي،

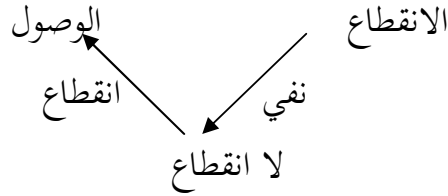
¹ - ينظر: م ن، ص: 71.

² - ينظر: م ن، ص.ص: 71 - 72.

ويمكن صورته كآتي :



تعدّ البنية الدلالية عبارة عن علاقات، فانطلاقاً من تحريك المربع السيميائي نتقل من العلاقات إلى العمليّات التركيبيّة، التي من خصائصها أنّها موجهة. فلا يمكن الانتقال من الانقطاع إلى الوصول إلا عبر اللانقطاع من خلال الصّورنة التالية¹:



لقد استطاع الباحث تطبيق المنهج السيميائي في السرد على الكرامة (نص الصوفي) فخلص في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج هي: " - إنّ التحليل الكفائي يفرض على الباحث أن يبدأ منهجياً من البنيات الثاوية خلف الملفوظ.

- إنّ استثمار المنهج السيميائي يسعف في دراسة نصوص كراميّة، ويحافظ على خصوصيّتها.

- إنّ الحفاظ على خصوصيّة الكرامة رهين بمدى جدوى الاستثمارات النظريّة.
- إنّ كفاية المنهج السيميائي السردية يجب أن تختبر انطلاقاً من خطابات متغايرة ومخصوصة².

¹ - عبد المجيد العابد: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 73.

² - م ن، ص: 74.

- قراءة التقييمية للدراسة:

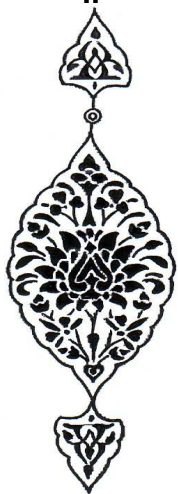
- أمكننا الاطلاع على منجز الباحث الموسوم بالتحليل السيميائي للخطاب الصوتي
- كرامة الفقيه أبي حفص مثالا- من تسجيل بعض أحكام القيمة، وهي:
- تمتاز دراسة الباحث المغربي "عبد المجيد العابد" بتجريب المنهج السيميائي في السرد على خطاب مغاير له خصوصية التي تميزه عن أي حكاية أو قصة أو رواية بغية إبراز نجاعته في سبر أغوار الخطاب الصوتي.
- اعتمدت محاولة الباحث على العرض النظري لنظرية غريمانس وأتباعه في مجال السرد، وأعقب هذا العرض تطبيق أدوات السيميائية السردية على هذه الكرامة (النص الصوتي المدروس)، فما يمكن ملاحظته ههنا، هو أنّ البسط النظري جاء مقتضبا لضرورة ودواعي منهجية، إلا أنه كان دقيقا وفي متناول القارئ العربي، أمّا الإجراء فنلمس فيه تمكن الباحث من النظرية السيميائية السردية، وهذا يعكس مدى وعي الباحث بمتطلبات المنهج نظريا ومراسا. هذا كله، أفضى بالباحث إلى دمج الطرح النظري بمتطلبات الإجراء، ولعلّ الغاية من ذلك -في تقديرنا- تدرج في محاولة الباحث اختبار معطيات النظرية في كيفية تشكيلها في الخطاب الصوتي.
- استحضر الباحث المصطلحات السيميائية السردية استحضارا مسؤولا وهادفا، بحيث استطاع انتقائها بدقة وإعمالها بنجاح، ولم تخرج ترجمته لتلك المصطلحات -في إطارها العام- عن الترجمة التي تواضع عليها النقاد المغاربة، حيث حرص على تناول المصطلح في لغته الأم، وسعى لإيجاد المقابل العربي الدقيق له.
- ينتصر الباحث لفكرة التطبيق الصافي للمنهج، والاحتكام للمقولات النظرية السيميائية إن تنظيرا أو مراسا.

المبحث الرابع

المعطي الأذلو ساكسوني

في

الخطاب السيمائي المغربي.





- المعطى الأنغلوإسكسوني في الخطاب السيميائي المغربي:

يشكل المشروع العالمي للعالم الأمريكي والفيلسوف المنطقي "شارل سندرل بورس" (1839-1914) (*Ch. S. Peirce*) - في بعده العام - طموحا لا محدودا، وفي طرحه جرأة كبيرة، لما دعا إلى "بناء نظرية عامة للعلامات تستوعب الواقع في كليته، سواء أكان مدركا أم مبنيا، ولا تحظى فيها اللغة بأي أهمية خاصة؛ لاسيما أن علاماتها لا تنتمي إلى نوع مميز ولا حتى إلى جنس قار"¹. لقد تزامن هذا الطرح - في ضفة أخرى - مع طرح العالم اللساني "فرديناند دوسوسير" (1857-1913) (*F. D. Saussure*) الداعي إلى تأسيس علم جديد أوسع تشكل اللسانيات جزءا منه، نعتة بـ"السيميولوجيا" *La sémiologie*، حيث لم يقتصر بحثه على دراسة اللغة؛ بل تجاوزها إلى نطاق أكبر يشمل دراسة كامل الظواهر التواصلية المختلفة المرتبطة بحياة الإنسان.

على الرغم من نشأة هذين العالمين في بيئتين مختلفتين (أوروبا/أمريكا)، وتلهما من مرجعيتين متميزتين (لغوية/منطقية)، يبقى أن نقول: أن مشروعيهما أحدثا فعلا ثورة علمية كبيرة في مجال العلوم الإنسانية؛ ذلك لأن اشتغال كلا العالمين قد انصب على دراسة العلامة، ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة بينهما، فإننا نعزو السبب إلى تباين منطلقاهما المعرفية؛ إذ في الوقت الذي تأثر فيه "سوسير" بالمعطى الفكري لنظرية "إميل دور كايم"، واستقى منه مرجعيته المعرفية في بناء تصوره للسيميولوجيا، نجد "بورس" -ومن منطلق ابستمولوجي مغاير تماما- ينحت "تصورا آخر لهذا العلم سيسمي السيميائيات، والسيميائيات عنده لا تنفصل من جهة عن المنطق باعتباره القواعد الأساسية للتفكير والحصول على الدلالات المتنوعة، ولا تنفصل من جهة ثانية عن الفينومينولوجيا باعتبارها منطلقا صلبا لتحديد الإدراك وسيورته ولحظاته"². ومن جهة ثالثة لا ينفصل عن الرياضيات، والأنثروبولوجيا، السلوكية... وغيرها، وغاية

¹ - محمد التهامي العماري: حقول سيميائية - السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي -، منشورات

بمجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب (فاس)، 2007، ص: 06.

² - سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها ومنطلقاتها -، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،

2003، ص: 58.

"بورس"-من كلّ هذا- تتجلى في بناء علم علامات قائم بذاته، يتناول بالدراسة كل الظواهر. تتضح للدّارس هذه القناعة في قوله: "لم يكن بوسعي أن أدرس أي شيء سواء تعلق الأمر بالرياضيات أو الأخلاق أو الميتافيزيقا أو الجاذبية أو الديناميكية الحرارية أو علم البصريات أو الكيمياء أو علم التشريح المقارن أو علم الفلك، أو علم النفس أو علم الصوتية أو الاقتصاد أو تاريخ العلوم، وكذا الويست (ضرب من لعب الورق) والرجال والنساء والخمرة والميثولوجيا، إلا من زاوية نظر سيميائية"¹.

لقد أضحى التطبيق السيميائي مهيمنا على منجزات "بورس" البحثية، لشمولية طرحه من ناحية، وبجاعة أدواته في دراسة كل ما يرتبط بحياة الإنسان من ناحية أخرى. هذه الفعالية التي اكتسبتها سيميائيات "بورس" مردّها استناده على طرائق استدلالية منطقية في استخلاص المعنى موضوع بحث السيميائيات. من هذا، عد "بورس" السيميائيات منطلقا على اعتبار أن هذا الأخير في مدلوله العام، ما هو إلا تسمية أخرى للسيميائيات².

وبناء عليه، فإنّ "بورس" ما كان ليبلور نظريته في السيميائيات لولا انطلاقه من مرجعية فلسفية (المنطق) وأخرى ظاهرية *La phénoménologie*، فلقد توصل -من خلال ذلك- إلى نتيجة مفادها أن أصل كل تفكير ينبني على العلامات. ومن هذا، فإن السيميائيات -حسب المنظور البورسي- ترتبط بعمليات الإدراك، بحيث يدرك الإنسان العالم الخارجي (المحيط به) من خلال جملة من الوسائط التي هي العلامات. استنادا على هذا المعطى، قدّم بورس "تصوّره من خلال خطاطة ثلاثية يمكن بواسطتها الكشف عن مجمل مكونات التجربة الإنسانية"³. لم تكن طريقة التقسيم الثلاثي التي جاء بها بورس عفوية، وإنما استشفها من الكيفية التي صاغها الفلاسفة الذين تأثر بهم. إن هذه الكيفية في التقسيم، يلفيها الدّارس "لا تخرج عن ثوابت ثلاثة: الصّورة الصوتية والشيء العياني والمرجع (طبيعة العلاقة بين الصّورة والشيء)..."⁴.

¹- Oswald Ducrot, et Tzvetan Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Edition du seuil, 1972,p : 11.

² - voir :C. S. Peirce : Ecrit sur le signe, tr G. Deledalle, éd, seuil, Paris, 1978, p : 120.

³ - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، مدخل للسيميائيات ش.س. بورس، المركز الثقافي العربي، ص: 42.

⁴ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص.ص: 43-44.

هذه الهيكلة في التقسيم، اعتمدها كل من فلاسفة اليونان وفلاسفة العصر الحديث على حدّ سواء، انطلاقاً من أفلاطون (400 ق.م) ثم أرسطو (350 ق.م) مروراً بالرواقيين والقديس "أوغسطين" (354-430م) وصولاً إلى "إيمانويل كانط" (1600م) و"هيوم" (1711-1776) و"هيغل" (مع بعض التحفظ). وبناء عليه، فإنّ ما استقاه "بورس" من أفكار عن العلامة وتفريعاتها من تلك الأطروحات الفلسفية التي أشاعها هؤلاء، والتي صاغ -على منوالها- مقولاته، "ولكن بفهم مختلف بعض الشيء، وهذا الفهم الثلاثي لم يتبنّ العلامة بوصفها موضوعاً دراسياً مستقلاً، وإنما استنبط من تصور فلسفي لطبيعة الوجود ثلاثي الأبعاد: الإمكان والوجود والقانون، وما هذه الأبعاد إلا تشريح لطبيعة إدراك الأشياء والوعي بها"¹.

تأسيساً على هذا المعطى، وبالاستناد على الظاهرية (الفينومولوجية)، سيعمد "بورس" إلى صياغة البروتوكول الرياضي يحدّد من خلاله نسقاً ثلاثياً وثلاثياً فقط هو: الأول (وجود الإمكان النوعي الموضوعي) والثاني (وجود الواقعة الفعلية)، والثالث (وجود القانون الذي سيحكم هذه الوقائع استقبالياً). هذا النسق اصطلاح عليه "بورس" بـ"المقولات الفينومولوجية (La phanéroscope"²). وهي الأولانية (Priméité)، والثانانية (secondéité)، والثالثانية (tiercéité)، هذه المصطلحات - كما يذهب إلى ذلك بنكراد - لم يعتمدهما "بورس" إلا في مرحلة متأخرة (حوالي 1885)، حيث كان يصطلح عليها قبل هذه المرحلة في (الستينيات والسبعينيات) على الترتيب بـ "التوعيّة والواقعية والعلاقة"³.

- مفهوم العلامة في الفكر البورسي:

يذهب "بورس" بالقول أنّ "العلامة أو المصوّرة Representamen، شيء ما ينوب لشخص ما عن شيء ما، من جهة ما وبصفة ما. فهي توجّه لشخص ما؛ بمعنى أنّها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة، أو ربّما علامة أكثر تطوّراً، وهذه العلامة التي تخلقها أسميها مفسّرة (interpretant) العلامة الأولى. إنّ العلامة تنوب عن شيء ما، وهذا الشيء هو

¹ - م ن، ص: 44.

² - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص.ص: 41-54.

³ - ينظر: م ن، ص.ص: 46-47.

موضوعتها (*objet*) وهي لا تنوب عن تلك الموضوعة من كلّ الوجّهات، بل تنوب عنها بالرجوع إلى نوع من الفكرة التي سميتها سابقاً ركيزة (*ground*) المصوّرة¹. يلتمس بورس من هذا المسعى، ترسيخ فكرة التوزيع الثلاثي للعلامة، ومن ثمة تعميمه على كافة مفاهيم السيميائيات، من ذلك أضحى كل شيء يتصوره "بورس" إلا ويخضع لمبدأ الثلاثية، إنّه "المبدأ الأساس الذي سيشكل عمق السيرورة المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني، سواء تعلق الأمر بالمقولات أو تعلق بالبناء الداخلي للعلامة، أو تعلق بما يسميه لاحقاً التوزيع الثلاثي للعلامة"².

يعتبر "بورس" العلامة وحدة ثلاثية المبنى مكوّنة من ماثول *représentamen* وموضوع *objet* ومؤوّل *interprétant*. وهي بهذا غير قابلة للاختزال إلى عنصرين، فبناء العلامة في تصوّر "بورس" يتركز على فكرة الامتداد التي تجعل من الكون وحدة لا تتجزأ، على عكس "سوسير" الذي يصرّ على استبعاد المرجع من مكوّنات العلامة كونه معطى غير لساني³. إنّ هذه العناصر المكوّنة للعلامة البورسية تخضع لمبدأي الثلاثية والإحالة، أي إذا كان الأول يحيل على الثاني عبر الثالث في نظرية المقولات كما سبق ورأينا، فإنّ الماثول يحيل على موضوع عبر مؤوّل⁴. وبناء عليه، فإنّ "هذه الحركة (سلسلة الإحالات) هي ما يشكل في نظرية بورس ما يطلق عليه السيميوز، أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها"⁵. يوضح لنا بنكراد هذه السيرورة السيميائية بالمخطط التالي⁶:

¹ - ش. س. بورس: تصنيف العلامات، تر: فريال جبوري غزول ضمن كتاب: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيموطيقا، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، ج1، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص: 138.

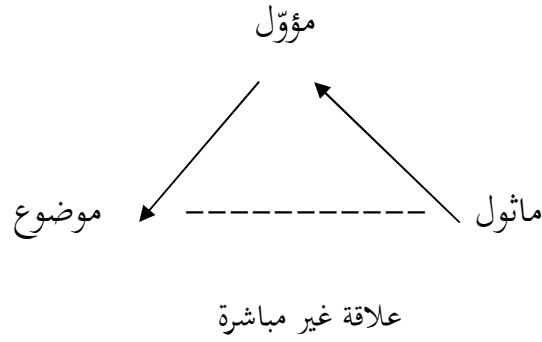
² - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 42.

³ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات، -مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص: 61.

⁴ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 74.

⁵ - سعيد بنكراد: السيميائيات -مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص: 61.

⁶ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 77.



تشكّل السّيرورة السّيميائية - حسب المخطّط - من ترابط العناصر المشكّلة للعلامة فيما بينها، بحيث: "تستدعي الماثول كأداة للتمثيل، وتستدعي الموضوع كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤولا لا يقوم بالربط بين العنصرين؛ أي ما يوفّر للماثول إمكانية تمثيل الموضوع بشكل تامّ داخل الواقعة الإبلاغية"¹. نستشف من هذا التّرابط، أنّ كلّ عنصر من العلامة البورسيّة يؤدّي دوره داخل هذا المثلث السيميائي انطلاقا من موقعه، لذا يجدر بنا التعريف بهذه العناصر:

1- الماثول: يقابل الدال عند سوسير، "وهو الحامل المادي للعلامة، ولا وجود له إلا من خلال تحققه داخل موضوع بواسطة مؤول. كما أنه لا يكون لفظيا بالضرورة"². حسب "بنكراد" يفيدنا هذا التعريف، "أن الماثول:

- ليس واقعة لسانية.
- يحل محل شيء آخر.
- أداة للتمثيل.
- لا يوجد إلا من خلال تحيينه داخل موضوع ما.
- لا يستطيع الإحالة على موضوعه إلا من خلال وجود مؤول يمنح للعلامة (توفير شروط التمثيل)³.

¹ - سعيد بنكراد: السّيميائيات والتأويل، ص: 77. وينظر كذلك: سعيد بنكراد: السّيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص: 62.

² - محمد التهامي العماري: حقول سيميائية، ص: 07.

³ - سعيد بنكراد: م س، ص: 79.



2-الموضوع: هو ما يحيل الماثول عليه؛ أي ما يقوم الماثول بتمثيله سواء كان هذا الشيء واقعيًا أو متخيلاً أو قابلاً للتخيل (مجرد) أو لا يمكن تخيله إطلاقاً (خرافي)¹. يناسبه عند سوسير المرجع [...]، ويميز بورس بين نوعين من الموضوعات: الأول هو الموضوع الديناميكي، وهو الموضوع الواقعي حيث لا تعبر عنه التجربة، إنما تشير إليه، كي يكشفه المؤول عن طريق التجربة، أما الثاني فهو موضوع مباشر يشكل جزءاً من العلامة وأحد عناصرها².

3-المؤؤل: شبيه بالمدلول السويسري، ويشكل التوسط الالزامي الذي يربط بين الموضوع والماثل، فيستهل بذلك تأويل العلامة³. يستخلص بنكراد أشكال المدلولات (المستويات الدلالية) لدى بورس وهي:

- مستوى دلالي أول: المؤول المباشر (يرتبط بإدراك العلاقة في حد ذاتها).
- مستوى دلالي ثان: المؤول الدينامي (هو الأثر الذي تحدثه العلامة في الذهن).
- مستوى دلالي ثالث: المؤول النهائي (يرمي العملية التأويلية ويحصرها في نسق)⁴.

قبل أن نعوج على تفرعات العلامة لدى بورس شدنا تعدد المفاهيم العلاماتية لدى الباحثين، رغم أن غالبيتهم معولون على نجاعة التوزيع الثلاثي للعلامة. لقد توضح ل (امبرتو ايكو) "أن الحس السليم [الشيء الذي يتقاسمه الناس جميعاً] ينطق مع التوزيع الثلاثي، ولا يستعمل نفس المفاهيم فالبعض ذهب إلى حد اعتبار/المدلول/ مرجعاً، واعتبر/المعنى/ ما نطلق عليه نحن المدلول"⁵.

1 - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص: 81. ينظر كذلك: السيميائيات والتأويل، ص: 65. ينظر أيضاً: محمد التهامي العماري: حقول سيميائية، ص: 07.

2 - ينظر: ج دوليدال - ج. رطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، تر: عبد الرحمن بوعلي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص: 01.

3 - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص: 67.

4 - ينظر: سعيد بنكراد: سيميائيات بورس مجلة علامات، ع1، المغرب، ربيع 1994، ص.ص: 19-20. وينظر كذلك: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها-، ص، ص: 67-73. وأيضاً: السيميائيات والتأويل، ص.ص: 81-88.

5 - امبرتو ايكو: العلامة - تحليل المفهوم وتاريخه-، تر: سعيد بنكراد، ومراجعة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1428هـ-2008م، ص: 54.

أقدم الباحث على هذا الاستنتاج، بعدما رصد هذه المفاهيم (المقولات)، وصنفها وفق التوزيع الثلاثي¹ في شكل المثلث، ونحن سوف نعرضها في شكل جدول؛ كي تتضح الرؤية، تتسنى لنا المقارنة من خلاله:

العنصر الثالث	العنصر الثاني	العنصر الأول	أقسام العلامة الباحث
موضوع	المؤول - صورة ذهنية	ماثول - علامة	بورس
	المرجعية	رمز	رتشارد- أوغدن
ما صدق	القصدية		كارناب
المعنى	المعنى		فريجه
المعين	المدلول - القيم	حامل العلامة	موريس
	التصور - صورة ذهنية	دال	سوسير
	إيجاء		س- ميل
	المضمون	تعبير	هلمسليف
معنم	حالة وعي		بويسنس
تقرير			روسل

كما ذكرنا، أن العلامات عن بورس تخضع لمبدأ الثلاثية فتتوزع على ثلاثة عناصر ثم تتوزع على تسع فئات²، وهي كالاتي:

¹ - ينظر: عابدة حوشي: نظام التواصل السيميولساني في كتاب الحيوان للجاحظ - حسب نظرية بورس - أطروحة دكتوراه علوم، مقدمة بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف، الجزائر، 2008-2009، ص: 74-122. وينظر كذلك: هيام عبد الكريم عبد المجيد علي: دور السيميائية اللغوية في تأويل التصوص الشعرية-شعر البردوني نموذجاً-، رسالة ماجستير مقدمة بكلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، أيار 2001، ص.ص: 22-29.

² - جميل حمداوي: الاتجاهات السيموطبقية (التيارات والمدارس في الثقافة العربية)، مؤسسة المتحف العربي، ط1، 2015، ص: 18.

العلامة- النمط	العلامة- المفرد	العلامة-الصفة	الممثل
<i>légisigne</i>	<i>Sin signe</i>	<i>Quali signe</i>	<i>Representamen</i>
الرمز <i>Symbole</i>	الإشارة <i>Indice</i>	الأيقون <i>Icone</i>	الموضوع <i>objet</i>
البرهان	الافتراض	المسند إليه <i>Rhème</i>	المؤول <i>Intrepretant</i>
<i>Argument</i>	<i>Decisigne</i>		

سوف يتناول الدّارس الفئة الثانية لدواعٍ منهجية، مردّها أن العلامة في علاقتها بموضوعها بما تحويه من عناصر، استصاغها الباحثون العرب، وطبّقوها على النّصوص.

- أقسام العلامة في علاقتها بموضوعها:

تنضوي علاقة العلامة بموضوعها تحت الثلاثية الثانية التي أشار إليها "بورس" في كتابه. هذه الأخيرة، عدّها سعيد بنكراد من أكثر ثلاثيات "بورس" انتشاراً وذيوعاً، واستيعاباً وتمثيلاً للموضوعات الواقعية، وتكاد تكون كل أعماله السيميائية مختصرة في هذه الثلاثية¹. وقبل الشروع في شرح هذه العناصر الثلاثة المكونة للعلامة وفقاً للعلاقة القائمة بين هذه الأخيرة وموضوعها، نشير إلى أنّ "بورس" قد استهل حديثه عن إمكانية تسمية العلامة بـ"أيقون" (*Icone*)، مؤشراً إلى أنّ (*index*)، أو رمز (*Symbole*)²، من هذا فإن هذه العناصر الثلاثة المكونة للعلامة إما أن تكون قرينة (*Index*) أي إشارة، وتقوم على العلاقة العقلية، أو أيقونة (*Icone*) وتقوم على المشابهة، أو الرمز (*Symbole*)، وتقوم على المواضع (حسب ما تقوم به)³.

¹ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص، ص: 115-116.

² - voir: C.S.Peirce : écrit sur le signe, p : 218.

³ - ينظر: عادل فاخوري: علم الدلالة عند العرب، مقارنة مع السيميائي الحديثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985، ص: 14. وينظر كذلك: عادل فاخوري، تيارات في السيميائية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 1990، ص.ص: 25-27.



1- الأيقون (الأيقونة) *Icone*:

"هو علامة تحيل إلى موضوعها نتيجة اشتراكهما في بعض الخصائص والملامح، وسواء أكان الشيء نوعية أم كائنا أم عرفا، فإنه يكون أيقونا لتشبيهه عندما يستخدم علامة له"¹، فهذه العناصر المشتركة حسب "بورس" تحيل على التشابه القائم بين الماثول والموضوع. وعليه، فإنه "مع العلامة الأيقونية لا نستطيع أن نميز بين الماثول والموضوع: إنهما متطابقان"².

عظفا على هذا، يرصد "بنكراد" الأيقونات الثلاثة التي قيدها "بورس" وميز بينها³، وهي:

- الأيقون/الصورة ← تقوم العلاقة الأيقونية هنا على وجود تشابه بين الماثول وموضوعه، كالصورة الفوتوغرافية.
- الأيقون/الرسم البياني ← تقوم العلاقة الأيقونية هنا على وجود تناظر بين العلاقات التي تنتظم عناصر الموضوع وعناصر الماثول كاليانات المستعملة في الإحصاءات.
- الأيقون/الاستعارة ← تشير العلاقة هنا إلى الطابع التناظري القائم بين الماثول والموضوع من خلال الاحالة على عناصر مشتركة بين الأول والثاني كالصورة شجرة صغيرة وما تعنيه من دلالات.

2- المؤشر (*Index*): هي الشاهد، الأمانة، القرينة.

هو علامة ترتبط بموضوعها ارتباطا سببيا أو طبيعيا بحكم التجاور، لا التشابه، من ذلك مثلا: الدخان يدل على وجود نار؛ رغم انعدام وجود تشابه بين النار والدخان. وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن تأويلها إلا ضمن سياق زمكاني محدد، من ذلك مثلا: الآثار كالحنجر أو كالبصمات التي يتركها المجرم وراءه في ساحة الجريمة⁴. يحشر بورس في المؤشر: الأغراض

¹ - التهامي العماري: حقول سيميائية، ص: 09.

² - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 117.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: م ن، ص.ص: 119-120.

كعلامات المرض الظاهرة، والآثار، وأسماء الإشارة، والضمائر وغيرها. وعليه، يغدو المؤشر بهذا الشكل "الوسيط المحسوس بين الكائنات البشرية وبين الأشياء"¹.

3- الرمز (Symbole):

تقوم العلاقة بين العلامة والموضوع على أساس العرف الاجتماعي المتواضع عليه من طرف أفراد مجتمع ما. وهو ما يجعل الرمز "علامة تشير إلى الموضوع (الموضوع) التي تعبر عنها عبر العرف، غالبا ما يقترن بالأفكار العامة التي تدفع إلى ربط الرمز بموضوعه"²، وبما أن هذه العلاقة تستند على الاتفاق، فإنها في جانب مقابل لا تستند على علاقة التجاور والتشابه كما هو الحال مع الأيقون والمؤشر، من ذلك على سبيل المثال:

رمز

الحمامة البيضاء ← السلام

ما يمكن أن نستخلصه في الأخير، هو أنّ الفروقات الموجودة بين هذه العناصر الثلاثة المشكلة للعلامة في علاقتها بموضوعها، لا تمثل "فرقا في الموقع داخل تراتبية نسبية، فليس حضور الشبه أو العلية أو غيابهما، ولا التقابل بين الاعتبار والتعليل هي التي تقيم هذه الثلاثية، بل ما يقيمها هي الهيمنة"³. ومما سبق ذكره، يسعى الدّارس إلى إبراز حضور هذه الثلاثية في المقاربات التّقديّة المغربيّة.

- سيميائيات "بورس" وتجليّاتها في الخطاب التّقدي المغربيّ:

1- سيميائيات "بورس" وتجليّاتها في نظريات النّقد المغربيّ:

يحاول الدّارس تلمس إسهامات الخطاب التّقدي المغربيّ في نقل أطروحات بورس إلى المشهد التّقدي العربي اعتمادا على ترجمة فكره العلامي وشرح نظرياته وتأصيلها في الثقافة

¹ - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص: 120.

² - ش.س. بورس: تصنيف العلامات، ترجمة فريال غزول، ضمن "أنظمة العلامات"، ص: 142.

³ - محمد التهامي العماري: حقول سيميائية، ص: 10.

التقديّة، فهذه المهمة -على صعوبتها- تكفل بها ثلثة من الباحثين المغاربيين، وقدّموا في شأنها دراسات¹ قيّمة بالمتابعة. جاء هذا، بعدما استشعر الباحث المغاربيّ صعوبة تلقي المعرفة السيميائيّة في مشهدنا التقدي، والسبب -في تقديرنا- يتجلى في الأدوات التقديّة العتيقة التي أثقلت كاهل نقدنا، وحالت دون مواكبة هذا الأخير للمستجدات التي تروّج لها النظريات التقديّة في الغرب. فالمعرفة التقليدية الماضية التي ورثها نقادنا عن أسلافهم، لم تمكنهم من فهم الطرح السيميائي، فحتى الذين تبنّوا أفكار "غريماس" وأشباعه يقرّون بعسر استيعاب المعرفة السيميائيّة، ناهيك عن تطبيقها على نصوص أدبية وغير أدبية. ولعل في اعتراف "رشيد بن مالك" ما يؤكّد تلك الصّعوبات؛ إذ يقول: "لم نكن نملك المقدرة على تلقي هذه المعرفة الغزيرة ذات الأصول الفكرية المتنوعة من منطق ورياضيات ولسانيات وفيزياء وكيمياء"².

¹ - نذكر -في هذا المقام- طائفة من الدّراسات التقديّة المغاربيّة حول السيميائيّات البورسية.

- سعيد بنكراد: -السيميائيّات والتأويل- مدخل لسيميائيّات ش-س-بورس، 2005 (مرجع مذكور) / -السيميائيّات -مفاهيمها وتطبيقاتها- 2003 (مرجع مذكور).

- أحمد يوسف: - السيميائيّات الواصفة، المنطق السيميائي وحرر العلامات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2005-1426هـ. / الدلالات المفتوحة، مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، والمركز الثقافي العربي، بيروت، 2005-1426هـ. / علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، ومنشورات الضفاف، ودار الأمان، الجزائر، بيروت، الرباط، 2003.

- طائع الحداوي: سيميائيّات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006.

- جبرار دولودال: السيميائيّات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمان بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000.

- عبد اللطيف محفوظ: آليات إنتاج النصّ الروائي -نحو تصور سيميائي-، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 1429هـ- 2008.

- عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيّات، دار القرويين، ط1، 2008، (مرجع مذكور).

- عبد الملك مرتاض: الأصول السيميائيّة في فكر شارل بيرس، علامات، ج04، م01، 1992.

- آمنه بلعلي: سيميائيّات تشارل سندررس بورس، قراءة أولية، مجلة الآداب العالمية، دمشق، ع138، 2009.

- قوتال فضيلة: العلامة والسيرورة الدلالية، مجلة مختبر السيميائيّات وتحليل الخطابات، ع1، جامعة وهران، خريف، 2005.

² - ميشال أرفيه وآخرون: السيميائيّة، أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم: د.عزالدين مناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص: 11.

يشكل افتقاد الباحث المغربي للخلفيات العلمية والفكرية والفلسفية للسيميائيات من ناحية، وكذا افتقار مكتبتنا لمؤلفات تتناول الإرث السيميائي-من نشأة وأصول ومواضيع، وغيرها- من ناحية أخرى دافعا قويا لهؤلاء في خوض غمار البحث والنبش في مرجعيات هذا العلم رغم ما اعترضهم من اشكاليات تتعلق بالمنهج تارة وبالمصطلح تارة أخرى. ولنا في هذا نماذج مغربية كثيرة؛ من ذلك جهود "رشيد بن مالك" المقصورة على الطرح الغريماسي دون سواه، التي ركزت على "التأريخ للحركة السيميائية بوصفها مشروع بحث في طور الإنجاز ضروري لموضعها في سياقها التاريخي، وضبط معالمها الأساسية والكشف عن النظريات التي مهّدت لظهورها"¹ من جهة، وعلى ضرورة ردّ هذه النظرية إلى أصولها اللسانية والشكلانية من جهة أخرى². والناظر في المنجز النقدي لـ"بن مالك"، يجده مفتقدا للشمولية والإحاطة بكامل جوانب الإرث السيميائي خاصة ما تعلق منه بالتفكير الفلسفي. وعلى العكس من ذلك، فإننا نلفي الإحاطة الجامعة قد تجلّت في منجزات الباحثين (سعيد بنكراد) و(أحمد يوسف)، اللذان حاولا البحث من منظور شمولي في الأصول الفلسفية التي ساهمت في بلورت النظرية السيميائية الحديثة.

- فكيف تجلّت جهود سعيد بنكراد وأحمد يوسف في هذا الميدان؟.

هذا ما سنحاول إبرازه من خلال هذين النموذجين:

- كتاب: السيميائيات والتأويل -مدخل لسيميائيات ش.س. بورس- 2006، لـ"سعيد بنكراد".
- السيميائيات الواصفة -المنطق السيميائي وجبر العلامات (1425هـ/ 2005)- لـ"أحمد يوسف".

1-أ- سعيد بنكراد "السيميائيات والتأويل -مدخل لسيميائيات ش.س. بورس- 2006":

يمّم "سعيد بنكراد" وجهه شطر المدرسة الأنجلوساكسونية، ليستدرك الخصائص المعرفي التي يعاني منه النّقد العربي عامة بخصوص فلسفة العلامة، فمنذ أكثر من عقدين من الزمن، يحاول

¹ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصة للنشر، الجزائر 2000، ص: 06.

² - ينظر: م ن، ص.ص: 5-36.

الباحث تناول الفكر العلامي البورسي بالترجمة تارة وبالتأليف تارة أخرى. والناظر في منجزات بنكراد ضمن هذا الحقل لسوف يلمس فيها ذلك التحوّل التدريجي من حدود القراءة الأفقية المنصبة على البحث في موضوع السيميائيات (نشأتها، تحولاتها) أو الشرح المقتضب للعلامة وتفرعاتها أو التعرض لإشكالية مصطلح (السيميولوجيا/السيموطيقا) من المدرستين الأوربية والأنجلوساكسونية إلى القراءة العمودية التي تروم البحث المعمق في قضايا تتعلق بنظرية المقولات وبفلسفة العلامة من حيث مفهومها ومكوناتها، وكذا أنساقها من ناحية تشكّل السيرورة السيميائية المولدة للسيموز وبكيفية تشكل المعنى من ناحية أخرى. يمكن للدارس - في هذا السياق -، معاينة هذا التحوّل بداية من مقالات الباحث التي نشرها تباعا في مجلة علامات المغربية¹، التي يشرف عليها، أو من خلال تلك التي نشرها في مجلات أخرى محلية² وعربية³، بعد ذلك قام بلملمة شتات هذه الأبحاث وطرحها في كتابين اثنين، هما: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها -، والسيميائيات والتأويل - مدخل لسيميائيات ش.س. بورس -.

في عام 2003، نشر كتابه الموسوم بـ "السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها - وهو كتاب جامع للاتجاه الأوربي الممثل في سيميولوجيا سوسير، والاتجاه الأمريكي الممثل في سيميائيات "ش.س. بورس"، يتوزع هذا الكتاب على ثمانية فصول ومقدمة (حوالي 180 صفحة)، خصص الفصل الثالث⁴ لسيميائيات "ش.س. بورس"، مستعرضا فيه تصوّر "بورس" للسيميائيات وموضحا ارتباطها بالمنطق والظاهرية وكذا نظرية التأويل، ومتناولا مفهوم العلامة من منظور "بورس" كوحدة ثلاثية مكونة من ماثول وموضوع ومؤول. يمكننا إدراج هذا الفصل المكون من حوالي 16 صفحة؛ أي من الصفحة [57] حتى [74]، والذي تناول فيه الباحث الطرح البورسي حول العلامة ضمن خطابات التأسيس. وما يلاحظ عليه، أنه جاء موجزا، وهو أمر حال دون وضوح

¹ - ينظر: سعيد بنكراد: المؤول والعلامة والتأويل بصد بورس، مجلة علامات، ع9، 1998.

² - ينظر: سعيد بنكراد: السيرورة السيميائية والمقولات، قراءة في فلسفة بورس السيميائية، مجلة مدارات فلسفية، ع7، الجمعية المغربية للفلسفة، المغرب، 2002.

³ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات (النشأة والمفهوم) عالم الفكر، المجلد 35، ع3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير - مارس 2007.

⁴ - ينظر: سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها -، الفصل الثالث: "بورس: السيميائيات نظرية تأويلية"، ص.ص: 57-74.

الرؤية، خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان أن هذا الكتاب موجه للقارئ كيفما كان نوعه عاديا أم حصيفا. من أجل هذا، وبغية تدارك النقائص التي طالت الكتاب السابق، أنجز الباحث - في عام 2005 - مؤلفا آخر خصّصه للأنموذج المعرفي لـ "بورس". يشكل هذا الكتاب الموسوم بـ "السيميائيات والتأويل-مدخل لسيميائيات ش.س. بورس" كتابا تأسيسيا وتنظيريا بامتياز، وإسهامة مضافة لخزانة النقد الأدبي المغربي والعربي عموما، يتوزع هذا الكتاب على خمسة فصول يتصدرها تمهيد ومقدمة.

عرض في التمهيد الحياة الشخصية والعلمية لمؤسس السيموطيقا الأمريكية "شارل سندررس بورس C.S. Peirce" (1839 - 1914)، موضحا ما كابده هذا الشخص من صراع يومي مع الفقر من ناحية، ومن فتور علاقاته مع المحيطين به من ناحية أخرى، ولعل هذه واحدة من العوامل التي صرفت اهتمام الباحثين عن متابعة أبحاث هذا الرجل وهو على قيد الحياة ومدارستها والشأن نفسه ربما حدث لـ "سوسير" رغم أن الفكر اللساني لهذا الأخير لقي رواجا وسبقا زمنيا في تناول قبل الفكر البورسي. تطرّق "بنكراد" لأهم القضايا التي أثارها الفكر البورسي بخصوص العلامة معتمدا في ذلك على المصادر الأساسية والتي تعود لبورس وكتابات "جيرار دولودال" وبعض الباحثين الآخرين والتي منها خاصة:

- Peirce (C.S): *Écrits sur le signe, Ed seuil, Paris 1978.*
- Deledole (Gérard): *la philosophie américaine, éd nouveaux horizons, 1978.*
- Deledole (Gérard): *Théorie et pratique du signe, éd Payot 1979.*

خصّص الفصل الأول لنظرية المقولات، تطرق فيها للسيرورة الثلاثية ولتعريف المقولات (الأولانية والثانيانية والثالثانية)، مقدّما في كل هذا، "تصوّرا شاملا عن القضايا التي تثيرها نظرية المقولات باعتبارها هي الأساس الذي سينطلق منه بورس لصياغة مجموع تصوراتهِ النَّظريّة الخاصّة بالسيميائية"¹.

¹ - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل-مدخل لسيميائيات ش.س. بورس-، ص: 36.

أما الفصل الثاني الذي وسمه بـ"السيميائيات" فقد تناول فيه العلامة والسيرورة التدللية، كاشفا عن العناصر الثلاث التي تنبني عليها العلامة، ومحددا موقع كل عنصر داخل عملية إنتاج الدلالة، ذلك لأن مسألة بناء العلامة في التصور السيميائي الذي طرحه "بورس" جعله يحدّد -من ناحية- مكونات العلامة، وعلاقة هذه العناصر ببعضها ويناقش بعض قضايا التأويل انطلاقا من مبدأ القصور التمثيلي للعلامة ومبدأ السيميز اللامتناهية¹؛ إذ يغدو المؤول -بهذا الشكل- عنصرا في بناء العلامة، كما يصير علامة بحدّ ذاته يحتاج إلى تمثيل جديد يستدعي خلق علامي جديد يولد مؤولا جديدا، تبقى سيرورة التدليل قائمة على هذا النحو، تتجدد باستمرار ولا تعرف نهاية² ولا تتوقف؛ فالماثول يحيل على موضوع عبر مؤول، يتحوّل هذا المؤول إلى ماثول جديد يحيل على موضوع آخر عبر مؤول جديد، وهكذا إلى ما لا نهاية.

أما الفصل الثالث: فقد وسمه الباحث بـ"التوزيع الثلاثي للعلامة". وكما يبدو، فإن "بورس" يحتكم في عملية الإجراء العلامي على مبدأ الثلاثية، متخذا نظرية المقولات السند المعرفي الرئيس الذي يركز في خلق سلسلة من التفريعات المتعلقة بالعلامة، فهذه الأخيرة -وفق هذا المبدأ- ، تتوزع على ثلاثة عناصر، وكل عنصر منها يتوزع بدوره على علامات ثلاث والتي تبدو كما الآتي:

- العلامة في ذاتها: (علامة نوعية، علامة مفردة، علامة عرفية (معيارية).
- العلامة في علاقتها بموضوعها: (أيقونة، مؤشر، رمز).
- العلامة في علاقتها بالمؤول: (خبر، تصديق، حجة).

أما الفصل الرابع فقد أثار فيه الباحث مجموعة من القضايا المتعلقة بالتأويل كما تظهر من خلال بعض قضايا التأويل "فعلى عكس القائلين -والقول هنا للباحث- بأنّ العلامة لا يمكن أن تستقر على حال من خلال سلسلة الإحالات التي يتحدث عنها بورس في مجال التأويل،

¹ - ينظر: م ن، ص.ص: 71- 105.

² - ينظر: ن، ص: 37.

فاللغة نسق يوضح نفسه بنفسه، والمعنى لا يوجد خارج هذه اللغة، أنه موجود من خلال الإحالات وليس مودعا في محفل متعال لا يدرك سره إلا الله¹.

وفي الفصل الخامس والأخير، يناقش "بنكراد" من منطلق التأويل وقواعده، قضية القراءة والسميوز، وموقع محفل التلقي في تصورات بورس -وحسب الباحث دائما-، فإن بورس يصرح -دون موارد- أن التأويل ممكن حتى وإن غاب الشخص المؤول، فالمؤول بهذا الشكل ليس في حاجة إلى شخص يقوم بالتأويل، من هذه الزاوية حاول "بنكراد" أن يربط -تأسيسا على مقترحات "أ.إيكو"- بين الطابع اللامتناهي للسميوز وبين الطوبيك (ويدل عند "إيكو" على فرضية سابقة للقراءة).

قراءة تقويمية للكتاب:

- يعدّ هذا الكتاب مرجعا أساسا في فهم الطرح البورسي للعلامة. يرجع إليه القارئ المتخصص قبل القارئ العادي، لما فيه من وجهة في الطرح، وقدرة في معالجة القضايا التي أثارها سيميائيات "بورس"، فالباحث كان حريصا في نقل سيميائيات المدرسة الأنغلو ساكسونية اعتمادا على مصادرها الرئيسية، وتوطينها في مشهدها النقدي العربي. وعليه، يمكننا تصنيف هذا المؤلف -كما أشرنا سابقا- ضمن الكتب النظرية والتأصيلية لنظرية "بورس" في النقدي العربي عامة والخطاب النقدي المغربي على وجه الخصوص.

- يبدو أنّ فصول هذا الكتاب قد أنجزها الباحث على فترات زمنية متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى، نلمس ذلك في كونها جاءت مستقلة بموضوعها ومصادرها. ومن ناحية أخرى نجد أغلبها قد سبق وأن نشرها الباحث في شكل مقالات بمجلات عربية أو محلية متخصصة. كل هذه المعطيات -في تقديرها-، غيبت سمة الانسجام الكامل بين هذه الفصول، حتى الباحث يجوّز للقارئ بإمكانية قراءته الفصل الثاني قبل الأول لفهم نظرية بورس، بعدها يمكنه العودة من جديد إلى قراءة الفصل الأول². فرغم هذا التنبيه الذي ينمّ عن إحاطة الباحث بالموضوع، ومراجعته إياه،

¹ - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل-مدخل لسيميائيات ش.س. بورس-، ص: 38.

² - ينظر: السيميائيات والتأويل-مدخل لسيميائيات ش.س. بورس-، ص: 39.

فإنه من جانب آخر، يكشف عن اضطراب منهجي يشوش ذهن القارئ، ويخلق فهما مشوها للتصور السيميائي لـ "بورس" بأكمله.

- يفتقر هذا الكتاب - في تقديرنا - إلى فصل مستقل، يحدد فيه الباحث المرتكزات الفلسفية للفكر العلامي البورسي، والمتمثلة في إسهامات أرسطو *Arostate* وكانط *Kant* وهيغل *Hegel*؛ كي يكتمل بناء الخطاب. فالقارئ ههنا، إذا ما طاف ذهابا وإيابا عبر الفصول سيجد أن (بنكراد) قدم خطابا غير متماسك، وهذا يعود - من وجهة نظرنا - إلى مهابة الباحث الغوص في الإشكالات الفلسفية والمنطقية لنظرية "بورس" السيميائية؛ لأن "بنكراد" في الأصل ليس فيلسوفا؛ كي يتسنى له تقليب كل القضايا الفلسفية التي أثارها الفكر العلامي البورسي على عدة أوجه ليناقشها، ومن ثم يقابلها بالآراء المناقضة لها حتى يتمكن من بناء تصورات وأفكار متماسكة. وصنيع كهذا، تحاشاه الباحث، من هذا فخطابه التنظيري لسيميائية "بورس" لا يعدو أن يكون شرحا وتوصيفا لهذا الفكر، غايته نقل هذا التصور إلى مشهدنا النقدي، دون تحشم عناء وضع هذا التصور في ميزان النقد، وكأن هذا الطرح أكبر من النقد، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

- لقد قرأ "بنكراد" فكر "بورس" من خلال كتابات "بورس"، وكذلك من خلال كتابات بعض الباحثين الغربيين - هذا ما ألفيناه في مكتبة البحث المعتمدة -، وصنيع كهذا - من المفروض - يحقق المأمول من هذه الدراسة، وهو محاولة "بنكراد" إرساء المبادئ والأسس النظرية لسيميائيات "بورس" في خطابنا النقدي، والذي يستدعي من الباحث التعمق والغوص في الفلسفة الأنغلوساكسونية التي تبلورت مع "بورس" بغية الإحاطة بمداخل ومخارج النظرية السيميائية البورسية، لكن الذي كنا نرجوه من هذا العرض لم يتحقق كفاية؛ إذ غلبت عليه - نوعا ما - السطحية والانتقائية. وعليه، فإن ما يحسب لجهود "بنكراد" في هذا الميدان هو سبق التناول، كونه أول من مارس التفكير في فلسفة العلامة ضمن الخطاب النقدي المغربي، وذلك من خلال طرقة باب سيميائيات "بورس".



1-ب- جهود الباحث "أحمد يوسف" في حقل السيميائيات:

ليس بخاف على المشتغلين في حقل النقد الأدبي، ذلك الدور النشط الذي يلعبه الباحث "أحمد يوسف" في ميدان البحث الموجه نحو الدراسات الفلسفية والنقدية، فتواجهه الغزير يشهد على حضوره العلمي الفعال في هذين الحقلين. ورغم هذا، ينبغي أن نشير إلى أمر مهم، وهو أن الباحث لم يوف حقه من متابعة الدارسين لأعماله، اللهم إلا ما جاء تماما في بعض الرسائل الجامعية، والتي -من دون شك- نلفيها حبيسة رفوف المكتبات، تنتظر من ينفذ عنها الغبار، ويخرجها إلى النور. والدارس ههنا، لم يقع سوى على بعض الدراسات المتخصصة التي رام أصحابها تناول أعمال هذا الباحث من زوايا متباينة حسب ما يقتضيه منهج كل دراسة^{1*}، لكنها -في النهاية- تحثي جميعها بالجهود النقدية لهذا الباحث التنظيرية منها والتطبيقية من خلال مدارس بعض من كتبه التي لقيت رواجاً بين أوساط الدارسين محلياً وعربياً، والتي تندرج ضمن خطاب التأسيس السيميائي من منظور الطرح الفلسفي لمفهوم العلامة في النقد المغربي المعاصر.

تعدّ الاسهامات النقدية لـ"أحمد يوسف" في حقل السيميائيات من الدراسات المغربية الجديدة بالمتابعة، فلقد احتفت جهوده بالنظرية السيميائية، وبالتأصيل الفلسفي لمفهوم العلامة في الخطاب النقدي المغربي والعربي، فهذا المفهوم كما يرى الباحث ليس "وقفاً - كما يعتقد إيكو- على اللسائيات، ولا حتى على السيميائيات الخاصة، ولكنه يضرب بجذوره في تاريخ التفكير الفلسفي بجميع مشاربه الثقافية لكون اللغة -إذا استحضرنا استعارة ميرلو بونتي- عنصراً حيويًا للإنسان كما هو الماء عنصر حياة للأسماك والحيوانات المائية التي لا تستطيع أن تعيش

^{1*} - ينظر في هذا الصدد بعض النماذج من الدراسات: سماح سعيد: في نقد الخطاب الشعري الجزائري المعاصر من منظور الباحث أحمد يوسف-قراءة في الأصول والإجراءات- مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير بكلية اللغات والآداب، جامعة سطيف (2)، الجزائر: 2013-2014. وحياء بن شيخ: الجهود النقدية عند أحمد يوسف، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح -ورقلة- الجزائر، 2014-2015. ووذاني بوداود: خطاب التأسيس السيميائي في النقد الجزائري المعاصر [مقاربة في بعض أعمال أحمد يوسف] مجلة الأثر، عدد خاص تضمن أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2011.

خارجه، ولهذا يقتضي البحث في العلامة بوصفها بؤرة السيميائيات من زاوية تأمل تحليلات التفكير السيميائي القديم حتى يتسنى لنا فهم العلاقة بين السيميائيات والفلسفة¹.

يسعى "أحمد يوسف" في هذا الميدان إلى بناء مشروع سيميائي مغربي وعربي، يتأسس على خلفية ابستمولوجية متينة، تروم النباش في الخلفيات المعرفية والفلسفية الأولى لهذه النظرية، متجاوزا بذلك البسط النظري والتأريخي للسيميائيات المنقطع عن الأصول الفلسفية القديمة التي بلورت المعرفة السيميائية الحديثة، والمتمثلة أساسا في التراث الثقافي الانساني المتراكم عبر عصور متلاحقة الذي خلفته لنا الحضارات الانسانية البادئة. إن هذه (الفكرة/المشروع) التي ينشدها الباحث، يلفيها الدارس مؤسسة على خصوصية الطرح وشمولية الاشتغال، تدعو للتعامل الواعي مع النظرية السيميائية الحديثة في علاقتها بالفلسفة، فبفضل معرفة منطلقات هذه النظرية، وكذا امتدادها، يتمكن الباحث من تشكيل فكرة واضحة عن السيميائيات. وبالتالي، بناء منهج سيميائي متماسك، يركز على أسس معرفية وفلسفية ثابتة. استطاع "أحمد يوسف" تجسيد هذه (الفكرة/المشروع) من خلال جهوده البحثية في هذا الميدان، والتي توزعت بين التأليف -حوالي تسع مؤلفات-، والتكوين (تدريس الطلبة فيما بعد التدرج والاشراف على رسائل ماجستير ودكتوراه)، والمشاركة في المؤتمرات والندوات العلمية المحلية منها والعربية.

وبناء عليه، فإن التفكير السيميائي في بعده الفلسفي يستدعي من الباحث -بالإضافة إلى تكوينه الأكاديمي (الأدبي والفلسفي)، وتجربته الطويلة- الاطلاع الواسع على مختلف العلوم التي تؤثت منها النظرية السيميائية جهازها المفاهيمي (من فلسفة ومنطق ورياضيات)، والمطلع على تجربة "أحمد يوسف" الحافلة بالبحث والمتشعبة فيه، يلفيه موسوعي المعرفة والتكوين. كل هذا، أهله لخوض غمار البحث في ماهية العلامة. فكان نتاج ذلك مؤلفين مهمين هما: [السيميائية الواصفة، والدلالات المفتوحة]، خصصهما الباحث للمنطق والدلالة، فتصدى في مؤلفه الأول لجبر العلامات والمنطق السيميائي، وتصدى في مؤلفه الثاني لفلسفة العلامة. وقد تسنى له -من خلال هذا الصنيع الممنهج- معاينة الأسس المنطقية والدلالية للسيميائيات

¹ - أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة -المنطق السيميائي وجبر العلامات-، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2005م-1426هـ، ص: 09.

من حيث إنها تسمية أخرى للمنطق حسب الطرح البورسي¹. لقد استعرض فيهما أهم الآراء التي أثارها الفلاسفة قديما وحديثا من حول فلسفة العلامة، وإشكالية المعنى في فلسفة اللغة؛ على أساس أنه "لا يمكن تقديم تصور لماهية العلامة، دون الوقوف على علاقتها بالمعنى، وهذه العلاقة شكلت حاجسا معرفيا للتفكير الفلسفي القديم منذ أن بدأ يتأمل العلاقة القائمة بين اللغة والفكر وبين الصور والأشياء من جهة والكلمات والأشياء من جهة أخرى"².

-أحمد يوسف: "السيميائيات الواصفة (المنطق السيميائي وجبر العلامات)".

يتوزع هذا الكتاب على مقدمة وخمسة فصول. تحتفي جميعها بموضوع العلامة من المنظور الفلسفي. يثير الباحث في مقدّمة كتابه جملة من الأسئلة الاشكالية، التي تتمحور حول قضايا مهمة في الدرس السيميائي الحديث. ويشكل فيها مفهوم العلامة -على وجه التحديد- الموضوع النواة. يذكر الدّارس من تلك القضايا ما يلي:

- ما يتعلّق بداية بإدراك العلاقة القائمة بين السيميائيات واللّسانيّات، والتي ذهب فيها "سوسير" مذهبا داعيا إلى شمولية السيميائية، حيث تغدو اللّسانيّات فرعا منها، وهو موقف تحفّظ منه "بارت"، حيث قلب الطرح السوسيري جاعلا السيميائيات فرعا من اللّسانيّات، وهي فكرة تدّعت بأراء أشياع "بارت" ك "ج. كريستيفا" و "جاك دريدا".

- أما ما يتعلّق بوعي العلاقة القائمة بين السيميائيات والفلسفة، فيرى الباحث في هذا، أنّه لا يتحقّق فهم هذه العلاقة، ما لم يتمّ الحفر عن مفهوم العلامة في الفلسفة قديما وحديثا؛ أي بالعودة بداية إلى الإرث الأرسطي، ثم فلاسفة اللغة الحديثين، وصولا إلى "بورس" و "سوسير".

- أما ما يتعلّق بالفكر العلامي لبورس، فإنّ الباحث يجد في الأتمودج المعرفي لهذا المنطقي نجاعة مثلى في الاحتفاء بالعلامة الأيقونية. وهو أمر، استوجب إعادة تمثله من قبل فلاسفة

¹ - ينظر: أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، دار الأمان، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، الرباط، الجزائر، بيروت، ط1، 1434هـ-2013م، ص: 11.

² - أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة -المنطق السيميائي وجبر العلامات-، ص: 19.

وسيميائيين معاصرين، فعدت بذلك الدراسات الأيقونية تيارا سيميائيا، يعرف بالسيميائيات البصرية أو سيميائية الصورة.

تبقى هذه القضايا التي استوقفت الباحث، من الاشكالات الكبرى التي لا تزال تشغل حيزا كبيرا من اهتمامات السيميائيات وفلسفة اللغة.

تناول الباحث في الفصل الأول الفلسفة الأرسطية وامتداداتها في التفكير السيميائي، حيث انبتت تأملات الفلسفية الأرسطية على مبدأ العلاقة؛ كونها كانت تشكل هاجسا معرفيا للتفكير الفلسفي القديم، فاشتغلهم على ماهية العلامة، استدعى الوقوف على علاقتها بالمعنى. وهي علاقة تمخضت عن جدال الفلاسفة (أفلاطون-أرسطو) والرواقيين من حول العلاقة بين اللغة وبالفكر وبين الصور والأشياء من جهة والكلمات والأشياء من جهة أخرى. تأسيسا على هذا، أضحى فهم المعنى والبحث في إشكاليته، من منظور سيميائي لا يتحقق خارج النسق الفلسفي والعلمي العامين (مجالات المعرفة الأساسية (رياضيات، فيزياء...)). لقد توصل الباحث، بعدما استعرض أهم الآراء الفلسفية التي أثرت من حول ماهية العلامة وإشكالية المعنى في الفلسفة القديمة والوسيط، وكذا الحديثة والمعاصرة إلى نتيجة، فحواها أن التفكير الفلسفي في العصرين القديم والوسيط، الذي بلغت فيه التأمّلات السيميائيات مبلغا جديرا، قاد إلى بلورة نظرية عامة للعلامات. شكلت أرضية، ارتكز عليها الخطاب الفلسفي الحديث والمعاصر في صياغة نظرية سيميائية، حيث تجعل من العلامة كيفها كانت لغوية أو غير لغوية موضوعها الأساس، فتبحث في ماهيتها وفي علاقتها بالسيميز وتقوم التأويل.

أما الفصل الثاني، فيحاول فيه الباحث إيجاد إجابة لتساؤل تمحور حول مفهوم العلامة في الخطاب الفلسفي الحديث، وعلاقته بالسيميز وتقوم التأويل، وهو ما حدا به إلى تقسيم هذا الفصل إلى قسمين؛ كي يقرب فهم ذلك -أقصد (الماهية والعلاقة)- من القارئ العربي. لقد اشتغل في القسم الأول على مناقشة الخطاب الفلسفي الحديث؛ الذي يعدّ طرحه امتدادا للتفكير الفلسفي الأرسطي وفلاسفة العصر الوسيط؛ أي أنّه انكبّ على مناقشة قضايا تبناها هذا الخطاب، بعدما ورثها عن التفكير الفلسفي القديم وعن أتباعه من فلاسفة العصر الوسيط، والمتمثلة تحديدا في ثنائيات فلسفية ك(المادة والشكل)، (العقل والإيمان)، و(النفس والجسد).

والباحث في غمرة المساءلة، يدرك مدى اهتمام البحث اللساني والسيميائي بهذه الثنائيات، وكذلك مدى استفادته منها لاحقاً. وهنا يبرز للعيان دور "ديكارت" الذي احتكم إلى التفكير الرياضي في بحثه عن قانون علمي ينتظم العلاقات انتظاماً رياضياً. يستند على قواعد تنماز بالدقة والوضوح. وهي فكرة - كما يرى الباحث - ستساهم لاحقاً في ميلاد المنطق الجبري (جبر العلامات تحديداً)، ولنا في تأثر "منطق (بول رويال) بجوهر الفلسفة الديكارتية خير مثال. هذا، ويتناول الباحث في القسم الثاني من هذا الفصل "السيميويزيس وتحوم التأويل"، منطلقاً من فناعة أساسية أنه "لا يمكن فهم سيميائيات "بورس" دون العودة إلى مرتكزاته المنطقية والفلسفية، وما يهمننا هنا المفهوم المركزي للعلامة التي ينبثق منها أغلب تصوراتها للسيميائيات وللسيميويزيس"¹.

يجد الباحث في أنّ ماهية العلامة -من منظور بورس- تنبثق انطلاقاً من السيميويزيس، الذي يخضع لمبدأ التقسيم الثلاثي للعلامة (الممثل والموضوع والمؤول)، فيغدو بذلك السيميويزيس فعل العلامة وعملها، وركيزة السيميائيات الأساسية. وبالتالي، فإنّ السيرورة السيميائية هي عملية انصهار العناصر الثلاثة المكونة للعلامة، واشتغالها على أنها وحدة كاملة. من جانب آخر، يلفت الباحث انتباه القارئ إلى استثمار "شارل موريس" لمفهوم العلامة الذي جاء به "بورس" المتمثل في التوزيع الرباعي للسيميويزيس فتغدو مكونات هذا الأخير (حامل العلامة والمعين والمؤول ثم المؤول). وعليه، فإنّ السيميائيات الأمريكية صارت تخضع في تصنيفها للعلامة إلى علاقتها بالعالمين الخارجي والداخلي.

أما الفصل الثالث فيتناول فيه أنماط العلامة ووظائفها، يظهر الباحث في هذا الفصل التوجه البورسي الذي قسّم العلامة إلى ثلاثة أقسام (قرائن، أيقونات، رموز)، ويستند الباحث -في ذلك- على شروح "أمبيرتو إيكو" للفكر البورسي في كتابه "العلامة، مفهومها وتاريخها"، الذي بسط فيه أقسام العلامة التسعة. وإثر ذلك، يسوق أحمد يوسف للقارئ العربي -في هذا الفصل- آراء فلسفية، يناقش من خلالها أقسام العلامة التسعة، قسماً قسماً بغية تحديد الأسس التي قامت عليها النظرية السيميائية المعاصرة في كتابات الإعلام الغربيين، من مثل: كلينبيرغ من جماعة "مو"، وجيرار دولودال، وبول ريكور وغيرهم.

¹ - أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة -المنطق السيميائي وجبر العلامات-، ص: 59.

أما الفصل الرابع فقد تطرق فيه للصيغ المحققة للعلامة، بناء على ثنائية العلاقة الاعتبارية والتعليلية سواء من حيث تداخلها أو من حيث ثباتها وحركيتها أو من حيث تبعيتها للأنموذج اللساني أو اختلافها عنه، لقد ترتب عن هذا بعض الصيغ ك"العوالم النفسية، فضيلة السياق، ومنزلة العلامة، ثم ينتقل بعد ذلك لتحديد المؤثرات والروابط، وتبيان تضافرها في العمل على إبراز وظائف العلامة ونشاطها مثل الوظيفة الإبدالية، العلامات والواقع، آخذا في حسبانها سلطان الاعتبارية واللوازم التقنية للتعارض بين الاعتبارية والتعليلية. ما يلاحظ هنا، هو اعتماد الباحث على المنجز الإيكوي في تناوله "صيغ تحقيق العلامة" وطريقة تصنيف العلامة.

أما الفصل الخامس فقد وسمه ب"العلامة الجمالية وأبعادها السيميائية"، يذهب الباحث في هذا الفصل بتوضيح مكانة الجماليات في الخطاب الفلسفي؛ إذ لم يتبوأ موضوع الجماليات في التفكير الفلسفي القديم والوسيط بالمكانة اللائقة به كما تبوأها الأخلاق والسياسة والميتافيزيقا؛ لكنه حظي بالاهتمام في الخطاب الفلسفي الحديث مع كانط وهيغل. أما ما يهم الباحث هو "المتصورات السيميائية للجماليات التي بدأت تتبلور في كثير من الأبحاث، ولاسيما المتعلقة بجماليات الخطاب البصري سواء أعلق الأمر بالصورة الفوتوغرافية أم بفنون العروض المسرحية وما اتصل بها من إضاءة وسينوغرافية وإخراج وديكور وما إلى ذلك مما يخرج عن فضاء العلامات اللسانية مثل السينما والفنون التشكيلية والعمارة ليتخذ تعبيرا أيقونيا تارة ورمزيا تارة أخرى"¹. يلفت الباحث انتباه القارئ إلى أحد الحقول السيميائية التي بدأ يتبلور في الأفق، بعدما وضع "بورس" لبناته الأولى المتمثلة في العلامة الأيقونية، إنه السيميائيات الأيقونية أو كما ينعته البعض بالسيميائيات البصرية، وسيميائيات الصورة...

لقد بدأ اهتمام السيميائيات الأمريكية بالجماليات بداية مع إشارات "بورس" إلى موضوع الجمال، ليتطور الاهتمام بعد ذلك مع "ش. موريس"، وينقلها الباحث بعد ذلك إلى سيميائيات الصورة وبلاغتها، التي تجلّى البحث فيها في السيميولوجيا الأوربية مع ظهور كتاب "أساطير" عام 1957 ل (ر. بارت). الذي احتفى فيه بأشكال الخطاب البصري سواء أعلق ببلاغة الصورة

¹ - أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة - المنطق السيميائي وجر العلامات-، ص: 133.

الشخصية (الفوتوغرافية) أم بمقالات صحفية وتحليل الخطاب الاشهاري وتدعم هذا الطرح لديه أكثر في كتابه "مبادئ السيميائيات" منطلقا في بناء تصوره السيميائي من المثال اللساني¹.

خلاصة تقويمية للكتاب:

أرسى الباحث في كتابه "السيميائيات الواصفة" أسس التفكير الفلسفي في الخطاب السيميائي المغربي. هذا الكتاب يلفيه الدارس متكاملا مع كتاب "الدلالات المفتوحة". إنهما يحددان معا الرؤية/المشروع للباحث، ويبرزان نظرتيه النقدية المتعلقة مع نظرتيه الفلسفية. فهذا التصور الجامع بين ما هو نقدي وما هو فلسفي -والذي في تقديرنا لا يناله إلا ذو حظ معرفي مكين- قد تحمّر في ذهنه، ليتشكّل فيما بعد، ويتحدّد في أطروحتين² أنجزهما على التوالي، واحدة في قسم اللغة والأدب العربي والأخرى في قسم الفلسفة.

يسعى الباحث في هذين الكتابين إلى معاينة المنطلقات الفلسفية (المنطقية) والدلالية للسيميائيات، وهو ما حدا به للاحتفاء بالحساب. هذا الصنيع، يحدّد نزعة الباحث المنطقية التي تبين لنا منها تأثيره العميق بالفكر العلامي لـ"بورس". وعليه، فإن ما يحسب على الباحث ههنا، يتجلى في تتطابق الكتابين في الطرح وفي طريقة تناول، حتى أنّهما نشرا في تاريخ واحد (1426هـ/2005م). كلّ هذا، يجعل الدارس يذهب بظنه أنّهما نسخة شبه مكرّرة، أوردتها الباحث بعنوانين متباينين؛ إذ في الوقت الذي تناول فيه الفلسفة الأرسطية وامتداداتها في التفكير السيميائي ضمن كتابه "السيميائيات الواصفة"، نجده يعالج النسقية الأرسطية وتمفصلاتها في كتابه الثاني "الدلالات المفتوحة". وكذلك في الوقت الذي احتفى فيه الباحث بـ"المنطق السيميائي وجبر العلامات" في كتابه الأول، نجده يخصّص فصلا مستقلا بعنوان "جبر العلامات والمنطق

¹ - ينظر: م ن، ص: 145.

² - تتمثلان في: 1- القراءة النسقية في ضوء المقاربات البنوية للشعر العربي الحديث، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب العربي (مخطوط)، بإشراف الأستاذ "عبد الملك مرتاض"، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران (الجزائر)، نوقشت بتاريخ 10 جوان 1999. / 2- السيميائيات وفلسفة المعنى، أطروحة دكتوراه دولة في الفلسفة (مخطوط)، قسم الفلسفة، جامعة وهران (الجزائر)، نوقشت بتاريخ 29 ماي 2004. ينظر: في الرب العلمية والنشاط العلمي من السيرة الذاتية المختصرة للباحث أحمد يوسف، ص: 03. www.squ.edu.com.

السيميائي المحايث" ضمن كتابه الثاني. هذا المسعى، رغم ما فيه من تعميق للطرح الفلسفي الأرسطي، وبلورة لتصوّر عربي حول المنطق السيميائي وجبر العلامات، يبقى هذا التصرف -في تقديرنا- الذي يكتنفه التكرار، وتشوبه الضبابية في بعض القضايا الفلسفية المطروحة، قد يؤدي إلى إرباك المتلقي؛ إذ يحدث هذا خاصّة، إذا كان القارئ يفتقر للمعرفة الفلسفية. وبالتالي، قد لا نستغرب من عزوف إقبال القراء على مثل هذه المؤلفات، بسبب ما يجدونه من عسر في فهم بعض المسائل التي تطرحها الفلسفة خاصة تلك التي لها علاقة بالسيميائيات.

- يعترف الباحث في مقدّمة كتابه "علامات فارقة" أن مسعاه من الكتابين المذكورين تجلّى في اشتغاله على معاينة المنطلقات الفلسفية (المنطقية) والدالية للسيميائيات. وهو صنيع، جعله يحتفي بالحساب أكثر من احتفائه بالخطاب، وعليه، فإنّ الدارس يلمس من هذا الاهتمام تأثر الباحث بالفكر العلامي ل"ش.س. بورس" وانتصار لما طرحه من قضايا حول فلسفة العلامة.

- لقد اعتمد "أحمد يوسف" في كتابه "السيميائيات الواصفة" على مصادر فلسفية كثيرة تراثية وحدائية منها: الغربية والمترجمة والعربية، حيث تعكس في مجملها ذلك القلق المعرفي الذي يراود فكر الباحث السيميائي المغربي، إلا أن ما يمكن ملاحظته -في هذا الصدد- هو طغيان المصادر الغربية على نظيرتها العربية وإن كان هذا يعدّ أمراً عادياً، فإنه يجعلنا من ناحية أخرى ندرك أن ما نقرأه -حسب أحد الباحثين- لا يعدو أن يكون "تكراراً واجتراراً لمنتج منجزات العقل الغربي، وإعادة واضحة لذات البواعث، التي تتعلق بالتفكير الفلسفي، في الساحة الثقافية الغربية، ولم يفعل المؤلف سوى أن كرّرها وأعاد كتابتها باللغة العربية، فجاء الكتاب عبارة عن خطاب تضمين لا خطاب مضمون"¹. نلمس في وجهة نظر هذا الباحث جانباً من الحقيقة، وليس كلها، فظاهرة التبعية والانبهار بالآخر أصبحت أمراً مفروضاً. وعليه، فالباحث العربي -بصفة عامة- في تلقّيه المعرفة لا يزال في لحظات الأولى التي يجسّ ويختبر من خلالها المعرفة الوافدة، ولما لم يجد لها بديلاً معرفياً عربياً، يعملها كما هي لأنها جديدة، فتبدو للقارئ مجرد نسخة مكررة بحروف لغتنا،

¹ - هامل بن عيسى: إشكالية الخطاب السيميائي في النّقد الأدبي المغربي، -دراسة في نقد التّقد- أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، اللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، 2012-2013، ص: 347.

فالإشكالية هنا عميقة، تتجاوز الباحث لتلامس منظومتنا الفكرية ككل في مواجهة منظومة الآخر الفكرية المنظمة والممنهجة المتصلة بتراتها. والباحث من منطلق مسؤوليته، أصبح مجبرا على نقل المعلومة، وتقريبها من القارئ، لأن الوعي بالذات لا يتحقق إلا بمعرفة الآخر. وعليه فإن " أحمد يوسف" في تلقيه السيميائيات انطلاقا من بعدها الفلسفي، يحاول تأسيس اتجاه سيميائي مغربي منفتح، يمتح معرفة السيميائية من أفكار المدرستين الأوربية والأنغلو ساكسونية. ما يجعله يعنى بالفلسفة والمنطق، ويبرهن على التأويل في إنتاج الدلالة.

- لقد نحا الباحث في اشتغاله على سيميائيات "بورس" منحى "أمبيروتو إيكو" الذي يعدّ من أبرز الدارسين للفكر العلامى البورسي، يتجلى ذلك خاصة في تقسيمه الثلاثي للعلامة. والباحث لا يخفي تأثره بهذا المفكر الحداثي وبطريقة معالجته للقضايا الفلسفية وتأصيلها. من هذا بات حضوره في طرح الباحث أمرا عاديا.

- يوحي لنا طرح "أحمد يوسف" إلى ضرورة تبني خطاب التنظير أولا، حتى يتسنى للدارسين الكشف عن الأصول المعرفية للنظرية السيميائية وفهمها، ذلك لأن هذا الخطاب "يتأسس من خلال المقولات الفلسفية والفكرية والواعية بحركة المدّ الثقافي في صلب الحياة، وعلاقته بالكون وما وراءه، وبالإنسان وما يصدر عنه، وبذلك فهو خلاصة جهد فكري مضمّن، له أصوله ومصادره التي يمنح منها آلياته ويضبط مقاصده"¹.

- لم يخرج "أحمد يوسف" من دائرة الصنيع البحثي العربي والمغربي في تعامله مع المصطلح التقدي، فالعقبات التي اعترضه في هذا المجال، تتعلق في مجملها بإشكالية ترجمة أو تعريب هذا المصطلح. حيث نجد من المصطلحات المترجمة مايلي: الخطية (*Linéarité*)، ص: 9/ لغات (*Langue*)، ص: 51/ التمثيل (*Représentaion*)، ص: 63/ علامة لسانية (*signe linguistique*)، ص: 68/ الفعل المعلمي (*acte sémitique*)، ص: 92/ العلامات العضوية (*signes organiques*)، ص: 94/ العلامات الأدائية (*signe instrumentaux*)،

¹ - وذاني بوداود: خطاب التأسيس السيميائي في النقد الجزائري المعاصر، ص: 19.

ص:94 / علم الأغراض (symptomatologie)، ص: 101 / التقرير (dénotation)،
ص:129 / التعيين (désignation)، ص: 129 / الدلالة (signification)، ص: 129.

كما نجد من المصطلحات المعرّبة مايلي: السيمات (Sémèmes)، ص: 11/عرض
(symptôme)، ص: 20/السيميون (sémion)، ص: 21/السيمولوجية (sémiologie)،
ص: 30 / الفونوجرامات (phonogrammes)، ص: 32 / الصورة الأكوستية (image
acoustique)، ص: 57/الميثم (mythème)، ص: 69 / الفونيمات (Phonèmes)،
ص:82 / الفيمات (Phèmes)، ص: 82 / السيمات (sèmes)، ص:82/ النحو
(grammaire)، ص:71 / أيقونة (Icône)، ص: 72 / الأنثروبولوجية اللغوية
(Anthropologie linguistique)، ص: 93 / الخطاطة (shéma)، ص: 81 / المشار إليه
(indiqué)، ص:92 / الاشارات (signaux)، ص: 91 / .

2- سيميائيات "بورس" في المقاربات التقديّة المغاربيّة:

تمثّل السيميائيات البورسية حضورا فاعلا في الخطاب التقدي العربي، وحقلا زاخرا بالمفاهيم
الدلائلية، جعلت الباحث يستعيرها ليسدّ بها متطلبات النص، وينتقي منها ما يعضد مقارباته
النصّيّة والخطابية. فمن المفاهيم الأساسيّة التي أخذت حيزا أكبر من اهتمام باحثينا تلك الناتجة
من علاقة العلامة بموضوعها وهي: الأيقون (الأيقونة) Icône، والرمز Symbol، والمؤشر
(الشاهد، الإشارة) Index.

لم يكن اهتمام هؤلاء بهذه المفاهيم عرضيا، وإنما ترسخ كقناعة يحاولون من خلالها ربط
التراثي بالحدائي؛ بمعنى إيجاد مصوغات الربط بين ما حبل به الموروث البلاغي وما جدّ على ساحة
الفكر بالغرب. وبالفعل، فقد وجدوا في تفرّعات القدامى للعلامة (الدلالة) اللفظية وغير اللفظية
ما يتوافق مع توزيع "بورس" الثلاثي للعلامة في علاقتها بموضوعها¹؛ بحيث لا نكاد نلمس أي

¹ - يوضح لنا الباحث "فادة عقاق" في جدولته ذلك التقابل القائم على الترتيب بين تقسيمات الدلالة (العلامة)
في الموروث العربي، والمتمثلة في: (الدلالة الوصفية والعقلية والطبيعية)، وبين تقسيمات بيرس، المتمثلة في: الرمز (symbole)،

اختلاف في هذه المقارنة "سواء من حيث ذلك التقسيم الثلاثي لها، أو من حيث ما ينطوي عليه كل قسم من تلك الأقسام"¹. ويعزو الدّارس هذا التقابل الذي وصل حدّ التطابق إلى الرفض المعرفي الواحد الذي نهل منه العرب القدامى و"بيرس" على حدّ سواء، والذي يتجلى في المعطى الفلسفي اليوناني (أرسطو) وأفكار الرواقين. كلّ هذا، يبرر -في تقديرنا- استئناس الباحث العربي بسيميوطيقا "بورس"، ومحاولته البحث عن وشائع القرى بين التراث العربي والحداثة المغربية.

2-أ- قراءة في كتاب "مباحث في السيميائيات" لـ"عبد المجيد العابد":

إن ما يميز مباحث الكتاب التسعة، هو اشتغال صاحبها على خطابات إبداعية متعددة ومتنوعة ومتباينة "لها طبيعتها المختلفة في الاشتغال، ونمطها المخصوص في التذليل"². لم يكن اختبار الباحث لهذه التصوّص عشوائياً، وإنما تجسد وفق رؤية واعية محسوبة، يؤمن صاحبها بنجاعة المنهج السيميائي في تفاعله مع هذه الخطابات، هذا ما يلمسه الدّارس في الخيط الناظم الذي يشدّ تلك المباحث بعضها ببعض. والتي يتجلى في طبيعة الموضوع من ناحية، وطبيعة المنهج من ناحية أخرى، فطبيعة الموضوع الواحد، نستشفها من تقاطع هذه الخطابات في نقطة واحدة هي موضوع الصّورة والتي تظهر على امتداد غالبية المباحث كـ (القياس في السيميائية البصرية، والصّورة الإشهارية بين الإنتاج والتلقي، الوصف البصري للشخصيات في رواية "البعيدون"، بناء الصّورة في ألف ليلة وليلة، الصّورة الساخرة في رواية "السوق الداخلي"، الصّورة والبيداغوجية...). أما طبيعة المنهج، فيتجلى في المقاربة السيميائية لهذه الخطابات التي استثمر فيها الباحث المفاهيم البصرية المستقاة من السيميائيات البصرية التي أرسى معالمها الأولى "ش.س. بورس".

سوف نختار المبحث الخامس الموسوم بـ"الوصف البصري للشخصيات في رواية "البعيدون" لدواع يستدعيها منهج الدّراسة؛ كون هذا الموضوع يندرج في حقل السيميائيات البصرية التي تتكئ على بعض المفاهيم البصرية في التحليل، وأن هذه المفاهيم ترجع أصولها "إلى التفكير الفلسفي

الشاهد المؤشر (Index)، الأيقونة (الصّورة) (Icône). ينظر: قادة عقاق: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص: 43.

¹ - قادة عقاق: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص: 43.

² - عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 12.

والمنطقي ابتداء، ثم في تعريف بورس (*Peirce*) للأيقون الذي شكّل اللبنة الأولى في إرساء سميّة [المفاهيم البصرية]¹.

طريقة التناول:

استعان الباحث في مقارنته لهذا النصّ الروائي بمجموعة من الآليات السيميائية منها: الدلالة الأيقونية، الوصف البصري، الكاريكاتير، التمثيل... الخ. حيث استهل الباحث دراسته بتنظير مقتضب تناول فيه تحولات الشخصية وعلاقة هذا التحول بتطور الرواية، انطلاقاً من الرواية التقليدية التي "تنظر إلى الشخصية بوصفها شبه كائن (*Pareil être*) من لحم ودم"²، ووصولاً إلى الرواية الجديدة التي اعتمدت في مدارسها للشخصية على عدّة مناهج نصانية (المنهج السيميائي مثلاً)، والتي "نظرت إلى الشخصية من منظور آخر، حيث نجد رولان بارت (*Roland barthes*) مثلاً يعبر عنها بوصفها "كائن من ورق" (*être en papier*) لا وجود له إلا عبر الفضاء النصي الروائي، كما نجد فيليب هامون (*Philippe Hamon*) ينظر إليها باعتبارها علامة كباقي العلامات الدالة، التي قد تشير إلى معادل موضوعي في العالم الخارجي، وقد لا تحيل إليه، مسترشداً بمفهوم العلامة (*signe*) عند بورس (*Peirce*)³. لقد غدت الشخصية (*Personnage*) من منظور بارت (*Barthes*) وهامون (*Hamon*) كائناً بلا ملامح، قد تعبر عنها نقطة، أو بياض، أو حرف... كما قد يعبر عن شخصيتين باسم/ علامة واحدة⁴.

لقد خلقت -حسب الباحث- تحولات الشخصية من كونها شبه كائن إلى شخصية ورقية ضمن الرواية الجديدة (الحداثية) تصوراً جديداً أكثر تطوراً، تجلّى ذلك في مقاربات لوفيل (*Louvel*) ومونتادان (*Montadan*) التي تهمّ نظرية الأيقونص (*Iconotexte*) أي التعالق

¹ - ينظر: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 17.

² - عبد المجيد العابد: م ن، ص: 77.

³ - م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: عبد المجيد العابد: م س، ص: 77.

اللفظي البصري في السرد، نظرت إلى الشخصيات من جميع الاستعارات التي استقتها من السيميائيات البصرية خاصة، كالكاريكاتير، والوصف البصري، والدلالة الأيقونية، وغيرها¹.

حاول الباحث تعويم هذه المفاهيم البصرية وغيرها، على النص الروائي "البعيدون" لصاحبه "بهاء الدين الطود"، انطلاقاً من الدلالة الأيقونية، مروراً بالوصف البصري، والموجهات والألوان القيمة، وانتهاءً بالكاريكاتير والتمثل، أما أولى المفاهيم التي تدارسها هي الدوال الأيقونية المجسدة في شخصيات الرواية.

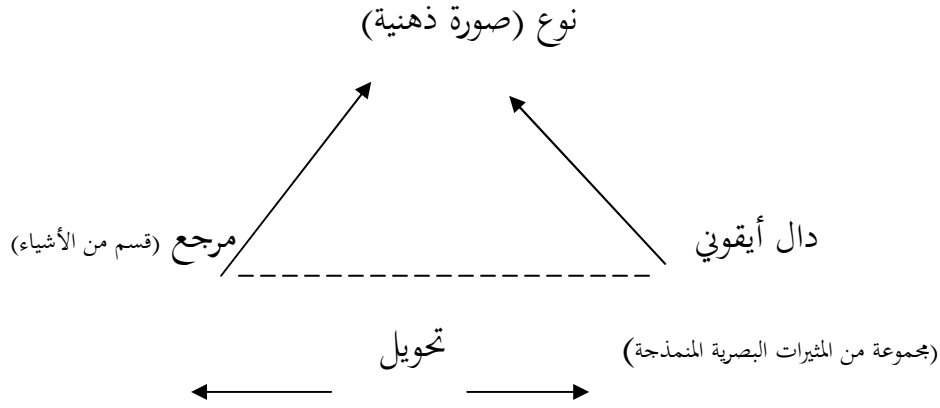
يستهل الباحث هذا العنصر بمناقشة مفهوم الأيقونة من خلال الطرح البورسي، وإيكو وجماعة "مو" معتمداً في ذلك مؤلفات هؤلاء وهي: (*Ecrits sur le signe 1978*) ل"ش.س. بورس"، و(*Le signe, histoire et analyse d'un concept*) ل"إيكو" و: (*Traite d'un signe visuel, pour un rhétorique de l'image*) 1992. لجماعة "مو".

ينطلق الباحث من نظرة "بورس" للأيقونة، التي تنفي اعتبارها تمثل معادلاً موضوعياً في العالم الخارجي، ما يعني أنها (أي الأيقونة) تتضمن كذلك ما ليس له معادل موضوعي في الواقع. هذه النظرة، يدعمها "أ.إيكو" معتبراً أن الأيقونة ما هي إلا صورة ذهنية تربط بين علامة وبنية إدراكية، هذه الأخيرة، تلعب دور الوسيط بين العلامة والتجربة الواقعية، وهو معطى أشارت إليه جماعة "مو" من خلال النموذج الثلاثي (دال إيقوني يحيل إلى مرجع عبر نوع). جاء هذا الاقتراح - حسب الباحث - لتجاوز مشكل الأيقونية في العلامة²، ولتوضيح الفكرة أكثر، استعان الباحث بالمخطط التالي³:

¹ - م ن، ص.ص: 77-78.

² - ينظر: عبد المجيد العابد: المرجع السابق، ص: 78.

³ - ينظر: م ن، ص ن.



إذا كانت العلامة الأيقونية - وفق هذا المخطط - ثلاثية التركيب هي: الدال الأيقوني والنوع والمرجع، فإنها - حسب الباحث - ثنائية التركيب حيث يشكل عنصري (النوع والمرجع) المدلول الأيقوني، فنكو بذلك أمام دال أيقوني ومدلول أيقوني.

- الدلالة الأيقونية بوصفها إجراء:

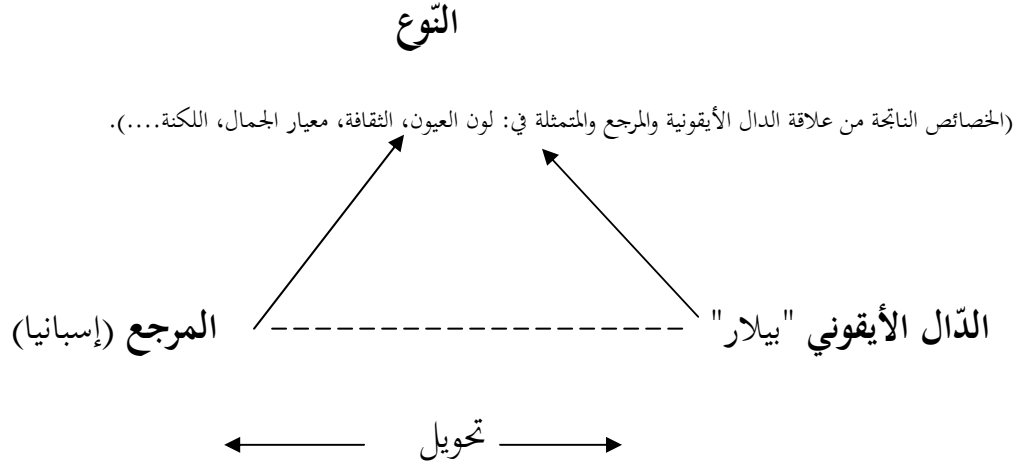
استنادا على المكونات الثلاثة للعلامة الأيقونية، تناول الباحث شخصيات النص الروائي بالتحليل؛ إذ حدّد هذه الشخصيات باعتبارها دوال أيقونية تحيل إلى مرجعيات ثقافية خاصة بكل شخصية. تأسيسا على ما تمّ ذكره، قام الباحث بتحديد بعض المقاطع السردية من النص الروائي المتعلقة بالشخصيات الرئيسية باعتبارها دوالا أيقونية.

1- المقطع السردى: [في ذلك الزمان الفاصل... كانت تستر عني عواطفها] ص: 38

من الرواية، يبرز هذا المقطع الانتماء الثقافي لـ "بيلا" وكل ما يمت إليه صفات.

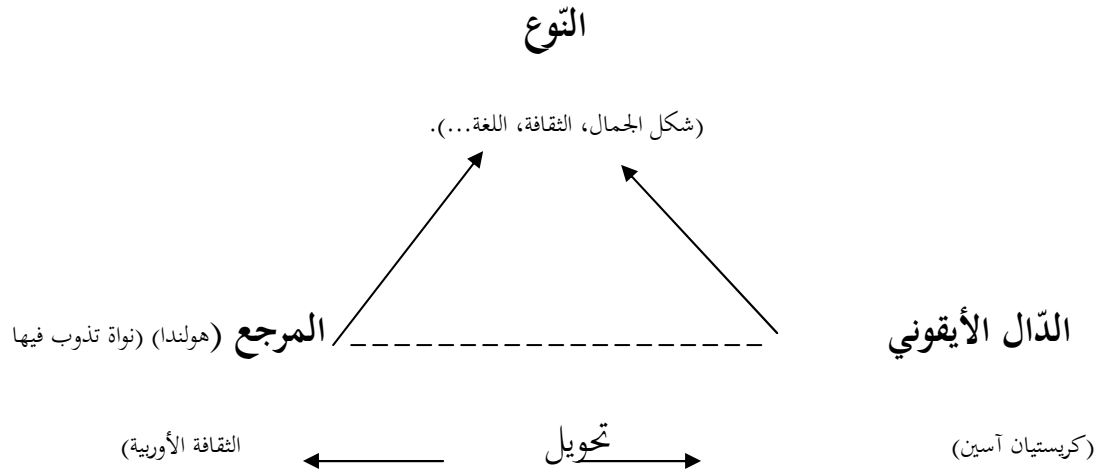
فالدال الأيقوني "بيلا" - حسب الباحث - يحيل إلى مرجع ثقافي قد يفيد كلّ ما هو إسباني، فهذه الفتاة شابة، جامعة لسّمات الجمال والثقافة تحيلنا على نسق ثقافي إسباني. يعدّ ذلك أساس الكون القيمي المدريدي¹. وعليه، يمكن تجسيد هذه المحددات المفهومية بهذه الترسّيمة:

¹ - ينظر: عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص: 79.



2- المقطع السردي: [هي تتحدث... في أشهر مجلة أنجلوساكسونية] ص 156 من الرواية.

يشير الدال الأيقوني "كريستيان آسين" - حسب الباحث - إلى مرجع ثقافي يحيل إلى فتاة عذراء، جميلة ومثقفة، وموسوعية. وعليه، فإننا نحيل أيقونيا إلى كون قيمي مخصوص يمثل في الطابع الهولندية، التي تدوب فيها الثقافة الأوربية كاملة¹. يمكن للدارس استخلاص المحددات المفهومية لهذه الشخصية وفق المخطط التالي:

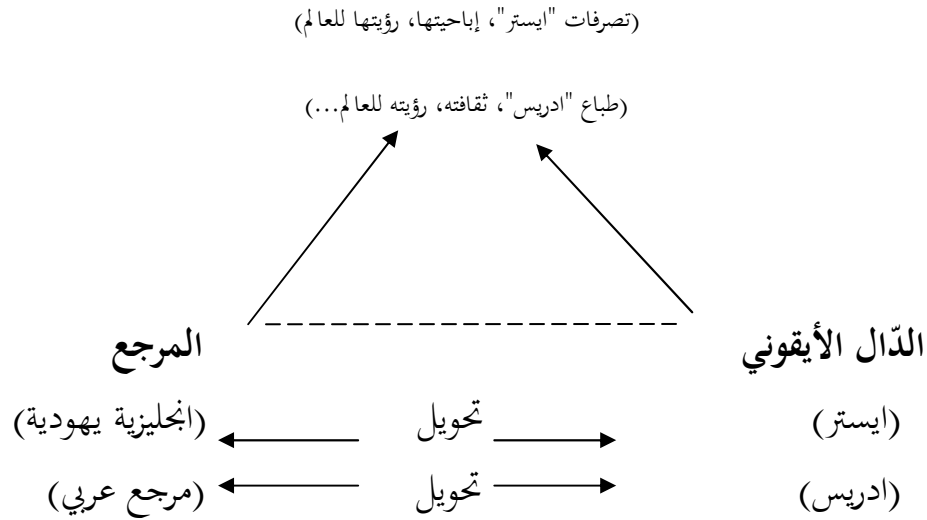


¹ - ينظر: م ن، ص: 80.

3- المقطع السردي: [نعم أعلنت... أشهر طويلة]، الرواية، ص: 14.

يتعلق هذا المقطع -حسب الباحث- بالمدال الأيقوني "ايستر"، فهذا المدال يحيل إلى مرجع ثقافي مخصوص يخضع لأكوان قيمة تحدد له نمط وجوده، ورؤيته للعالم، إنه كون قيمي انجليزي يهودي تكشف بعد العلاقة الحميمة بين "ايستر" و"ادريس"¹. يمكن تمثيل ذلك في هذه الترسيم:

التّوع



إنّ جماع القول الذي خلص إليه الباحث، يتجلى في توافق أو تناقص بين مرجع كل شخصية من الشخصيات الرئيسية باعتبارها دوالاً أيقونية، وهو بالفعل ما وطّد الصراع بين تلك الشخصيات الذي ساهم في بناء الحدث الروائي.

هناك توافق بين المدال الأيقوني لـ "بيلاز" والمدال الأيقوني لـ "ادريس"، فلأول يحيل إلى تمفصلات الثقافة العربية الإسلامية، وهي بالتالي لا تختلف عن المدال الأيقوني "ادريس" الذي يحيل إلى مرجع ثقافي يمثل كل ما هو عربي، ثقافة، رؤية العالم. فهذا التوافق، إذن، حال دون وقوع صراع في تصويرهما للعالم.

¹ - ينظر: عبد المجيد العابد: م س، ص: 81.

يتحقق عدم التوافق بين الدوال الأيقونية لـ "إيستر" و"كريستيان آسين" من جهة، وبين "كريستيان آسين" و"ادريس" من جهة ثانية. وبين "ادريس" و"إيستر" من جهة ثالثة، نتج عن هذا كله، صراعا بين هذه الشخصيات بسبب تباين الانتماء الثقافي ما أدى إلى بناء أحداث الرواية، تمثل ذلك بما يلي:

علاقة "إيستر" و"كريستيان آسين" ← علاقة مخالفة.

علاقة "كريستيان آسين" و"ادريس" ← علاقة مخالفة (معادلة صحية).

علاقة "ادريس" و"إيستر" ← علاقة مناقضة (ثقافة/دين/...).

خلاصة تقييمية للكتاب:

بعد معاينتنا للعلامة الأيقونية ودلالاتها، نجد أن هذه دراسة لا تكاد تخرج من الإطار الذي رسمه "بورس" للعلامة الأيقونية؛ إذ نلغي الباحث ههنا، يتكئ في تحليله على المكاسب التي حققتها سيميائية الصورة، ويعوّل على أدواتها الإجرائية في استجلاء المعنى من هذا الأثر الأدبي. حيث تمكن الباحث من استثمار هذا المفهوم البصري من منظور طرح "بورس" وجماعة "مو".

- استطاع الباحث مقارنة هذا النص الروائي من منظور السيميائية البصرية، فوجد شخصياتها الرئيسية تحمل دلالات أيقونية تحيل على الانتماء الثقافي وتمفصلاته لكل شخصية.

- قد لا نتفق مع الباحث في الترجمة التي وضعها لمصطلح "شخصيات" والمتمثلة في المقابل الغربي (*Personnages*)، وهي ترجمة - كما يبدو للدارس - مضلّة بالنظر إلى تطوّر الجنس الروائي؛ ذلك لأن التغيرات الدلالية لهذا المصطلح قد ارتبطت بتحوّلات الرواية نفسها. فالمتتبع لتطور الرواية، لسوف يجد أن مصطلح "شخصية" الذي يقابله المصطلح الغربي *Personnalité* قد شاع استعماله في الرواية التقليدية، وهو بهذا يقابل الشخصية الحقيقية في الواقع؛ أي شخصية شبه كائن من لحم ودم، فهذا المصطلح الذي روّجت له الرواية التقليدية، لم يعد كذلك مع الرواية الجديدة؛ إذ تغير مدلول المصطلح من "شخصيات" إلى "شخص"؛ أي من شبه كائنات من لحم ودم إلى كائنات ورقية غير واقعية. والمقابل الغربي لـ "شخص" هو *Personnages*، وهو مصطلح ينتصر له كثير من الباحثين الحدائين. وعليه، ما يؤخذ عليه الباحث ههنا، هو عدم مراعاته لتحوّل مدلول هذا المصطلح في الاستعمال.

- حقق الباحث بالاعتماد على الآليات السيميائية التي أتاحت له بعض النتائج، تجلّت في كشف عن بعض الخبايا النصّية المتعلقة بالشخص الرئيسية، وقد تمّ ذلك بواسطة التقسيم الثلاثي لمكونات العلامة الأيقونية، التي تتركّب من:

العلاقة = الدال الأيقوني + المدلول الأيقوني (نوع + مرجع).

- استطاع الباحث أن ينطلق من فكرة "بورس" للعلامة الأيقونية وفكرة جماعة "مو" وفكرة "إيكو" كذلك، وتمكن من صهر هذه الأفكار وبلورتها برؤية منهجية واعية، لأجل رصد الدلالات الأيقونية للشخص وتحليلها.

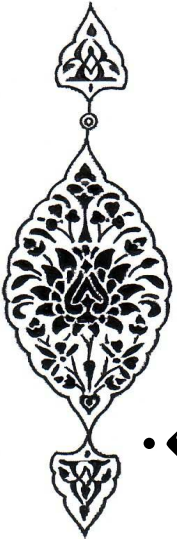
يعدّ هذا المبحث إنجازا مهما ومميزا؛ يبرز مع بقية مباحث الكتاب الأخرى استراتيجية الباحث في اشتغاله على موضوع الصورة الذي احتفت به السيميائية البصرية مستثمرا -في ذلك- المفاهيم التي حبلت بها السيميائية البصرية، فهذا التوجه الذي ارتكز على العلامة الأيقونية التي وضع "بورس" لبناتها الأولى، وتطورت بعد ذلك على يد "إيكو" وجماعة "مو" قد غفل عن تناوله الباحثين العرب، وتفطنّ له الباحث "عبد المجيد العابد". وهي التفاتة تبرز كفاءة الباحث المغربي في مواكبة الجديد بغية معالجة النص من زاوية مغايرة لما هو شائع تطبيقه في المشهد النقدي العربي بعامة والمغربي منه بخاصة، واستنادا على ما قدّمه الباحث، وعرضه، نستشف سمة الوفاء للفكر العلامي البورسي والمدرسة الأنغلو ساكسونية ككل؛ على اعتبار أنّ الاتجاه الأمريكي يعدّ رافدا أساسا مساهما -إلى جانب الاتجاه الأوربي- في تشكيل وبلورة خطاب سيميائي مغربي منفتح على كل التيارات والاتجاهات السيميائية.

الباب الثاني

النّظرية السّيميائية

في الخطاب النّقدي المغاربي.

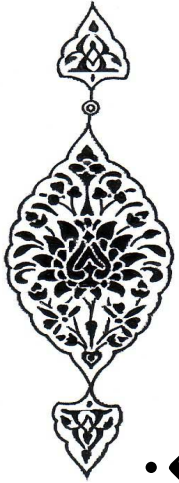
- التّلقّي والإعمال -



الفصل الأول

تلقي النظرية السيمائية

في الخطاب النقدي المغربي.





مراحل تلقّي النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغربي:

استهلال منهجي:

منذ انفتاح النقد العربي الحديث والمعاصر على المنجز النقدي الغربي، والمناهج النقدية تفتد إليه تباعا، بحيث لا يكاد يستأنس بمنهج معين حتى يلوح له في الأفق منهج جديد، تتعالى في شأنه صيحات تروّج لأطروحاته، وتظهر مدى نجاعته في استكناه النصوص الأدبية. والحال هذه باقية ومستمرة عبر كلّ المراحل التي عايشها نقدنا العربي، فالتحوّل جارٍ ومستمرّ منذ ما قبل البنيوية وإلى غاية ما بعدها.

إنّ المتأمل في هذا التحوّل، وعدم الثبات الذي وسم هذه المناهج، يلفي أنّ كلّ منهج منها يشيّد بناءه على أنقاض سابقه، ذلك لأنّ معظم هذه المناهج موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على بعضها الآخر؛ إذ لا البنيوية، ولا نزعة التحليل النفسي [...] ولا السيميائية، ولا الأسلوبية نفسها قادرة إحداهن على أن تزعم أنّها ناشئة من عدم [...] فاللّسانيات إنّما نهضت على جهود النّحاة وفقهاء اللّغة [...] في حين أنّ البنيوية لم تنهض في أسسها العامّة إلا على أنقاض تنظيرات الشّكلانيين الروس، وعلى نظرية الثنائيات الدلالية لدى دو صوسير: الدال والمدلول. على حين أنّ السيميائية هي خليط من اللّسانيات، والنّحويات وربّما البلاغيات أيضا...¹، وإلى جانب هذا نجدها متفاعلة مع الفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأناسة والفينومولوجيا أو ما يعرف بفلسفة الظواهر... فهذا التفاعل والتداخل مع الحقول المعرفية من جهة، وكذا تبني الطّرح اللساني البنوي من جهة أخرى، مكّن المنهج السيميائي من أن يصير "تصوّرا نظريّا ومنهجيا تطبيقيا في شتى المعارف والدراسات الإنسانيّة والفكرية والعلمية أداة في مقارنة الأنساق اللّغوية وغير اللّغوية"².

إنّ المكانة التي حظيت بها السيميائية داخل الخطابات باعتبارها نظرية ومنهجيا نقديا، جعلت الدارسين عجمًا وعربًا يقبلون عليها، لمّا رأوا أنّ التحليل السيميائي (السيميوطيقي) قد

¹ - عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري - تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي -، دار الكتاب العربي، الجزائر، أبريل 2001، ص.ص: 10-11.

² - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف، الرباط، ط01، 2010، ص: 111.



صار "مفتاحا حدثيا وموضعا لا بدّ من الالتجاء إليها قصد عصرنة الفهم وآليات التأويل والقراءة"¹، فشمولية الرؤية لهذا المنهج، وما يتّصف به من مرونة تحليلية وإجرائية التي ميّزته عن غيره من المناهج، دفعت الباحثين إلى إعماله في مقارنة الأجناس الأدبية، فمنهم من نشط في مجال التحليل الشعري ك: (ر. جاكسون، ج. كريستيفا، م. ريفاتيير... من الغرب. ومحمد مفتاح، وصلاح فضل، وعبد الملك مرتاض، وعبد القادر فيدوح... من العرب.). ومنهم من نشط في مجال التحليل السردي، حيث نجد في فن الرواية والقصة من الغرب كلا من: (أ. ج. غريغاس، و. بارت، وتودوروف، و. ج. جينيت. ومن العرب كلا من: رشيد بن مالك، وعبد الحميد بورايو، وسعيد بنكراد، ومحمد مفتاح، وعبد الملك مرتاض، والسعيد بوطاجين، وحسين خمري، وعبد المجيد التوسي، وعبد اللطيف محفوظ، وسمير المرزوقي...). أمّا فن الخرافة فنجد فيه من الغرب كلا من: (ف. بروب، وأ. ج. غريغاس، وك. ليفي ستراوس... ومن العرب كلا من: محمد الناصر العجمي، ورشيد بن مالك، وعبد الحميد بورايو، ونادية بوشفرة، وعبد المجيد العابد...).

إنّ مردّ الإقبال العربي بعامة والمغربيّ منه بخاصّة على السيميائية هو ذلك الاطمئنان الذي يشعر به الباحثون العرب تجاه السيميائية، بعدما وجدوا لها حضورا في الثقافة العربية "ويبدو أنّ هذا الاعتقاد قد خفّف وطأة حادثة هذا المنهج على المستقبل العربي، فكان الناقد العربي يتعامل مع هذا المنهج وكأنّه جزء من الثقافة العربية"².

ولنا في منجزات زكي نجيب محمود ونصر حامد أبو زيد وعادل الفاخوري وعبد السلام المسدي ومحمد مفتاح ومبارك حنون وعبد الملك مرتاض وأحمد حساني وغيرهم، نماذج راقية في محاولتها التّأصيل المعرفي للسيميائية في التّراث العربي، فما قام به هؤلاء لا يقلل من قيمتهم الفكرية ولا العلميّة، كما لا يعلي من شأن الآخر، إنّما هي المعرفة ولا شيء سواها مشاعة بين الأمم، ولعلّ خير نموذج نوره في هذا المقام، ما قام به أسلافنا في تعاملهم مع التّنتاج المعرفي والعلمي للآخر "فلقد استطاع ذلك التّراث-بوعي مكين- التّفاعل بكثير من الإيجابية من ثقافات الأمم

¹ - جميل حمداوي: مناهج التّقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 111.

² - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 1434هـ-2013م، ص: 163.



الأخرى، ليس عبر الاستيراد "الأعمى" و"النقل" الآلي، بل عبر التأصيل والتأسيس، وبالتالي الإثراء والإغناء"¹.

إن هلاء وغيرهم، استطاعوا تمثّل النظرية السيميائية، وحاولوا المتح من معينها النظري والإجرائي اللذين "...تواكبا معا، وبدا أنّ الوضوح النظري لم يكن منفصلا عن الدراسات التطبيقية، بل متكامل معها"². لكن المتأمل في التراكم الحاصل على المستويين التنظيري والتطبيقي، يدرك أنّ تلقّي هذه النظرية في الخطاب النقدي المغربي قد مرّ بمرحلتين بارزتين، هما: مرحلة التأسيس ومرحلة الإنجاز؛ أمّا الأولى، فتتخلّلها لحظتان هما لحظة الاستقبال والتحسس والتجريب ولحظة التأصيل والترجمة والتعريب؛ وفيهما يحاول الباحث المغربي جسّ نبض اختبار المنهج، والبحث في كيفية بنائه. وأمّا الثانية، فتتخلّلها كذلك لحظتان اثنتان، هما: لحظة الممارسة التطبيقية، ولحظة التّأليف القاموسي والمعجمي، وفيهما يحاول الباحث المغربي ترتيب أفكاره من أجل إيجاد تصوّر سيميائي موحّد وشامل لمقاربة النصوص.

أردنا من وراء هذا التّقسيم، إبراز ذلك التّحوّل الذي وسم المشهد النقدي المغربي لحظة بلحظة، وهو تقسيم إجرائي ليس إلا، كون هاتين المرحلتين أو هذه اللّحظات -إن صحّ التعبير- متداخلة ومكملة لبعضها البعض، مأزقية أحيانا ومتوافقة أحيانا أخرى، وقد نعتناها بـ "لحظات"، باعتبار أنّ التّقد الغربي في حركيته المستمرة المتواصلة والمتسارعة، خلف تراكما معرفيًا وترسانة مصطلحية معتبرة، فإذا ما نظرنا إلى هذا الزّحم المعرفي الذي ولّده المنجز الغربي، وأخذنا في الحسبان الفارق الزّمني الكبير الذي يفصل بين هذا المنجز ونظيره المغربي، أصبح لزاما على خطابنا النقدي أن يسارع الخطى، ويختزل المسافات الزّمنية؛ كي يكون قاب قوسين أو أدنى من هذا المنجز، وهي مهمة عسيرة طبعًا، تتطلّب من الباحثين المغربيين بذل جهد جماعي مضاعف.

من هذا صار تلقّي أيّ نظرية في مشهدنا النقدي والإنجاز على منوالها، إمّا يتمّ في لحظات، تستدعي من المتلقين المتابعة الواعية، والتّركيز في تمثّل طروحاتها وفق استراتيجية تروم النّيش

¹ - قادة عقاق: السيميائية السردية وتحليلاتها في التّقد المغربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجًا)، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، جامعة سيدي بلعباس، 2004/2003، ص:302.

² - آراء عابد الجرمانى: اتجاهات التّقد السيميائي للرواية العربية، ص:89.

الباب الثاني / الفصل الأول: تلقي النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغربي.



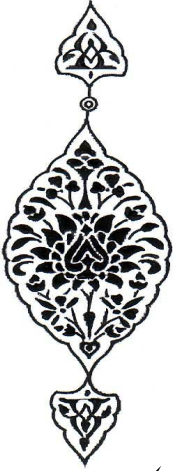
في أصولها المعرفية، والقراءة من مظاهرها، من أجل إيجاد توافقا بين منطلقاتها الفكرية وخصوصيات النص الأدبي العربي، والنأي عن الإسقاطات والأحكام المعيارية الجاهزة.

استنادا على هذا المعطى، يحاول الدارس البحث عن الكيفية التي استقبل بها الباحث المغربي هذه النظرية السيميائية، وأسّس لها في دراساته، و التحقق من مدى تماشي نظيراتهم وممارساتهم التطبيقية.

المبحث الأول

لحظة التأسيس

واختبار المنهج لتحليل النصوص.





1- مرحلة التأسيس: (من اختبار المنهج إلى بنائه).

شكّلت ظاهرة المثاقفة العامل الرئيس في تأثر الدارسين المغاربيين بثقافة الآخر، فالاحتكاك تمّ فعلا، وهو وليد عوامل تاريخية وجغرافية قد عجننا عليها في ثنايا هذا البحث. وبناء عليه، فإنّ المثاقفة مهدّت الطريق لاستقبال النظريات والمناهج في الخطاب النقديّ المغاربيّ، والسيميائية واحدة من هذه النظريات، التي تلقاها النقاد المغاربيون ابتداء عن طريق التلمذة على أيدي أساتذة غربيين متخصصين في مجال السيميائيات، وانتهاء بفضل ترجمة وتعريب النتاج الفكري للنظرية، التي تكلف بها في الغالب الباحثون بعد عودتهم إلى أوطانهم. لقد كانت غاية هذا الاستقبال الذي حدث بطرق مباشرة وأخرى غير مباشرة، هو محاولة التأسيس للنظرية السيميائية، والتأريخ لها وشرحها، وكذا التعريف بها من خلال الوقوف على أصولها المعرفية والفلسفية، وتبيان تفاعلاتها، وإبراز تقاطعها وتداخلها مع حقول معرفية مختلفة ضمن منظومة فكرية وعلمية ومنهجية واسعة، ولعل هذا كلّه يصبّ في شحذ همّة القارئ العربي، وتحفيزه على الإقبال على النظرية السيميائية بالقراءة والمدارسة.

تشير إحدى الباحثات إلى أنّ الإشارة الأولى لتلقي النظرية السيميائية في الثقافة العربية، كان مشرقيا؛ "إذ تذكر بعض المصادر إلى أنّ أول من أشار إلى السيميائية في الثقافة العربية "زكي نجيب محمود" في كتابه (خرافة الميتافيزيقا) عام 1953، بالاستناد إلى ما دعي بعلم الرموز كما أسماه الفيلسوف النمساوي الأصل/الأمريكي الجنسية (رودولف كارناب) 1891-1970"¹. حيث أورد هذا الباحث في كتابه المذكور تقسيم "كارناب" للسيميائية، والذي جاء كالآتي:

"1- البراجماتيكا *pragmatics*، وهي تبحث في المتكلم نفسه باعتباره أداة كلام.

2- السمانطيقا *semantics*، وهي البحث في مدلولات الألفاظ.

3- السنطاطيقا *syntax*...، وتعنى بالبحث في العبارات اللفظية نفسها من حيث تركيبها وتكوينها بغض النظر عن المتكلم، وبغض النظر عن أيضا عما تشير إليه الألفاظ من حيث

¹ - آراء عابد الجرمان: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 90.



مدلولاتها"¹. استنادا على هذا التلميح، فإن إرهابات استقبال النظرية كانت مشرقية؛ أي في العام 1953، تاريخ صدور كتاب "زكي نجيب محمود"، وهو كما يبدو، أن ما أورده المؤلف - في ثنايا كتابه - عن السيميائية مجرد إشارات وتلميحات عابرة، لم تكن ذات تأثير؛ بحيث ومنذ 1953 وإلى غاية منتصف سبعينيات القرن الماضي، لم تشر أي دراسة عربية من قريب أو من بعيد على علم العلامات.

وبناء عليه، فإن تبني النظرية السيميائية سواء من حيث التنظير أو من حيث التطبيق كان مغاربيًا خالصًا. ولعلنا - في هذا المقام - سنؤرخ لتلقي هذه النظرية في مشهدها النقدي المغربي بالعام 1976؛ حيث يقف أحد الباحثين أمام دراسة سيميائية، هي في الأصل أطروحة جامعية، أشرف عليها الدكتور "عبد السلام المسدي"، يقول في شأنها "...فالسيميائية ظهرت بوادرها بوصفها منهجا مطبقا على النص الإبداعي قبل عامين من صدور كتاب "فضل"، وكان ذلك عام 1976 عندما اعتمد الناقد التونسي "علي العشي" المنهج السيميائي منهجا إجرائيًا في دراسة الجزء الأول من كتاب (الأيام) لطفه حسين، وجاءت هذه الدراسة تحت عنوان (تحليل سيميائي للجزء الأول من كتاب الأيام لطفه حسين)، وهي دراسة جامعية بإشراف الأستاذ عبد السلام المسدي"²، اتخذت من السيميائية منهجا للمقاربة، وسبقت بظهورها كتاب "صلاح فضل" المنعوت بـ "نظرية البنائية في النقد الأدبي"؛ والذي رأى النور عام 1978؛ بحيث عرّج فيه صاحبه على السيميائية بتخصيصه القسم الأخير من الكتاب لـ "النظم السيميولوجيا للأدب"، وبما أنّ المنهج السيميائي - وقتذاك - لم يكن رائجا في الخطاب النقدي العربي، ومتأخر الظهور كذلك بالمقارنة مع المنهج البنوي، فإنّ الناقد "صلاح فضل" حاول التعريف بالسيميائية، وتقريبها من القارئ العربي، مصرّحا في القسم الأخير من الكتاب بالقول: "وتعدّ السيميولوجية الآن من أحدث

¹ - كوبلي بول، وليساجانز: علم العلامات، تر: جمال الجزيري، مر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، ع 549، القاهرة، ط1، 2005، ص: 07. وينظر كذلك: آراء عابد الجرمان، المرجع السابق، ص: 09.

² - محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 117.



العلوم الإنسانية وأخصبها، وقد آثرنا أن نحتفظ لها بالاسم الغربي مع إمكانية تعريبها وإطلاق (السيمائية) عليها"¹.

1-1- لحظة الاستقبال والتحصن والتجريب: (لحظة اختبار المنهج لتحليل النصوص).

يحاول الباحث المغربي - في هذه اللحظة - تحسس فاعلية المنهج السيميائي من خلال تجريب بعض أدواته الإجرائية في مقارنة الأثر الأدبي؛ أي أنه يسعى لاختبار هذا المنهج اختباراً حذراً، ذلك ما نلمسه في الأعمال غير الصافي لتلك الأدوات التطبيقية على الآثار الأدبية؛ إذ نلني الباحث المغربي يستأنس بتلك الأدوات المنهجية المتنوعة المعلنة أحياناً والمضمرة أحياناً أخرى، يستقيها من البنيوية والسيمائية والتفكيكية والأنثروبولوجية والإحصائية، وأحياناً من المناهج خارج نصية.

إنّ هذا التلفيق غير المتجانس يجعلنا نلاحظ وجود كثير من الدراسات النقدية المغربية قد اتّسمت بعدم الصفاء المنهجي. فبرغم المبررات الداعية إلى إمكانية توسل الباحثين بالتركيب المنهجي لأجل محاصرة النص، وسبر أغواره وتفجير مكنوناته، يبقى هذا الصنيع محفوفاً ببعض المزالق المنهجية التي قد لا يلقي لها الباحث بالاً، فيضحّي بالنص لأجل المنهج المركّب، وكأنّ هذا الأخير غاية في حدّ ذاته وليس وسيلة، من هذا بات إحداثه يتطلّب إجماعاً واتّفاقاً مسبقاً بين الباحثين حتى تسلم دراساتهم من الإخفاق في تحقيق النتائج المرجوة.

إنّ عدم التطبيق الفعلي والكامل للمنهج السيميائي في الدراسات المغربية أفقدها الفاعلية، لكن - والحال هذه - تبقى هذه الدراسات ذات أهمية ومرجعية للقارئ العربي رغم ما يشوبها من تليفقية وانتقائية وأحياناً من عدم وضوح الرؤية النقدية، لأنّ جهود هؤلاء لحظتها قد انصبّت على محاولة توطين النظرية السيميائية في المشهد النقدي المغربي. وحسبها أنّها دراسات قرّبت المعطى السيميائي من القارئ العربي، وأصحابها من الذين راموا التراث، وتطلّعوا إلى الحداثة، وخير نموذج مغربي يتحلّى في فضاء هذا المشهد ما أنجزه الناقدان "عبد الملك مرتاض" و"محمد مفتاح".

¹ - صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 3، 1987، ص: 44.



لقد استمر الاستقبال الفعلي للنظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغاربي منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين وإلى غاية منتصف سبعينياته، وهي فترة - كما نراها - قد اتّسمت بجاهزية الباحث المغاربي، وإقباله على تحليل النصوص الأدبية الشعرية والسردية من منظور معطيات المنهج السيميائي، ولكن كان الدّارس يلمس ذلك التّفاوت في درجات التّناول لهذه الآثار الأدبية من شيوع الدّراسات السيميائية للسرد على حساب نظيرتها للشعر، فإن مردّ ذلك يتجلى في "تصور الناقد العربي، بأنّ المنهج السيميائي هو منهج دراسة السرد ولا يصلح لدراسة الشعر إلا إذا توقّرت بعض عناصر السرد في النصّ الشعري"¹، ومهما كان هذا التناول، تبقى غاية الباحثين المغاربيين واحدة في هذه اللحظة، ذلك لأنّ المتّبع لمحاولات هؤلاء يجدها قد "عنيت بتوطين الجانب النظري وتهيئة قبول السيميائية"²، من خلال الدّروس التي كان يلقيها الأساتذة داخل الجامعة، أو ممّا كان ينشر من كتب أو مقالات متخصصة في مجلات وطنية ودولية، أو في ما كان يقدّم من مداخلات من منابر بعض المؤتمرات، أضف إلى ذلك ما تمّ ترجمته من كتب ومقالات.

إنّ مراجعة هذه الأعمال على اختلاف تصوّراتها ومعالجتها للمواضيع، تجعل الدّارس يحدّد منحيين لتلك الدّراسات؛ الأوّل منها عني بتحليل الخطاب الشعري، والثاني اهتمّ بتحليل الخطاب السردية. أمّا النصوص الأدبية المنتقاة للمدارسة، فهي متباينة من حيث القدم والجدة، وكذلك من حيث المصدر (محلي/عربي)، وأيضاً من حيث التناول (عنصر من الأثر الأدبي: العنوان، الشخصية، الفضاء...، أو قصيدة/ ديوان كامل، أو قصة/حكاية/رواية...)، ورغم أنّ الانكباب على النصوص السردية كان أكبر إلا أنّ هذه الدّراسات في العموم سواء أكانت السردية أو الشعرية، يجدها الدّارس قد اعتمدت على الآليات والمفاهيم التحليلية التي استقتها السيميائية من اللسانيات البنوية السوسيرية، أو من أطروحات البورسية في مجال العلامة، أو ما اشتملت عليه الآليات الغريماسية.

¹ - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 164.

² - آراء عابد الجرمان: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 92.



والناظر في الوضع الاعتباري للسيمائية الأدبية في بلدان المغرب العربي، يجدها متفاوتة من حيث الظهور والاشتغال؛ فإذا كان السبق الزمني من حيث الظهور¹ يحسب للخطاب النقدي بتونس (1976)، ثم المغرب (1982) ثم الجزائر (1992)، فإنّ الاشتغال السيميائي على النصوص الأدبية (الشعرية والسردية) نجده متراكما أكثر في أعمال النقاد المغاربة حيث "أحرزت [تلك الأعمال] قصب السبق في استنهاض همّة الوعي بضرورة التفكير السيميائي نظرا وعملا"²، وكذلك كما وكيفا منذ ثمانينيات القرن الماضي؛ ذلك لأنّ ما يميّز الخطاب السيميائي بالمغرب، عدم بقاءه في حدود التمارين التعليمية، بل تجاوزها إلى استيعاب كامل للمفاهيم، وغرلة الاتجاهات والمدارس النقدية؛ كي يجيب عن الإشكالات³ التي يثيرها النص الأدبي.

1-1-أ- في مجال تحليل الخطاب الشعري:

إن المقلّب في رفوف خزانة النقد الأدبي المغربي لسوف يجد دراسات كثيرة تناولت الشعر العربي قديمه وحديثه من منظورات منهجية متباينة سياقية كانت أم نسقية، وإذا ما ضيقنا زاوية النظر، فإننا سنقع على مقاربات سيميائية خصبة، ومنتجة تناولت متون شعرية كثيرة محلية وعربية وردت في شكل دواوين أو قصائد منفردة. هذه المقاربات التي اتخذت من الشعر العربي عينات للدراسة، قد اعتمدت في تحليلها على المستويات البنوية باعتبار أنّ السيميائية انبثقت من رماد البنوية. وبناء عليه، فلا ضير أن تعمل مستويات هذه الأخيرة، و"تراعي أدبية الجنس الأدبي كالمستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى الدلالي، والمستوى التركيبي، وذلك في شقيه:

¹ - تشكل هذه التواريخ البدايات الفعلية - في نظرنا - التي أبدى فيها نقاد هذه الأقطار الاهتمام بالنظرية السيميائية، وقد اعتمدنا على أولى المؤلفات المنجزة في هذا المجال.

² - الطائع الحداوي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب) وبيروت (لبنان)، ط01، 2010، ص: 14.

³ - من أهم هذه الأسئلة التي يطرحها الأثر الأدبي هي: هل توجد مقاربات مختلفة حسب تنوع الأعمال الأدبية؟ هل هناك تأويلات مختلفة للعمل الأدبي الواحد؟ هل يمكننا أن نبحث عن خطاب نقدي موحد؟ هل على الناقد أن يصل إلى مقصدية الكاتب لخطر إبداعه، أم أن هذه المقصدية تبقى ثانوية؟. ينظر: سيميائية النص الأدبي، أنور المرتجي، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987، ص: 97. وينظر: جمال أمين، مطارحات نقدية، محور المقاربة السيميائية للنص الشعري القديم، ص: 08.



التحوي والبلاغي، والمستوى التناصي¹، كما اعتمدت في جانب آخر على بحوث "ش.س. بورس" حول العلامة؛ نظرا لتوافقها مع البحوث الدلالية للعربية القديمة، فجاء تركيز الباحثين على ثلاثية الموضوع (الإشارة والرمز والأيقونة)، وهذه الثلاثية هي إحدى ثلاث ثلاثيات تكوّن مع بعضها الفهم النهائي للأثر المدروس، وتمثّل ثلاثية الموضوع أو هن هذه الثلاثيات، بيد أنّها أيسرها فهما وأقدمها وصولا وأكثرها تكرارا في التنظير السيميائي العربي، ممّا جعلها في متناول الناقد العربي²، وإلى جانب هذا كلّه، نجد أفكار "أ.ج. قريماس" أكثر شيوعا واستعمالا على هذه الدراسات في شكل آليات كالمربّع السيميائي، ونظريّة العوامل، والبرنامج السردّي، ومردّد هذا الإقبال على المنهج السيميائي في الخطاب النقدي العربي عامّة والمغاربي خاصّة، إنّما يكمن في "وضوحه وابتعاده عن التعسف في طرح جزئيات هذه النظريّة"³.

تأسيسا على هذا، نلفي جلّ الدراسات وقيّة لهذه الإجراءات، ولعل أولى الدراسات العربية والمغاربية التي وظّفت مصطلح "السيمياء" صراحة -وهو مصطلح منبوش من التراث العربي- كتاب "في سيمياء الشعر القديم" -دراسة نظريّة تطبيقية- لصاحبه "محمد مفتاح"، وهو في الأصل جملة دروس أعدّها، وألقاها على طلبة السنة الرابعة (ليسانس كلاسيك) عام 1984/1981 بجامعة الرباط، وكان يهدف من وراءها تحفيز الطلبة على البحث المتعمق⁴، لترى النور بعد ذلك في شكل كتاب، واءم فيه صاحبه بين التراثي والحداثي، "في محاولة جمع وتوفيق بين الدراسات العربية القديمة والدراسات الغربية المعاصرة"⁵. لأجل ذلك اختار تحليل نصّ شعري عربي قديم (نويّة أبي البقاء الرندي) من منظور منهج يعتمد التركيب والانتقائية، يمتح فيه ممّا حبل به التقد العربي القديم من معايير، وممّا جاءت به الدراسات الشعريّة (تيتار الشعر عند "جاكسون، يوري

¹ - جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط1، 2010، ص: 122.

² - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 161.

³ - نفسه، ص: 162 .

⁴ - ينظر: محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية تطبيقية، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1989-1409، ص: 05 .

⁵ - محسن أعمار: مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب، محاولة تركيبية، علامات مجلة ثقافية محكمة، العدد 20، مكناس، المغرب، 2003، ص: 102.



يوتمان، جون كوهن...) وأطروحات السيميائية (التيار الغريماسي استثمر منه المربع السيميائي)، وهي محاولة كما يصرح في مقدمته أنها "تدخل ضمن القراءة المتعددة"¹ التي تحمل مواصفات، تميز قراءة "مفتاح" عن غيرها من القراءات؛ إذ نجد بعضها تركيبيّة على المستوى التعليمي، استثماريّة للمعطيات النقدية القديمة والحديثة، تراثية تلتزم مبدأ قراءة التراث، لفهم النص وفق مناخ ميلاده²، على هذا الأساس، اتكأت دراسته على مستويين كبيرين هما:

1- مستوى المعايير التراثية، (معايير النقد القديم).

2- مستوى المعايير النقدية الحديثة (المستوى الصوتي، المستوى المعجمي، المستوى التركيبي

والمستوى الدلالي).

إنّ القصور الحاصل في أعمال المنهج السيميائي في دراسته الأولى (في سيمياء الشعر القديم)، حاول محمد مفتاح تداركه بوعي المنهج المتعدّد في كتابه الثاني (تحليل الخطاب الشعري- إستراتيجية التناص)³. حيث أنّه استثمر المنهج السيميائي في القسم التطبيقي من هذا الكتاب، وجعله "يأخذ مدى أوسع مما عرفناه في تجربته الأولى، ولعل سبب ذلك يعود للتراكم المعرفي لدى الناقد، فضلا عن استقرار هذا المفهوم لدى بعض النقاد، ومن ثمّ فإنّ الحرج والخوف من عرض هذا الموضوع قد ولى الأدبار بعض الشيء"⁴. من هذا نجدّه يتوسّل بمعطيات التيار التداولي خاصّة ما تعلق بنظرية الأفعال الكلامية عند كلّ من "أوستن"، و"سورال"، و"كرايس"، وكذلك التيار السيميوطيقي (السيميائي) الممثل في أعمال غريماس، وما ذهبت إليه جماعة "مو" في كتابها "بلاغة الشعر"، و"ريفاتير" في كتابه (سيموطيقا الشعر)، وتيار الشعر (ر. جاكسون وج. كوهن،

¹ - محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، ص: 05.

² - ينظر: جمال أمين، مطارحات نقدية، ضمن سلسلة دفاتر نقدية (3)، منشورات منتدى الأدب لمبدعي الجنوب (5)، الرباط-المغرب، ط01، 2007، ص: 13.

³ - صدر عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 (1985)، وط2 (1986)، وط3 يوليو 1992.

⁴ - محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 131.



وج.موليو، وج.طامين)¹. ووفق هذه التيارات (التداولي والسيموطيقي (السيمائي) والشعر)، انبت دراسته على قسمين، تناول في أولها عناصر تحليل الخطاب الشعري (التشاكل والتباين والتناص والتفاعل)، وتناول في ثانيها استراتيجية التناص، متخذاً من "رائية بن عبدون" متناً للدراسة، بحيث استثمر في جانبها الإجرائي معطيات التيار السيمائي (السيموطيقي)، الذي نظر له في المقدمة، وكان لمنجزات "غريماس" الحضور الأكبر في ذلك. وبهذا، يغدو كتاب "تحليل الخطاب الشعري-استراتيجية التناص"، كما يفترضه أحد الباحثين أهم نموذج في القراءة السيمائية²؛ كونه "يعكس هذه القراءة بوضوح تامّ لما فيه من تنوع في النظريات التي تعامل معها، ولما يتوفّر عليه من خصوصية متفرّدة ضمن النسق العام لمشروعه التقدي³" الذي شيده عبر خمس مراحل متّصلة ومتداخلة فيما بينها⁴. وبناء عليه، فإنّ هذين الكتابين [في سيمياء الشعر القديم، وتحليل الخطاب الشعري-استراتيجية التناص-] الذان اتّسما بالتلفيقية والانتقائية، يمثلان بحقّ المرحلة الجمالية لمحمد مفتاح، والتي أبدى فيها الباحث اهتمامه بتحليل الأشكال والبنى⁵.

أمّا كتابه الثالث الموسوم بـ"دينامية النصّ" تنظير وإنجاز⁶، فإنّه يشكّل نقلة نوعية في المسار التقدي لـ"مفتاح"، تحوّل فيها المشروع التقدي للباحث من البنية الشعرية (المرحلة الجمالية) إلى التحليل الدينامي للنصوص، وهو ما يعرف بالمرحلة الدينامية التفاعلية، ذلك لأنّ اطلاعه على الحقول المعرفية، ومتابعته لكلّ جديد ظهر على ساحتها، قد مكّنه من استحضار بعض المفاهيم كـ"النمو) و(الحوار) و(التناسل) جاعلاً من "الدينامية" نواة هذا الكتاب، هذا الأخير الذي

¹ - ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط3، يوليو1992، ص.ص: 7-14.

² - ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيمائي المغاربي، ص: 211.

³ - نفسه، ص: 211.

⁴ - تمثل هذه المراحل المشروع التقدي لـ"محمد مفتاح"، وهي: المرحلة الاجتماعية، المرحلة الوظيفية، المرحلة الجمالية، المرحلة الدينامية، والمرحلة المعرفية النسقية. ينظر: عبد الحق بلعابد: دينامية النصّ (بين عتبات التنظير وعلامات الإنجاز)، ضمن كتاب محمد مفتاح المشروع التقدي المفتوح-السيمائيّات، التداوليات-، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط01، 1430هـ، 2009م، ص.ص: 172-173.

⁵ - ينظر: عبد الحق بلعابد: دينامية النصّ (بين عتبات التنظير وعلامات الإنجاز)، ص: 172.

⁶ - الصادر عن المركز الثقافي العربي، 1987.



اهتدى فيه [صاحبه] إلى مرجعية ابستمولوجية جديدة¹، دعته لأن يرى من خلالها أنّ "الظواهر الفيزيائية، والأجسام الحية والنصوص اللسانية محكومة بقوانين الدينامية وآلياتها وضوابطها"². وهو ما يفسّر كونيّة هذا المفهوم (أقصد الدينامية) وتجليها في العلوم الإنسانية والاجتماعية والدكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي، من هذا نجد "مفتاح" يراهن - في كتابه - على التحليل الدينامي للنصوص؛ إذ "ليست الظواهر النصية سوى تجليات لشيء عميق هو عبارة عن بنية ونماذج أولية أو حاجات بيولوجية"³. وعليه، يغدو مفهوم "الدينامية" من منظور "مفتاح" بؤرة ومدار الممارسة النقدية التحليلية، حيث يتجلى هذا المفهوم داخل النص في ذلك التفاعل العلائقي بين الجمل سابقها ولاحقها⁴.

لقد زواج "مفتاح" في هذا الكتاب بين التنظير والانجاز، وفق رؤية منهجية مركبة منتقاة، مكنته من سدّ متطلبات النصوص التي اختارها للدراسة، على اعتبار أنّ آليات المنهج الواحد لا تعينه على شمولية الرؤية، والإحاطة الكاملة بالنصوص، وهذه الأخيرة - كما يلحظها - أي الدارس، يلفيها متباينة الأنماط منها الشعري القديم والحديث والصوفي، والسردى الحديث (القصصي)، والنص الديني القرآني. حيث أنّه عوّل كثيرا على إجراءات المنهج السيميائي في مقارنة النص الصوفي والقصصي، فقد أعمل المرتع السيميائي المحدد بعلاقاته المتمثلة في التضاد وشبه التضاد، والتداخل (التضمّن) والتناقض، و"دينامية العلاقة بين هذه الأطراف تجعل النص ينمو أفقيا وعموديا"⁵.

عموما، فإنّ خصوصية هذا الكتاب تتجلى في إقبال صاحبه على نظريات متعددة لسانية وسيميائية وعلمية (الفيزيائية والبيولوجية والرياضية والمعلوماتية)، فهو كما يقول الدكتور بوخاتم

¹ - عبد الحق بلعابد: دينامية النص (بين عتبات التنظير وعلامات الإنجاز)، ضمن كتاب محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص: 173.

² - محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، 1987، ص: 05.

³ - نفسه، ص: 05.

⁴ - ينظر: مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغربي، ص.ص: 92-93.

⁵ - محسن أعمار: مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب - محاولة تركيبية - علامات، مجلة ثقافية محكمة، ع: 20، مكناس، المغرب، 2003، ص: 103.



"يؤثر الشُّروح والمناقشات في خلفيات هذه النظريات ابستمولوجيًا وتاريخيًا قبل أي ممارسة نقدية"¹؛ أي أنه لا يتمثلها إلا بعد المساءلة والاستنطاق من أجل تعميق الجهاز النظري الذي يمكنه من تناول الخطابات المتنوعة وتحليلها. فكتبه الثلاثة تشكّل الحجر الأساس في بناء مشروع نقدي متكامل، ولعلّ ما يلفت انتباه الدّارس، هو حضور الشّعر كجنس أدبي رئيس في دراسات "مفتاح" أكثر من السرد "ومردّ ذلك، إلى أنّ البرنامج السيميائي -في اعتقاده- يصعب تطبيقه على نصّ بحجم رواية أو قصّة"²، وهذا يوحي للدّارس أنّ بدايات انفتاح "محمد مفتاح" على السيميائية كان مع الشّعر كموضوع دراسة، وإن كان "عبد الملك مرتاض" يختلف معه في ذلك³، فإنّه يعدّ ثاني باحث مغاربي يستعين بإجراءات المنهج السيميائي في تحليل النصوص الشعريّة، ويشكّل كتابه (أ-ي) أولى الدّراسات التي أعمل فيها الباحث آليات السيميائية مطعمة بالتفكيكية على قصيدة شعريّة عموديّة للشاعر الجزائري "محمد العيد آل خليفة" والموسومة بـ "أين ليلاي"، ورغم ما يشوب هذه الدّراسة من تذبذب، وتداخل بين الآليات المنهجية إلا أنّه يعدّ البداية الأولى للإنتاج التّطبيقي في ميدان الدّراسات التّقديّة الحديثة التي اعتمد فيها "المنهج السيميائي" في كتاب يشكّل جزءا من مشروع نقدي ضخم سار من خلال اللسانيات والسيميائيات في العلوم الإنسانيّة، ونقله نوعيّة في التأسيس الفعلي للاتجاه السيميائي والتفكيكي...⁴. فقد تجاوز الباحث في هذه التّقلّة "البنويّة" إلى "ما بعد البنويّة" من خلال تساؤله الطويل عن طبيعة المنهج المعتمد في تحليل النّص الأدبي، وكذا موقفه من الحداثة⁵.

وأمام هذه الأسئلة المحيرة التي تنمّ عن قلق الباحث الحداثي وهو يحاول -في أثناء ذلك- القبض على المنهج المناسب لتحليل النّص الأدبي، اصطنع مرتاض منهجا مركبا اجتمعت فيه على

¹ - مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغاربي، ص: 101.

² - مولاي علي بوخاتم: م ن، ص.ص: 101-102.

³ - عبد الملك مرتاض طبّق المنهج السيميائي لأول مرة على نص سردي قدم (حكاية جمال بغداد من بين حكايات ألف ليلة وليلة) سنة 1989 (دراسة سيميائية تفكيكية).

⁴ - مولاي علي بوخاتم: م س، ص: 72.

⁵ - عبد الملك مرتاض: أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، د.م.ج، الجزائر 1992، ص: 09.



وجه مخصوص السيميائية والتفكيكية، ومثل هذا الصنيع قد شاب معظم دراساته¹ في مرحلة تخطى فيها الباحث رتبة التحليل التي اتّسمت بها المناهج الكلاسيكية إلى رحابة المناهج النصّانية في التحليل، بدعوى تحديث الخطاب النقديّ الجزائري والمغاربيّ عموماً من دون إحداث القطيعة المعرفيّة مع التراث النقديّ العربي، فأمام هذه الحماسة المفرطة، وربما الاندفاع المحفوف بالمزلق التي لا يحمد عقباها، اندفع باحثونا نحو تبني النظرية السيميائية في ممارساتهم النقدية، ومثل هذا الإقبال "لا شك أنه يمثل نقلة من الفراغ إلى منهج غربي يتسق مع موقف مقتضيات الخطاب العلمي، الذي يؤكّد عليه نقادنا في واقعنا النقديّ لكنّه في الوقت ذاته، من غير المنطقي، وتلك هي المفارقة - في نظرنا - أن يتحدّث الناقد الجزائري الذي يعيش على نظرية وإجراءات وإصلاحات مستعارة، ثم يقول أنّه يبحث عن خطاب نقدي جزائري أصيل شكلاً ومضموناً"².

يروم مرتاض - من هذا كله - خطاباً نقدياً حديثاً متميّزاً بالأصالة، فقلقه المعرفي وهاجس التأصيل لديه الذي يميّز مشروعه النقديّ، يظهر إقدامه على قراءة التراث، ومساءلته على قضايا عاجلتها النظريّات الغربية. ووفق هذه الرؤية، التي تبحث في التراث عن إجابات لراهننا النقديّ بدون تحميله ما لا يحتمل، أراد "مرتاض" شرعنة التراث في الخطاب النقديّ، ومن ثمّة الدّعوة إلى تأسيس نظرية نقدية (سيميائية) عربية تقوم على المؤالفة بين أطروحات النظريّات الغربية وما حبل به التراث العربي القديم. وفي سعي منه لمحاصرة النصّ الشعري (أين ليلاي؟) قرن مرتاض في دراسته بين رؤيتين منهاجيتين هما: السيميائية والتفكيكية. ويتّضح ذلك من خلال ما صرّح به في هذا الكتاب بالقول: "اضطررنا إلى تناول هذا النصّ وهو "أين ليلاي؟" - ويقع في ثلاث عشرة وحدة - من تفكيك المدلول ومن حيث البناء اللغوي، ومن حيث الحيّز الشعري، ومن حيث الزّمن الشعري، ثم من حيث التركيب الإيقاعي وخصائصه عبر هذا النصّ، فكان لا مناص

¹ - من هذه الدراسات: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد، د.م.ج، الجزائر 1992 (صدر هذا الكتاب قبل هذا التاريخ في العراق سنة 1989)، و(أ/ي) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، د.م.ج، الجزائر 1992، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1994، تحليل الخطاب السردية، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، د.م.ج، الجزائر، 1995.

² - بن عيسى هامل: واقع الخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري (دراسات في نقد النقد)، أطروحة ماجستير (مخطوط)، جامعة وهران، ص: 03.



من تناول كلّ عنصر من هذه العناصر في فصل مستقل بذاته¹، حيث استهل دراسته بتمهيد ضمّنه المنطلقات المنهجية لهذه الدراسة، والتي على إثرها يحلّل النصّ الشعري "أين ليلاي؟" عبر ستة فصول، طال الأول منها بنية القصيدة لدى الشاعر "محمد العيد آل خليفة"، أمّا بقية الفصول فلا تعدو أن تكون تفكيكا لما جاء في الفصل الأول (البنية العامة) بإعمال المنهج البنوي كالأجراءات السيميائية.

وفي كتابه الموسوم بـ "شعرية القصيدة، قصيدة القراءة" درس القصيدة "أشجان يمانية" للشاعر "عبد العزيز المقالح" من منظور منهج مركّب، وقد واءم فيه بين إجراءات المنهج السيميائي والأسلوبي، حيث أفضى تحليله المركّب (السيميائي/الأسلوبي) الوقوف عند مستوى التشاكل والحيز والانزياح، والرباعية السيميائية (الإقونة - القرينة -، الرمز، الإشارة)، وهي في مجموعها تنضوي تحت خمسة زوايا أو مستويات، ففي المستوى الأول يجسّد قراءة تشاكيّة انتقائيّة، وفي الثاني يجسّد مقارنة تشاكيّة تحت زاوية الانحياز، وفي الثالث ينصّب على المقاربة الانزياحية، وفي الرابع يمثل قراءة جديدة في الحيز و في المستوى الخامس والأخير يقرأ النصّ من زوايا الإقونة، الإشارة، القرينة والرمز²، فهذه الدراسة كما يؤكدها الدكتور "مولاي علي بوخاتم"، "تشكّل إحدى الممارسات العملية المتميّزة، والتي أنجزها وفق التحليل السيميائي، التّكامل المنهجي، والتعددية القرآنيّة، مستفيدا من بعض مقولات ومناهج المدارس التقديّة الغربيّة المختلفة، ومحاولا تطويرها لما يخدم رؤاه التقديّة"³، حيث اهتدى إلى النّمودج القرائي المتعدّد الذي يرسّخ التّوجّه السيميائي بشكل جليّ في هذا المؤلّف، ومن خلاله "نريد -والقول لمرتااض- أن نطرح إشكاليّة القراءة التي تمارس على نصّ برؤى متعدّدة، ومناظر متباعدة ولكنّها تظلّ مختلفة، وعلى الرغم من أن قريماس يرفض في بعض كتاباته المتّصلة بالنّص تعددية القراءة"⁴.

¹ - عبد الملك مرتاض: أ/ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، ص: 07.

² - ينظر: عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة (تحليل مركّب لقصيدة أشجان يمانية)، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، 1994، ص:ص: 30-31.

³ - مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي، ص: 78.

⁴ - عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة (تحليل مركّب لقصيدة أشجان يمانية)، ص: 21.



صنيع كهذا، يرسخ التوجه الما بعد حدثي لدى الباحث، والذي دعا فيه إلى ضرورة التركيب المنهجي بين السيميائية وغيرها من المناهج كالتفكيكية والأسلوبية والانثروبولوجيا. وفي هذا، يلمس الدارس ذلك التحوّل الذي وسم مشروعه النقديّ عبر مساره التطوّري، الذي تخطّى فيه "عثرات التأسيس التجريبي" ¹ في المرحلة الحداثيّة، والمتمثلة أساسا في الأحكام النقديّة الانطباعيّة التي تحلّت دراسته، إلى مرحلة ما بعد حداثيّة أرحب، تروم الإفادة من أطروحات السيميائية التّنظيريّة والإجرائيّة. وربما يتجلّى هذا بوضوح أكثر في كتابه الموسوم بـ"التحليل السيميائيّ للخطاب الشعريّ الصّادر عن دار الكتاب العربيّ، الجزائر، 2001". والذي حلّل فيه قصيدة شناشيل ابنة الحلبي للشاعر العراقي الرّاحل بدر شاكر السيّاب بواسطة أدوات إجرائيّة، استقاها الباحث من السيميائية؛ ذلك لأنّ توّسله بها في تحليل هذا المتن الشعريّ إنّما كان "للكشف عن نظام العلامات في هذا النصّ على أساس أنّها قائمة بذاتها فيه، لا مجرد وسيط عبثيّ؛ وذلك بتعريف البنية الفنيّة له بصهرها في بوتقات التّشاكل والتّباين، والتّناص والتّقاين (أو التّماتل)، والانزياح الذي يزيع الدّلالة عن موضعها الذي وضعت فيه،..²"، وكذلك القرينة، والرّمز، والحيز. كلّ ذلك، كان في حساب الباحث، وهو يقارب هذا النصّ من منظور التحليل السيميائيّ، الذي أفضى إلى تناول النصّ عبر مستويات، هي: التّشاكل والتّباين في اللّغة الشعريّة، والحيز والتّحيز في لغة الشعر، وتحليل القصيدة بإجراءات المماثل والقرينة.

لم يتوقّف تحليل الخطاب الشعريّ عند كلّ من "محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض"، بل توالى الدّراسات السيميائية المغاربيّة حول هذا الجنس الأدبيّ، وفي هذا نلمس كتباً مهمّة أُرست معالم التّحليل السيميائيّ للخطاب الشعريّ في المشهد النقديّ المغاربيّ من مثل كتاب عبد القادر فيدوح، الموسوم بـ"دلائليّة النصّ الأدبيّ - دراسة سيميائية للشعر الجزائريّ -" الصادر عام 1993. ورغم ما يكتنف عنوان الكتاب من تذبذب مصطلحيّ (الدّلائليّة-السيميائية)، فإنّنا نعدّه

¹ - يوسف وغليسي: الخطاب النقديّ عند عبد الملك مرتاض - بحث في المنهج وإشكاليته - المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2002، ص: 78.

² - عبد الملك مرتاض: التّحليل السيميائيّ للخطاب الشعريّ، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، دار الكتاب العربيّ، الجزائر، 2001، ص: 22.



من الكتب التأسيسية. لقد جمع فيه صاحبه بين الشرح النظري والممارسة التطبيقية، حيث وقف في الجانب النظري من الكتاب على (سيميائية النص الأدبي)، وكذا (البعد التأويلي للسيميائية)، مصرّحاً في هذا الجانب؛ أنّ النصّ الأدبي "لم يعد يحمل الزاوية الإيديولوجية التي اعتمدت بنية الخلل الاجتماعي مظهر لها، ولا البطاقة الاستنطاقية الاستبارية والاستخباريّة للذات المبدعة بوصفها علبة سوداء تساعدنا على استكشاف عبقرية الذات الواعية الفردية والجماعية، إنّما محاولة الكشف عن غموض كينونته الاحتمالية صفة مميزة له ضمن إجراء تنظيم ولادته المتجددة..."¹. هذا التوجّه المنهجي الذي دعا إليه في الجانب النظري من الكتاب، كرّسه في الجانب التطبيقي منه، على قصيدة شعرية جزائرية قديمة لصاحبها "بكر بن حماد التيهري"؛ وهي نونية، رثى فيها الخليفة الراشد "علي بن أبي طالب" -رضي الله تعالى عنه-، حيث وضع هذه القصيدة تحت عدسة "القراءة السيميائية التي تثير سؤالات النص ولا تجيب عنها، ضمن شروط الوصف والتفسير والتأويل الذي يضع كلّ يقين قيد السؤال"². ومن منظورها -أقصد القراءة السيميائية- استعان بالقرائن الدلالية في دراسته للرموز اللغوية، من خلال فك رموز الخطاب، دون أن يعني ذلك إحالة هذا الخطاب إلى شفرات وقرائن لا عمق دلالي وراءها، وإنما تفكيك النص وتشريحه، وفق أدوات إجرائية تستند إلى رصيد معرفي، وخبرات قرائية متنوّعة ضمن مناخ استفهامي تساؤلي، يرفض منطق الجواب، ويؤيد عبث السؤال تبعاً لمشروع حرّ يعتمد على الاستنباط والاستدلال والاستقراء³.

نلمس -من هذا-، أنّ الباحث قد راهن على مقارنة النصّ بمنطق السؤال التي لا ينتهي، والذي يتعد عن الجواب الجاهز مسبقاً. ففي الجانب التطبيقي من الكتاب، يقدّم الباحث على معالجة نصّ شعري محليّ قديم، وكذلك على نصوص شعرية محلية أخرى لكنّها هذه المرّة جديدة لشعراء جزائريين شباب هم "سعيد هادف، أحمد دلباني، عاشور فني، خيرة حمر العين"، وهي التفاتة نوعيّة من الكاتب، وقد سمها بـ"شعرية الأفلام الغصّة"، حيث وجد قصائد هؤلاء من "أجود ما قيل في تجمع شعراء الجزائر المعاصرة الذي انعقد بوهران على مدار ثلاثة أيام:

¹ - عبد القادر فيدوح: دلالية النصّ الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 1993، ص: 02.

² - عبد القادر فيدوح: م ن، ص: 33.

³ - ينظر: م ن، ص ن.



26/25/24 يناير 1993 تحت شعار نحو شعريّة مفتوحة ومتعدّدة¹، ومن وجهة نظرنا أنّه أراد من ورائها إبراز الخصوصيّة المحليّة الجزائريّة، وبالتالي الخصوصيّة الإقليميّة المغاربيّة، أضف إلى ذلك أنّه تجاوز الأسماء الإبداعية المعروفة التي أفحمت نصوصهم بالدراسة والتّحليل إلى أقلام شعريّة واعدة، وفي هذا دعوة إلى مواكبة ما استجدّ على السّاحة الأدبية، والتّعامل مع التّاج الشعري لهذه الأقلام المبدعة دوغما تمييز داحضين بذلك الفكرة التي تحتفي بالمبدعين الكبار دون سواهم.

وتأكيدا من الباحث على هذا التوجّه، واصل اهتمامه بالقصيدة الجزائرية المعاصرة؛ إذ صدر له سنة 1994 عن ديوان المطبوعات الجامعيّة دائما كتاب ثان وسمه ب: "الرّؤيا والتّأويل -مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة-"، ورغم أنّ المتأمل في عنوان الكتاب، لا يجد ما يفصح صراحة عن السّيميائيّة إلا أنّ متنه الذي عالج فيه القصيدة العربيّة الجزائريّة المعاصرة، يجده قد استعان بالمنهج السّيميائيّ الشّمولي الذي لا تحكّمه آليات إجرائيّة واضحة ومحدّدة، باعتبار أنّ "هذا الاتجاه السّيميائيّ لانهائيّة/لسانيائيّة، فلسفيّة، اجتماعيّة، سياسيّة، نفسيّة [...] بحيث لا يمكن الفصل بين ما هو لساني أو اجتماعي، بل هو كل مجتمع، أو عدسة مقعّرة مفتوحة على كلّ المرجعيّات والقراءات، ليصبح النّص في هذه الحالة مثل ما هو إثبات الاستقبال تردّد عليها برامج شتى المحطّات، وعلى المتلقّي أو النّاقّد أن يقوم بفرزها، وتحليل رسائلها، وتفسير محمولاتها، وفكّ شفراتها بعد استنطاق النّص، أو الكاتب الذي هو ذلك المراد الموزّع على الورقة، مستعينا بكلّ وسائل التلقّي من إدراك وفهم وتأويل، حيث تتجسّد فاعليّة الفهم التّأويلي -ضمن مستويات نظريّة القراءة- في صرف الظّاهر إلى الباطن، باعتباره مؤشّرا عليه، واعتماد مبادئ الحدس والرّؤية، والتأمليّة في فهم النّصوص وفق دلالتها المختزنة"².

ووفق هذه الاستراتيجية التي اعتمد فيها على التّأويليّة كإجراء سيميائي، نجده قد استحضر الأيقونة والقرينة...وهي مصطلحات سيميائيّة، راح الباحث يرصد الأبعاد الصّوفيّة للقصيدة الجزائرية المعاصرة عبر فصول الكتاب المتمثّلة في: الأصناف الكليّة/رؤيّة العالم، كيان الذات، النّزعة الصّوفية، الرّؤيوي/الأسطوري، ويبقى الأمر على حاله، مع دراسات أخرى رغم تأخرها زمنيّا، وقد

¹ - عبد القادر فيدوح: دلائلية النّص الأدبي، ص: 60.

² - عبد القادر فيدوح: الرّؤيا والتّأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، ط01، 1994، ص: 73.

نستحضر في هذا المقام نموذجاً نراه مناسباً لما ذهبنا إليه، وهو "في سيمياء الشعر العربي القديم - التحليل النصي لجزء من بائية ابن خفاجة الأندلسي - ودراسات أخرى للباحث الجزائري، وهو منجز سار فيه صاحبه على منوال "محمد مفتاح" في كتابه "في سيمياء الشعر القديم"؛ إذ لا تكاد تخرج هذه الدراسة في مجال التطبيق عن الأدوات الإجرائية التي عالج بها "مفتاح" النص الشعري القديم، وأيضاً عمّا استعان به بعض الباحثين العرب من معطيات المناهج النسقية، حيث يصرّح بالقول: "... ثمّ درسنا النص على ضوء المناهج المعاصرة (السيمائية، والنصائية، والأسلوبية). وقد رجعنا إلى سيميائية محمد مفتاح. عميد السيميائيين العرب، وأسلوبيات عبد الرحيم الرحومني، ومحمد بوحدي، ونصائيات توفيق بكار"¹. فما يلفت انتباهنا في هذا السياق هو وفاء "سعد بوفلاحة" للدرس النقدي المغاربي الممثل بأعلامه المذكورين في تصريحه، الذين تبوّأ أطروحات النظريات الغربية الما بعد حداثة.

1-1-ب- في مجال تحليل الخطاب السردى:

إنّ استيراجية تناول التي دأب عليها الباحثون المغاربيون في تحليل الخطاب الشعري، هي نفسها المتبنّاة في تحليل الخطاب السردى؛ إذ يجد الدّارس جلّ دراسات هؤلاء مؤرّعة على قسمين: أحدهما نظري والآخر تطبيقي. حيث تعرّض في الأوّل بعض القضايا المنهجية والمعطيات النظرية، وفي هذا دعوة لمحاولة تأسيس المبادئ والمفاهيم النظرية السيميائية، على أن تستثمر فيه هذه المعطيات في القسم الثاني في أثناء مقارنة الأثر الأدبي. هذا الأخير، يختلف من دراسة لأخرى من حيث القدم والجدة، أو من حيث المحلية والإقليمية، ومن التّماذج التأسيسية الأولى التي كان لها قصب سبق في تحليل الخطاب السردى، كتاب "ألف ليلة - تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد-"، الذي صدر في طبعته الأولى العراق عام 1989، ليتكفّل ديوان المطبوعات الجزائرية بإعادة طبعة عام 1993، وفيه اتخذ "عبد الملك مرتاض" التّركيب المنهجي سبيلاً لتحليل إحدى حكايات (ألف ليلة وليلة)، وهي حكاية حمال بغداد؛ التي تمتد من الليلة التاسعة إلى الليلة

¹ - سعد بوفلاحة: في سيمياء الشعر العربي القديم - التحليل النصي لجزء من بائية ابن خفاجة الأندلسي - ودراسات أخرى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، الجزائر، ط01، ربيع الأول 1425هـ - مايو 2004م، ص: 10.



العاشرة، وبغية الإحاطة بالنص ومحاصرته، رأى أنّه من الأفضل "أن ننشد منهجاً شمولياً..."¹، يمكن أي الباحث من ممارسته تفكيكا وتركيبا على الأثر. ووفق هذا المنظور عالج مرتاض في دراسته الحدث والشخصيات والحيز والزمن، وتقنيات السرد، وبنية الخطاب والمعجم الفني. وعليه، فقد أفضت هذه الدراسة إلى إثارة بعض القضايا الشائكة، ودعوة الباحث الجريئة للفصل فيها بشكل نهائي من قبيل ذلك مثلا قضية الشكل والمضمون² التي احتدم من حولها النقاش كثيرا، وفي هذا إعلان صريح من الباحث الداعي إلى تجاوز مرحلة البنيوية إلى ما بعدها.

ورغم النتائج التي توصل إليها الباحث، والتي تبدو في مجملها مقبولة ومنطقية كونها شككت في بعض المسلمات، إلا أنّ الدارس يجد في هذه المؤلف شبه غياب للمنهج السيميائي والتفكيكي على حدّ سواء، وهذا يتنافى وما أعلنه في العنوان. وبناء عليه، جاءت دراسته قديمة في ثوب جديد، مارس فيها "مرتاض" التشريح على النمط المدرسي، وبالمنهج المركب نفسه (تفكيكي/سيميائي) عكف على معالجة نصّ سردي آخر، لكنّه جديد، ويتمثل في رواية "زقاق المدق" للروائي العالمي المصري "نجيب محفوظ"، الصادر عن ديوان المطبوعات الجامعية، عام 1995، وهو كتاب نعده تأسيسيا، بدا فيه القلق المنهجي للباحث، من خلال الأسئلة المحيرة الباحثة في كيفية تحليل نصّ سردي، وعن المنهج الأنسب لذلك³، ومن هذا يتّضح التوجّه المنهجي لدى الباحث التائر على المناهج التقليدية من جهة، وعلى التعصّب للمنهج الواحد في مقارنة النصّ السردي، والحلّ لا يأتي إلا من خلال التسليم بالتركيب بينهما؛ ذلك أنّ التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، ونرى أن لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التّحمة التي مني بها النّقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب، خصوصا في هذا القرن⁴.

¹ - عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، د.م.ج، الجزائر 1993، ص: 10.

² - ينظر: نفسه، ص: 09.

³ - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، ص.ص: 5-6.

⁴ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، ص: 06.



بهذه الرؤية المنهجية الداعية إلى معالجة النصوص السردية من منظور المنهج المركب كون الأحادي منه قاصر على محاصرة أي نصّ سرديّ مهما كان طويلا أم قصيرا، وبخاصة إذا كان بحجم رواية، لما يميّز به من عمق وتعقيد وتعدّد. من هنا عمد الباحث إلى نصّ "زقاق المدق"، يمارس عليه بعض آليات التحليل السيميائي والتفكيكي وكذا الإحصائي، بالإضافة إلى توسّله ببعض إجراءات الأسلوبية والموضوعاتية، فجاءت دراسته على هذا المتن الروائي موزعة على مدخل نظري، وقسمين تطبيقيين. رصد الباحث في الأول البنية السردية المتجلية في الرواية (البنية الطبقيّة والمعتقداتية والشبكيّة)، وفيه يلمس الدارس غياب المنهج المصرّح به في العنوان والمدخل، بحيث لم يتمكن الباحث من الانفلات من قبضة المنهج البنوي الذي بدا ظاهرا في هذا القسم مع تجلّ واضح لمنهج غير معلن، هو المنهج الموضوعاتي، بينما نجده يقف في القسم الثاني عند التقنيّات السردية في نصّ "زقاق المدق"، دارسا الشخصية من حيث بنائها ووظائفها متوسّلا بالمنهج السيميائي في بحثه عن دلالات الأسماء والأعمار (الأسنان)، وبعد تناوله البنية السردية (أشكالها، عيوبها...)، وكذلك الزمان والمكان، يأتي على إبراز خصائص الخطاب السردية في هذا النصّ، والمتمثلة في الخصائص الأسلوبية (الوصف، التكرار، التشبيه)، وأخرى في الخصائص السيميائية (العنوان، التناص، والدلالات التي تحيل عليها الروائح والأصوات والألوان).

خلاصة:

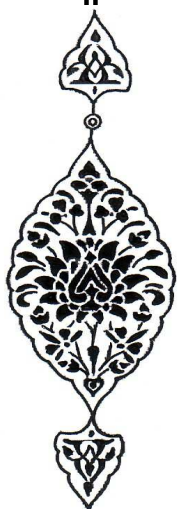
نستخلص -من خلال هذا-، أنّ رواسب المناهج البنوية وما قبلها التي وسمت المسار التقديّ للباحث في المرحلة السياقية، لازالت حاضرة في تحليل عبد الملك مرتاض" بوعي منه أو بغير وعي، وحتى إعماله للمنهج السيميائي أو التفكيكي، لم يكن بتلك الصرامة والضبط الدقيق الذي تتبغيه الدراسات المتوسلة بهذه المناهج. وعليه، يمكن أن نقول بأن دراسات "عبد الملك مرتاض" في تلك الفترة، تندرج تحت ما يسمّى بإرهاص الاستقبال التي وطّد الطّريق للتأسيس الفعلي للسيميائية في المشهد التقديّ المغاربيّ.

المبحث الثاني

لمحة التّأصيل

وبناء المنهج لتحليل

النّصوص.





1- لحظة التأصيل وبناء المنهج:

لقد اتضحت الرؤية المنهجية في هذه اللحظة مع عودة الدارسين المغاربة إلى أقطارهم، هؤلاء الذين نهلوا النظرية السيميائية من مظانها على أيدي أعلامها (أ.ج.غريماس، ج.كورتيس، ج.كريستيفا، ر.بارث...)، وبفضلهم نشطت حلقة البحث المتخصص التي جسدها المقالات المنجزة في المخابر أو المقدمة في الملتقيات أو تلك المنشورة في المجلات..، واتسمت دراساتهم بالفاعلية في تأصيل المنهج السيميائي وبناءه، وتحلّى ذلك في ترجمة وتعريب بعض أبحاث النظرية السيميائية ومصطلحاتها المنجزة في الغرب. من هذا، فإنّ ما يميّز هذه اللحظة، هو ولاء الباحث المغربي لأطروحات المدرسة الفرنسية؛ أي التقيّد بمنهجية السيميائية السردية في تحليل النصوص من خلال أعمال المنهج السيميائي إعمالاً صافياً لا تشوبه أدوات منهج آخر. فلا يخفى على أحد جهود هؤلاء في هذا المجال، وإن تباينت بينهم درجة تناول النظرية السيميائية والتعامل مع آلياتها فإنّ غايتهم واحدة، تركّزت حول "توطين حضورها (أي السيميائية) في الثقافة العربية، وشرحها للمتلقين وتحويلها من مادّة ثقافية متخصصة إلى معرفة يمكن أن تفيد منها شريحة واسعة"¹.

انطلاقاً من هذا التّصوّر، نخلص إلى أنّ التأسيس الصّحيح والواعي للسيميائية، ترجمه واقع بعض الدراسات المغاربية المتخصصة، التي اتّسمت بالوفاء للمعطى السيميائي الخالص، سواء ذلك الذي تبلور في أطروحات المدرسة الفرنسية عامّة، والتي منها على وجه التّحديد أفكار رائدها "غريماس" وتلامذته، أو الذي تبلور في أطروحات المدرسة الأنجلوساكسونية، والممثّلة خاصّة في أفكار "بورس" ومن بعده "ن.تشومسكي". بحيث شكّلت هذه البحوث السيميائية (التنظيرية والمراسية) - في مجملها - قيمة وحضوراً في المشهد التقديّ المغاربيّ والعربيّ عموماً، ذلك لأنّها استطاعت أن ترقى بالتّقدّ العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية وإلى أعلى درجة من التّفكير والتمثّل الواعي والهادف إلى بناء إستراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلية، لا شك، في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلاً"².

¹ - آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد اليمائي للرواية العربية، ص.ص: 93-94.

² - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 1427هـ، 2006م، ص: 42.



فهذه المعطيات، إذن، ساهمت -بقسط أكبر- في حركية الخطاب النقدي المغربي، ويمكن للدارس -في هذا المقام- استحضار بعض الأعلام، الذين يعدّون أيقونات الدرس السيميائي في المشهد العربي، ك: عبد الحميد بورايو، ورشيد بن مالك، وسعيد بنكراد، ومحمد الناصر العجيمي، وعبد المجيد النوسي، وعبد الحميد محفوظ، ومحمد الداهي...، فهؤلاء وغيرهم، توخّدهم الرؤية المنهاجية في الانتصار للتفكير العلمي. من ذلك، باتت غايتهم في الاستعانة بمعطيات النظرية السيميائية في الغرب، هي لأجل بناء صرح سيميائية عربية، تتميز بالخصوصية والتفرد عن نظريتها بالغرب.

لقد شكّلت الغاية التعليمية السمة البارزة لهذه اللحظة، فقد دأب كثير من الباحثين المغاربة -وهم أساتذة جامعيون في الأصل- على تقريب السيميائية السردية من القراء شرحا وتعريفا. والنّاظر في المنجز النقدي المغربي يجد دراسات¹ كثيرة، كانت في الأصل محاضرات ودروس، قدّمها هؤلاء في مدرجات الجامعة أو في المنابر العلمية، والتي نراها نماذج تأصيلية للنظرية السيميائية. ومنها على وجه التحديد ما أنجزه كلٌّ من:

1-أ- سعيد بنكراد:

إنّ من أولى الدراسات التأسيسية التّنظيرية في خطابنا النقدي المغربي، والتي اهتمت بالخطابات السردية من منظور سيميائي بحت، تلك التي أنجزها الباحث المغربي "سعيد بنكراد" حول نظرية قريماس السيميائية، في كتابه "مدخل إلى السيميائية السردية"². بهذا المنجز "يعدّ من بين أكثر الباحثين المغاربة تمسكا بهذا التّوجه، وأكثرهم إلحاحا وإصرارا على التّهوض به وتبسيه أولى المراتب قبل أي عمل آخر سواء أكان ذلك ترجمة أم تنظيرا أو ممارسة تطبيقية"³.

¹ - بعض هذه الكتب سبق تناولها من قبل الباحثين: (عقّاق قادة) في أطروحة الدكتوراه و(عبد القادر شرشار) في كتابه تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، و(رشيد بن مالك) في كتابه السيميائية السردية، وتقاطع معهم في بعض المعلومات أو الإحالات إنّما فرضها عليّ السياق المنهجي للبحث.

² - صدر هذا الكتاب عن دار تينمل بمراكش (المغرب)، سنة 1994 في طبعته الأولى، وفي طبعته الثانية عن منشورات الاختلاف، الجزائري، 2003.

³ - قادة عقّاق: السيميائيات السردية وتجلياتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية قريماس نموذجا)، ص: 309.



يتأسس هذا الكتاب النظري على مقدمة وعنصرين بارزين: هما التراث البروي، والسيميائيات السردية الغريماسية، فخاتمة وثبت للمصطلحات، حيث ورد في العنصر الأول ملاحظات "كلود ليفي شتراوس" حول هذا التراث، ليبيدي بعد ذلك الكيفية التي قرأ بها قريماس المشروع البروي، ثم حال السرديات بعد بروب ومآلها. أمّا العنصر الثاني، فقد تخلله عنصرين فرعيين بارزين هما: التنظيم العميق والتنظيم السطحي، وقد انضوت تحتها عناصر ثانوية، كلّها تصبّ في محاولة تقرب هذه النظرية في شكلها الكلي من القارئ العربي كما استقاها هو من مظانها. جاء هذا الصنيع، لما رأى الباحث أنّ الدراسات المنشورة المحلية والعربية -على حدّ سواء- متّسمة بتناولها الجزئي للنظرية المعرفية، ما أفضى إلى عدم الإحاطة بطروحاتها؛ لأنّ معظم هذه الدراسات، لا يعدو أن يكون "عبارة عن ترجمة لمقالات أو أجزاء من كتب، وأحياناً تعاليق مختصرة عن نظرية أو مجموعة من النظريات. ورغم أهمية هذه المنشورات وقيمتها التعليمية، فإنها تظل ناقصة (ومضللة أحياناً)، لأنها تقدم مفصولة عن أسسها الاستيمولوجية، وعن المناخ الذي ولدت فيه، الشيء الذي يجعل القارئ عاجزاً في أغلب الأحيان عن إدراك الفروقات والاختلاف بين هذه النظرية أو تلك، بين هذا المفهوم أو ذلك، كما لا يدرك كيف أنّ المصطلح الواحد قد ينتمي إلى مدارس متعدّدة، حاملاً مضامين ودلالات متنوعة"¹.

فالقلق المنهجي الذي يساور الباحث من جهة، وحرصه على النقل الصافي للنظرية من جهة أخرى، كلّ ذلك دفعه لأن يتجاوز الحديث عن النظريات المحسوبة على السيميائية السردية في مجملها، بغية أن يسلّط الضوء على نظرية "غريماس" وعلى بعض الأعمال الشارحة لنظريته²، ويردّ هذا الاختيار إلى جملة من الأسباب التي تتميز بها نظرية قريماس عن باقي النظريات الأخرى في المجال السردية، والمتمثلة أساساً في مشكلة المعنى، وفي شمولية هذه النظرية (تصوّراً وتحليلاً)، وفي قدرتها على معانقة خطابات أخرى غير الخطاب السردية (نظرياً وتطبيقياً)³.

¹ - سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، دار تينمل بمراكش (المغرب)، 1994، ص: 05.

² - م ن، ص: 07.

³ - ينظر: م ن، ص: 7-8.



استنادا على هذه الأسباب، التي تبرّر اختيار الباحث في تناول جهود "غريماس" دون سواها من جهود المدرسة ككل، راح الباحث يعرض الأسس المعرفية التي انبنت عليها السيميائية السردية الغريماسية، ويشرح جهازها المفاهيمي ويضبطها خدمة للقارئ العربي، فهذا التوضيح النظري للتوجه الغريماسي، لم يجعل من الباحث مجرد ناقل أو شارح أو مروج -إن صحّ التعبير- لأطروحات غريماس، بقدر ما يجعله يقف وقفة الناقد الحصيف الذي يبرز هنوات النظرية في مواطن عديدة. فرغم هذا الجهد، الذي يبقى اجتهادا في نهاية المطاف، نراه غير مكتمل، ذلك لأنّ درجة الإحاطة بمعطيات أي نظرية - مهما كانت - ستكون نسبية. وبناء عليه، فإنّ ما أقرّه الباحث بتجاوزه بعض العناصر المكونة للنظرية ليس تفريطا منه، وإّما يرى استحضرها يكون ايجابيا في أثناء الممارسة التطبيقية¹.

1-ب- عبد الحميد بورايو:

يعدّ عبد الحميد بورايو من الباحثين الأوائل الذين أرسوا معالم المناهج الحديثة في الخطاب النقدي الجزائري والمغاربي عموما، ويتجلى ذلك في جملة كتب² ألفها مع منتصف العقد الثامن من القرن الماضي، تتمّ كلّها عن انفتاح الباحث على النظريات النقدية الغربية، وكذا التوجه السيميائي الذي سلكه في تحليل النصوص السردية. فمن أولى كتبه التي تبني فيها المنهج النصّاني كتابه "منطق السرد" التي درس فيها نماذج من القصة الجزائرية الحديثة، فبالنظر إلى السياق التاريخي لصدور الكتاب (1994)، فإنّه يعتبر "إنجازا مهما في التأسيس المنهجي لتجربة نقدية واعدة، ليس من خلال محاولة ضبط آليات إجرائية تساعد على تيسير سبل تحليل النصوص السردية فحسب، بل أيضا من خلال محاولة تأصيلها والتأسيس لها عبر إرجاعها إلى أصولها العلمية التي

¹ - ينظر: سعيد بنكراد: المرجع السابق، ص: 91.

² - من جملة تلك الكتب المؤسسة ما سنعرضه معتمدين في ذلك على الترتيب الزمني لصدورها: 1- القصص الشعبي في مدينة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. 2- الحكاية الخرافية للمغرب (دراسة تحليلية في معنى المعنى لمجموعة من الحكايات)، 1992. 3- البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، د.م.ج، الجزائر، 1998. 4- منطق السرد (دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، د.م.ج، 1994. 5- التحليل السيميائي للخطاب السردية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.



انبثقت عنها ومراعاة سياقها الثقافي والمعرفي الذي أنتجها¹. لقد اعتمد الباحث في تحليل التّصوّص السّردية على منهجين رئيسيين هما: السّيميائية والبنوية. وهنا، يلحظ الدّارس اشتغال الباحث على تأصيل السّيميائية السّردية، والذي يتجلى في البحث الرابع من القسم النظري للكتاب، مع أن الحضور العملي للدراسة السّيميائية فيه تجلّت في فصل "المكان والزمان" في الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية². حيث نخصّص لهذين العنصرين السّرديين مبحثا خاصا من هذا الباب.

1-ج- رشيد بن مالك:

إذا كان حظّ "عبد الحميد بورايو" في تبنيه المنهج السيميائي، والاشتغال - في حدود معطياته - على الآثار الأدبية، هو الاعتماد على الوسائط المتمثلة أساسا في الكتب الغربية، فإن حظّ الباحث "رشيد بن مالك" في هذا كان أوفرا، كونه تلقى النظريّة السّيميائية مباشرة من مظاهرها سنوات تكوينه بفرنسا على يد أحد أكبر أساطين المدرسة الفرنسية (أ.ج. قريماس). فمنذ ذلك الحين، وإلى يومنا لا يزال وفيها لأفكاره ومنتشبا بها، والمتمثلة أساسا في معطياته حول السّيميائية السّردية. لقد تمكّن من تجسيد معطيات النظريّة في المشهد النقدي الجزائري من خلال تلك الدروس التي كان يلقيها على طلبة التدرّج، وما بعد التدرّج في بعض الجامعات الجزائرية، أو من خلال مؤلّفاته التي نشرها تباعا، والتي بدا فيها مؤصّلا ومنظّرا ومترجما ومطبّقا برؤية منهجية وفيّة لأطروحات السّيميائية السّردية الغريماسية.

إنّ هذا الجهد المكين - برغم فردانيته - جاء كمحاولة لتأسيس مشروع نقديّ ضخم يكرّس أفكار هذه النظريّة في تحليل التّصوّص السّردية. وكل هذا، ما كان له أن يتحقّق، لولا امتلاكه ناصية اللغة الفرنسية، وفتحها المباشر للنظرية من مظاهرها الرئيسية، وهي من بين العوامل التي ساعدت الباحث في تشييد مشروع نقديّ سيميائيّ متميّز الثراء والتنوّع. من هذا، استطاع تحريك الخطاب النقديّ المغاربيّ - في توجّهه السّيميائيّ الجديد - من حالة سكونية إلى حالة دينامية

¹ - قادة عقاق: السّيميائية السّردية وتحليلاتها في النقد المغاربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجًا)، مخطوط أطروحة دكتوراه دولة، جامعة سيدي بلعباس، 2004/2003، ص: 303.

² - ينظر: يوسف وغلبيسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، دار البشائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص: 139.



أرحب، فتحت شهية الباحثين الجزائريين في اعتناق، وتمثل هذا التوجه الجديد في الممارسة النقدية، ولا أدل على ذلك من تلك الملتقيات¹، والمواقع الالكترونية: كموقع محمد الداهي، وموقع عبد القادر فيدوح، والمجلات المتخصصة²، التي شجعت على البحث، وارتقت به إلى أعلى درجات التميز.

إنّ ما يلاحظ على هذا المشروع، هو انتصار صاحبه منذ البداية لهذا التوجه، وإخلاصه له عبر كل مؤلفاته، ولعلنا - في هذا المقام - سنقف عند أول مؤلف متخصص دخل به غمار البحث السيميائي، وهو "مقدمة في السيميائية السردية"³، فهذا الكتاب يمثل "باكورة التنظير السيميائي السردية في النقد العربي واختلافه عما سبقه من أنه تناول السيميائية السردية موضوعا مستقلا بذاته عن المنهج السيميائي"⁴. يقف الباحث في هذا الكتاب على معطيات السيميائية السردية، كاشفا أصولها ومرجعياتها الفكرية والمعرفية التي انبت عليها، شارحا لطروحاتها النظرية، ومطبّقا أدواتها التحليلية على نصوص سردية مختلفة. وعليه، يعتبر هذا الكتاب من بين "أهم المؤلفات التي تنزع منزع التأصيل والتأسيس، عبر ردّ النظرية إلى أصولها ومنابعها الأولى، وتفحص دلالات المفاهيم والمصطلحات ضمن هذه الأصول لمعرفة حقيقتها، وبالتالي التعرف إلى مدى التطور

¹ - من ذلك: 1- ملتقى السيمياء والنص الأدبي"، الذي أشرف على أعماله معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة "باجي مختار" -عنابة، أيام: 17/15 ماي 1995. 2- ملتقى السيمياء والنص الأدبي"، الذي أشرف على أعماله قسم اللغة العربية (كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية)، جامعة محمد خيضر -بسكرة. ينظّم هذا الملتقى بشكل دوري (الملتقى الأول 8/7 نوفمبر 2000، والثاني 16/15 أفريل 2002، والثالث 20/19 أفريل 2004، والرابع 29/28 نوفمبر 2006، والخامس 17/15 نوفمبر 2008.

² - من ذلك: - مجلة "علامات" المغربية ل"سعيد بنكراد". - مجلة "سيميائيات"، وهي مجلة دورية محكمة، يصدرها مخبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران (الجزائر)، مديرتها المسؤول "د. ناصر اسطنبول"، ورئيس تحريرها "أ.د أحمد يوسف". -مجلة "دراسات سيميائية أدبية لسانية"، وهي مجلة دورية محكمة، مديرتها المسؤول "د. محمد العمري"، ورئيس تحريرها "د. حميد حمداني". - مجلة "أيقونات"، مجلة (رقمية) دورية محكمة، تعنى بنشر البحوث السيميائية، تشرف على نشرها رابطة "سيما" للبحوث السيميائية بسيدي بلعباس-الجزائر، رئيس تحريرها "د. عبد القادر فهيم الشيباني".

³ - صدر عن دار القصة للنشر، الجزائر، 2000.

⁴ - محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 165.



أو التحرير الذي لحقها بعد نقلها من بيئتها الأولى أو استثمارها من قبل نظرية أو نظريات أخرى¹.

فمن أجل تبسيط القواعد الأساسية لهذه النظرية، ومن ثمّ تقريبها من الدّارس العربي، راح الباحث يقسم بحثه: إلى قسم نظريّ وآخر تطبيقيّ، والذي يعنينا في هذا المقام القسم الأول من الكتاب، الذي يشغل حيز أربعين صفحة (5-45) والموسوم بـ"الأصول اللّسانية والشكلائيّة للنظرية السيميائية". لقد استهل هذا القسم بمقدمة منهجية، كشف فيها التوجّه الذي يروم الاشتغال عليه بغية تحقيق نيته البحثية من خلال الوقوف على الأسس التي تنبني عليها النظرية السيميائية الممثّلة في الاتجاه الباريسي، فيقول: "سنسعى في هذا البحث إلى دراسة الأصول اللّسانية والشكلائية التي انبنت عليها النظرية السيميائية (مدرسة باريس) واستمدت منها مصطلحيتها العلمية مع إجراء تعديلات على مفاهيمها تقصياً في ذلك الانسجام مع التوجّهات الجديدة للبحث السيميائي المعاصر"². عالج الباحث - في الجزء الأول من هذا القسم - الأصول اللّسانية للنظرية السيميائية، فحدّد فيه موقع المسألة الدلالية في حقل البحوث اللّسانية، فبعدما كان البحث الدلالي مغيباً في البحوث اللّسانية، بدأت معالمه في التبلور مع ظهور كتاب "قريماس" (علم الدلالة البنيوي الصادر عام 1966)؛ إذ منذ ذلك التاريخ أوكل موضوع البحث عن الدلالة إلى السيميائيّات، هذا الاعتقاد دفع الباحث لأن يبرز تمثّل السيميائية السردية لمبدأين لسانيين سنهما "ف.دي سويسر" في محاضراته وهما: مبدأ المحايثة (*Immanence*)، ومبدأ الاختلاف (*Différence*).

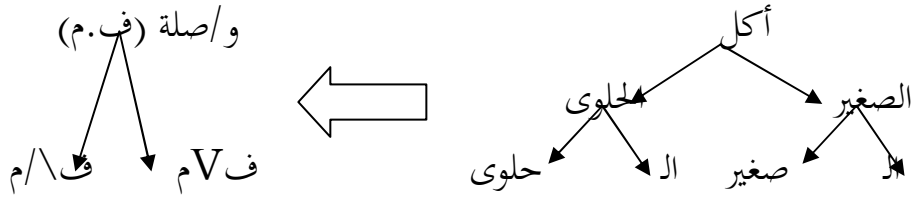
ما يلاحظ على هذا المنجز، هو أنّ صاحبه اعتمد الشرح التدريجي، حيث بيّن ارتكاز بحوث "قريماس" السيميائية على مبدأ المحايثة في دراسة التّجليات الدلالية من داخل النصوص السردية، كما أبرز توسّل "قريماس" بمبدأ الاختلاف، من أجل وصف الأشكال الداخليّة لدلالة النص السردية، ومن خلاله توصل إلى المرع السيميائي، ووقف عند خصائصه الشكليّة المتمثّلة في العلاقات التي ينتظمها (العلاقات التدرجية)، (العلاقات المقولاتية من تناقض، وتضمّن،

¹ - قادة عقاق: السيميائية السردية وتجلياتها في النقد المغاربي المعاصر، (نظرية قريماس نموذجاً)، ص: 306.

² - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2000، ص: 05.

وتضاد)، وفي هذا دعم وشرح المفاهيم النظرية باستحضار نموذج الدورة الدلالية للمحلل والمحرم في شهر رمضان. بعد ذلك تناول الملفوظ السردى الذي يراه محكوما بعملية الانتقال من الصعيد العميق إلى الصعيد السطحي، على أن يكون هذا الانتقال مربوطا بالتحويل السردى¹. وبناء عليه، فإنه يتم تحليل الملفوظ السردى، "من منطلقات لسانية تقودنا إلى فهم طبيعة عمل القواعد الخلفية اللسانية في النظرية السيميائية"².

وفي هذا السياق، يقف الباحث عند رافد لساني آخر، فتح آفاق السيميائية السردية، يتجلى في إسهامات "لوسيان تينز *L. Tesnière*" بخصوص "بنية الجملة البسيطة"، فمن خلال تفرعات الجملة الفعلية التي تبوأ فيها الفعل موقفا مركزيا نواتيا يقابله الملفوظ الأولي في النظرية السيميائية القائم في أساسه على العلاقة الوظيفية (=و) بين العوامل (=ع)، وقد نفهم هذا من خلال الشكل:



هذه الاستنتاجات، قادت الباحث لأن يقف عند مفهومين رئيسيين في نظرية تشومسكي التوليدية التحويلية، وهما: (الكفاءة والأداء)، حيث اعتمدها "قريماس" في صياغة مفاهيم خاصة من المنظور السيميائي، والذي يتجلى أساسا في تمييزه الدقيق بين معرفة الفعل والفعل³. لقد كانت غاية الباحث فيما سبق الوقوف عنده في هذا الجزء هو محاولة تحقيق مقصده العلمي من خلال دراسة المصطلحات اللسانية الرئيسية التي ساهمت في بناء صرح النظرية السيميائية على صعيدها السردى.

¹ - ينظر: رشيد بن مالك: مقدمة في سيميائية السردية، ص: 17.

² - م ن، ص ن.

³ - ينظر: نفسه، ص.ص: 17-20.



يحاول الباحث في الجزء الثاني من القسم النظري، رصد الأصول الشكلائية للنظرية السيميائية، وخطوته في هذا، جاءت لضبط التوجه الشكلائي الروسي العام في الممارسة النقدية، ونظرا لأهميته ضمن الخطابات النقدية، يرى الباحث أنه ليس من الإمكان "أن نرصد الأصول العلمية للبحث السيميائي بقطع النظر عن المظهر النظري العام لبحوث الشكلائين الروس التي ظهرت خلال الحقبة الممتدة من 1915 حتى 1930 والمتميزة بمبدأ أساسي قائم على معارضتهم للمناهج التقليدية، ودراسة الأدب بوصفه مجموعة شكلية تحكمها قوانين خاصة مع التركيز على العناصر النصية والعلاقات المتبادلة وعلى الوظيفة التي تؤديها في مجال النص"¹. لأجل هذا اختار الباحث نموذجا لهذا التوجه، والمتمثل في مورفولوجية الحكاية *Morphologie du conte*، لـ"فلاديمير بروب" *V. Propp* الذي يعدّ "من الكتب الحاسمة في تطوّر الدراسات البنوية والسيميائية، والنموذج الأكثر نضجا في بحوث الشكلائين"²، وفي هذا الشأن تناول الباحث النموذج البروبي *Schéma narratif* مستعرضا بعض مفاهيمه كونه "يعد جهازا نظريا أساسيا وضروريا لفهم تنظيم الخطاطات السردية"³ ليقف أخيرا عند تعديلات "غريماس" و"كورتيس" لهذا النموذج، ويرصد بعض المصطلحات الأساسية - في نهاية هذا الجزء - والمتعلقة بالتحويل السيميائي (96 مصطلحا)⁴، داعيا في هذا السياق بضرورة تضافر الجهود في معاينة الوضع المصطلحي. إنّ الخيار المنهجي الحدائي (التوجه الغريماسي) للباحث، الذي تجلّى في هذا الكتاب، نلفيه يمتدّ على مدار جميع مؤلفاته التي أنتجها وتلت هذا الكتاب، منها مؤلفه الموسوم بـ"السيميائيات السردية"⁵، فالمطلع على هذا الكتاب، يجده مكمل لمؤلفه الأول (مقدمة في السيميائية السردية)، ذلك لأنّ الباحث حاول في كليهما رصد المنحدرات التاريخية للنظرية السيميائية، فإذا كان قد بسط الأصول اللسانية والشكلائية لهذه النظرية في مؤلفه الأول، نجد

¹ - رشيد بن مالك: المرجع السابق، ص.ص: 28-29.

² - م ن، ص: 29.

³ - م ن، ص: 05.

⁴ - ينظر: م ن، ص.ص: 37-49.

⁵ - صدر في طبعته الأولى، عن دار مجدلاوي، عمان، الأردن، 2006.



في الثاني، يكمل بناءه بالوقوف عند واقع السيميائية وآفاقها وتطوراتها في الفكر الأوربي، وكذلك واقعها وآفاقها في العالم العربي¹.

1- محمد الناصر العجيمي:

يعدّ الأستاذ "محمد الناصر العجيمي" أحد الباحثين التونسيين الذين وضعوا لمستهم في المشهد النقديّ المغاربيّ لاهتمامهم بالبحث السيميائيّ في مرجعيته الفرنسيّة، والتي يعتبر "أ.ج. قريماس" رائدها ومؤسسها، ويتجلى ذلك في مؤلفه الموسوم بـ "الخطاب السردّي لنظرية قريماس" *Greimas*، الصادر عام 1993 عن الدار العربيّة للكتاب بتونس. يمثّل هذا الكتاب الصّغير الحجم والسمك (حوالي 141 صفحة) أحد الكتب المهمّة التي أسهمت في تأسيس النّظرية السيميائية السردية في الخطاب النقديّ المغاربيّ إن تنظيراً أو ممارسة؛ إذ نلفيه يبسط أدوات هذه النّظرية، ثمّ يعملها في تحليل حكاية لـ "عبد الله بن المقفع". يستهلّ الباحث دراسته بـ "مشكلة الدراسة"²، كشف فيها صعوبة تناول الطّرح الغريماسي أو الإحاطة به، وكذلك عسر تلقّي النّظرية من طرف الدّارس العربي، على اعتبار أنّ البحوث المنشورة لـ "قريماس" حول السيميائية السردية في المجالين النظري والإجرائي، وردت متناثرة في ثنايا المؤلفات والدوريات المختصّة، بالإضافة إلى أنّها نشرت على فترات زمنيّة متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى.

نقف في المجال النظري على أهم مؤلفاته، والتي منها "البنويّة الدلالية" (*Sémiotique structurale*) الذي أنجزه عام 1966، بعد ذلك ينشر كتابه "في المعنى" (*Du sens-essais*) (*sémiotique*) عام 1970، وبعده بجوالي ثلاث سنوات؛ أي في عام 1973 ينشر مؤلفين هما: "العوامل والقائمون بفعل والصّور" (*Actants, acteurs, figures in sémiotique*) (*narrative et textuelle*)، و"مسألة من مسائل الدلالة السردية" (*Un problème de sémiotique narrative*)، وفي عام 1979 يختتم هذا المجال بنشر "المعجم المعقلن" (*Sémiotique dictionnaire raisonne de theorie du langage*) بالاشتراك

¹ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية (الجانب النظري)، ص.ص: 9-42.

² - ينظر: محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردّي "نظرية قريماس" (*Greimas*)، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1993، ص.ص: 7-17.



مع "ج. كورتيس" (*J. Courtes*). هذا، وقد خصّ المجال التطبيقي بدراستين أولاهما: "صديقان" (*Maupassant*) سنة 1976، وثانيهما "دراسة نص لديمزيل" (*Analyse d'un texte de Dumezil*) سنة 1979).

فجميع هذه البحوث، وما تزخر به من معطيات تنظيرية وحمولة مصطلحية، تدعو الباحث لبذل جهد أكبر في فهمها، وفك رموزها لأجل تبسيطها وتقريبها من القارئ العربي، وهذا بالفعل ما عمد إليه "العجمي"، وذلك بعدما استعان ببعض البحوث الشارحة والميسرة لفهم نظرية "قريماس" التي ألّفها بعض الإعلام الغربيين¹ المعاصرين لـ"أ.ج. قريماس". هذا الصنيع يبرره تهيّب الباحث من الإقدام على هذه النظريّة البكر المجهولة المأل، كما تبرزه الصّعوبات التي اعترضت سبيل القارئ العربي في تلقيه معطيات السيميائية السردية ذات التوجّه الغريماسي، والمتمثلة أساسا في قاموسها المصطلحي الثري. من ذلك، بات الاشتغال على هذه النظريّة من قبل الباحث المغربي مغامرة محفوفة بكثير من المزالق، وهو الأمر الذي جعلها "لم تصادف من نفوس الدارسين العرب هوى فلم يتوفر على دراستها وتقديمها إلا عدد محدود منهم حتى لا يداخلنا شعور بأننا نطرق أرضا بكرًا"². لقد كان هذا دافعا في إقبال الباحث على نظريّة "قريماس" السيميائية، وتقديمها للقارئ العربي وفق أسس محدّدة تتوخّى الوضوح، والتقلّ الأمين لمعطيات النظريّة، وتناولها في شموليّتها، مع الاجتهاد الفردي في التعامل مع المصطلح³.

يحاول الباحث في قسم "علم الدلالة"⁴ تبيان موقع نظريّة "قريماس" ضمن الإطار المعرفي العام للسيميائية، من خلال البحث في الجذور والمنهج، من ذلك جاء وقوفه بداية عند منطلقات وحدود النظريّة السيميائية السردية، بحيث أبرز موقف الألسنيين المنتصر للدال على حساب

¹ - من بين هؤلاء "ج. كورتيس" (*J. Courtes*) و"ف. راستي" (*F. Rastier*) و"ج.ك. كوكي" (*J.C. Coquet*) و"آ. إينو" (*A. Henault*)

² - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردية "نظريّة قريماس" (*Greimas*)، ص: 13.

³ - ينظر: م ن، ص. ص: 13-17.

⁴ - ترجم الباحث مصطلح "السيميائية" بعلم الدلالة والعلامية وعلم العلامات ليقابل به مصطلحين غربيين هما: *Semiotique*, *Semioleogie* وفي هذا نلمس الاجتهادات الفردية المعزولة، وما يترتب عنها من تراكم في المصطلح.



المدلول (المعنى). ولما كانت السيميائية "تستهدف استقراء آليات إنتاج الدلالة وإبراز كفاءات اشتغالها في مختلف الأنشطة الثقافية وحتى من خلال السلوك الطبيعي للمجموعات البشرية كنظم الأكل واللباس والتحية والحركات الجسدية أو ما يعرف بـ (*Kinésique*) وكفاءات استغلال الفضاء أو ما يعرف بـ (*Proxémique*)"¹، يصبح المدلول موضوع السيميائية بلا منازع، ومن هذا الطرح، نلمس ردّ فعل على الألسنية التي أقصت المعنى، وأسقطته من حساباتها. من هذا تحاول السيميائية تحديد معالمها على خريطة البحث الغربي بجانب علوم إنسانية أخرى كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والمنطق، والجمالية، والفنومينولوجيا...؛ فتتداخل الحدود بينها وبين هذه العلوم وتتفاعل، لتزداد مع الأيام ثباتاً ورسوخاً، عكس ما توقّعه "قريماس" في ستينيات القرن الماضي على انحصارها وتلاشيها².

ينتقل الباحث إلى المنهج متناولاً تنبؤات "دي سوسير" القائلة بفرعية اللسانيات من ذلك الكل الذي هو السيميائيات، مروراً بطرح "ر. بارث" المعاكس للفكرة السوسيريّة، والقائلة بفرعية السيميائيات للسانيات؛ كون أنّ هذا العلم الجديد استمد الكثير من المعطيات اللسانية السوسيرية، يتمظهر أبرزها في اعتبار المعنى شكل (*Forme*) وليس مادة (*Substance*)، وانطلاقاً من هذا المبدأ نلغي السيميائية - في اشتغالها على استقراء الدلالة - تختلف في توجهاتها عن "الاتجاه التقليدي السائد في فهم الدلالة القائم على اعتبارها مادة مستقلة بذاتها وأنّ وظيفة اللغة لا تعدو أنّها رداء خارجي يكسو الفكرة ويعكسها بأمانة وشفافية"³.

لقد اتّسم اشتغال النظرية السيميائية لدى "قريماس" - على أجناس السرد - بالصرامة المنهجية والمرونة التحليلية، وهو اشتغال مستند على مبدئين اثنين (الاستقراء والتحليل)⁴، ومتميّز - في الآن

¹ - محمد الناصر العجمي: موقع السيميائيات من مناهج البحث الغربي الحديث، مقال منشور ضمن مجلة سيميائيات، العدد 02، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، خريف 2006، ص: 24.

² - نفسه، ص: 21.

³ - محمد الناصر العجمي: في الخطاب السردّي - نظرية قريماس "Greimas"، ص: 26.

⁴ - نفسه، ص: 29.



نفسه- على الإنيَّة التي "تلتزم بالنص وتتيقّد به"¹. إضافة لما سبق ذكره، يقف الباحث في دراسته عند مستويات السردية للنص الأدبي كما تنصّ عليه نظرية "غريماس"، والتي تتمثل في: المستوى السطحي بمكونيه السرديّ والتصويريّ (البياني)، والمستوى العميق. ويختتم دراسته بتحليل "حكاية الأرناب والفيلة"، وهو نصّ مأخوذ من حكايات كليلة ودمنة لـ"عبد الله بن المقفع". والذي سبق وأن عالجناه في إحدى بحوث الباب الأول.

خلاصة:

ما نستخلصه من القسم النظري لهذه الدراسة، هو أنّ الباحث قام باستعراض مستويات السيميائية السردية ذات التوجّه الغريمائي، وبيّن مدى فعاليتها في تحليل الأثر العربي؛ بحيث استحضر -في أثناء ذلك- جهازاً مفاهيمياً ومصطلحاتياً، وترجمه من منطلق قناعاته الشخصية، وإن كان قد وُفق في بعضها، فإن بعضها الآخر اتّسم بالغرابة عن تلك الترجمات المألوفة في المتون النقدية المغاربية والعربية على سواء، من ذلك ترجمته لمصطلح (*Destinateur*) بـ"المؤتي"، ومصطلح (*Destinataire*) بـ"المؤتي إليه"، فهذين المصطلحين مألوفة ترجمتهما لدى القارئ العربي بـ"المرسل" و"المرسل إليه"؛ إذ لم نجد في حدود اطلاعنا من يوافق هذه الترجمة من الباحثين المغاربة سوى "عبد القادر فيدوح" في كتابه (شعرية القصص)². زيادة على ذلك، لم يضع ثبناً للمصطلحات التي أوردها في دراسته، كما لم يتعرض للأصول المعرفية والمرجعيات الفلسفية لهذه النظرية الغربية، كل هذا، أتاح للقارئ العربي التلقي المجزأ والمبتور لهذه النظرية، وهو ما أفضى -من دون شك- إلى ميلاد فهم مشوّه وتطبيق ضال، يحول دون تحقيق مرامي أي دراسة عربية، والتي تروم في أدنى غاياتها، التعريف بالسيميائية، والتحقق من مدى نجاعة أدواتها التطبيقية.

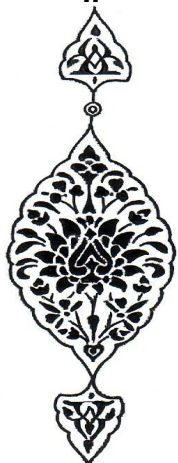
¹ محمد الناصر العجمي: في الخطاب السرديّ - نظرية غريماس "Greimas"، ص: 30.

² - ينظر: عبد القادر فيدوح: شعرية القصص، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، 1996، ص: 88.

المبحث الثالث

لحظة التأصيل

التّرجمة والتّعريب.





- لحظة التأصيل والترجمة والتعريب:

يتجلى البعد الحضاري لآلية الترجمة والتعريب في الدور المهم الذي تلعبه كلٌّ منهما على حدة في نقل العلوم المكتوبة باللّغة الأجنبية إلى اللّغة العربيّة، لكننا - في هذا الصّدد - نلمس تفاوتاً واضحاً من حيث درجة الأهميّة لكليهما، ذلك لأنّ "حركة الترجمة لم تكتف بوضع المكافئ العربي محل الكلمات الأجنبية بل أضافت إليها، إن لم نقل صحّحتها"¹، وهي في هذا، عكس التعريب الذي "اكتفى - إن لم نقل غرق - في استبدال الكلمة الأجنبية بالكلمة العربيّة وكفى"²، فتغدو آليّة التعريب حلاًّ مؤقتاً، يستعين بها المترجم، إذا لزم الأمر في نقل المصطلح، ريثما تجد له الهيئة الوصيّة مقابلاً عربيّاً صحيحاً ودقيقاً، وبغية تجاوز عشوائيّة وضع المصطلح بواسطة التعريب، ينبغي مراعاة جوانب تعريب المصطلح، والمتمثّلة أساساً في جانب البلاغة وجانب المفهوم وجانب الإيجاز³.

لقد تنبّه الباحث المغربي إلى الدور الكبير الذي تلعبه آليّة الترجمة والتعريب في تأصيل النظرية السيميائيّة في المشهد النقدي العربي عموماً. من هذا، دأب الكثير منهم في خوض هذه المغامرة الصعبة، بغية تضيق الهوة المعرفية بين الثقافتين العربيّة والغربيّة، نظراً لوعيمهم الكبير بالحركة المتسارعة للبحث الأوربي، وما ينتج عنها من زخم مصطلحي ومفاهيمي. من هذا، أصبح هذا الباحث يوماً بعد يوم "مطالب بالتفكير على جبهات عديدة وينبغي أن ينجز في الوقت ذاته بحوثاً نفترض أنّها تغطي قراءة وتمثلاً، وترجمة، وتفكيراً كل ما أنجز من بحوث سيميائية قديمها وحديثها حول مختلف الممارسات الاجتماعية الدالة باللسان وغير اللسان مع مراعاة الخصوصيات المحليّة في أثناء التطبيق على النصوص العربيّة"⁴.

كلّ هذا يستدعي من الباحثين المعرفة الصحيحة والتامة باللغتين العربيّة والأجنبيّة. وكذلك الاتصاف بالكفاءة والاحترافية في نقل روح النص المترجم من أجل تحقيق ترجمة أمينة، والتي:

¹ - فراحي بوبكري: الترجمة، التعريب والمصطلح، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص: 59.

² - فراحي بوبكري: م ن، ص: 59.

³ - ينظر: م ن، ص.ص: 60-62.

⁴ - رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجد لاوي، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ/2006م، ص: 26.



"لا تجعل القارئ يحس بأنه يقرأ شيئاً غريباً عن لغته وثقافته، وهذا لا يكون إلا إذا تمثل المترجم الفكرة من مظاهرها وعمل على استنباطها في بيئة اللغة الثانية استنباطاً لا يكاد يترك للقارئ فرصة التشكيك في أن ما يقرؤه من صميم بيئته، بخلاف لكثير من الترجمات التي هي عبارة عن طلاسمة؛ فالكلمات عربية، ولكن لا روح عربية فيها"¹، ناهيك عن الأخطاء الترجمائية غير المسؤولة، ومردّ هذا كله -في نظرنا-، تلك الجهود الفردانية غير المتخصّصة التي تعكس غياب المراقبة المؤسسية للترجمة، والذي حال دون الإفادة من قطف ثمارها.

وأمام هذا الوضع المأزوم، "مازلنا ضائعين في متاهات المصطلح، كل باحث يترجم حسب ما يخلو له، ولم تتوصل البحوث السيميائية إلى بلورة خطاب علمي لا يلقي فيه صاحبه مشقة في تمرير المعارف السيميائية"²، وإنه أمام هذه المشكلات التي أعاققت، ولا زالت تعيق حركة الترجمة في مشهدنا النقدي والأدبي العربيين، نجد الباحث المغاربي قد وفق -إلى حدّ كبير- في توطين البحوث السيميائية في ثقافتنا العربية، حتى لا يجد القارئ العربي عنتاً في قراءتها وتمثلها، والمطلّع -ههنا- على النتائج الترجمي في الدرس السيميائي المغاربي، سواء تجلّى ذلك في شكل مقالات أو كتب، سوف يجده متفاوتاً بين الأقطار المغاربية، ولئن كانت الريادة تحسب للباحثين المغاربة، فإنّ مرد ذلك يعود لوجود مؤسسات تشرف على تنظيم عمليات الترجمة.

ويمكن للدّارس أن يستحضر نماذج ترجمات مغاربية ك: ترجمة "سعيد بن كراد" كتاب (التأويل بين السيميائية والتفكيكية)³ سنة 2000 لصاحبه "أميرتو إيكو"، وأيضاً ترجمته كتاب (سيمولوجيا الشخصيات الروائية)⁴ سنة 1990 لـ"فليب هامون"، وترجمة حميد لحمداني كتاب (الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة)⁵ 1987 لـ"مارسيلو داسكال"، وترجمة عبد السلام

¹ - أحمد الفوحي: سيمياء الأهواء - نموذج الترجمة العالمية-، علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 41، مكناس، المغرب، 2014، ص.ص: 04-05.

² - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 26.

³ - صدر عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.

⁴ - صدر عن دار الكلام، الرباط، 1990، (بتقديم الأستاذ عبد الفتاح كليطو).

⁵ - صدر عن دار إفريقيا للشرق، المغرب، 1989.

الباب الثاني/ الفصل الأول/ المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



بن عبد العالي كتاب (درس السيميولوجيا)¹ 1986 لصاحبه "رولان بارت"، وترجمة جمال حضري لكتابين هما: (مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية)² 2007 و(سيميائية اللغة)³، 2010 لـ"جوزيف كورتيس"، أما ترجمة محمد التهامي العماري فكانت كتاب (حقول سيميائية)⁴ لصاحبه "جيرو بيير" وآخرون، لكن -والحال هذه- فإننا نرى أنّ ترجمة البحوث السيميائية في مشهدنا التقدي قد عرف تأخراً كبيراً، رغم امتلاك الباحث المغربي ناصية اللغة الفرنسية التي تمثل لغة المصدر، وقرب المسافة بين تلك الأقطار وأوروبا، وفي هذا، نجد الجدول التالي، يدعم رأينا، ويبرز معطى بعض النتائج:

الكتاب	المؤلف/السنة	المترجم/السنة	الفارق الزمني
*- العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه.	أمبرتو إيكو 1973	سعيد بنكراد 2007	34 سنة
*- مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية.	جوزيف كورتيس 1976	جمال حضري 2007	31 سنة
*- السيميائية الأدبية ضمن كتاب السيميائية الأصول والقواعد والتاريخ.	ميشيل أرفيبي 1982	رشيد بن مالك 2008	26 سنة
*- سيمياء الكون.	يوري لوتمان 1984	عبدالمجيد النوسي 2011	27 سنة
*- السيميائية، نظرية تحليل الخطاب ضمن كتاب السيميائية.	جان كلود جيرو و لوي بانيه 1987	رشيد بن مالك 2008	21 سنة
*- سيمياء الأهواء.	أ.ج. قريماس وحاك 1991	سعيد بنكراد 2010	19 سنة

¹ - صدر عن دار توبقال للنش، الدار البيضاء، ط2، 1986.

² - صدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2007.

³ - صدر عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2010.

⁴ - صدر كتاب حقول سيميائية (السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي) عن منشورات مجموعة من الباحثين الشباب في اللغة والأدب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مكناس، 2007.



هذا التأخر، شكّل وضعية مشكل للباحثين، وهو أمر دفعهم لإثارة السؤال المتعلق "بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها، هل نولي أهمية إلى النصوص الخاصة بتاريخ البحث السيميائيّام تجنح إلى ترجمة البحوث النظرية والتطبيقية التي ظهرت قبل وفاة أ.ج. غريماس [...]". إنّ إثارتنا لهذه المسائل صادرة أساسا عن قناعتنا بأننا وصلنا إلى طريق مسدود وحل هذه الإشكاليات، وحتى نأخذ فكرة جليّة عن الوضع الذي سيؤول إليه البحث السيميائي، ينبغي أن نفكر مليا فيما كتب من بحوث وفي الجهود التي بذلت ولا زالت تبذل وفي الحلول التي يمكن من خلالها سدّ الثغرات ومعاينة نقاط القوة، بكل موضوعية في هذه البحوث، التي يمكن أن تشكل قاعدة أساسية لجمع شمل الباحثين من جهة واستشراف المستقبل من جهة ثانية¹. وبناء عليه، وانطلاقا مما توقّر لنا من بحوث مغاربية، سنقف عند بعضها. من ذلك:

1- كتاب "عبد الحميد بورايو" الموسوم ب: الكشف عن المعنى في النص السردي - النظرية السيميائية السردية (أ.ج، غريماس، ج. كورتيس، د. باط) الصادر عن دار السبيل للنشر والتوزيع، مدعم من وزارة الثقافة عام 2008.

2- كتاب "رشيد بن مالك" الموسوم ب: السيميائية (الأصول-القواعد والتاريخ)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط01، الأردن، 1428هـ-2008م.

النموذج الأول:

يستهل "عبد الحميد بورايو" كتابه هذا بتقديم منهجي توضيحي شارح؛ إذ يقول: "يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات المترجمة عن اللغة الفرنسية، تشترك جميعا في كونها تعالج الخطاب السردية من أوجه مختلفة ووفق مقاربات منهجية متعددة، يجمع ما بينها العناية الكبيرة بالبنية السردية التي تستمد وسائلها المنهجية من البنوية والسيميائيات"². يجوي الكتاب بين

¹ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص.ص: 26-27.

² - عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، النظرية السيميائية السردية، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2008، صفحة التقديم.



دفتيه أربع مواضيع مترجمة، الأول منها لـ"أ.ج. غريماس" و"ج. كورتيس"، وثانيها لـ"أ.ج. غريماس" بالتعاون مع "فرانسوا راستيبي" ورابعها لـ"دانيال باط".

يعدّ الباحث من المؤسسين المغاربيين للنظرية السيميائية السردية في المشهد النقدي الجزائري والمغربي عموماً، فغالبية مؤلفاته وكذا مقالاته المترجمة تميزها السمة التعليمية، ذلك لأنها (نقصد المقالات) التي أوردتها في هذا الكتاب، قد تمت ترجمتها خلال الربع الأخير من القرن الماضي، وذلك بغرض تعليمي، تمثل في تقديم مداخل السرديات، وهو فرع دراسي لقي رواجاً في الثقافة العربية في هذه الفترة التاريخية¹.

لقد استند الباحث - في هذا الكتاب - على معطيات المدرسة الفرنسية والتي تتجلى أساساً في أفكار "غريماس" وتلامذته، ويتضح ذلك من عنوان الكتاب "الكشف عن المعنى في النص السردية"، النظرية السيميائية السردية، وكذلك مما أثبت به مكتبة بحثه من كتب غربية متخصصة كمثل:

- *A. J. Greimas, Du sens, Essais sémiotique.*
- *A. J. Greimas, Maupassant, La sémiotique de texte.*
- *A. J. Greimas et J. courtes, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage.*
- *D. Patte, carré sémiotique et syntaxe narrative.*

ترجم في المقال الأول (ص: 7-12) بعض التعريفات الاصطلاحية لـ"أ.ج. غريماس" و"ج. كورتيس"، وهي مصطلحات تناولها هذين المؤلفين في كتابهما الموسوم بـ: السيميائية/ المعجم المعقلن لنظرية الكلام الصادر عام 1979 وتمثل هذه المصطلحات في:

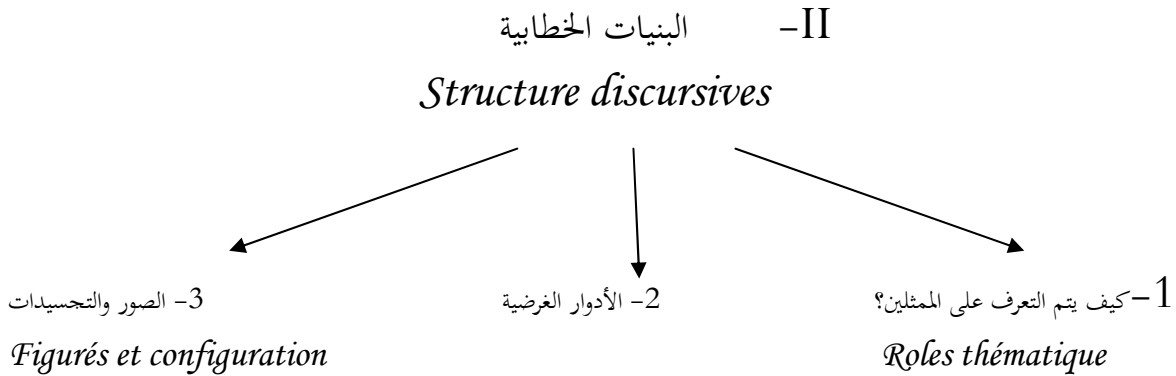
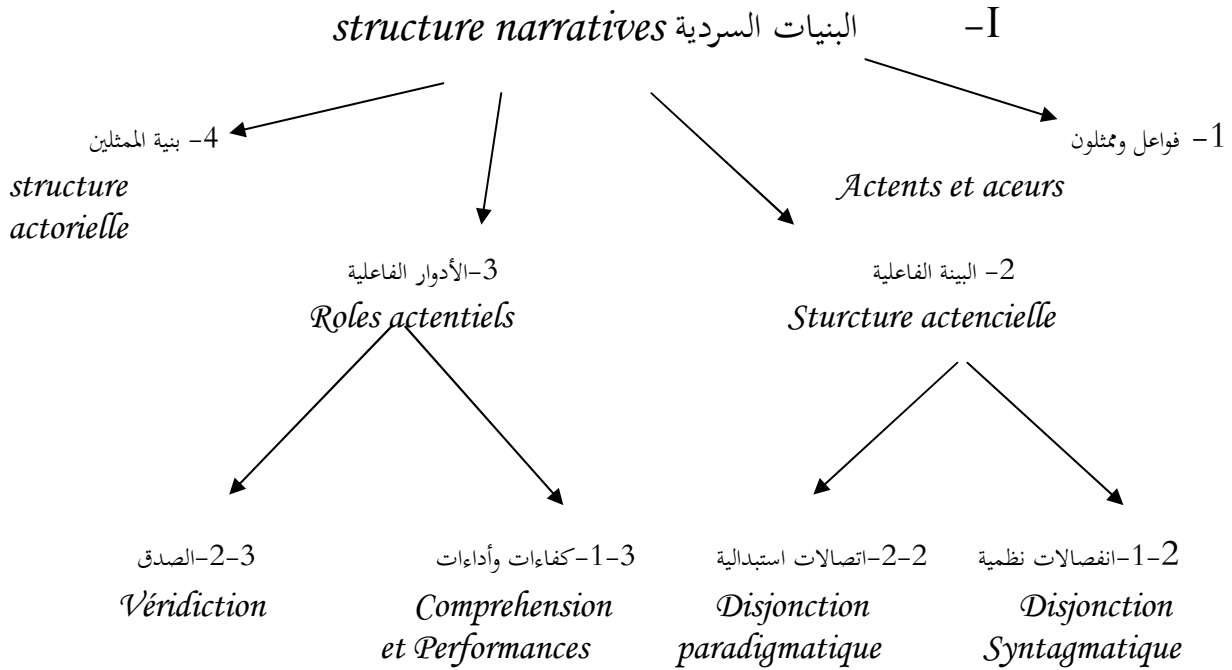
- 1 البنية العميقة. *structure profonde*
- 2 البنية الأولية للدلالة. *Structure élémentaire de la séygnification*
- 3 المربع السيميائي. *Carré sémioique*

¹ - عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، صفحة التقديم.

الباب الثاني/ الفصل الأول/ المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



يقدم الباحث - في المقال الثاني - ترجمة لبعض التعريفات الاصطلاحية المتعلقة خاصة بـ "الفواعل والممثلون - الصور" لصاحبها "أ.ج. غريماس". تناول فيها بنيتان هما: البنيات السردية والبنيات الخطابية، وما ينضوي تحتها من عناصر، فالبنيات السردية "Structure narrative" تفرع عنها عناصر عدة، عالجها الباحث شارحا ومبسّطا، وفي هذا الصدد يمكننا توضيحها مرتبة وفق هذا التشجير.



ما يمكن ملاحظته من هذه التقسيمات، هو أنه اعتمد الترجمة والشرح في إيراد مصطلحات البنيات السردية والخطابية، وهي مهمة تطلبت منه جهدا في نقل المصطلح من اللغة

الباب الثاني / الفصل الأول / المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



الأصلية *Langue source* (L.S) إلى اللغة الهدف *Langue Cible* (L.C)، وقد تأتي له ذلك لإحاطته باللغتين، ولما تزخر به كل منهما من دلالات.

ينتهي هذا العرض بخلاصة، يرى فيها أنّ "العودة إلى الإجراء الاستنباطي الذي أنجزناه يسمح بتحديد فهمنا لسردية الخطاب، حتى وإن كان ذلك بصفة مؤقتة، تنبثق عن النحو السردية وموضوعات سردية (قصص)، يتم استيعابها كمسارات سردية منتقاة بفعل تحليلها [...] هكذا يظهر الخطاب عند النظر إليه في مستوى السطح كاستعمال نظمي تنبث فيه الصور المتعددة الدلالة، الحاملة لإمكانات مضاعفة، مجتمعة في أغلب الأحيان في تجسيّدات خطابية مستمرة"¹.

أمّا في المقال الثالث (يمتد من ص 59 إلى ص 92)، يقوم الباحث بترجمة مقال موسوم بـ: "حركة الضروقات السيميائية" *Les jeux de contraintes sémiotique* للباحثين "أ.ج غريماس" ومعاونه "فرنسوا راستيبي"، استعملها بملاحظة شارحة تستدعي من الباحث توفر المعقولة فيما يذهب إليه بحيث: "يمكن تصور أن الذهن البشري، لكي يتوصّل إلى بناء موضوعات ثقافية (أدبية، أسطورية، تصويرية، إلخ...)، ينطلق من عناصر بسيطة ويتابع مسارا معقدا، ملتقيا في طريقه أكثر بضرورات عليه أن يخضع لها من اختيارات يسوغ له إجراؤها"².

انطلاقا من هذه الملاحظة، استحضرت العناصر التالية: البنيات العميقة، البنيات السطحية، بنيات التحلي، والتي مكنت الباحث من الوقوف عند بنية النموذج التأسيسي المشكل من البنية الأولية للدلالة، وبنية الأنساق السيميائية وكذا تصنيف القواعد ليصل في الأخير إلى نمو التحلي الذي أبرز فيه تداخل الأنساق السيميائية ووضع المحتويات المتجلية. ما يستوقفنا في هذا المقال، هو أن الباحث في إيراده المصطلحات، لم يضع لها المقابل العربي، وكأنها مصطلحات يدركها القارئ، وما زاد الأمر صعوبة، هو الشرح الذي اعتمده الباحث القائم على العلاقات الجبرية من دون وضع خلاصات شارحة أو تذييلات لهذه الترجمة تساعد القارئ على فهم هذا المعطى. أما المقال الرابع فيتجلى في ترجمة الباحث لواحد من مقالات "غريماس" الموسوم بـ "عناصر النحو

¹ - عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، النظرية السيميائية السردية (أ.ج غريماس، ج، كورتيس، د.باط)، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2008، ص: 54-55.

² - عبد الحميد بورايو: م ن، ص: 59.



السردية *Eléments d'une grammaire narrative* "، حيث يتناول "السردية والنظرية السيميائية" (*La narrativité et la théorie sémiotique*)، استهل هذا المعطى بالجانب التاريخي المتعلق بدراسة السرد تماشياً مع إقامة سيميائية عامة (*Sémiotique Générale*)، حيث ومنذ زمن سابق، بينت أبحاث كل من "ف. بروب *V. propp*" و"كلود ليفي ستروس *C. Lévi-Straus*" و"إيتيان سوريو *Etienne Souriau*" على الترتيب بالفولكلور أو الأسطورة أو المسرح بإمكانية وجود دراسات مستقلة¹، هذه الجهود مهدت بظهور "محاولات منهجية معمقة -محاولات كلود بروموند (*Claud Bremond*) المؤولة للسرد في أفق منطق تقريبي، أو محاولات ألان دندس (*Alan Dundes*) التي تهدف إلى إعطاء القصة شكل نحو سردي فتوقف التقاربات النظرية"².

ويمكن للدارس أن يبرز هندسة الباحث في هذه الترجمة على النحو التالي:

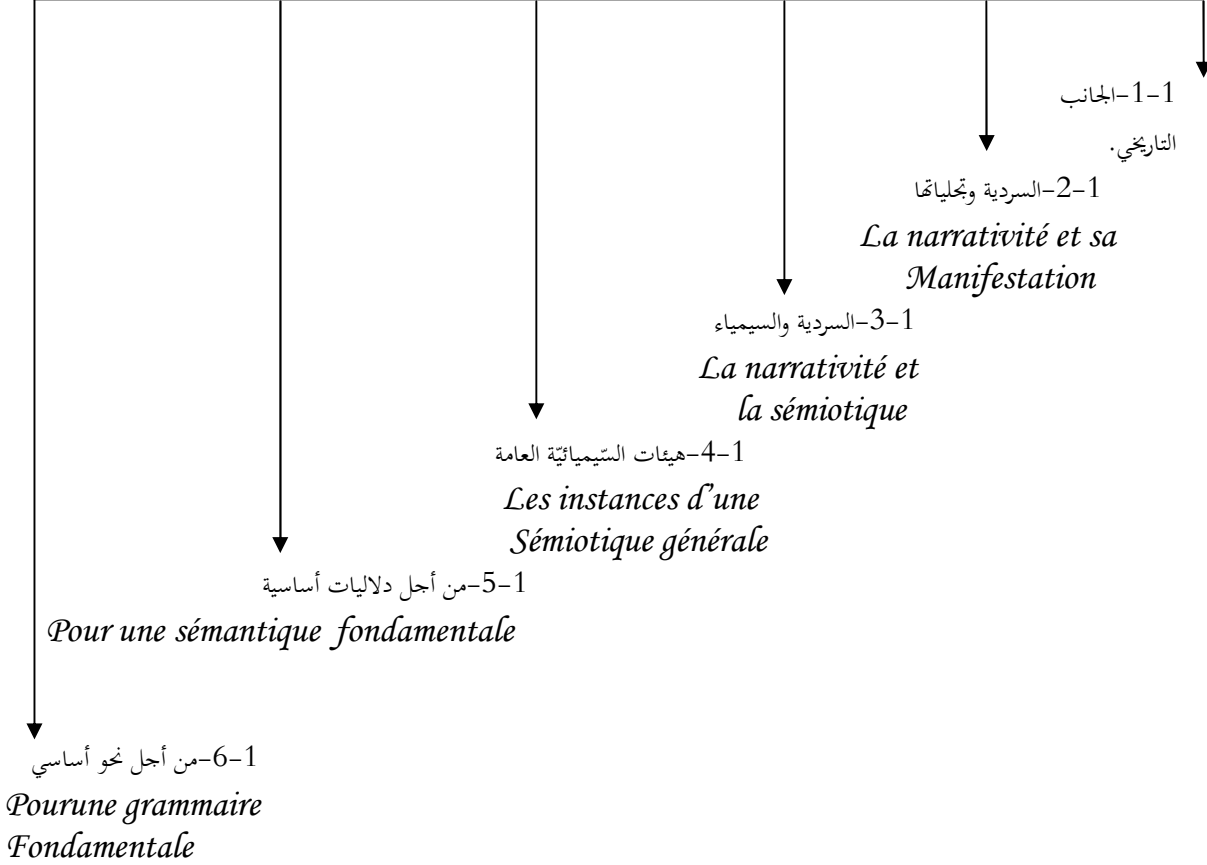
¹ - ينظر: عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، ص: 95.

² - عبد الحميد بورايو: المرجع نفسه، 95.



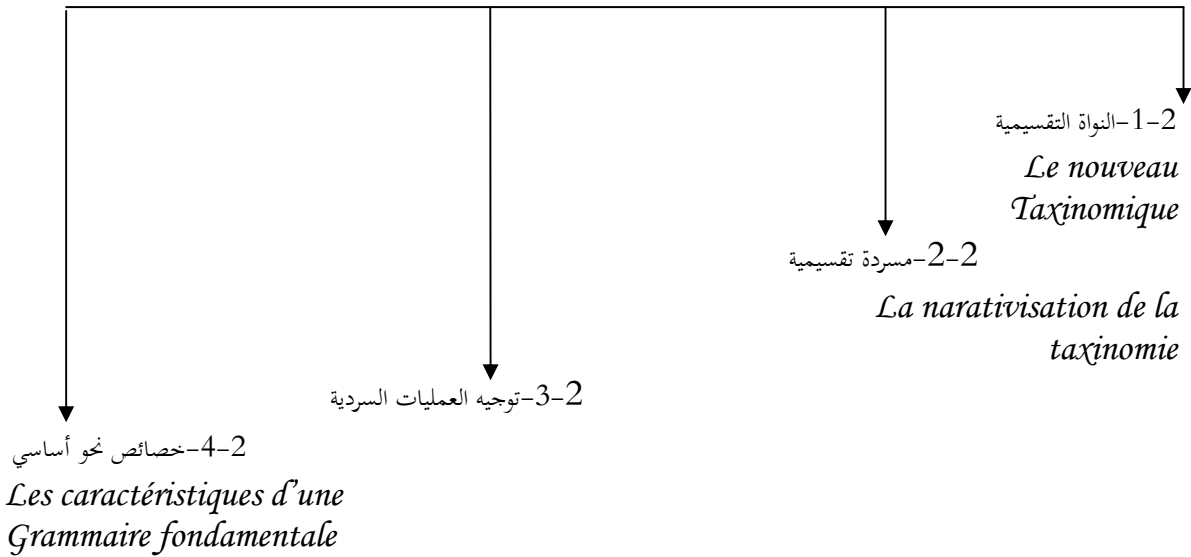
1- السردية والنظرية السيميائية

La narrativité et la théorie sémiotique



2- عناصر نحو أساسي

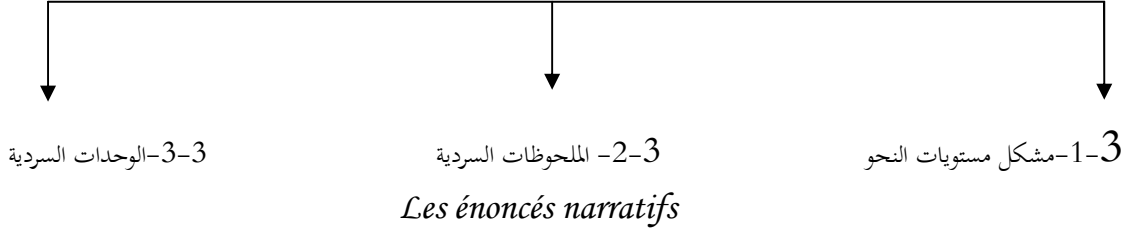
Eléments d'un grammaire fondamentale





3- عناصر نحو سردي سطحي

Eléments d'un grammaire narrative de surface



يبدو من خلال هذه الترجمة الجهد المكين الذي بذله الباحث في تبسيط هذا المقال للقارئ، وضبط مصطلحاته المتعلقة بعناصر النحو السردية.

أما آخر مقال ترجمه الباحث يتعلق بـ"المربع السيميائي والتركيب السردية" لـ"دانيال باط" (*Daniel Patle : Carré sémotique et syntaxe narrative*) وهو مقال ينزع منزعا تطبيقيا بعدما افتتح المترجم هذا المقال بتصريح (ج. ك. كوكي *J. C. Coquet*)، وقف عند التفسير البنوي للنص "مارك" الذي بين (بقصد مارك): "مساهمة هذا العمل في النظرية السيميائية، سعيا لمراعاة العلاقات بين التحلي السردية للسطح والدلالة الأساسية، ومن ناحية أخرى هو مثال للتحليل مبينا المنهج المشتق من هذه النظرية، والذي يسمح بتوضيح نسق القيم العميقة المقترحة من خلال النص استنادا إلى دراسة نظامه السردية للسطح..."¹، وفي هذا اتخذ صاحب المقال نظرية المرجع السيميائي كمنطلق كونه مرتبط بمشروع "قريماس" السيميائي، وهو العنصر النظري الذي وقف عنده الباحث والمتمثل في: "من المربع السيميائي إلى التحلي السردية"، فهذا العنصر -كما يوضحه الباحث- ينطلق من "التنظيم الدلالي والسردية في القصة البسيطة"² إلى "التنظيم الدلالي والسردية في نص مركب"³. بعد هذا ينتقل إلى الممارسة التطبيقية بتحليله نص "مارك"، الفصل الخامس: (إنجيل القديس مارك) (*Évangile selon saint Mark*)⁴. يعالج فيه بداية

¹ - عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، ص: 149.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص: 50.

³ - ينظر: نفسه، ص: 165.

⁴ - ينظر: عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردية، ص: 171.



"نسق التحولات المفيدة"¹ ثم يناول عنصر "من النسق الرمزي إلى العالم الدلالي الأدنى للنص"²، وينتهي عند عنصر "المربع الأول والثاني والثالث والرابع للنسق الرمزي"³.

إن التحليل المعتمد ههنا، قد تبني المنهج البنيوي، ولم يتقيد بآليات التحليل السيميائي، والباحث - من خلال هذا- قد واجه إشكاليتين يعاني منها جميع الدارسين، وهما إشكاليتي المنهج والمصطلح. لكن طموح الباحث دفعه بهذه المحاولة توطين النظرية السيميائية السردية في ساحتنا الثقافية. وبناء عليه، يكون من خلال هذه المقالات المترجمة قد قدم "مساهمة قد تسمح بتوضيح المفاهيم المنهجية التي حكمت تطور الدراسة الأدبية في المحيط الجامعي الجزائري خلال الربع الأخير من القرن الماضي، والتي مهدت إلى تطور الدراسات السردية في العشرية الأولى من القرن الحالي"⁴. فعملية الترجمة التي أقدم عليها الباحث، تشكل تجربة واعدة "في مواجهة مسألة ترجمة المصطلحات الحاملة للمفاهيم الأساسية والمفتاحية ذات الطبيعة المنهجية، وهي تجربة واكبت مرحلة البحث عن المصطلح العربي المناسب في ميدان السيميائيات"⁵، فما نلمسه في مسألة تأصيل المصطلح، أن الأستاذ "بورايو" حريص جدا على تمكين العمل الجماعي الذي يكون فيه عطاء مثمرا، ويكون بهذا بعيدا عن تلك الجهود الفردية المنعزلة، حيث نجد في طرحه هذا تقاربا مع دعوات الباحثين⁶ المغاربة إلى ضرورة فتح قنوات التواصل العلمي، وكذا الحوار بينهم، ف"يتحوّل البحث العلمي بموجبها إلى تعبير عن رؤى عالمية لا رؤى فردية للأشياء والواقع، يمكن أن توصف كنظام فكري تعززه الفعاليات العلمية في إطار مشروع جماعي"⁷. إلى جانب هذا، نلفيه لا يتوان في الاستعانة

1 - ينظر: م ن، ص: 173.

2 - ينظر: م ن، ص: 177.

3 - ينظر: م ن، ص.ص: 184-196.

4 - م ن، ص: ب (تقديم).

5 - م ن، ص ن.

6 - أشدهم إلحاحا على هذا، هم الباحثون المغاربة الذين تتلمذوا على يد "قريماس"، والذين يدركون تعقيدات المصطلح السيميائي في بيئته، ولا سبيل لاحتوائه إلا بتضافر الجهود، من هؤلاء: رشيد بن مالك، سعيد بنكراد، السعيد بوطاجين.

7 - عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات الدار الجزائرية، الجزائر، ط01، 2015، ص: 140.

الباب الثاني/ الفصل الأول/ المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



بالقواميس اللسانية المتخصصة التي ظهرت في المناخ الثقافي العربي والتي لا تخفي التقارب بين الدرسين السيميائي واللساني¹.

عظفا على ما سبق الوقوف عنده، يمكننا تسجيل بعض الملاحظات:

1- يبدو أن هذه الترجمات قد تمّت في فترات زمنية متباعدة، جمعها الباحث في هذا الكتاب كونها تشترك في معالجة الخطاب السردي من أوجه مختلفة، ووفق مقاربات منهجية متعدّدة، ومرّد هذا، أمّا كانت دروسا ومقالات قدّمها صاحبها لطلبته ثم نشرها في مجلات وعلى فترات.

2- إنّ الفترات الزمنية المتباعدة التي ترجمت فيها هذه المقالات، لم يحدّد الباحث تواريخها، مما صعب على الدارس ضبط الهامش الزمني بين تاريخ صدور تلك النصوص بلغتها الأم، وتاريخ ترجمتها إلى العربية.

3- لم يضع الباحث في نهاية كل مقال مترجم قائمة المراجع التي استعان بها في عملية الترجمة، كما لم يضع قائمة المراجع التي اعتمدها صاحب المقال، وخطوة كهذه نحسبها اجتهادا فرديا، قد لا يسلم صاحبها من الانزلاق.

4- لم نعثر على قائمة لـ "ثبت المصطلحات" في نهاية كل مقال، مما يصعب على الدارس تحديد المصطلحات المترجمة والمعربة، وهذا صنيع يجسده الباحثون كرشيد بن مالك، سعيد بنكراد والسعيد بوطاجين... في دراستهم، ذلك لأن الغاية منها الكشف عن مصطلحات النظرية السيميائية السردية للقارئ؛ كي يستأنس بها، ولا يجد فيها غرابة في أثناء التناول.

5- عالج الباحث في المقالات الثلاثة الأولى من الكتاب الجانب النظري لأطروحات مدرسة باريس، وقد احتكمت لمبادئ التحليل السيميائي للخطاب السردية، أمّا المقال الأخير، فقد خصّصه للممارسة التطبيقية، وفيه راوح بين التطبيق البنوي والسيميائي، مع عدم التقيّد بآليات هذا الأخير.

¹ - ينظر: عبد الحميد بورايو: المرجع السابق، ص: ج (تقدم).



6- تبدو جديّة الباحث واضحة في نقل المصطلح وترجمته بدقة، وخوفاً من الارتجالية نجدّه يحاول تقريب رؤيته من رؤى زملائه الباحثين المغاربة، وهو ما نوه عليه في التقديم.

7- هناك مراجع غربية اعتمدها الباحث في المتن، ولم نجد لها تقييدا في قائمة المراجع منها على سبيل المثال ما ورد في هامش الصفحة (24)، والصفحة (42)¹.

خلاصة:

لقد حقق الأستاذ "عبد الحميد بورايو" من خلال ترجمته لهذه المقالات غايات كثيرة هي:

- 1- الغاية التعليمية في شرح وتعريف النظرية السيميائية السردية للطلاب والقارئ العربي.
- 2- محاولته توظيف النظرية السيميائية في المشهد النقدي الجزائري والمغربي من خلال اشتغاله على خطاب الترجمة والتعريب.
- 3- المتابعة الواعية للنتائج النقدي الغربي، والجدية في نقله إلى الثقافة العربية بلغة واضحة تنأى عن الضبابية والخلط المفاهيمي والاضراب المصطلحي.

النموذج الثاني:

نرى - في هذا السياق - أنّه إذا كان "عبد الحميد بورايو" قد بذل جهدا كبيرا، يحسب له حقيقة في تأصيل هذه النظرية ضمن الخطاب النقدي المغربي عموما، من خلال ما ترجمه من مقالات أو ما نشره في مجلات أو ما قدّمه في ملتقيات. فإننا - في هذا الصدد - نجد أن الأستاذ "رشيد بن مالك" لم تقتصر ترجمته على مقالات فحسب، وإنما توسّعت لتشمل كتباً بأكملها، وهذا لا يعيق نشاط باحث تلقى النظرية على المباشر من منابعها، وليس عبر الوسائط، أضف إلى ذلك امتلاكه ناصية اللغتين (الأصل والهدف)، ومن نماذج الكتب المترجمة كتابه الموسوم

¹ - هذان المرجعان هما على الترتيب:

A. J. Greimas, "les actants, les acteurs et les figures", in sémiotique narrative et textuelle, Larrousse, Paris, 1973.

- ما ورد في هامش الصفحة (42):

A. J. Greimas, sémantique structural, Larrousse, Paris, 1966.

الباب الثاني / الفصل الأول / المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



ب: "السيمائية (الأصول، القواعد، والتاريخ)، 2008"¹، وهو في الأصل مجموعة كتب تمت ترجمتها على فترات من الزمن، قام بجمعها في هذا الكتاب، ولم يأت هذا الصنيع اعتباطاً من الباحث، وإنما كان له غرض تعليمي تعريفي جامع مانع لأصول النظرية السيميائية السردية مثبتاً لقواعدها، راصد سيرورتها التطورية عبر تاريخها المعرفي.

يضمّ هذا الكتاب بين دفتيه مقدّمة المترجم وتمهيدا، وهو في الأصل قراءة مونتاجية حول "شعرية المنهج السيميائي" للباحث الفلسطيني الدكتور: "عز الدين إسماعيل"، وستة أبواب، يتعلق أولها بتاريخ السيميائية لـ"آن إينو، وثانيهما بالسيميائية الأدبية لـ"ميشيل أريفيه، ويتعلق ثالثها بالسيميائية: نظرية تحليل الخطاب لـ"جان كلود جيرو" و"لوي بانويه"، أما رابعها فيرتبط بـ"التحليل السيميائي للخطاب: التشاكل والترابط بين التعبير والمضمون (الموكب الجنائزي)" لـ"جوزيف كورتيس"، كما يرتبط خامسها بـ"مدرسة باريس السيميائية لـ"جان كلود كوكي"، وفي الأخير يتطرّق سادسها للسيرة الذاتية والعلمية لـ"أ.ج. غريماس".

يعرض الباحث في مقدمته تجربته البحثية ومخاض ترجمته لهذه النصوص، كاشفاً - في الوقت نفسه - عن واقع الباحث الجاد المتراوح بين الطموح والخيبة حيناً، وهاجس التغيير حيناً آخر، ومن رحم الأزمات تولد همّة الباحث الداعية إلى صياغة حلول للإشكالات البحثية المتعلقة بمعرفة الآخر/ الغرب، والتي من ضمنها إشكالية تلقي المعرفة السيميائية في المؤسسة العلمية العربية منها: "تلك المتعلقة بافتقاد القارئ العربي إلى المرجعية التاريخية لهذه البحوث، وافتقاره إلى الأرضيات

¹ - إنّ هذا الكتاب جامع لبحوث سيميائية، ترجمها الأستاذ "رشيد بن مالك" على فترات زمنية، ونشرها سابقاً في كتب مستقلة، منها: - كتاب تاريخ السيميائية (*Histoire de la Semiologie*) لـ"آن إينو" (*Anne Henault*)، أشرفت على نشره كل من منشورات مخبر الترجمة والمصطلح بجامعة الجزائر، ودار الآفاق، الجزائر، عام 2004. - كتاب السيميائية (أصولها وقواعدها)، ترجم فيه الباحث مجموعة بحوث لبعض أعلام المدرسة الفرنسية (م. أريفيه، ج.ك. جيرو، ل. بانويه، ج. كورتيس)، تكفّلت منشورات الاختلاف الجزائرية بنشره، عام 2002.

الباب الثاني/ الفصل الأول/ المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



البحثية التي انطلقت منها، والتيارات العلمية التي مهّدت لظهورها، وفوضى المصطلحات، التي تعدّ السمة الغالبة في الخطاب النقدي العربي الجديد¹.

من هذا، وانطلاقاً من قناعة الباحث بجدوى العمل الجماعي المشترك، يتفق الباحث مع الناقد الفلسطيني "عز الدين إسماعيل" على وضع تمهيد كمقدمة لهذه الترجمة، والذي اتسم بالتمثيل التعليمي المبسّط من خلال المسح الكرونولوجي لأهم التيارات، "التي كان لها عميق الأثر في تطور البحوث السيميائية الراهنة، والتي تشكل علامات مركزية للقارئ العربي"². من خلال قراءة مونتاجية للمنهج السيميائي في اللغة، والثقافة، والشعر، تناولت على الترتيب³ السيميائية القديمة عند الغرب وتجلي ملامحها عند العرب، مروراً بسيميوطيقا "بورس"، وسيميولوجيا (دي سوسير)، وبأهمّ الاتجاهات السيميائية الحديثة، وبجهود "قريماس" في بنيتها عالم الدلالات (المرجع السيميائي) و"جوليا كريستيفا" في السيميائية التحولية انتهاءً بسيميائية الشعر عند "ريفاتير".

ترجم الباحث في الباب الأول المؤلف الموسوم بـ"تاريخ السيميائية" *Histoire de la Sémiotique* لـ"آن إينو *Anne Henault*"، إن مراجعة ترجمة هذا المؤلف من طرف المختصين، وقبل هذا كذلك اللقاءات المتكررة التي عقدها الباحث مع المؤلفة، هما من بين العوامل التي أسهمت في نجاح هذه الترجمة، لأنّ الوعي بهذه المهمة جعل الأستاذ رشيد بن مالك ينشد "التحرّي العلمي الجماعي المشيد على الحوار المتواصل معها أولاً، ومع الأستاذين الصّديقين (بوزيدة عبد القادر، وعبد الحميد بورايو) ثانياً، حول مختلف قضايا الترجمة التي يطرحها كتاب تاريخ السيميائية"⁴، تعرض الباحث في هذه الترجمة لمقدمة المؤلفة (آن إينو) للطبعة العربية، ثم مقدّمة الكتاب، بعد ذلك تناولت في القسم الأول "سوسير والسيميولوجيا" مبرزا المضايقات المعقدة لهذا الباحث اللساني والمشروع العلمي التي يطمح إلى تحقيقه وكذا تفرّده اللساني.

¹ - رشيد بن مالك: السيميائية (الأصول - القواعد والتاريخ)، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، الأردن، ط01، 1428هـ- 2008م، ص: 07.

² - رشيد بن مالك: المرجع نفسه، ص: 07.

³ - ينظر: م ن، (من مقدمة: عز الدين اسماعيل)، ص.ص: 23-57.

⁴ - م ن، ص.ص: 09-10.

الباب الثاني/ الفصل الأول/ المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب



أما في القسم الثاني (من اللسان إلى السيميو لساني) فيبرز جهود "هلمسليف" (1965/1895)، وطريقته في التجسيد بالتحديد منتهيا عند دور الشكلايين الروس والمثلة خاصة في جهود "ف.بروب" في دراسة الحكايات ذات التقليد الشفوي. أما القسم الثالث من هذا الباب فإنه يشكّل المرحلة الأخيرة التي انتقلت فيها البحوث من السيميولساني إلى السيميائي، وهي المحطة التي تبلورت فيها مدرسة باريس السيميائية على يد "أ.ج. غريماس"، كون هذا الأخير يعد الوريث الحقيقي لـ"هلمسليف" و"سويسر" في دراسة الدلالات¹، بحيث تناول فيها المترجم الدلالة البنيوية أو بالتوليفة الأولى 1966، ثم مسارات تحويلات المضامين أو التوليفة الثانية (1979/1966) لينتهي عند آخر فصل هو نحو توليفة ثالثة (1991/1980) هذه الفصول الثلاثة تبرز مسارات تطور البحوث السيميائية السردية الفرنسية.

يختتم الباحث هذا الباب بثبت المصطلحات الأساسية (فرنسي-عربي) كما وردت في هذه الترجمة و المقدرة بحوالي (90) مصطلحا، ترجم منها (84) مصطلحا وعزّب (06) مصطلحات وهي:

- فونيم *Phonème* ص: 191. - فونلجة *Phonologisaion* ص: 191.
- سيميولوجيا *Sémiologie* ص: 192. - تيمة *Thème* ص: 192.
- سيمسيولوجيا *Sémasiologie* ص: 192. - سيميم *Sémeme* ص: 192.

خلاصة:

إنّ اللافت للنظر، ونحن نتصفّح ثنايا هذا الكتاب بابا، بابا. استخلصنا بعض النقاط وسجّلناها في شكل عناصر، بعدما تبين لنا أن أبواب هذا الكتاب تكاد تتقاطع عندها.

1- يروم المترجم العمل الجماعي، يشجعه ويشمنه، ونلمس هذا من خلال التقديم التاريخي للمنهج السيميائي من طرف الباحث الفلسطيني "عز الدين مناصرة"، كما نلمسه كذلك وهو

¹ - ينظر: السيميائية (الأصول - القواعد والتاريخ)، ص: 159.



يحاول الابتعاد عن الترجمة الإرتجالية الفردية بوضع ما يترجمه للمراجعة من طرف أساتذة في الاختصاص ك"عبد الحميد بورايو، عبد القادر بوزيدة وعز الدين مناصرة".

2- أن النصوص المترجمة في هذا الكتاب ذات توجه واحد توّطره السيميائية السردية برغم اختلاف مؤلفيها، وتنوع مواضيعها ما جعلها تندرج "ضمن الخطاب الواحد المتنوع"¹.

3- إن اختيار هذه النصوص لهؤلاء المؤلفين الستة من طرف الباحث لم يكن اعتباطيا، وإنما كان انتقاء واعيا غايته محاولة إرساء قواعد هذه النظرية ذات التوجه الغريماسي في الخطاب النقدي المغربي على اعتبار أن هذه النصوص كانت وقيّة في طرحها لهذا التوجه.

4- ولأجل تمكينها في المشهد النقدي، اهتم كتابه بالتأصيل والتأريخ، وهذا يتم عن حرص الباحث على ضبط المعرفة السيميائية، وترسيخها دون تشويه أو ضبابية في ذهن القارئ العربي.

¹ - قادة عقاق: السيميائية السردية وتحليلاتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجاً)، ص: 327.

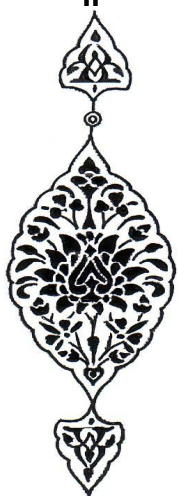
المبحث الرابع

مرحلة التّجاوز

(البحث عن بناء تصوّر

سيمبائيّ شامل لتحليل

النّصوص).





- مرحلة التّجاوز: (المبحث عن بناء تصوّر سيميائيّ شامل لتحليل النّصوص).

تبوّأت السيميائية المحسوبة على الاتجاه الغريماسي موقعا مسموحا به في المشهد النقديّ المغربي والساحة الثقافية العربية عموما، وفرضت نفسها كمنهج للتّحليل، يعوّل عليه في سبر أغوار النّص. حدث هذا، بعدما استأنس الباحث المغربي بأدواته الإجرائيّة والتحليليّة، وتمرس أكثر على تطبيقه تطبيقا صافيا لما لمس فيه تلك الفاعلية والمرونة التي -ربما- افتقدها في المناهج التقديّة الأخرى.

من هنا، جاء التفكير ملحا في محاولة بناء تصوّر سيميائيّ شامل في تحليل النّصوص وتفجير مكنوناتها، وبغية تحقيق هذا المبتغى، قام الباحث المغربي بترويض المنهج وتكييفه -من دون أن يفقد صرامته- بما يتماشى وخصوصيّات النّص الأدبي العربيّ المدروس. والنّاظر -في هذا الشأن- يلمس تلك النظرة التّوافقية -ربما- بين الباحثين المغاربيين في مقارنة النّصوص، فالدراسات التي نشرت تباعا في فترات متأخرة وبخاصّة في المغرب والجزائر، تناولت نصوصا سردية كثيرة في مجال الحكاية والقصة والرواية، حيث حاول فيها الباحثون تطويع المنهج وفق رؤية توافقية في تحليل، فلا نكاد نجد تباينا في مقارباتهم، إلا فيما يضيفه كل باحث من هؤلاء من بصمة خاصّة به على منجزه. والشاهد في هذا، هو التّحليل الجبري الواضح في تلك المقاربات، والذي ينمّ عن وفاء الباحث المغربي لاتجاه السيميائية السردية، فلا يكاد يخرج عن إطارها العام. ولنا في هذا نماذج كثيرة، سنقف عند بعضها في الفصول الموالية، من هذا جاء تقسيمنا لهذه المرحلة إلى لحظتين مهمتين متكاملتين هما: لحظة الممارسة التّطبيقية، ولحظة التّأليف القاموسي والمعجمي.

1- لحظة الممارسة التّطبيقية:

تتماز هذه اللّحظة بالفاعلية والدينامية، انتقل فيها الباحث المغربي من المجال النظري الذي بدا فيه مؤصّلا ومنظّرا ومترجما وشارحا... لأطروحات النظريّة السيميائية إلى المجال الإجرائي. وهو فضاء أرحب، يسعى فيه الباحث لاختبار الأدوات الإجرائية لهذه النظريّة، وإبراز مدى نجاعتها، وفعاليتها في تحليل النّصوص على اختلاف أنواعها وأنماطها. هذا ما نلمسه في مؤلّفات أي باحث مغربي، الذي نعهده دائما يستهل دراساته منظّرا، ويختتمها مطبقا. من هنا، نجده يحلّل نصوصا متنوّعة من منظور السيميائية السردية محاولا في ذلك، "إثبات فعالية هذه النظريّة وقدرتها



على تفكيك مختلف النّصوص العربيّة (حكاية شعبيّة، قصة قصيرة، رواية وغيرها...)¹، فنلغ فيه يعمل إجراءاتها التحليليّة إعمالاً، لا يكاد يخرج عمّا هي عليه في الأصل، من دون تغييب الخصوصية المحليّة، فالصرامة المنهجية التي يتقيّد بها الباحث المغربي ههنا، تدفعه طواعيّة "إنتاج الدّلالة بدلا من تفسيرها، والبحث في لا نهائيتها"².

لقد أفرز هذا الاجتهاد دراسات محمودة³، بدت فيها الاحترافية الواضحة للباحث، وكذلك تخصّصه العميق في حقل السيميائيّة السردية، ولنا - في هذا المقام - أقلام نقدية مغاربية باتت الآن تشكل أيقونات الدرس السيميائيّ العربي بلا منازع؛ إذ تمثل بحوثهم الرائدة علامات بارزة في المشهد النقديّ العربيّ، فلا يخفى على أحد تلك الجهود التي بذلها هؤلاء سواء في التنظير أو في الترجمة أو في التطبيق، والمطلع على المنجز النقديّ هؤلاء يمكنه "العثور على عدد من الاتجاهات في النقد التطبيقي للسيميائيّة في [النص السردية] التي لا تعني إخلاص ناقد لهذا

¹ - قادة عقاق: السيميائيّة السردية وتحليلاتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجاً)، ص: 345.

² - آراء عابد الجرمان: اتجاهات النقد السيميائيّ للرواية العربية، ص: 93.

³ - منها على وجه الخصوص تلك الدراسات التي تناولت النصّ السردية (سواء أكان حكاية أو قصّة قصيرة أو رواية): في طبعته الأولى: 1/ النصّ السردية، نحو سيميائيات للإيدولوجيا لصاحبه "سعيد بنكراد" لصادر عن دار الأمان، المغرب، 1996. ولنفس المؤلف كذلك: سيميولوجيا الشخصيات السردية (رواية "الشراع والعاصفة" لحنامينة نموذجاً) الصادر عن دار مجلاوي، عمان، 2003. 2/ مقدمة في السيميائيّة السردية لصاحبه "رشيد بن مالك" الصادر عن دار القصبة، الجزائر، 2000. ولنفس المؤلف كذلك: السيميائيات السردية الصادر في طبعته الأولى عن دار مجلاوي، عمان، 2006. وله أيضاً: البنية السردية في النظرية السيميائيّة، دار الحكمة، 2000. 3/ سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائيّ المتجانس لصاحبه "محمد الداوي" الصادر في طبعته الأولى عن رؤية، القاهرة، 2009. 4/ التحليل السيميائيّ للخطاب الروائي، البنات الخطابية - التركيب الدلالة - لصاحبه "عبد المجيد نوسي" الصادر في طبعته الأولى عن دار المدارس، الدار البيضاء، 2002. 5/ الاشتغال العاملي: دراسة سيميائية جديدة - غدا يوم جديد لابن هدوقة - لصاحبه السعيد بوطاجين، الصادر عن منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000. 6/ مباحث في السيميائيّة السردية لصاحبه نادية بوشفرة، الصادر عن دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2008. 7/ البناء والدلالة في الرواية - مقارنة من منظور سيميائية السرد - لصاحبه عبد اللطيف محفوظ، الصادر في طبعته الأولى عن الدار العربية ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010. ولنفس المؤلف كذلك: المعنى وفرضيات الانتاج، مقارنة سيميائية في روايات نجيب محفوظ الصادر في طبعته الأولى عن نفس الدار ومنشورات الاختلاف 2008. 8/ مباحث في السيميائيات لصاحبه عبد المجيد العابد، الصادر في طبعته الأولى عن دار القرويين، المغرب، 2008. 9/ في الخطاب السردية - نظرية غريماس (Greimas) لصاحبه محمد الناصر العجيمي، الصادر عن الدار العربية للكتاب، 1993.



الاتجاه أو ذاك، بل تعني تطبيقات متداخلة حيناً، ونقيّة حيناً آخر مثل: الاتجاه الباريسي والاتجاه الثقافي، والاتجاه التداولي، والاتجاه التوفيقي¹.

الاتجاه التوفيقي	الاتجاه التداولي	الاتجاه الثقافي	الاتجاه الفرنسي(الغريماسي)
<p>من ذلك على سبيل المثال: كتاب البناء والدلالة في الرواية - مقارنة من منظور سيميائية السرد- لعبد الطيف محفوظ".</p> <p>من العنوان تتضح نية الباحث في تناوله التوفيقي بين أطروحات البنيوية (البناء)، والسيميائية (الدلالة)، ولضبط أكثر اعتمد على السيميائية السردية الغريماسية، متحاشياً بذلك باقي السيميائيات (الأهواء - الكون- التواصل...).</p> <p>ينظر: آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 255-323</p>	<p>من ذلك على سبيل المثال : كتاب المعنى فرضيات الانتاج- مقارنة سيميائية في روايات "نجيب محفوظ" لعبد الطيف محفوظ".</p> <p>ينظر: آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 217-254.</p>	<p>من ذلك على سبيل المثال: - كتاب "النص السردى، سيميائيات الإيدولوجيا" لسعيد بنكراد؛ بحث اختار نصين للمقارنة هما (الشرع والعاصفة) لحنا مينة، و(الضوء الهارب) لمحمد برادة. حيث يطبق الباحث "محاولته السيميائية الثقافية ضمن تناولين إيدولوجيين: تسريد الجسد عبر ثنائية الذكر والمؤنث في رواية (الضوء الهارب) لمحمد برادة والطابع الأطروحي في رواية (الشرع والعاصفة) لحنا مينة".</p> <p>آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 182. اعتمد سعيد بنكراد في هذه الدراسة على المنتج التقديّ الفرنسي (أفكار قريماس وتلامذته) في تقديم الفهم السيميائيّ الثقافي، هذا الصنيع، "أدى إلى وجود ما يمكن تسميته السيميائية الثقافية الباريسية..." نفسه، ص: 183.</p>	<p>من ذلك على سبيل المثال: 1- جميع دراسات رشيد بن مالك، منها خاصة: مقدّمة في السيميائية السردية 2000، والبنية السردية في النظرية السيميائية 2000، وسيميائيات السردية، 2006.</p> <p>2- التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية- التركيب الدلالة- لصاحبه عبد المجيد النوسي، 2002.</p> <p>3- في الخطاب السردى: -نظرية غريماس (Greimas) لصاحبه محمد الناصر العجمي، 1993.</p> <p>4- مباحث في السيميائية السردية لصاحبه نادية بوشفرة، 2008.</p> <p>5- مباحث في السيميائيات لصاحبه عبد المجيد العابد، 2008</p> <p>6- الاشتغال العاملي: دراسة سيميائية جديدة -غدا يوم جديد لابن هذوقة- لصاحبه السعيد بوطاجين، الصادر عن منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000.</p>

¹ - آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص: 94.



خلاصة:

هذه الدّراسات وغيرها، أبرزت للناظر تمكين أطروحات السّيميائيّة السّردية في مشهدها التّقديّ من جهة، وزعزعت في الوقت نفسه بعض المعطيات والثوابت التي كانت من المسلمات في الماضي من جهة ثانية. كل هذا، جعلها لم تسلم من بعض المعوّقات المعرفية، الأمر الذي دفع بالباحثين إلى ضرورة ضبط المنهجي والمصطلحي، فجاء التفكير في معالجة هذه الإشكالات معالجة علمية تخضع المصطلح للمتابعة والفحص المستمرين. من هنا كانت الحاجة ملحة إلى تأليف قاموس أو معجم متخصص، يستطيع الباحث من خلاله تناول النّصوص، وهو مزوّد بترسانة مصطلحية جاهزة تجعله أكثر إقبالا على الإجراء.

2- لحظة التّأليف القاموسي والمعجمي:

تمهيد:

لا تكاد تخلو أي تجربة نقدية من إشكالات تعترض طريقها، والخطاب المغاربيّ والعربيّ عموما واحد من هذه التّجارب التي ثبّطت هذه الإشكالات حركيتها خاصة فيما يتعلق بالمنهج والمصطلح، فإذا كانت إشكالية المنهج قد وجد لها الباحثون صياغات الأعمال، ومبررات الممارسة بما يتماشى ومتطلّبات النصّ الأدبي من تركيب (تلفيق) وانتقاء أو من تطبيق أحادي (صافي)، فإنّ الإشكالية الثانية (إشكالية المصطلح)، لا تزال محلّ نقاش بين الباحثين جرّاء التّراكم الهائل للمصطلحات التّقديّة المتهاطلة علينا كما الوابل، والتي لم يفصل في غالبيتها، كونها بقيت محلّ خلاف بين الباحثين العرب، ومرّد ذلك -في تقديرنا- يتجلى في تباين الروافد العلمية والإبستمولوجية لهؤلاء، وكذلك في اختلاف اللغة الثانية لديهم، فضلا عن الاجتهاد الفردي على حساب عمليات البحث الجماعي، وكذا عدم مواكبة الجديد، وغياب المراقبة المسؤولة من طرف الجامعات اللّغوية ومراكز البحث المختصة بالترجمة. كل ذلك ترتّب عنه معوّقات لا حصر لها، لعلّ أقلّها وقعا ذلك الاضطراب، وتلك الفوضى الناجمتين في نقل المصطلح التّقديّ عبر آليتي الترجمة والتعريب من لغته الأصل (المصدر) إلى لغة الهدف، والتي نجملها "في الترجمة الواحدة



للمصطلحات المختلفة أو الترجمات المختلفة والمتعددة للمصطلح الواحد، والتي تتعدد بتعدد المترجمين والدّارسين¹.

لقد قاد هذا التصرف الذي يكشف عن غياب الجهود الجماعية، والتنسيق بين الباحثين في عملية الترجمة إلى السقوط في التعميم، والنقل العشوائي للمصطلح السيميائيّ دون التحقيق في مرجعيّاته العلمية، وهو ما أفضى - في الأخير - إلى ميلاد خطاب نقدي مشوّه يفتقد إلى الرؤية العلمية المتخصصة، وأمام هذا الوضع المعيق لتلقي المعطى السيميائيّ في المشهد النقديّ العربي ككل، نهض الباحث المغربي باحثاً عن وسيلة ناجمة، يضبط بها هذا المصطلح النقديّ في الثقافة العربية، فرأى في البداية أنّه لا بدّ من تذييل دراساته² بقوائم "ثبت المصطلحات" بحيث يحمي كل المصطلحات السيميائيّة الواردة في متن بحثه، فيرتبها ترتيباً ألفبائياً، ثم يجتهد في وضع المقابل الغربي لها.

قد لا ينكر القارئ العربي هذا الجهد الفردي الذي يقلّل - إلى حدّ كبير - من غلواء هذه الإشكالية، لكن رغم أهميته في تقريب المعرفة للدارس المتخصّص، نلفيه لا يعالج القضية نهائياً، من هذا بات على الباحث المغربي التفكير في حلول أخرى أكثر نجاعة، فجاءت محاولة التّأليف القاموسي والمعجمي، وهي مهمة صعبة، تستدعي منه الحذر الشديد في التعامل مع المصطلح السيميائيّ، ذلك لأنّ السيميائيّة كحقل معرفي جديد لم يستو سوقه بعد في البيئة التي خلقتة، كما لاتزال مصطلحاته يكتنفها الغموض. الحال هذه، أفرزت جملة من التّساؤلات، فحوها:

ما الوضعية الحقيقية للمصطلح السيميائيّ في مشهدنا النقديّ؟، وهل هناك سبل ناجعة تساعد على توطينه في الثقافة العربية؟.

¹ - قادة عقاق: السيميائيّة السردية وتجلياتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجاً)، ص: 374.

² - ينظر في هذا الصّدّد: الدّراسات المغاربيّة الكثيرة كدراسات سعيد بنكراد، ورشيد ن مالك، وعبد الحميد بورايو، السعيد بوطاجين...



يرى الباحث "رشيد بن مالك" - في هذا الصّدّد- أن خوض هذه التجربة تعدّ "مغامرة صعبة في حقل معرفي لم تستقم فيه المصطلحية بشكل نهائيّ..."¹.

لقد توجّحت الجهود التّنظيريّة والتّطبيقيّة للباحث المغربي في توجّرها الغريماسي بالتّأليف القاموسي والمعجمي، بحيث جاء كوسيلة لجمع "مصطلحات المادّة السيميائيّة بطريقة علمية، يسهّل على القارئ العربي فهمها، والاستعانة بها في استيعاب ما جاء في البحوث والدراسات اللسانيّة والسيميائيّة الحديثة المعاصرة الغربيّة"²، فنظرا لأهميّة هذا الإنجاز وجدّته من ناحية، ولما يحمله من قيمة علمية متخصصة مقدّمة للقارئ العربي من ناحية ثانية، سوف نستحضر نموذجين مغاربيّين هما:

- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنصوص (عربي - انجليزي- فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، فيفري 2000.
- فيصل الأحمر: معجم السيميائيّات، الدار العربية للعلوم ناشرون، و منشورات الاختلاف، ط01، لبنان، الجزائر، 1431هـ-2010م.

2-أ- التّأليف القاموسي:

يعد قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنصوص، من القواميس الرائدة. إنّه أوّل بكورة عمل متخصصة في السيميائيّة السردية مغاربيّا وعربيّا، كونه "يتضمّن من التّرسيمات "Shéma" والأشكال ما يجعله متميّزا، فهو معجم جامع في حقله، مثل حلقة في سلسلة المعاجم المتخصصة عموما، وفي معالجة السيميائيّات خصوصا"³. وعلى وجه التّحديد ما يتعلّق بمصطلحات السيميائيّة السردية الغريماسيّة، والتي عاينها الباحث من مظانها، ورصد تحولاتها داخل لغتها الأم قبل نقلها إلى لغة الهدف. فلقد استطاع الباحث -ههنا- تجاوز بعض العقبات في إيجاد المقابل

¹ - رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنصوص (عربي - انجليزي- فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، فيفري 2000، ص: 12.

² - عبدالقادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النّص، منشورات الدار الجزائرية، الجزائر، ط01، 2015، ص: 135.

³ - عبد القادر شرشار: م ن، ص: 136.



العربي الصحيح للمصطلح السيميائيّ إن ترجمة أو تعريبا، كونه "على دراية عميقة باللغة والثقافة مصدرّة كما باللغة والثقافة المستقبلية"¹.

إنّ هذا الجهد الفردي الذي يعده صاحبه مجرد محاولة، استطاع أن يكشف عن 642 مادة² مترجمة أو معربة تخصّ جميعها إجراءات التحليل السيميائيّ للنصوص السردية، بحيث عمد الباحث -بعد جمع هذه المواد (المصطلحات)- إلى وضع كل مصطلح باللغة الفرنسية متبوعا بالترجمة الإنجليزية والعربية³ مع بسط عملية الوضع المصطلحي بالشرح والتفسير والتحليل، وكذلك مع تذييل بعض المداخل أحيانا بالإحالات المناسبة لأجل احتواء المصطلح وإحاطته فهما ووعيا، وأورد هذا كلّ "بلغة سهلة واضحة، بحيث ابتعد عن الحوشي والغريب، والرموز والألغاز، لم يتوسّع في النصوص والشواهد التي تجد مادّتها في المعجمات، واستعان بالأشكال والترسيمات، وقد شكّل هذا العمل جانبا مهما في القاموس، أضاف إلى تحليل المصطلحات، وضبط المفاهيم بعدا آخر ما كان ليدرك لولا الأشكال الهندسية التي أخذت حيزا معتبرا من أجل القاموس (27 ترسيمة)"⁴.

لقد استعان الباحث في تشييد هذا القاموس الثلاثي اللغة (عربي-إنجليزي-فرنسي) على المعجم المعقلن لنظرية الكلام لصاحبه "أ.ج. غريماس" و"ج. كورتيس"، بحيث حاول في أثناء تحديد المصطلح وترجمته، "تجاوز التعقيدات اللغوية والمفهومية المتخللة في المعجم بالرجوع إلى المعاجم اللسانية والنصوص السيميائية التي تشكل نقطة ارتكاز مهمة لفهم الإنجازات السيميائية"⁵، لقد أورد الباحث المواد (المصطلحات) التي جمعها وترجمها وفق الترتيب الأبجائي الفرنسي المتصل، وهي طريقة جعلت هذا القاموس ينماز بميزتين، "هما: التجزؤ والدائرية، ومردّ الصفة الأولى، إلى أنّه يخضع إلى ما تخضع إليه سائر المؤلفات المعجمية التقليدية من تنظيم المادة وفق الترتيب الأبجدي، مما يفضي إلى فصل المفاهيم المنتظمة في سياق النظري واحد بعضها

¹ - قادة عقاق: السيميائية السردية وتحليلاتها في النقد المغاربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجاً)، ص: 375.

² - تمكّننا من رصد 214 مصطلحا فرنسيا يقابله 214 مصطلحا إنجليزيا، ويقابله 214 مصطلحا عربيا، فيصير المجموع 642 مصطلحا.

³ - ينظر: رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائيّ للنصوص، ص: 12.

⁴ - عبد القادر شرشار: م س، ص: 136.

⁵ - رشيد بن مالك: م س، ص: 12.



عن بعض، إلا أن القارئ يلاحظ -وهذا ما يفسر صفة الدائرية- أنّ بعض المواد يحيل على بعض، وبعضها يشرح بعضاً، ممّا يوحي بانتظامها جميعاً في نسق فكري متكامل¹. هذه الخطوات مكّنت الباحث من حصر مادته ومعالجتها بموضوعية؛ حيث نلغيه يمارس التّرجمة السياقية للمصطلحات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأحياناً يقوم بتعريفها عندما لا يجد لها المقابل العربي الدقيق، من ذلك نجد:

إيديولوجيا <i>Idéologie</i>	سيميم <i>Sémème</i>
إيزوتوبيا <i>Isotopie</i>	سيمولوجيا <i>Sémiologie</i>
موتيف <i>Motif</i>	تيمي <i>Thématique</i>
سيمنتيم <i>Sémantème</i>	تيم <i>Thème</i>
سيم <i>Sème</i>	طويقي (فضاء) <i>Topique (espace)</i>
علم تطور دلالات الألفاظ <i>Sémasiologie</i>	إيطويقي (فضاء) <i>Utopique (espace)</i>

يقف أحد الباحثين المغاربيين في هذه النقطة إلى أنّ صاحب القاموس يؤثّر إبقاء هذه المصطلحات على صورتها الأجنبية على الرغم من وجود مقابلات عربية لبعضها كمصطلح (*Isotopie*) الذي يقابله مصطلح (تشاكل)، ومصطلح (*Sème*) الذي يقابله مصطلح (مقوم)، ومصطلحي (*Espace topique*) و(*Espace utopique*) اللذين يقابلهما على التوالي مصطلح (فضاء الفعل) ومصطلح (الفضاء الوهمي)².

خلاصة:

بهذا المنجز، يكون الباحث قد سهّل المهمّة على المشتغلين في الحقل السيميائيّ من باحثين وطلّاب في استثمار هذه المصطلحات في دراساتهم. لكن وبرغم هذا الجهد المحمود لصاحب القاموس، تبقى إشكاليّة المصطلح تطرح نفسها، ممّا يستوجب تشجيع العمل الجماعي والذي نرى أنّه لا يتحقّق إلا بفتح قنوات الحوار بين الباحثين وتبادل وجهات النّظر ومناقشتها

¹ - عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النّص، ص: 144-145.

² - ينظر: قادة عقاق: السيميائية السردية وتحليلاتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية غريمناس نموذجاً)، ص: 377.



برؤية علميّة، وهذا ما تطمح إلى تحقيقه "جمعية رابطة السيميائيّين الجزائريّين"¹ من خلال الأهداف التي سطرّها²، وتحاول التقيّد بها من أجل الدّفع بحركيّة البحث السيميائيّ الجزائري والمغاربي عموماً نحو الأفضل، وتشبيد خطاب سيميائيّ صاف يروم الجديد، ويتجاوز كلّ ما هو تقليدي.

2-ب- التّأليف المعجمي:

إذا كان "قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنّصوص" ينمّ عن طموح الباحث الدكتور رشيد بن مالك في ترسيخ وتوطين مصطلحات النّظرية السيميائية ذات الاتجاه الغريماسي في السّاحة النّقديّة المغاربيّة والعربيّة عموماً، والذي نلمس فيه الجهد الفردي المكين في ترجمة وشرح وتفسير وتحليل المصطلح السيميائيّ السّردي، نأتي عل ذكر منجز مغاربي آخر، يضاف إلى المكتبة النّقديّة العربيّة، ويتجلّى ذلك في "معجم السيميائيّات"، الصادر في طبعته الأولى عن منشورات الاختلاف بالجزائر عام 1431هـ/2010م، وهو إنجاز جماعي محمود لباحثين شباب واعددين، وهم الباحث "فيصل الأحمر" (نسب إليه هذا المعجم)، وأخريات هنّ "حياة طكوك"، "سامية فرطاس"، "نصيرة عبد اللوش"...³.

يمتدّ هذا المعجم على مدار 360 صفحة، ويضم بين دفتيه مقدّمة و(38)مبحثاً، ومكتبة بحث تحوي المصادر والمراجع المعتمدة. تعد هذه المباحث صلب عمل هذا المعجم، وهي: السيميائيّات: حول المصطلح والمفهوم، الإشارات السيميائية التّقليديّة عند الغرب، السيميائيّات في التّراث العربيّ القديم، سيميولوجيا "دي سوسير"، ثلاثيات "بيرس": الممثل-الموضوع-المؤوّل، النقد السيميائيّ، السيميائيّات اللّغويّة والسيميائيّات غير اللّغويّة، سيميولوجيا التّواصل، سيميائيّات الدلالة، سيميوطيقا الثقافة، سيميائيّات المسرح، سيميائيّات السينما، سيميائيّات الإشهار،

¹ - تأسست بجامعة سطيف، شهر ماي 1998، يرأسها "عبد الحميد بورايو" ويعدّ "رشيد بن مالك" من بين مؤسّسيها التّشطين، وهو عضو بارز في مكتبها.

² - من بين أهدافها: -لمّ (بضم الميم) شمل السيميائيّين الجزائريّين، وترقية الممارسات السيميائية نظريّاً وتطبيقاً، ونشرها وتوزيعها وترجمتها... ينظر: رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التّحليل السيميائيّ للنّصوص، مقدّمة عبد الحميد بورايو، ص.ص: 8-9.

³ - ينظر: فيصل الأحمر: معجم السيميائيّات، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط01، 1431هـ/2010م، ص: 10.



سيميائية الصورة، الفضاء، النّص وعلمه، التناس، الخطاب، نظرية القراءة والتلقي، التأويل والمهرمونوطيقا، السيميوزيس، التعيين والتضمن، السيميائيات السردية، سيميائيات الشخصية، سيميائية العتبات النصية، المربع السيميائيّ، التشاكل والتباين، القيمة المهيمنة، السيميائيات والفلسفة، السيميائيات وعلم الدلالة العربي، السيميائيات وعلم الاجتماع، السيميائيات وعلم النفس، السيميائيات والارث الشكلياني، السيميائيات والشعرية، السيميائيات والظاهرية، السيميائيات والبنوية، السيميائيات والأسلوبيات، السيميائيات والتفكيكية.

إنّ الناظر إلى هذه المباحث، يجدها تتمحور حول موضوع السيميائيات، بحيث عاجلت المرجعيّات الفكرية للنّظرية السيميائية، فبحثت في المنابت وفي تأصيل المصطلح لدى الغرب، وفي تجلياتها في بحوث الأصوليون والمناطقة والبلاغيين العرب، وفي منطلقاتها الأوربية (جهود سوسير) والأنغلو سكوتية (جهود بيرنس) وكذلك في أنواعها واتجاهاتها... كما أماطت اللثام عن بعض مصطلحات التحليل السيميائيّ السردية للنصوص التي تظهرت في أعمال غريمانس وتلامذته، وكذلك عن علاقة النّظرية السيميائية مع بعض العلوم والمناهج التّقديّة.

إنّ هذا الجهد الجماعي لهذه الفئة الباحثة رغم عدم اختصاصها في التأليف المعجمي، استطاعت - إلى حدّ كبير - تجاوز العقبات والوقوف عند أهمّ التّداخلات المعرفية في مجال السيميائيات، وكذلك تبديد بعض الشيء ضبابية المصطلح في ذهن القارئ العربي، بحيث شكل هذا كله دافعا لإنجاز هذا المعجم، ومن هذا المنطلق "جاء التفكير في كتاب واحد جامع نافع مانع، موقع معرفي واحد يجمع هذه الأشئات المنفرقة، ويدقق في التّفاصيل الجملة ويفرّق بين العناصر المختلطة والأشياء المتداخلة لشدة الشبه والتقارب"¹، ذلك لأنّ التفكير في إنجاز هذا المشروع الضخم، ليس بالأمر المستحدث ولا الاجتهاد المطلق، إنّما هو إضافة لمنجزات سابقة قديمة وحديثة كونها "كانت حاضرة في ذهننا، وكانت تطرح السؤال: ما الهدف من تحرير أشياء موجودة بلا ريب في مظاهرها، ويمكن الذهاب إليها في أيّة لحظة وفي أيّ موقع متى ما شاء الباحث ذلك"²، فهذا الهاجس الإشكالي، والقلق المعرفي لهذه الثّلة المغاربية الباحثة، دفعهم لضرورة تبيان

¹ - فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، ص: 07.

² - فيصل الأحمر: م س، ص: 08.



الغاية من هذا المنجز بالوقوف عند جواب شاف جامع مانع يدعوهم "في لحظة ما جمع هذه الأشتات، وتنظيمها، ووضع بعضها إلى جوار بعض، ثم تقديمها في حلة تتماشى مع طالبها، ثم نفض الغبار عما اعتراه الغبار منها وعلينا تبيان أثر الزمن على هذه المفاهيم"¹.

لم يكن هذا الصنيع سهلا، أمام ترسانة مفاهيمية ومصطلحية، وما تحمله من إشكالات وطروحات متداخلة. لقد استدعى هذا كلّ من تلك الثّلة الباحثة تناول كل مادة واردة في هذا المعجم تناولا واعيا من خلال مناقشتها ومعالجتها "كما هي في نظرية الأدب عموما، وكيف طرحها نقادها في جميع العصور، قديما وحديثا، من "أرسطو" و"الأطون" إلى نقاد العصر الحديث على اختلاف مشاربهم المنهجية سواء عند العرب أو عند الغرب... مع إضافة اعتبار كون هذه المعارف جديدة على الدائرة العربية لصعوبة تمثّلها رغم رسوخها في الثقافة الغربية ولدى النخبة العربية"².

ما يمكن الوقوف عنده في هذا المؤلّف، يتجلى فيما استخلصناه من نقاط، هي كما يلي:

1- لقد اعتمدت هذه الثّلة الباحثة الشمولية في التناول، حيث عاجلت بعض المواد السيميائية المتعلقة بالسيميائية العامة والأدبية.

2- لم تعتمد الطريقة المعمول بها في إنشاء المعاجم، من ترتيب ألفبائي أو أبجدي أو من نظام الأبواب والفصل بين المواد.

3- إنّ المنجز بحجم المعجم يستدعي اعتماد مكتبة بحث ثرية من حيث مصادرها ومراجعتها الغربية، وهذا ما غيبته هذه الثّلة في بحثها، ولم تأخذ بعين الاعتبار أن السيميائية علم غربي بالدرجة الأولى، ويستحيل تناوله بدون مادته الغربية، فشحاحة المصادر الغربية حالت دون تحقيق المراد.

¹ - م ن، ص ن.

² - م ن، ص: 10.



4- اعتمدت في تناول المادة السيميائية على المرجعية العربية (كتب عربية) وعلى كتب مترجمة، وهي كلها وسائط لا ترقى إلى المصادر الغربية.

5- من هذا كلّه يمكن اعتبار هذا المؤلف "أبحاثا في السيميائية" وليس "معجما للسيميائيات"؛ لأنه لا يخضع لمقاييس التأليف المعجمي.

خلاصة تركيبة:

وعظفا على ما تمّ الوقوف عنده، نرى أنّ تلقي النّظرية السيميائية في مشهدنا النّقديّ -الذي تفعلّ أكثر مع بدايات تسعينيات القرن الماضي- قد اعترضته عقبات كثيرة، أقلّها الإحساس بالنفور من كل ما هو دخيل على ثقافتنا سواء أكان ذلك أفكارا أو نظريات أو مناهجا خوفا من التبعية والاستلاب، وهي نقطة تمّ الفصل فيها، وتجاوزها الباحث المغاربي والعربي عموما، بدعوى أنّ المعرفة -مهما كانت- هي ملك مشاع بين الأمم. أمّا أكثرها حدّة فيتجلى في الإشكال العويص الذي يراود ذهن الناقد الأدبي المغاربي، والمتمثل في إيجاد طرائق بحث ناجعة تمكّنه من تأسيس خطاب سيميائيّ مغاربيّ.

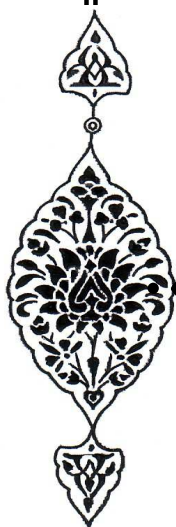
إنّه أمام هذا الخصاص المعرفي الذي يعاني منه هذا الخطاب -والذي طال المنهج والمصطلح معا-، بسبب قدم أدواته النّقديّة العاجزة أمام الرّحم المعرفي المتدفّق باستمرار، صار لزاما على هذا الباحث -في ظل غياب قنوات الحوار بين الباحثين- مضاعفة مجهوده الفرديّ في نقل معالم النّظرية السيميائية إلى الثقافة العربيّة؛ كي يتسنى له ضبط معالم هذا الخطاب ورسمها، فيصير بذلك خطابا نقديّا عربيّا، حتى وإن متح من المعطى الفكري للآخر، تكون له خصوصيّة ينماز بها عنه. هذا ما يحاول الباحث المغاربي تحقيقه من خلال المنجز المتخصّص.

الفصل الثاني

الممارسة السيمياءية

في الخطاب النقدي المغربي

- واقع وإشكاليات -

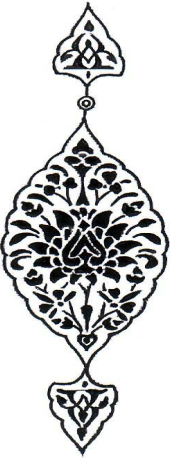


المبحث الأول

النظريّة السيميائيّة

وإشكاليّاتها في المشهد

النقدي المغاربي.



- النظرية السيميائية وإشكالياتها المنهجية والمصطلحية في المشهد النقدي المغربي.

1- واقع الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي.

شهدت الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي عدة مآزق لا تكاد تخرج عن جملة من الإشكاليات، عكست واقع هذه الممارسة الذي تجلّى في إشكالية استقبال النظرية والمنهج والمصطلح النقدي، وكذلك إشكالية إضفاء الشرعية التراث في الخطاب النقدي، وزيادة على ذلك كلّ احتدام الصراع التقليدي بين دعاة المحافظة ودعاة التجديد، ولعلّ أشدّ هذه إشكاليات تأثيراً هي إشكالية المنهج والمصطلح النقدي، نظراً للعلاقة التي تربطهما، فحضور أحدهما يستدعي بضرورة حضور الآخر لأتهما "صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي، ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي وتذهب ربحه ويفشل في القيام بوظيفته"¹، فكما هو معلوم، أن بناء صرح المنهج النقدي يتم على أنقاض المناهج النقدية الآفلة، وأمر كهذا يؤدي إلى التداخل بين الحقول المفاهيمية والمصطلحية للمناهج، فيتولّد عن ذلك اضطراب وفوضى تطل المنهج والمصطلح معاً.

1-أ- الإشكالات المنهجية:

لم يأت انفتاح النقد العربي الحديث والمعاصر على المنجز النقدي الغربي بالصدفة، وإنما أفرزته عوامل تاريخية وجغرافية كثيرة، جعلت نقدنا العربي يتفاعل مع الآخر إن سلبا أو إيجاباً من خلال بعض الآليات كالمثاقفة والترجمة والاحتكاك. والتي بفضلها تمكّن النقد العربي بعامة والمغربي منه بخاصة من استقبال مجموعة من المناهج النقدية الحديثة وما بعد الحديثة، فتلقّفها نقادنا بطريقة مباشرة (التلمذة) وبطريقة أخرى غير مباشرة (الترجمة)، وأضحت لديهم وسائل وأدوات يحلّلون بواسطتها الآثار الأدبية.

من هذا، أصبح الاهتمام بالمنهج يتصدّر أولويات الخطاب النقدي المغربي في مساره التطوري، وينمّ "على وجود تراكم معين في مستوى الإنتاج الأدبي والفكري، وعلى تنوع

¹ - يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، (1429هـ-2008م)، ص:56.

الإشكالات التي تثيرها قراءة هذا الإنتاج، وعلى تغيّر نسبيّ في النظرة إلى الأدب وإلى التراث وإلى الآخر¹، فقضية المنهج هذه، والتي مثلت شاغلا حقيقيا لنقادنا، عقدت لأجلها ندوات ومؤتمرات وأيام دراسية بغية مناقشة أبعادها ومراميها، وما تحمله من خصوصية السياق، ومرجعية الفكر والفلسفة والايديولوجية، وكذلك لما تزخر به من أدوات إجرائية وتطبيقية في توجيه الأثر الأدبي نحو الرؤية والهدف.

إنّ السعي الحثيث لنقادنا في إعمال المنهج النقديّ في مقارنة النصوص الأدبية يعكس مدى وعيهم بأهمية المنهج وحضوره في التحليل، لما يتّصف به من كفاءة تشريحية ومرونة إجرائية. وبهذا، يغدو المنهج "سلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي بها الناقد مستخلصة من آفاق تلك الرؤية للاقتراب إلى الأهداف التي تنطوي عليها الفعالية الإبداعية"². فاستحضار الناقد للمفاهيم والتصورات من جهة، وتسلّحه بالأدوات التطبيقية من جهة أخرى، تجعله يسهم بشكل بارز في سبر أغور النص وتحقيق النتائج المرجوة من خلال كشف مستوياته ومعرفة حدوده وأبعاده، فإعمال المنهج بشكل صحيح "يضيء نصّا جديدا أو نصوصا أخرى مستوحاة من النص الأصلي التي يمكن أن نصلح عليه بالنص النموذج"³.

بيد أنّ هذا لا يجعل الدّارس يغض الطرف عن هذه المناهج رغم صرامتها نظرا لما تزخر به من حمولة فكرية وفلسفية وإيديولوجية، تختلف في منطلقاتها عن تلك التي تميّزنا عن الآخر. وعليه، "يمكن أن ننظر إلى مختلف المناهج على أنّها غير بريئة في طروحاتها، ومن ثمة يجب أن لا نسقط في مطبّة الانبهار والهوس بتلك المناهج إلى درجة يصبح -في حدّ ذاته- صاحب السّلطة المطلقة في استنطاق وتأويل ما لم يدر بخلد صاحب النصّ الإبداعي، [حيث أنّ] نسبة الأحكام أو النتائج المترتبة عن تعاملها مع النصوص لها خصوصياتها من حيث الرؤية الإيديولوجية

¹ - عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب، ص: 27.

² - فاضل تامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص: 320.

³ - بوجمعة بويحيو: المنهج السيميائي بين التهذيب والتوليد، مجلة الموقف الأدبي، العدد 371، السنة الواحد والثلاثون، آذار 2002، ذي الحجة 1422، سوريا، ص: 12.



والفكرية والحضارية التي قد لا تنسجم أو تتجاوب مع تلك الإرهاصات الأولية التي قام على أساسها هذا المنهج أو ذاك"¹.

يمكن أن نلمس ذلك في تلك الممارسات النقدية سواء كانت كتباً أو بحوثاً جامعية، وما يعترتها من تنوع وتداخل وتباين في الوعي بالنظرية والمنهج وفي ممارسة التحليل والتأويل، الأمر الذي حتم على الباحثين إثارة أسئلة حول المنهج من قبيل: أيّ منهج لأيّ نص؟، هل من منهج لفهم النص؟، وبأي منهج ينقد النص؟. هذه الأسئلة التي هيمنت على الساحة النقدية تعكس بوضوح الخصائص المعرفية الذي يتخبط فيه الخطاب النقدي المغربي، إذ لا أحد ينكر جدارة هذه المناهج وصرامتها في توجيه الأثر الأدبي وضبط مساره وسبر أغواره، لكن دائماً تبقى في النص غرماً مظلمة - إن صحّ التعبير - يستعصي اكتشافها هذا المنهج أو ذاك؛ لأنّ "النصّ عالم مهول من العناصر اللغوية المتشابكة"².

إنّ إثارة هذه الأسئلة ومجدّة من طرف الباحثين والتي أفرزها تنوع المقاربات من ناحية، وما ترتّب عنها من مآزق من ناحية أخرى، جاءت لمناقشة إشكالية المنهج في الخطاب النقدي المغربي، ولعلّ المتتبع لحركية النقد ببلدان المغرب العربي يلمس أن تلقّف النقاد للمناهج التصانيفية منذ لحظة الاستقبال والمقدرة بحوالي أربعة عقود وإلى يومنا هذا، لم يتحرّروا بعد من هذه الإشكالية المثيرة للجدل، فالمطلع على التراكم النقدي المنجز حول إشكالية المنهج والتي اتخذتها موضوعها الرئيس، يلقي لا محالة ذلك الاختلاف والاضطراب بين تلك الكتابات في وعيها للمنهج، وحتى وإن تشابهت المنطلقات فإنّ ما يترتب عن ذلك من نتائج يبرز عدم توافق هذه الكتابات في فهم أبعاد هذه الإشكالية. وعليه، فإنّ مشكلة المنهج القائمة - كما يراها أحد الباحثين -، هي مشكلة أمّتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج التي هي أقوم، وبمقدار تفقهنها في المنهج ورشدنا فيه يكون مستوى انطلاقنا كماً وكيفاً"³. وبغية تفادي

¹ - بوجمعة بوعيو: المنهج السيميائي بين التهذيب والتوليد، ص: 11.

² - عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتكفير - من النبوية إلى التشريحية -، ص: 14.

³ - الشاهد بوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين و الإسلاميين - قضايا ونماذج - مطبعة النجاح الجديدة، توزيع مطبعة القلم، الدار البيضاء، ط 1، 1413هـ-1993م، ص: 21.



المزلق المنهجية واضطراب التطبيق، وما يترتب عنهما من أزمة المنهج، تعامل النقاد مع إشكاليته بوعي وحذر شديدين، إذ نجد الحديث عن المنهج وأهميته ودوره، يتصدّر المقدمات الطوال لغالبية النقاد.

تعدّ السيميائية من المناهج النصائية التي وجدت ترحابا وحضورا كبيرين في المشهد النقدي العربي، وإقبالا عليها من طرف النقاد لما لها من ألفة وسبق حضور في التراث العربي، ولكن كانت بداية استقبالها في الخطاب النقدي العربي تزامن مع منتصف الستينيات، فإن تأسيسها الفعلي تجلّى مع مطلع الثمانينيات بدول المغرب العربي (تونس ثم المغرب والجزائر)، لتنتشر بعد ذلك في دول المشرق العربي، إن في شكل محاضرات ودروس أو كتب ومقالات منشورة في مجالات متخصصة كمجلة علامات ودراسات أدبية لسانية وسيميائية بالمغرب ومجلة عالم الفكر الكويتية وعلامات في التقد السعودية ومجلة فصول المصرية.

وبالتالي، فقد تربعت السيميائية على المنجز النقدي للنقاد المغاربة، وطغت على مقارباتهم التحليلية للآثار الأدبية الشعرية والسردية، حيث تعامل هؤلاء مع السيميائية بوصفها علما وأداة ابستمولوجية ومنهجها يتناول النصوص فهما وتحليلا وتأويلا لأنساقها العلامية، ما جعل غالبية الباحثين يقرّون بنجاحتها، حيث يقول أحد الباحثين: "تحتلّ السيميوطيقا -أو السيميولوجيا- مكانة هامة ضمن المناهج النقدية، ولكن كان البعض يعتبرها مجرد موضحة من الموضوعات، فإنّ هذا الوصف لم ينقص من قيمتها كمنهج علمي وإجرائي في الدراسات الأدبية وتحليل النصوص الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبسيطية، ولذلك فهي في الاعتبار الصحيح منهج لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليل مما يمكن أن يفتحه من سبل وآفاق جديدة تنير مجاهل التعبير الأدبي و الفني..."¹ وما إلى ذلك.

¹ - جيرال دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: د. عبد الرحمان بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة (البيضاء)، ط1، 2000 (من التقديم)، ص: 05.



من هذا أضحت السيميائية منهاجاً نقدياً ووسيلة دراسة، التي "ندعو إلى قراءة النص الأدبي بصفة متواصلة ومتجددة، يولد خلالها النص مع كل قراءة، وتتضاعف دلالاته"¹، وقد تأتى لها ذلك بعدما استفادت من طروحات اللسانيات وإرث البنيوية التي خبا وهجها. وعليه، فالإحاطة الكاملة بالنصوص من منظور منهج واحد، أصبح غير ممكن، "لأن المنهج الكامل لما يولد"²، أي لا وجود لمنهج كامل، مثالي، نقارب به النصوص على اختلاف أنماطها، والحال كهذه جعلت النقاد يجمعون "على تغيير أسلوب التعامل مع الظاهرة الأدبية، وسعوا إلى محاصرة النص الأدبي بمناهج حدائثة من زوايا متعددة، فركبوا في المناهج حتى صار التنوع والتعدد المنهجي أمراً حيويًا وأساسياً معتمداً في مدارس النصوص، أصبح مصير النص يتوقف على طبيعة التطرق إليه (المنهج) وعلى نوعية الأسلوب المستعمل في معالجته، والتعرف على حقيقته"³.

ويعدّ "عبد الملك مرتاض" و"محمد مفتاح" من التماذج المغاربية التي نحت التركيب المنهجي، ودعت إليه صراحة، فالمسار النقدي لـ"عبد الملك مرتاض" مثلاً، حافل بلا ثبات المنهج، فقلقه المعرفي الذي يساير مشروعه النقدي جعله لا يطمئن لمنهج واحد في مقارنة أو تحليل نصّ أدبيّ -سردياً كان أو شعرياً-، لافتقار هذا الأخير لتقنيات يسدّ بها متطلبات النصّ الأدبي، حيث يرى أنّه "لا يوجد منهج كامل، مثالي، لا يأتيه الضعف ولا النقص من بين يديه ولا من خلفه، وإذن، فمن التعصب [...] التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنّه، هو وحده، ولا منهج آخر معه، مجردة أن يُتبع"⁴؛ لذلك "وانطلاقاً من حتمية انعدام الكمال في أي منهج، فإننا لا نستقيم، من حيث المبدأ، إلى أي منهج إذاً؛ ونجتهد، أثناء الممارسة التطبيقية، أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي الذي ننجزه شيئاً من الشرعية الإبداعية، و شيئاً

¹ - مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي -دراسة وصفية نقدية احصائية- في نموذجي عبد الملك مرتاض ومحمد مفتاح، د.م.ج، الجزائر، 2005، ص: 64.

² - عبد الملك مرتاض: أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" محمد العيد، د.م.ج، الجزائر، 1992، ص: 08.

³ - مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي، ص: 64.

⁴ - عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شنابل ابنة الجلي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص: 18.

من الدّفء الدّاتي، معاً...¹. وبالتالي، غدا "تمحين أيّ منهج أمر ضروريّ لتكتمل أدواته، وليصبح أقدر على العطاء والرّؤية"². من هذا نعدّ "عبد الملك مرتاض" من أكثر النّقاد توزّعا بين المناهج المتباينة الطّرح، انطلاقاً من المناهج السّياقيّة مرورا بالمناهج النّسقيّة انتهاء إلى التّركيب المنهجيّ المفتوح والمنتشر، الذي دعا إليه بإلحاح في أكثر من مقام إيماناً منه أنّ "التّعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النّقديّة الغربيّة، ويرى أنّه لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السّبيل بعد التّحمة التي مُني بها النّقاد من جرّاء ابتلاعه المذهب تلو المذهب خصوصاً في هذا القرن"³. وعليه، ف"عبد الملك مرتاض" ينحو النّهج التّركيبيّ بوعي كامل أثناء قراءته، والذي يختلف في جوهره عن الإجراء التّكاملي* كما بدا لنا في بعض الدّراسات النّقديّة المعاصرة، مبرّزا هذا المنحى كون التّيّارات النّقديّة المعاصرة قد جنحت إلى "التّركيب المنهجي، وذلك لدى إرادة قراءة نصّ أدبيّ ما، مع الاجتهاد في تجنيس التّركيبات المنهجية حتى لا يقع السّقوط في التّلفيقية"⁴.

2-ب- الإشكالات المصطلحية النّقديّة.

لم يشكّل التّعامل مع المصطلح -من حيث توليده وتأصيله وضبطه وكذا ترجمته- إجراء جديداً على الخطاب النّقديّ العربيّ الحديث والمعاصر، فلقد تعامل الفكر العربيّ الإسلاميّ مع المصطلحات الوافدة عليه من الفكر اليونانيّ وفق جملة من المقاييس والمعايير المضبوطة والدّقيقة، التي سطرّها علماؤنا وساروا على منوالها، وقد دعت الحاجة إلى هذا، لما بلغت الإمبراطوريّة العربيّة

¹ - عبد الملك مرتاض: م ن، ص: 19.

² - م ن، ص: 21.

³ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 06.

* - لمزيد من الإيضاح ينظر مؤلفات الباحث يوسف وغليسي: الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض - بحث في المنهج وإشكاليته- المكتبة الوطنية الجزائرية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002/ ومناهج النّقاد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007/ والنقد الجزائري -من اللانسونية إلى الألسنية-، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002.

⁴ - عبد الملك مرتاض: التّحليل السيميائي للخطاب الشّعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص: 09.



الإسلامية أوج عظمتها، وأصبحت اللغة العربية لغة حيّة رائدة، فالشيء الذي جدّ فيها "من ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثامن للهجرة، آلاف المصطلحات؛ [حيث أننا] لم نعثر على أثر، في تاريخ الثقافة العربية، لشكاية واحدة مكتوبة أو مروية عن صعوبة ما ساورت سبيل العلماء العرب في إيجاد مصطلحات من لغتهم لحقول تخصّصا تمّ؛ ابتداء من تعريب الدواوين الذي قام به صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجّاج بن يوسف الثقفني، وصاحب دواوين العراق، إلى اختراعات الخوارزمي، وجابر، والكندي، واستكشافات ابن الهيثم..."¹.

والدّارس يلحظ المفارقة في تعامل العرب مع المصطلح قديما حديثا، ففي السابق كان تعاملهم موقفا إلى حدّ ما؛ ذلك لأنهم ترجموا وعزّبوا تراثا يونانيا تاما كامل التكوين، كامل التطور، ويمثّل مرحلة تاريخية محدّدة من العالم، فحتى نهاية القرن الثالث الهجري، يلقي الدّارس مدى استفادة اللغة العربية من الألفاظ لكثيرة والمعاني الجديدة، وما كان ذلك ليكون لو لا اختلاط العرب بغيرهم من الأمم المتحضّرة، وهو أمر رقى العقل العربي، وأدخل على الحياة العربية الكثير من المستحدثات².

أمّا في الوقت الرّاهن، فلقد وجد العرب أنفسهم يواجهون تراثا ضخما يزداد كلّ يوم وبشكل متسارع؛ بحيث أصبح ملاحقة ما يصدر عن الفكر ومنابعه في العالم بما في ذلك المصطلحات الجديدة، يحتاج إلى قفزات عملاقة، والأصعب من هذا كلّ، أنّ النّقد الغربي لا زال في طور الانبثاق، ذلك لأنّ الفكر الغربي في عمومته، والذي يمثّل مصدر كثير من المصطلحات لا يزال يشهد عدم الثّبات في كثير من مفاهيمه ومصطلحاته.

فبعد ما كان المصطلح النقديّ العربي الحديث مستأنسا بتلك الجذور التّراثية النّقدية والبلاغية والكلامية والفلسفية وغيرها، والتي شدّته لزمان الطّويل بموروثه القديم، وجد نفسه مع مطلع الرّبيع الأوّل من القرن العشرين يتطلّع إلى القيم والمفاهيم النّقدية والاصطلاحية التي

¹ - عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبيّ، دار هومة، الجزائر، 2007، ص: 23.

² - ينظر: أحمد شامية: خصائص اللغة العربية، والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 103.



أتى بها النقاد الغربيون، وفي مواجهة الوافد والتعامل معه، كان لنقاد ذلك الجيل مواقف ميّزها اتجاهاً وقعا على طريقي نقيض أحدهما محافظ وآخر مجدّد، ما جعل المصطلح النقديّ يبقى في حالة مدّ وجزر مع قوّة التراجع والامتداد من جهة، والتّزمت والتّطرف من جهة أخرى.

والدّارس في هذا يلحظ الشّرخ الذي يفصلهما في ظلّ غياب التّنسيق، وإنّه لمن المؤسف "أنّ لا تجري محاولة وساطة بين الاتجاهين لصياغة مصطلح نقديّ عربيّ يفيد في آن واحد من المصطلح النقديّ الموروث والمصطلح النقديّ الغربيّ، فانحسر المصطلح التراثي إلى حدّ كبير، وكاد النّقد العربي الحديث أن يصبح صورة مطابقة لما قدّمه لنا الآخر: الغرب. وربما يعود ذلك، في بعض جوانبه إلى تزمّت المحافظين، وتطرّف المجدّدين، وإلى المتغيّرات العميقة التي بدأ يشهدها المجتمع العربي وبنائه الداخليّة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا"¹. ورغم ذلك، ما إن تسوّى لمصطلحنا النقديّ الحديث الاستقرار-ولو نسبيًا- طيلة النّصف الأوّل من القرن الماضي، وخلال العقد الخامس منه بفضل جهود الرّعيّل الأوّل من النّقاد، فإنّ العقد السّادس شهد انفجاراً نقديًّا اكتسح أوروبا والعالم تمثّل في تلك الثّورات اللّسانيّة والنّقديّة والمنهجيّة الحديثة، والتي كان لها التّأثير العميق على واقع مصطلحنا النقديّ العربي فقد "أثارت الثّورة اللّسانيّة والنّقديّة التي شهدتها هذا القرن [يقصد القرن العشرين]، والتي مثّلت السّتينات أبرز منعطفاتها وبؤرها المتفجّرة مشكلات كبيرة في مجال وضع المصطلح اللّساني والنّقديّ وترجمته وتعريبه أمام الباحثين واللّسانيين والمترجمين والنّقاد"²؛ ذلك لأنّ الهزّة العنيفة التي أحدثتها هذه الثّورات في خطابنا النقديّ المعاصر، تولّد عنها تدفّق المئات من المصطلحات الجديدة منها اللّسانيّة والسيميائيّة والنّقديّة ومنها مصطلحات أخرى من علوم مختلفة كعلم الاجتماع وعلم النّفس وعلم الأناسة (الأنثروبولوجيا) والفلسفة والاقتصاد، والمنطق... وأمام هذه التّرسانة المصطلحيّة التي بلغ على إثرها المعجم النقديّ الاصطلاحي والعربي حدّ التّخمة، تولّدت عنها جملة من الإشكالات طالت جوانب منهجيّة ومفهوميّة ومعرفيّة من المصطلح النقديّ. الأمر الذي صعب من مهام النّقاد في إيجاد سبيل للحدّ

¹ - فاضل ثامر: إشكاليّة المصطلح النقدي في الخطاب العربي الحديث، مجلة نزوى- مجلة فصلية ثقافية- سلطنة عمان، ع6، أبريل 1996، ص.ص: 129- 133 .

² - فاضل ثامر: اللغة الثانية في إشكاليّة المنهج والنّظرية والمصطلح، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدر البيضاء، ط1، 1994، ص: 169.



من غلوائها، فتباينت نظراتهم تجاه قضايا نقدية متعددة، كان على رأسها المصطلح النقدي، الذي احتكم بسببه أغلبية النقاد إلى اتجاهات ثلاثة¹.

في ظلّ الخصائص المعرفي الذي شهده نقدنا العربي من قدم أدواته النقدية، وضآلة كفاءته التحليلية، توجه مرغما صوب النقد الغربي لينهل منه ما جدّ على ساحته النقدية من نظريات بغية الاستفادة منها، بيد أنّ هذا التوجه والتّمثّل واجه إشكالات عديدة، "لا تخرج عن تلك اللغة الجديدة الموظفة، وما تزخر به من حمولات معرفية تختلف في كثير من ملامحها عن اللغة التقليدية المستعملة سابقا. والمتمثلة بصفة خاصّة في توظيف العديد من المصطلحات والمفاهيم الجديدة، سواء من حيث بنيتها وتركيبها أم من حيث دلالتها"². والحال هذه، انعكست على واقع خطابنا النقدي المغربي، باعتباره جزءا لا يتجزأ من الخطاب العربي كلّه، فلقد ثبت تاريخيا، أنّه مع مطلع الثمانينات التفت النقد الأدبي المغربي إلى المنهجية الحديثة، وهي التفاتة متباينة الحضور نوعا ما بين كلّ من تونس والمغرب والجزائر، لأسباب سبق ذكرها في هذا البحث.

إنّ الاهتمام الكبير الذي أولاه نقاد المغرب العربي للتحديث المنهجي، أولوه كذلك للمصطلح من حيث توليده وتأصيله وتوطينه، إيمانا منهم أنّ هذا المصطلح يساعد، و"يسر البحث، ويرسم المعالم رسما مختصرا"³ بعيدا عن الإنشائية والإطناب. وعليه، جاء في صدارة الطرح النقدي المعاصر، فهو من القضايا المهمة التي عني بتشخيصها هذا الأخير، نظرا لدوره البالغ

¹ أوجّهها أحد الباحثين كما يلي: «الاتجاه الأول: يرى أنّ التراث مرهون بمساقته التاريخي والمعرفية، وهي مساقات ممتدة في الحاضر، وما الخطاب المعاصر إلّا حلقة جديدة من حلقات منضدة مرّت بها الخبرة الإنسانية، سواء في المصطلح، أم في غيره من النظريات المعاصرة، ومن خلال ذلك، أجازوا التّشبيث بالمنجز الزاهن في النظرية والمصطلح، فصاغوا مصطلحات تراثية أصيلة من قبيل: إنشائية، نسيج، عدول، سرقات، أدب مقارن، صورة، وسيمة وسيميا، وأشكال أخرى، للدلالة على ما هو شائع في البيئة العربية. الاتجاه الثاني: يرى أصحابه، أنّ ثمة انقطاعا معرفيا قد حدث، وإنّ كلّ مرحلة من المراحل لها مساقها الخاص، ومعرفتها الخاصة، وعليه وجب نقل النظريات والمصطلحات كما هي على أشكالها الأوربية بالتقل والترجمة، بينها ألفاظ مثل: بوتيك ومثيلاهما، وميتا لونغاج، ولوجوس وغيره ممّا ذكرنا. الاتجاه الثالث: يرى إنّ موروثنا العربي القديم لا سيما منه النقدي، موسوعة ضمت بين جنباتها مفاهيم ومصطلحات كثر، يتشّدق بها اليوم المحدثون، وإنّ ما نتج من نظريات، وأوجد من مصطلحات ما هو إلّا معاودة، وتكرار لما هو قابع في هذا التراث، وتلك ففة توفيقية، تحاول مقارنة ما في المعاجم العربية بما هو حدائثي معصرن». مولاي علي بوختام: المصطلح والمصطلحية، الجهود والطرائقية، (دراسة وصفية لراهن المصطلحية وآليات صياغة المصطلحات العربية) منشورات مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1425هـ/2004، ص: 148.

² - عقاق قادة: مدخل إلى إشكالية ترجمة المصطلح في الخطاب النقدي المغربي المعاصر، مقال مخطوط، ص: 1.

³ - مصطفى ناصف: النقد العربي، نحو نظرية ثانية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2000، ص: 10.



في صياغة النص النقدي من جهة، وأيضا "لما له من أهمية في تأطير مقارنة النصوص وعلمنة تحليلها؛ إذ لا يخلو أي منهج من عدّة إجرائيّة (مصطلحيّة) ومفهوميّة يستند إليها في بناء صرحه وتشبيد بنائه...¹ من جهة أخرى.

هذا الواقع، استدعى من باحثينا استحضار ما أمكن من المصطلحات النقديّة المتعلّقة بالمنهج المطبّق استحضارا واعيا ومسؤولا؛ ذلك "لأنّ التهرّب من استخدامه (أيّ المصطلح النقديّ) أثناء الإجراء النقديّ سيؤدّي إلى إنشائيّة في اللّغة الشّارحة، وربما يؤدّي إلى غياب المنهجية، وسيضع الباحث في خانة الضّعف"²، أمّا الإقبال عليه وتوظيفه، يكشف عن العدّة المصطلحيّة التي يتسلّح بها الباحث، ومدى إحاطته بالنظرية والمنهج معا؛ لأنّ هذا الأخير لا يستقيم إلّا بالمصطلح النقديّ، فهو مفتاحه ونواته التي يتشكّل منها، وهو في منتهاه "صورة مكثفة للعلاقة القائمة بين اللسانيات والنقد، لا سيما المصطلح السيميائي بوجه خاص"³. من هذا نجد التقاد يواجهون إشكالية المصطلح، بوعي كبير، وهم يحاولون تأصيله وضبطه ومراجعته ضمن خطابنا النقديّ. من هنا يتعيّن علينا البحث في هذه الإشكالية، من منطلق السؤال التالي:

- كيف تعامل هؤلاء مع المصطلح السيميائي في خطاباتهم النقديّة؟-

لقد حظي المصطلح السيميائيّ بعناية خاصّة من قبل الدّارسين مقارنة بالمصطلحات النقديّة الأخرى، ومردّد ذلك هو أنّ السيميائية الأدبيّة من العلوم التي لها حضور في التّراث العربي، وأنّ مصطلحاتها تشكّل "ركيزة الدّرس السيميائيّ العالمي بشكل عام والعربي بشكل خاص"⁴ فحضوره المتميّز في المشهد الثقافيّ العربي بعامة والمغربيّ منه بخاصّة دليل على ذلك. ولكن رغم

¹ - قادة عقاق: إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي في النقد العربي المعاصر، أعمال الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي بجامعة قاصدي مرباح، ورقلة، يومي 09 و10 مارس 2011، ص:307.

² - آراء عابد الجرمان: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، دار الأمان، المغرب، منشورات الضفاف، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 1433هـ-2012م، ص:76.

³ - بوخاتم مولاي علي: الدّرس السيميائي المغربي، ص: 121.

⁴ - مولاي علي بوخاتم: مصطلحات النقد العربي السيماء وي (الإشكالية والأصول والامتداد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص:13.



هذا الاهتمام، إلا أن "جلّ الدراسات والبحوث متفّقة على وصف المصطلحات اللسانية والسيميائية بالمشكلة"¹، كون الخطاب السيميائي صعب الفهم في لغته الأمّ.

إنّ ما ساعد على انفتاح الخطاب النقدي المغربي المعاصر على المناهج النّصائيّة هو تلك الدراسات والمقاربات التي قام بها ثلّة من الباحثين*، والذين كان حافزهم في ذلك، ما شكّلته البحوث اللغوية الحديثة والمعاصرة، وما أفرزته من معارف ودراسات نقدية غربية متعدّدة، والتي على إثرها استطاع نقادنا تحديث الخطاب النقديّ. فلقد بات اشتغال هؤلاء النقاد على السيميائية مطلباً حتمياً طال المنهج والمصطلح على سواء وليس جرياً وراء الموضة.

لكنّ المطلّع على المنجز النقديّ لباحثينا، يجد أنّ هناك اضطراباً مصطلحياً ولّدته فوضى التّأليف والترجمات المتباينة الشّكل والمضمون بين النقاد بسبب تمايز مشارهم الثقافية² الفرنسية منها والأنجلوساكسونية، فرغم درايتهم التامة بأنّ للمصطلح خاصية تمكّنه من "الاندراج ضمن تصوّر نظري محدود ومضبوط لا ينبغي له أن يبرحه، وهو أمر يجعله محروماً من حقّ الانزياح المباح للكلمات العادية (لأنّه) علامة لسائبة *signe linguistique* خاصّة، تتكوّن من دال ومدلول محدّدين بمجال معرفيّ معيّن لا يبرحانه البتّة، وهذا ما جعله يتميّز بالدقّة في الوضع، وبالوضوح في التعبير والتلقّي على حدّ سواء"³؛ أي أنّه من الثابت في صياغة المصطلحات، أنّ يجعل أمام كلّ مفهوم رمز لغويّ واحد يكون محلّ تواضع واتّفاق أهل الاختصاص، فيكون لكلّ مصطلح أجنبيّ مقابل عربيّ وحيد؛ لأنّ من مواصفات المصطلح الدقّة والخصوصية التي تميّزه عن اللفظ اللغوي العام. لكن واقع المصطلح النقديّ العربيّ اليوم، يوحي عكس ذلك؛ إذ نجد

¹ - وغليسي يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، (1429هـ-2008م)، ص:223.

* - سمير المرزوقي، محمد الناصر العجمي، جميل شاكر، حنون مبارك، محمد السريغيني، عبد الفتاح كليطو، سعيد بنكراد، محمد مفتاح، عبد الملك مرتاض، رشيد بن مالك، أحمد يوسف، عبد الحميد بورايو، السعيد بوطاجين، حسين خمري...

² - ينظر: أحمد مطلوب: إشكالية مصطلح النقد الأدبي المعاصر، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد45، الجزء02، العدد52-53، العراق، 1998، ص:49. وينظر: محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص:149.

³ - قادة عقاق: إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي في النقد العربي المعاصر، ص:307-308.

في مقابل المصطلح الأجنبي الواحد زحما من المصطلحات العربية. وقد يحدث العكس، بأن يستخدم المصطلح العربي الواحد ليعبر عن أكثر من مصطلح أجنبي.

يشكل تعدد الدوال لمدلول واحد والعكس كذلك، السمة الغالبة على المصطلح السيميائي في نقد المغربي المعاصر، فالترسنة المصطلحية للمنهج السيميائي التي نقلت إلى مشهدها الثقافي عن طريق الترجمة، صعبت الأمر على القارئ الحصيف قبل القارئ العادي فالتداخل المفهومي والمصطلحي وتضاربه أحيانا ناتج عن الميول الشخصي للنقاد في الاختراع المصطلحي، أضف إلى ذلك الترجمة الفردية المنعزلة، كل ذلك يضر ولا ينفع، بحيث يظهر لنا أنّ "وضع المصطلحية السيميائية في العالم العربي يختلف تماما عما هو عليه في أوروبا. ولم يرق بحكم التضارب الموجود في المصطلحات المستعملة إلى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الخاصة به سلفاً¹، ولعل المتصفح للأعمال النقدية المنجزة العربية منها والمغربية في مجال السيميائيات يلمس اختلافا كبيرا بين الباحثين سواء تباين منهلهم الثقافي أو تشاكل. ومرّد ذلك الترجمة الفردية غير الدقيقة، وما يترتب عنها من ضباية لدى القارئ العربي في فهم السيميائية، هذا من جهة أمّا من جهة أخرى فإنّ المصطلحات السيميائية في عمومها لم تسلم من الاضطراب وعدم الاستقرار، لأنّ استقرارها في منبتها لازال نسبياً.

- فكيف - والحال هذه-، سيكون وضع السيميائية في غير بيتها؟-

مّا هو معلوم أنّ السيميائية حفلت بكثير من المصطلحات* : شكّلت في مجملها مفاتيح تُعين الناقد على تحليل النصوص الأدبية، وقد وصلت إلى خطابنا النقدي عن طريق الترجمة والتعريب، وأصبح لا مناص من تناولها في المقاربات النقدية، فتلقفها النقاد بفهم تارة وبسوء فهم تارة أخرى، ممّا أدى إلى تباين أشكال الخطاب الواحد، والتي أفضت إلى تعدد مفاهيم المصطلح الواحد. كما هو الحال بالنسبة لمصطلح "السيميائية" التي تُرجم إلى أكثر من 36 ترجمة عربية

¹ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص:70.

* - من المصطلحات النماذج في الحقل السيميائي نجد: السمة، السيميائية (السيميائية)، الأيقونة (الاقونة)، الخطاب، التناص، التشاكل، الشعريّة، القراءة، قراءة القراءة، التأويلية، نقد النقد، الكتابة...

في مواجهة مصطلحين أجنيين هما: (السيميائية *Sémiotique*، والسيميولوجيا *Sémiologie*)، لتصبح المعادلة إذن $2=36!!!$ ¹.

فالمقابلات العربية للمصطلحين (*Sémiotique-Sémiologie*) والتي أحصاها هذا الباحث بستة وثلاثين مصطلحا عربيا² نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: السيميائيات، السيميائية، السيميولوجيا، السيميوطيقا، العلامة، علم العلامات... وخير مثال، نظريه عن تعددية المصطلح العربي في مقابل المصطلح الأجنبي، ما يقوم به الدكتور "عبد الملك مرتاض" في هذا الشأن، فإننا نلفيه دائما لا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبي، والأمثلة على ذلك كثيرة، نورد بعضها .

1- في مقابل المصطلح الأجنبي *Sémiologie* نجد: سيميولوجيا³، سيميولوجية⁴.
2- في مقابل المصطلح الأجنبي *Sémiotique* نجد: الاشارية⁵، السيميوتيكية⁶، السيميوتيك⁷، السيميائيات⁸، السيمائية⁹، السيميائية¹⁰.
وأمام هذه التعددية خيل للناقد العراقي "فاضل ثامر" أن "أفضل هذه المصطلحات هو المصطلح السيميائية؛ لأنه يحمل جذرا عربيا، كما يحمل أيضا معطى صوتيا، معرفيا، للصوت الأجنبي ويقبل الإضافة والجمع والنسبة والاشتقاق"¹¹. لكن الدكتور "عبد الملك مرتاض" يؤثر استعمال المصطلح "السيميائية" وجمعها "السيميائيات" بدلا عن السيميائية والسيمياء، ذلك وكما

¹ - ينظر: يوسف وغليسي: مناهج التقاد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1428هـ-2007، ص: 108.

² - ينظر: م ن، ص: 233.

³ - عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، مجلة تجليات الحداثة، وهران، الجزائر، ع 2، ونيو 1993، ص: 15.

⁴ - م ن، ص: 15.

⁵ - عبد الملك مرتاض: النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، د.م.ج، الجزائر، 1983، ص: 21.

⁶ - م ن: ص: 21.

⁷ - عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، ص: 15.17.

⁸ - عبد الملك مرتاض: مجلة تجليات الحداثة، ع4، وهران، يونيو 1996، ص: 23.

⁹ - عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص: 157.

¹⁰ - عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، ص: 09.

¹¹ - فاضل ثامر: إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب العربي الحديث، ص: 129-133.

يذهب الباحث إلى الكلام العربي كما هو غيره قائم على التيسير في النطق والاقتصاد وكثيرا ما يسكن الناطق العربي الأوّل الميم فيجمع بين ساكنين لطول الكلمة المذكورة، والتي لم يؤت منها في العربية إلا بثلاثة أمثلة¹، وهذا الرأي يدعمه الدكتور "عبد الواحد لؤلؤة" بقوله: "... لماذا لا نتجنّب المزالق و نقول السيمائية وهي ترجمة أفضل في نظري من العلاماتية أو علم الإشارة؛ إذ يمكن أن يتصرّف المصدر الصناعي السيمائية إلى صفة ظرف، في حين يصعب الصناعي أو يستغرب الأمر في غير ذلك"².

إنّ آفة تشتت المصطلح النقديّ العربي، لم يبق متداولاً بين المترجمين واللّسانيين فقط، بل تجاوز ذلك إلى الباحث الواحد؛ فقد أصبحت ظاهرة تعدّد المصطلح عند الباحث العربي متفشية، تدعو إلى القلق لما فيها من تكرار الجهود في الشيء المترجم، وإضاعة للوقت. وعليه، يستحيل على الدّارس والباحث متابعة مسألة مصطلحية ما، ما لم يعد إلى مظانها الأولى. وقد نستحضر في هذا المقام، بعض النماذج التي تبرز حالة الفوضى والتشتت والتذبذب التي تعاني منها المصطلحية السيميائية، من ذلك ما وقف عنده أحد المشتغلين على السيميائية السردية، إذ يقول: "ولعلّ فحواً دقيقاً من المصطلحية السيميائية المسخرة في الدّراسات النقديّة، يكشف إلى أي حدّ هي عميقة حالة الفوضى والتذبذب.

أ- الترجمات العديدة للمصطلح الواحد: ترجم مصطلح *connotation* إلى التضمّن/ الدلالة الحافة/ الطاقة الإيحائية/ الدلالة المتحوّلة.

ب- التّرجمة الواحدة لمصطلحين مختلفين: ترجم ج.بوهاس، ج.ب.غيوم وجمال الدين كولوغلي مصطلحي *narration* و *récit* بالسرد، ويوسف غازي *sémiologie* و *sémiotique* بالأعرضية.

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003، ص: 32.

² - عبد الواحد لؤلؤة: أزمة المصطلح النقدي، مجلة علامات، 1994م، ص: 122، وينظر كذلك: حنفي بن عيسى: نحو رؤية علمية للغة - دراسة في المفهوم والمصطلح - مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر، ع5، أبريل 2006، ص: 170.



ج- التّرجمتان المختلفتان للمصطلح الواحد: ترجم عبد العزيز طيليماك مصطلح *disjonction* بالانفصالات والانفكاكات دون أن يلزم نفسه بترجمة واحدة، وكذلك فعل سامي سويدان الذي ترجم *histoire* بالحكاية والخبر¹.

لكن هناك من يرى، أنّ الكثير ممّن يتحمّسون للابتكار الفردي، يغفلون عن حقيقة مهمّة وهي "أنّ المطرد في الاستعمال والشائع على الألسنة والدّارج في الكتابة أفضل من المبتكر من حيث الجانب الوظيفي بالرّغم من سلامة إجراءات وضعه الفنيّة"²، وهذا كي نتجنّب الوقوع في إشكاليّة المصطلح (الفوضى-والاضطراب في النّقل- وبالتالي الأزمة) ، ولكن لو أمعنا النّظر جيّداً، نجد أنّ أزمة المصطلح النقديّ قائمة، منذ تلاقي الثقافتين العربيّة الإسلاميّة والغربيّة سواء في حضور الابتكار الفردي أو في غيابه. وبالتالي، تبقى نظرة دحض هذا الابتكار قاصرة؛ إذ أنّها تجعل الباحث يطمئن للجهاز دون تقليبه من جهة، وترفض ضمناً سنّة الاختلاف المبرّر القائم بين البشر من جهة أخرى، وفي هذا تضيق على اللّغة وقضاء على روح البحث. لذلك فإنّ "فوضى المصطلح النقديّ، وما آل إليه الآن من اضطراب في النّقل، ينمّ عن خلل تقنيّاً كان أم نظرياً، لا يمكن بحال من الأحوال أنّ تأخذ مأخذاً سلبياً يحسب على نقادنا وكتابنا وهيأتنا الأكاديميّة المتخصّصة بل وحتى على طاقات لغتنا الحيويّة، بل الأجدر في ذلك أن تفسّر تفسيراً إيجابياً يجد مبرراً له ضمن سنّة اختلاف التي ينتعش بها نفس البحث العلمي كما لا يخفى على العاقل أنّ واقع المصطلح النقديّ إنّما هو مرحلة في حلقة من صيرورة الزّمن"³. إنّ معالجة هذه الإشكالية، تستدعي منّا وضع استراتيجيّة علميّة واضحة، تلزم النّقاد التحلّي ببعض المواصفات "علّ أبسطها المعرفة الواسعة بلغة الأمّ ولغة النّاقد، يضاف إلى ذلك الإلمام النقديّ التّام بكلّ هذه المناهج في منابعها الغربيّة، والإلمام بالفكر النقديّ الذي ينتمي إليه النّاقد، فضلاً عن الفكر النقديّ العربي"⁴.

¹ - رشيد بن مالك: مقدّمة في السيميائية السردية، ص.ص: 71-72.

² - أحمد محمد قدور: اللسانيات وآفاق الدّرس اللّغوي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص: 27.

³ - هوارى بلقندوز: إشكاليّة المصطلح النقدي، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم الترجمة، جامعة وهران، 2002م، ص: 65.

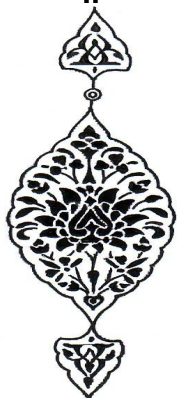
⁴ - محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، دار الأمان، الرباط، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 1443هـ-2013م، ص: 149.

المبحث الثاني

سيميائية العنوان

في المدونة النقدية

المغربية.





- سيميائية العنوان في المدونة النقدية المغربية:

1 - التنظير المغربي للعنونة:

لا أحد ينكر فضل النقد الغربي بعامة، والفرنسي منه بخاصة، على التوجه الحداثي وما بعد الحداثي للخطاب النقدي المغربي، فتأثيراته قائمة، ولا تزال كذلك، مادام هذا الأخير يلعب دور المنتج للأفكار، في حين يبقى نقدنا يتلقى تلك الأفكار. كما أن بصمة أعلامه حاضرة وبقوة في هذا المنجز المغربي، فلقد اصطبغت حقول معرفية كثيرة بأفكار ج. غريماس، وأتبعاه ك: ر. بارت، ج. جنيت، وج. كريستيفا... ويمكن لأي قارئ عربي تبينها خاصة في مجال السرديات والسيميائيات.

لقد شكّلت هذه الروافد منطلقا مهما للباحث المغربي؛ إذ من خلالها تمكّن من استلهام الأفكار والنظريات والمناهج، وكل ما من شأنه أن يتماشى ومتطلبات النصوص الأدبية ويستجيب لخصوصياتها. وحتى لا نتجاوز حدود الدائرة التي رسمناها في هذا البحث، سوف نسلط الضوء على تأثيرات أحد الأعلام الفرنسيين، ونبتينها في مشهدنا النقدي، إنه "جيرار جنيت" *G. Genette*. لقد وجدت أفكار -هذا الأخير- ترحيبا من لدن الباحثين المغاربة في هذا المشهد، فبعدها استأنسوا بطرحه الذي جاء في كتبه، والتي منها خاصة الصور الثلاثة (*III*) *Figures III, 1972* تبوّه تنظيرا وتطبيقا وترجمة، كل حسب موقعه. ففي مجال السرديات نلمس كلاً من سعيد يقطين، حميد لحمداني،... من المغرب، ومحمد الحبو، وبن جمعة بوشوشة... من تونس، وعبد الملك مرتاض، بشير بويجرة، مصطفى منصوري... من الجزائر. واحتفاء بالسرديات، عرف النقد الأدبي المغربي نشاطا كبيرا ترجمته الملتقيات المنعقدة في الدول المغربية، والتي منها على سبيل المثال: دورات الملتقى الدولي حول السرديات الذي جرت فعالياته بالمركز الجامعي لولاية بشار-الجزائر¹.

¹ - عرف الملتقى الدولي للسرديات ثلاث دورات تناول فيها الباحثون قضايا كثيرة توزعت كما الآتي:

- أعمال الدورة الأولى توزعت على ثلاث محاور هي: طقوس الكتابة السردية/الكتابة السردية بين اللاوعي والالتزام/الكتابة السردية وفاعلية الاختلاف. ينظر: الكتابة السردية في الخطاب السردية، أعمال الملتقى الأول حول السرديات، المركز الجامعي بشار، الجزائر، أيام 13/12/11 أكتوبر 2003، ص.ص: 100-266. أما أعمال الدورة الثانية فتوزعت على أربع محاور هي: الخطاب السردية ووعي الذات/ الأنا والآخر في الخطاب السردية/ هوية الخطاب السردية-الرؤية والأداة/الهوية في الخطاب السردية التراثي. ينظر: أسئلة الهوية في الخطاب السردية، أعمال الملتقى الدولي الثاني حول السرديات، 2005، ص.ص: 1-484. أما أعمال الدورة الثالثة فتمحورت حول: القراءة وفاعلية الاختلاف في النص السردية. ينظر: أعمال الملتقى الثالث حول السرديات، يومي 3/4 نوفمبر 2007، ص.ص: 1-125.



أمّا ما يهّمنا - في هذا الصّدّد - هو كتابه "العتبات" *Seuils 1987*، الذي استحسنه الباحث المغربي كثيرا بعدما تشبّع بحمولته المعرفية. وبالنظر لاهتمام "الدراسات السيميائية على اختلاف مدارسها وتوجهاتها في الآونة الأخيرة" [...] بالعتبات النصّية (*Seuils*) لما لها من مقدرة على توجيه المقروئية وتحديد آلياتها في معظم الأحيان¹، وكذا مراعاة الحضور المميّز للمنهج السيميائي في مشاهدنا النقدي، راهن الباحث المغربي كثيرا على مقارنة النصوص الموازية أو المناصات - على حدّ تعبير سعيد يقطين²، التي يحتفي بها الأثر الأدبي باعتبار أنّها جزء مساهم في تحلّي دلالات النصوص.

وجدت هذه الخطوة البحثية في نظريات "ج. جنيت" دعما واهتماما؛ بعدما رأت في خارجيّات النصوص (هوامشه) امتدادا طبيعيا لداخليّاته (المتون)، وإذا قمنا بعملية إحصاء للدراسات المغربية، التي أظهرت ولاءها لأفكار "جنيت" سنجدها كثيرة، بعضها منشور في شكل كتب، وبعضها الآخر منشور في شكل مقالات ضمن مجلّات محكمة محلية وعربية، وجميعها موزّع ما بين التّنظير والتّطبيق والتّرجمة. ويمكننا استحضار بعض النماذج بشكل مجمل، على أن نراعي فيها تاريخ الصّدور، من ذلك: كتاب "عتبات النصّ: البنية والدلالة ل: عبد الفتاح الجمري"³، كتاب "هوية العلامات في العتبات وبناء التّأويل ل: شعيب حليفي"⁴، كتاب "الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة ل: نبيل محصر"⁵، كتاب: "عتبات (جيرار جنيت من النصّ إلى المناص) ل: عبد الحق بلعابد"⁶، وكتاب "عتبات النصّ - بحث في التّراث العربي والخطاب النقدي المعاصر - ل: يوسف الإدريسي"⁷. أمّا ما جاء في شكل مقالات، فهي كثيرة، نذكر منها مقالا مترجما

¹ - عصام واصل: الخصائص السيميائية لجمليتي البدء والاختتام في "القصيدة الثالثة" من كتاب "الأم"، مجلة علامات، العدد 39، المغرب، 2013، ص: 123.

² - أورد الباحث "المناصات" بصيغة الجمع، والتي مفردتها "المناسة"، ويقصد بها "النصوص الموازية"، ينظر الهامش: سعيد يقطين: انفتاح النصّ الروائي (النصّ والسياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1989، ص: 102.

³ - صادر عن منشورات الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996.

⁴ - صادر عن دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.

⁵ - صادر عن دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2007.

⁶ - صادر عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت (لبنان) ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ/ 2008.

⁷ - صادر عن منشورات مقاربات، المغرب، ط1، 2008.



بعنوان¹ جيرار جنيت: أطراس (الأدب من الدرجة الثانية)، ترجمة وتقديم المختار الحسني، ومقالا آخر بعنوان "عتبات النص الأدبي (بحث نظري) ل: "حميد الحمداني"².

لقد شكّلت الحواشي المحيطة بالنص اهتمام النقاد الغربيين، كمثل جاك دريدا (*J. Derrida*)، جون دوبوا (*J. Dubois*)، فيليب لوجان (*Ph. Le Jeune*)...، فإذا كان هؤلاء قد حاموا حولها، فإنّ "ج.جنيت" قد وقع عليها، وفعلها في النقد الأدبي. حيث خصّها بكتاب شارح أسماء العتبات (*seuils*). حدّد فيه "جملة من الضوابط كأسماء المؤلفين، المقدمات، العناوين، الإهداءات، العناوين المتخلّلة، الحوادث، الاستجابات، وغيرها... باعتبارها عتبات لها سياقات توظيفية تاريخية ونصية، ووظائف تأليفية تختزل جانبا مركزيا من منطق الكتابة"³.

هذه الضوابط، أصطلح على تسميتها بـ"المناس" *Paratexte* وهو نمط من بين الأنماط الخمسة التي حدّدها "جنيت" في كتابه الأطراس (*Palimpsestes* (1982): التناص، المناس، الميتا نص، النص اللاحق، النص الجامع⁴.

لقد تعدّدت تعاريف هذا المصطلح في المدونة النقدية المغربية، وشاع استعماله بتسميات كثيرة من قبل باحثينا رغم واحدية الرافد لهؤلاء. فهذه الظاهرة -والحال هذه- تعكس لنا واقع الترجمة المضطرب في مشهدها الثقافي العربي، الذي يرجع سببه -كما يرى أحد الباحثين- إلى "الاعتماد على الترجمة القاموسية الحرفية، أو اعتماد المعنى وروح السياق الذي وظّف فيه اللغة الأصلية"⁵. ولعلّ من بين التعاريف التي يرى فيها الدارس احتواء لدلالة هذا المصطلح من جهة، وكشفا عن علاقته الجدلية مع النص الأساس (المتن) من جهة أخرى، ما أورده الباحث المغربي "محمد بنيس" في كتابه؛ إذ يغدو -في نظره- المناس أو النص الموازي بأنّه تلك "العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالا يجعلها تتداخل معه إلى حدّ تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالا يسمح للدّاخل النصي، كبنية وبناء، أن يشتغل

¹ - منشور في مجلة فكر ونقد المغربية، الموقع الأصل: <http://www.alfabriadeb.net>.

² - منشور في مجلة علامات في النقد: النادي الأدبي، مجلد 12، العدد 46، جدة -المملكة العربية السعودية، شوال 1426هـ.

³ - عبد الفتاح الجمري: عتبات النص -البنية والدلالة-، منشورات الرابطة، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1996، ص: 16-17.

⁴ - ينظر: عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جنيت من النص إلى المناس)، تقدم سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت (لبنان)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008، ص: 26.

⁵ - جميل حمدوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 71.



وينتج دلاليته¹. لقد حوى هذا التعريف، كما غيره من التعريفات، ترجمة لمصطلح (*Para* *texte*)، ما دعا الدارس لأن يستجمع الشائع منها من مقابلاتها العربية، وهي: النص الموازي²، والمناص³، ومحيط النص الخارجي⁴...

يندرج العنوان ضمن النص الموازي الداخلي (النص المحيط) (*Péri texte*)، فهو -في مدلوله العام- بوابة النص وعتبته، التي تعرض العمل الأدبي على المتلقي/القارئ؛ أي أنّها "تؤطر كيانه اللغوي والدلالي، وتعلن عنه الجمهور والمتلقي"⁵. أمّا -في مدلوله الخاص- فهو "علامة سيميائية يمكننا تفكيكه كنص مستقل، أو كبنية مصغرة مكثفة يتمطيها نحصل على البنيات التمهيلية للنص الرئيس، وبما أنّ العنوان جزء من النص فهو ينعكس عليه، كونه السجل الشكلي الذي يتمثل فيه القول"⁶. وبناء عليه، فإنّ عملية تفكيك وتركيب العنوان من طرف الباحث قد لا تستوف حَقّها إلا بالتّحليل السيميوطيقيّ، وهو إجراء يمدّ الباحث السيميوطيقيّ بأدوات ناجعة تمكّنه من مقارنة العنوان سيميائيًا، و"استقرائه بصريًا ولسانيًا، أفقيًا وعموديًا..."⁷. ولتحقيق هذا، لا بدّ أن يعمل السيميوطيقيّ في استنطاقه العنوان على خطوات رئيسية، هي: البنية والدلالة والوظيفة والقراءة السياقية الأفقية والعمودية⁸.

تأسيسا على هذا المعطى، تشكّل العنونة في البحث السيميوطيقيّ بؤرة النص ونواته، يكون العنوان فيه مطوعا أحيانا، إذ يمدّ الباحث بالقدرة الكافية على فهم مدلولات المتن المدروس سواء أكان قصيدة شعرية أم نصّا نثريًا، كما يمكن أن يكون مستعصيًا يحتاج إلى فهم أعمق، هذا الأمر يدفع الباحث لأن يمارس على العنوان لعبتي التّفكيك والتّركيب؛ كي يستجلي مدلولات المتن

¹ - محمد بنيس: الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها (1- التقليدية)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء (المغرب)، ط2، 2001، ص: 76.

² - ينظر كل من: محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها (1- التقليدية)، ص: 77، وعبد الفتاح الحجمري: عتبات النص -البنية والدلالة-، ص: 09، وجميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، ص: 75. والطيب بودريالة: قراءة في كتاب (سيمياء العنوان) للدكتور بسام قطوس، ضمن أعمال الملتقى الوطني الثاني "السيمياء والنص الأدبي"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بيسكرة، الجزائر، 15-16 أفريل 2002، ص: 25.

³ - ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص-السياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1989، ص: 102.

⁴ - فريد الزاهي: الحكاية والمتخيل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1991، ص: 85.

⁵ - شادية شقروش: سيمياء العنوان في ديوان (مقام البوح) للشاعر: د.عبد الله العشي، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول (السيمياء والنص الأدبي)، المنشورات الجامعية، بيسكرة، الجزائر، الأيام 7-8 نوفمبر 2000، ص: 270.

⁶ - شادية شقروش: سيمياء الخطاب الشعري في ديوان (مقام البوح) للشاعر عبد الله العشي، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ/2010م، ص: 31.

⁷ - جميل حمداوي: سيميائية العنوان -عتبة النص الموازي-، مجلة أيقونات (مجموعة "سيما" للبحوث السيميائية)، ع3، سيدي بلعباس، الجزائر، ماي 2012، ص: 30.

⁸ - ينظر: جميل حمداوي: المرجع نفسه، ص: 37.



المدرّوس تفسيراً وتأويلاً. استناداً على هذا البسط النظري، يحاول الدّارس أن يقف على بعض المقاربات المغربية التي احتفت في تحليلاتها لبعض النصوص الأدبية (الشعرية والسردية) بالعنونة.

2- مقارنة العنوان في الخطاب السيميائي المغربي:

لقد تعدّدت الدّراسات السيميائية المغربية، وتنوّعت تلك التي احتفت بجنس الشعر، فلقد اشتغل ثلّة من باحثينا على قصائد عربية كثيرة، قديمة وحديثة، عمودية وحرّة، والمطلّع على مقاربات هؤلاء يلفيها - في الغالب - تلتقي في طريقة التحليل التي تراعي في اشتغالها إلى جانب النصّ الأساس نصّاً موازياً له، يعني "بضواحي النصّ المجاورة له"¹. استناداً على طرح الناقد الفرنسي "جيرار جنيت *G. Genette*" في كتابه العتبات 1987 على اعتبار أنّ العتبات النصّية لها من الأهمية بمكان في إنتاج الدلالة، ومنه يشكّل "الاهتمام بالهامشي تحوّلاً في العقل الأوربي الذي اتّجه إلى الاختلاف والتعدّد والتنوّع وتحطيم سلطة المركز ومرجعياته"². وهنا يتبادر إلى إلهي ذهن الدّارس هذا السّؤال الذي فحواه.

- كيف احتفى الباحث المغربي بالعتبات النصّية؟.

2-أ- سيميائية العنوان في الخطاب الشعري:

- النموذج الأوّل: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية لـ "يوسف وغليسي".

اشتغل الباحث في هذه الدّراسة على القسم الأوّل من الديوان الشعري (في البدء كان.. أوراس) لصاحبه "عز الدين ميهوبي"، حيث يشكّل هذا القسم الموسوم بـ"قصائد.. سقطت من عاشق للأرض والأوراس" - من خلال قصائده العشر - "مركز الثقل الأوراسي وبؤرته الاستقطابية في نصوص شاعرنا"³ - على حدّ تعبير الباحث - يلفي الدّارس ههنا، قراءة الباحث لهذه القصائد من المقاربات السيميائية المغربية الجديرة بالاهتمام والمتابعة والمدراسة لما تعكسه من اختيار واع للنصوص المدروسة ومن تحليل منهجي صاف ومتماسك. وعليه، فإن استراتيجية

¹ - يوسف وغليسي: في ظلال النصوص - تأملات نقدية في كتابات جزائرية - سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة (عز الدين ميهوبي نموذجاً)، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009م، ص: 92.

² - خليل الموسى: السيميولوجيا: النشأة والتحول، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد 456، السنة الثانية والثلاثون، دمشق (سوريا)، نيسان 2009، ص: 23.

³ - يوسف وغليسي: المرجع السابق، ص: 97.



الباحث في هذا المقام تعكس سمة التميّز التي يظهر بها وغليسي في كلّ دراساته النقدية، والتمثّلة أساسا في طرحه الأكاديمي المعالج لتيمة (قديمة/حديثة) هي "الأوراس" ضمن نصوص شعرية محلية من منظور صرامة منهج نصّائي. جاء هذا الطرح مكملا لما طرحته دراسات سابقة من حول موضوع "الأوراس"، لكن ما يميّز دراسة باحثنا عن تلك الدراسات هو اشتغالها على متن شعري محليّ أي جزائري خالص من ناحية، وتوسّلها بأدوات منهج نصّائي لا سياقي، ألا وهو المنهج السيميائيّ من ناحية ثانية¹.

وبناء عليه، فإنّ الباحث استطاع -وفق استراتيجيته المنهجية التي رسمها- تمثّل قصائد القسم الأوّل من الديوان معتبرا إيّاها جسدا "حيّا لغويّا مأهولا بالعلامات المختلفة التي تعكس وهجه الدلالي وألقه الجمالي، وتنعكس على خارطة النصّ الشعري في تضاريسها المختلفة، من لغة النصّ الرئيسيّ إلى الفضاء النصّي الموازي وما يؤثّته من ملحقات نصيّة كالعنوان والعناوين الفرعية والاهداء والتّصدير والتّقديم والهامش والغلاف، وما يتبع ذلك من لوازم تسويق النصوص وتداولها بين أهل النصّ"².

يعزو الباحث اختياره هذا، إلى أنّ الشاعر "عز الدين ميهوبي" قد تحوّل إلى أيقونة شعرية محليّا وعربيّا، تتعنى بالأوراس، حيث اشتغل عليه كتيمة ذاكرة لثورة تحريرية مجيدة، وهو ما يحاول الباحث اقناعنا به من أنّ الشاعر من خلال ديوانه صار "أكبر من استأصل "الأوراس" من عالم التّضاريس ليحوّله إلى علامة لغوية بالغة النّقد السّحري..."³.

لقد كان الباحث على وعي كبير بأنّ النصوص الشعرية التي يشتغل عليها تزخر بدلالات أوراسية كثيرة لا يمكن احتوائها، والاحاطة بها إذا ما ركّزنا على تلك النصوص فحسب. وعليه، فقد ضاق كل نصّ من تلك النصوص بالأوراس "فراح يسكنه العتبات المحيطة به، وأن الأوراس قد

¹ - ينظر: يوسف وغليسي: في ظلال النصوص، ص: 92.

² - يوسف وغليسي: المرجع نفسه، ص: 125. ينظر كذلك: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة، ضمن محاضرات الملتقى الخامس "السيمياء والنص الأدبي"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، أيام (15-17) نوفمبر 2008، ص: 92.

³ - يوسف وغليسي: م ن، ص: 132.



تفرّق دمه بين قبائل النصّ، بحيث يتعدّد التماس حقيقته الكاملة في قبيلة علاميّة واحدة دون غيرها!...¹.

لقد أفضى عسر الإحاطة بالنصّ بالباحث إلى التوسّل بالهوامش النصّية أو ما يعرف بالنصّ الموازي (*Paratexte*) كعتبات نصّية يلج من خلالها لسبر أغوار النصّ، حيث ارتكز تحليله السيميائي لتيمة "الأوراس" المعوّم في النصّ الشعري على تقسيم هذا الأخير "إلى نصّ أساسي يحتكم كثيرا إلى مفهوم البنية، ونصّ مواز يكون بمثابة العتبة التي تلج منها أغوار النصّ"².

تناول في القسم الأوّل "الأوراس في النصّ الموازي"، فعالج فيه عنصرين هما: سيميائية العنوان، وسيميائية الاستهلال. أمّا القسم الثاني فقد تناول فيه "الأوراس في النصّ الأساسي" منطلقا من العناصر التحليليّة التّالية: سيميائية اللّغة، علامة "الأوراس" في ضوء التّلاثيّة السيميائية لـ"بورس" وهي الأيقونة، والقرينة، والرّمز، بعدها انتقل إلى عنصر ثالث هو سيميائية الإيقاع، اتّكأ فيه على التّسق الإيقاعي في شكله العروضي من خلال: إيقاع الوزن، وإيقاع القافية. والدارس -في هذا المقام- سوف يقتصر على "سيميائية الأوراس في النصّ الموازي" التي عالجها "وغليسي"، وهو صنيع تقتضيه منهجية البحث.

قدّم الباحث بسطا نظريًا لمفهوم النصّ الموازي معتمدا على تنظيرات الناقد الفرنسي "جيرار جنيت *G. Genette*" التي أوردها في كتابه "العتبات" (*Seuils*) الصّادر بتاريخ 1987 حيث تفتنّ هذا الناقد إلى أنّ النصّ الأدبي يتكوّن من نصّ أساسي ونصّ موازي له، ورأى أنّ هذا الأخير (النصّ الموازي) يتوزّع بدوره إلى نصّين هما: نصّ محيط *Péritexte* تنضوي تحته جملة عناصر هي: العنوان، المقدّمة، الإهداء، الاستهلال، الحواشي والهوامش، والغلاف... ونصّ فوق *epitexte* يتعلّق بما هو خارج النصّ كاستجابات، الشّهادات، المراسلات، التعليقات... ويعضد الباحث هذا البسط النظري كذلك بما ذهب إليه "ميشال أوتن" من خلال المصطلح الإجرائي الذي نعته بـ"مواضيع اليقين" (*Lieuxcertitude*) والتي اختصرها في: الجنس الأدبي، والمتاليات

¹ - يوسف وغليسي: م ن، ص: 125.

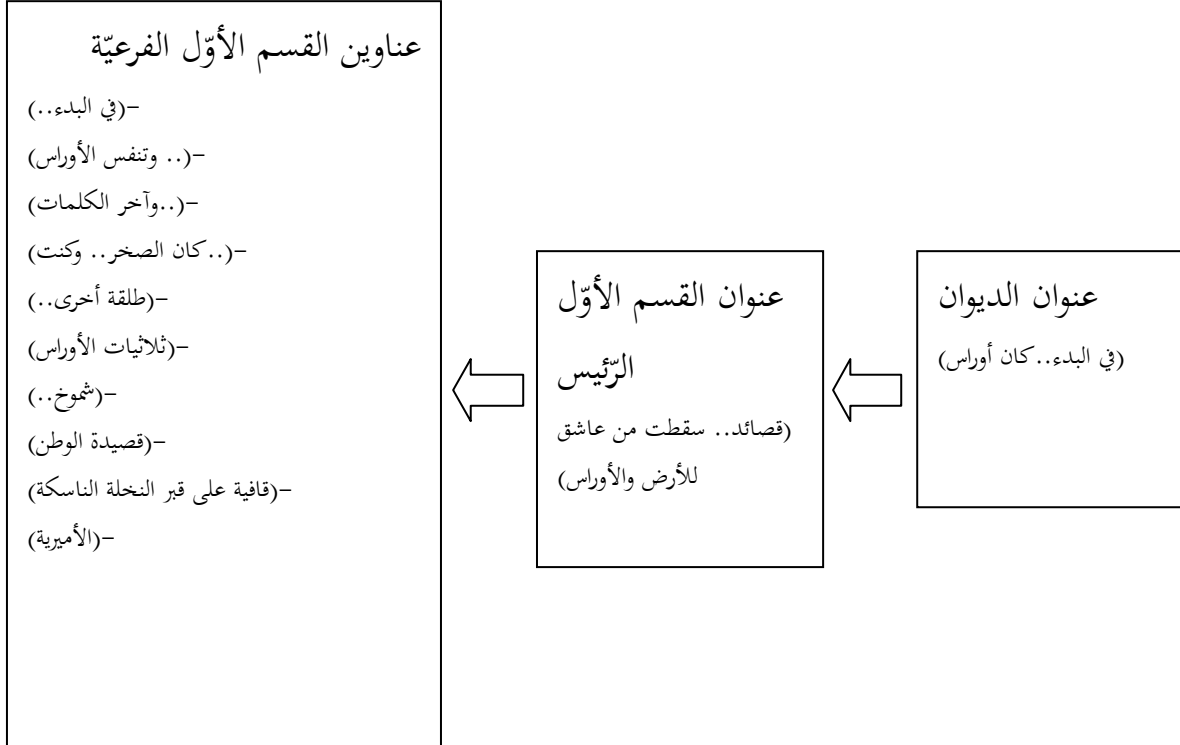
² - يوسف وغليسي: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية، ص: 98.



الكلامية والعنوان والعناوين الفرعية...¹. استنادا على هذين الطرحين، يسعى الباحث في هذا القسم لمدرسة سيميائية العنوان ومن بعدها سيميائية الاستدلال، إلا أن تركيز الباحث سيقف عند العنصر الأول.

سيميائية العنوان:

ينطلق الباحث من قناعة جازمة، ترى في العنوان علامة من العلامات النصية الدالة² المشحونة دلاليًا، لذا فهي من العتبات النصية التي لا بد أن يمرّ عليها الباحث السيميولوجي، فيغدو العنوان بذلك نصًا مصغّرًا يجب قراءته بداية قبل الولوج إلى أغوار النص العميقة. يقارب الباحث العنوان وفق استراتيجية ينتقل فيها من الخارج إلى الداخل في حركة مستقيمة تنطلق من العنوان الرئيسي للديوان إلى العنوان الرئيسي للقسم الأول من الديوان وصولًا إلى العناوين الفرعية التي تنضوي تحت عنوان هذا القسم، وهو بهذا يحاول الكشف عن الرابطة الذي تنتظم وفقه هذه العناوين. والمخطّط التالي يحدّد لنا هندسة الباحث في قراءة العناوين:



¹ - ينظر: يوسف وغليسي: المرجع نفسه، ص: 133. وكذلك: يوسف وغليسي: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية، ص: 98.

² - ينظر: شعيب حلفي: هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص: 11.



تفحص الباحث هذه العناوين عبر بنيتين: تركيبية (لغوية)، ودلالية (عميقة).

1- البنية اللغوية:

تفحص الباحث العنوان الرئيسي (في البدء.. كان الأوراس) من منظور نحوي فوجد أنه يتشكّل من شبه جملة مكوّنة من جار ومجرور [في البدء..] تليه جملة فعلية [كان الأوراس] مصدره بالفعل الماضي الناقص (كان)، وهو هنا كما يقول الباحث "يستدرك دلالاته الناقصة، ليرد فعلاً تاماً في هذا السياق اللغوي بمعنى (حدث أو حصل)"¹. يتبع هذا الفعل باسم (أوراس)، ولفظه (أوراس) ههنا تتجاوز وظيفة اسم كان - حسب الباحث - رغم أنه بحاجة لخبر منصوب إلى الفاعلية "حيث يرد فاعلاً مرفوعاً مستغنياً بنفسه عن أي مكمل لغوي"². ينتقل بعد ذلك إلى العناوين الداخلية (*Intertitre*) الفرعية التي ينتظمها عنوان داخلي رئيس متعلق بالقسم الأول من الديوان وهو "قصائد.. سقطت من العاشق للأرض والأوراس!". وعليه، فإنّ هذه العناوين الداخلية جميعها التي تتصدّر القصائد العشر من القسم الأول، تقوم في أغلب الأحوال، "على مركّب اسمي ثابت الدلالة، بلا تغيير ولا تجدد، لتجرّده من عنصر الفعل الذي يحيل على الزمن"³.

2- البنية الدلالية:

ما من شكّ أنّ عنوان الديوان والعناوين الداخلية المنتظمة تحت كلّ قسم منه على علاقة عضوية مع القصائد التي تتصدّرها. ومن ذلك، فإنّ كلّ عنوان في علاقته مع نصّ القصيدة يحقق بنية دلالية تبوح للقارئ بما يكتمه العنوان الأساسي، فيكون العنوان بهذا "علامة سيميائية دالة، والذي يضمن له الدلالة ليست نصّيته المستقلة تمام الاستقلال، إنّما تلك التي يبينها من علاقة المتن الذي يؤطّره، وعلاقته بالخطابات والنصوص التي ينتمي إليها في السيرة الثقافية"⁴. من هذا، فإنّ القارئ لا يمكنه الإحاطة بنصّية العنوان، إلا إذا تجاوز بنيته السطحية - التي تكون ناقصة

¹ - يوسف وغيلسي: في ظلال النصوص، ص: 134.

² - يوسف وغيلسي: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية، ص: 99.

³ - / يوسف وغيلسي: المرجع السابق، ص: 135. / وينظر: نفسه، ص: 100.

⁴ - سعيدة عمروش: سيميائية العنونة في ديوان "أوجاع صفصافة في مواسم الإعصار" ليوسف وغيلسي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير (مخطوط)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف2، الجزائر، 2012-2013، ص: 84.



في الغالب- إلى بنية عميقة دالة تضمن نصية العنوان وتجسدها من خلال علاقة هذا العنوان بمتنه. يحاول "يوسف وغليسي" الإحاطة بنصية هذه العناوين من خلال البحث في البنية العميقة؛ أي إبراز علاقة هذه العناوين بالنصوص الشعرية المرتبطة بها.

يرى الباحث في عنوان الديوان "في البدء .. كان الأوراس" خرقا وانزياحا وانتهاكا لمبدأ العنونة في النثر، "فقد جاء هذا العنوان الشعري (في البدء .. كان الأوراس) منتهاكا للجملة المقدسة (في البدء كان الكلمة) التي جعل منها المرحوم "خالد محمد خالد" عنوانا لأحد كتبه، منزاحا عنها بفعل هذه المصاحبة اللغوية غير العادية التي تجعل من "أوراس" بديلا لـ"الكلمة" [...].، بما يتضمّن للشاعر اضاء هالة قصوى من القداسة والأسطورة"¹.

يندرج تحت هذا العنوان، العنوان الداخلي الرئيس للقسم الأول من الديوان، وهو (قصائد.. سقطت من العاشق للأرض والأوراس!). هذا الأخير، إمّا وجد - كما يرى الباحث - ليفضح سرّ العلاقة بين ذات الشاعر وموضوع الأوراس. وقد عضّدت العناوين العشرة الفرعية (الداخلية) التي انتظمت تحته، وهي بدورها كشفت الأسرار التي يضمها العنوان الأساس عن القارئ من خلال ترادها لقيمة "الأوراس" إمّا بلفظها الظاهر أو ما ينوب عنه من ألفاظ ك(الصخر، النحلة، الوطن)، وإمّا بشيء من لوازمه ك(طلقة، شموخ...)، "كلّ ذلك - والقول للباحث - لا يمكن أن يعني إلا هيمنة واضحة للعلامة الأوراسية على الفضاء السطحي للنصوص [...] بما يعني حرص الشاعر على تقرير حال الشموخ الأوراسي، وتثبيت الصفات اللازمة في الأوراسي"².

يجد الباحث كذلك في غالبية العناوين التي وقفت على دلالتها فراغات نصية أو كما تسمى علامات الحذف *Les points de suspensions*، حيث يرى "وغليسي" أنّ إيرادها في هذه السياقات، لم يأت اعتبارا، وإمّا يدخل ضمن الهندسة النصية التي رسمها الشاعر لقصائده. وعليه، فإنّ تجليها جاء ليشير إلى دلالات توحى للقارئ على كلام محذوف، لا يمكن البوح به، هذا كلّ من شأنه أن يطلق خيال القارئ في التحامه بالذاكرة الأوراسية"³ ليسدّ هذه الفراغات استنادا

¹ - يوسف وغليسي: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية، ص: 99.

² - يوسف وغليسي: المرجع السابق، ص: 135. وينظر: نفسه، ص: 100.

³ - يوسف وغليسي: في ظلال النصوص، ص: 135.



على ما يعرفه عن الأوراس كتضاريس وكرمز تاريخي حافل بالعطاءات. لذلك، فالفراغات التي تتخلل هذه العناوين تفتح المجال لاستنطاق النص من منظور فعل قرائي متجدد.

خلاصة:

بدا لنا بعد اطلاعنا الكامل على الدراسة انطلاقا من النص الموازي وما يحويه ووصولاً إلى النص الأساس أنّ الباحث وجد صعوبة في الإحاطة الكاملة بـ"نص الأوراس" وهو أمر، هذا به من ناحية إلى الاستعانة بمنهج مطواع مرّن هو المنهج السيميائي للكشف عن دلالات النص وتشكلاتها، واستعان من ناحية أخرى، بالنص الموازي لتجسيد العلاقة بين حواشي النص (هوامشه) ومركزه.

- عالج الباحث العناوين عبر بنيتين هما: البنية التركيبية (اللغوية) وهي بنية سطحية، وبنية عميقة هي البنية الدلالية التي تبحث عن نصية العنوان المتجسدة عبر علاقة العنوان بنصّه، وهي علاقة تفاعلية وجدلية.
- توصل الباحث أنّ فهم النص الأساسي منوط بإدراك دلالة العنوان الرئيسي، وكذا العناوين الأخرى، على اعتبار أنّ العنوان نصّ مصغّر ومختزل وعلامة دالة تكشف لنا تفصلات المعنى في النص.
- استعان الباحث في هذه الدراسة على مراجع غربية لها ارتباط وثيق بعلم العنونة ككتاب العتبات (*Seuils*) لجيرار جنيت *G. Genette*، ومراجع غربية أخرى لكنّها مترجمة، ككتاب "سيميولوجية القراءة" لـ"ميشال أوتن" الذي ترجمه "عبد الرحمان بوعلي"، ومراجع عربية كمقال: السيميوطيقا والعنونة لـ"جميل حمداوي"، وهي -في مجموعها- توحى بسعة اطلاع الباحث، ووعيه بأسئلة العنونة من حيث الماهية والنشأة والوظيفة من جهة، وبسيميائية العنوان من جهة ثانية.
- استطاع الباحث أن يؤثّر بثقته بجهاز مصطلحاتي استنادا على المراجع المذكورة سابقا وعلى معاجم غربية وعربية، فالغربية تمثلت أساسا في: قاموس اللسانيات لـ"جون ديوبو



وآخرون " (J.Dubos) (*Dictionnaire de linguistique*) (*et autres*) أما العربية فيمثلها معجم الاعراب والإملاء لـ "إميل بديع".

لقد ساهمت هذه المعاجم في إيراد مصطلحات غريبة مترجمة جميعها منها: النص الموازي (*para texte*)، عتبة (*Seuil*)، بهو (*Vestibule*)، منطقة متذبذبة (*Zone*) (*indécise*)، مساعدا (*Auxiliaire*)، مكملا (*Accessoire*)، النص الفوقي: (*Epitexte*)، النص المحيط (*Péri texte*)، مواضيع اليقين (*Lieux de certitude*)، العناوين الداخلية (*Intertitule*)، علامات الحذف (*Les points des suspensions*)، النص الأساس (*Texte principale*).

- النموذج الثاني:- سيميائية الأرض والهوية في قصيدة "حصار" لـ "عامر الحلواني".

اختار الدّارس مقارنة الباحث التونسي "عامر الحلواني" الموسومة بـ: سيميائية الأرض والهوية في قصيدة "حصار" للشاعرة فوزية العلوي.

ينبغي أن نشير بداية، إلى الدور المعرفي والتثقيفي الذي تلعبه مجلة علامات المغربية، وما تقدّمه من خدمات جليلة في مجال السيميائيات، وشاهدنا في هذا، هو احتفاؤها بالدراسات النقدية العربية المتخصصة في هذا الميدان؛ فقد أحاطت تحديدا بالسيميائيات نظريا وتطبيقا وترجمة، وكلّ ما من شأنه أن يسهم في توثيق وترسيخ هذا العلم في المشهد النقديّ العربيّ عموما والمغاربيّ منه على وجه الخصوص. ونحن -في هذا الصدد- سوف نورد دراسة مغاربية تضمّنّها أحد أعداد هذه المجلة، وهي للباحث التونسي "عامر الحلواني" التي خصّصها لتحليل قصيدة شعريّة محليّة، وسنقتصر فيها على تتبّع طريقة اشتغال هذا الباحث على العتبات النصّية للقصيدة، وتحديد عناونها.

اشتغل الباحث في هذه المقاربة على "سيميائية الأرض والهوية من قصيدة "الحصار"، هذه الأخيرة، هي واحدة من القصائد الشعريّة الحرّة التي اختارها الباحث من بين مجموعة قصائد



أخرى، تشكل معا مجموعة "بربخ طائر"، وهو ديوان الشاعرة والقاصة والباحثة التونسية فوزية العلوي¹.

تتوزع قصيدة "الحصار" على سبعة وعشرين سطرا تناولها الباحث بالتحليل من منظور سيميائي، بغية الكشف عما يكتنزه هذا النص من دلالات، تساعد على محاصرة النص بعيدا عن الاكراهات التي تخرس النص وتبكمه فلا تجعله يوجد بعطاءات المعنى، ولا القارئ من ذلك يجني الفائدة. من هذا كان الباحث على دراية بأهمية هذا المنهج المطوع المرن في مقارنة مثل هذه النصوص، وهذه القناعة نابعة من وعي صاحبها بنجاعة التحليل السيميائي الذي "يقوم على الخصوصية العلامة باعتبارها الملمح المميز لكل تحليل من الناحية العلمية"².

وفقا لهذه الاستراتيجية، اعتمد الباحث في مقارنة هذه القصيدة على عناصر تناولت خارجيات هذا النص، وداخلياته، وقد استهلها بعد عرضه نص قصيدة "حصار" بسيميائية العنوان، باحثا في أهمية علامة العنوان وسبل قراءتها، بعدها ولج إلى ما يتعلق بخصوصية النص الأساس، متناولا "سيميائية الأرض" و"الهوية في ضوء التردد المدلولي"، مركزا في هذا العنصر على سيميائية البناء النصي للقصيدة "حصار" وآفاق تأويلها من ناحية، وفعل تأويلها من ناحية ثانية، ليختم كل هذا بملخص تاليفي استجمع فيها النتائج التي توصل إليها من هذا التحليل. لقد جاء تركيز نظر الباحث في القصيدة "على عتبة العنوان وعلى التردد المدلولي [وبحث في كيفية توظيفها] توظيفا جماليا"³.

¹ - هي شاعرة، وقاصة وباحثة أكاديمية، من مواليد القصيرين في تونس، حاصلة على شهادة ماجستير في النقد بكلية الآداب بسوسة 2006، يكتب في السرد والشعر والنقد. لها في القصة القصيرة "علي ومهرة الريح"، "الخصاب"، "حرية في المدينة الفاضلة"، "طائر الخوف". ولها في الشعر: "بربخ طائر" 1997 / "قريان الغريب" 2009 / كما نشرت عدة مقالات في النقد في مجلات ورقية محكمة، وإلكترونية مختلفة، فضلا عن مشاركتها في عدة فعاليات ثقافية داخل وخارج الوطن تونس. لمزيد من الايضاح، ينظر: السيرة الذاتية للشاعرة "فوزية العلوي" على الموقع الإلكتروني، ديوان العرب (مسير حر للثقافة والفكر والأدب)، الاثني عشر شباط (فبراير) 2012.

www.diwanaarab.com/s.pip.php?page=auteurs&_auteur=1621

² - عامر الحلواني: سيميائية الأرض والهوية في قصيدة "حصار" لفوزية العلوي، مجلة علامات، العدد 29، المغرب، 2008، ص: 75.

³ - عامر الحلواني: سيميائية الأرض والهوية، ص: 75.



- مقارنة العنوان من منظور الباحث "عامر الحلواني":

العنوان كعلامة نصية:

اعتمد الباحث في معالجته السيميائية للعنوان على تحديد علامة العنوان "حصار" أولاً ثم قراءتها ثانياً، حيث يرى في عنوان القصيدة "حصار" علامة نصية دالة على ملفوظ "حصار"، تساعد المتلقي على قراءة النص وفهمه. ومنه، ينظر إلى هذا الملفوظ على أنه "ليس مجرد علامة حدودية لبداية النص"¹، وإنما هي تيمة نواة تعريفية يتحدّد من خلالها الإطار العام الذي سيتحرّك فيه النص، وبوجود الانسجام بين العنوان والسياق النصي تتحقّق العلاقة التفاعلية بينهما؛ إذ بالنظر إلى نصّ القصيدة نجد تيمة "حصار" مبثوثة بين ثنايا أسطر القصيدة إن بلفظها أو معناها. من ذلك، ورودها فعلاً ماضياً في السطر الثالث (حاصرنا الإثم في الخليج!)، ورودها كذلك اسم فاعل للفعل الرباعي (حاصر) في السطر الثامن عشر (محاصر هو).

يرى الباحث في تعوّم هذه التيمة في المتن، امتداداً لها في النص، لذلك فإنّ القارئ قد يتمكّن من فهم معناها على مستوى المعنى المعجمي، لكن يعجز عن فهم معناها على المستوى الدلالي، إذالم يعد إلى النص. وعليه، فإنّ تيمة "حصار" كعنوان أساسي هي بمثابة الرّأس من (الجسد/النص)، فهي تتصدّر النصّ و"توشّح [ه] بعد أن تكتمل صورته"². بهذه الميزة أصبحت للعناوين أهمية بالغة وحضوراً فاعلاً في النصوص، بوصفها "علامات كيان [...] تعريفية استباقية"³.

قراءة في علامة العنوان:

كأي باحث، راح "الحلواني" يتوسّل بأدوات التحليل السيميائيّ في قراءة عنوان القصيدة "حصار"، ولكي تسهل عليه عمليّة القراءة، تناول العنوان من منظور بنيتين، إحداهما تركيبية (لغوية)، وهي قراءة نعدّها سطحيّة، والأخرى دلالية عميقة.

¹ - م ن، ص: 69.

² - م ن، ص ن.

³ - م ن، ص: 69-70.



1- البنية التركيبية: تفحص الباحث بنية العنوان "حصار" من منظور لغوي، معتمدا في ذلك على ما جاء في معجم لسان العرب لابن منظور بخصوص مادة (ح.ص.ر)، حيث يرى أنّ قراءة العنوان على مستوى المعنى المعجمي تبقى سطحية، ذلك لأنّ "المؤول مباشرة لا يستدعي أي جهد للكشف عنه لأنّه يحيل مباشرة على ما هو معطى من خلال حذر اللفظ [...] ومادته اللغوية ذاتها"¹.

يستند الباحث في هذا التعليل على بعض رؤى سعيد بنكراد، بخصوص البنية التركيبية وقراءتها في مستوى المؤول المباشر، لكن برغم دورها الثانوي، تبقى القراءة في هذا المستوى ضرورية ومطلوبة، تسهم لاحقا في القراءة العميقة للنص. وتهدف من منظور التحليل السيميائي إلى "إعادة بناء قصديّة النص وفق مقتضيات الأفراد والتركيب، التعريف والتّكبير، الغموض والوضوح"². كل هذا، ألمح إليه الباحث سابقا بوصفه لتلك العناوين، أنّها علامات تعريفية استباقية لما هو لاحق.

1- البنية الدلالية: اتّضحت للباحث - في هذه البنية - الرؤية الكاشفة عن العلاقة العضوية للعنوان "حصار" مع ما جاء في سياق النص الشعري، هذه العلاقة تثبت للمتلقّي أنّ الكشف عن المعنى، لا يتحقّق إذا ما تمّ عزل العنوان عن نصّه، فالعنوان لوحده لا يضفر بذلك خارج السياق النصّي.

تأسيسا على هذا، فإنّ المسار التأويلي للقراءة السيميائية يتحدّد وفق الثنائيات المذكورة آنفا وهي (الأفراد/التركيب)، (التعريف/التكبير)، (الغموض/الوضوح) التي تتأسس عليها دلالات النص. وهو أمر، أفضى بالباحث إلى تجاوز مستوى القراءة السطحية للعنوان إلى مستوى قرائي عميق، بعدما وجد في علامة العنوان (حصار) "قدرا من الالتباس والغموض، يؤكّدان أنّه يحتضن داخله قيما سياسية وأخلاقية تحتاج تأويلا يقوم بتنظيم تجلياتها المتعدّدة عبر مسارات توليدية،

¹ - عامر الحلواني: سيميائية الأرض والهوية، ص: 70.

² - م ن، ص ن.



تجذب القارئ إلى النص وتحافظ على ارتباطه بالنفس، وتدفعه إلى استكشاف المتن المرتبط به، حتى يفهم العلاقات المتبادلة بينهما، باعتبارهما نصين متوازيين نص العنوان موازي لنص المتن¹.

لقد استند الباحث فيما استخلصه من معطى العنوان "حصار"، الذي انماز به عمّا سواه من ملفوظات، فمن صفات هذا العنوان أنه علامة اشتقاقية واردة بلفظ واحد، نكرة، غير مضافة، موجزة، مشحونة دلاليًا... وعليه، وانطلاقاً من هذا المعطى، بات لزاماً على الباحث التقصي عن دلالة العنوان وملاحقة تفاصيله ضمن سياق النص الشعري². وهو بالفعل ما قام به، بعدما تبين له أنّ معمار هذه القصيدة "حصار" سواء أكان عنواناً أم متناً، قد "ورد - في الظاهر - متناغماً مع طبيعة الملفوظ العلامى وحقيقة المقصد الدلالي المتحكمين فيها"³. من هذا، أصبحت كلمة "حصار" بؤرة هذا النص الشعري، فهي بمعناها السطحي أو العميق، "تمثل نواة دلالية معلنة هي بمثابة المعنى المركزي"⁴.

كلّ هذا، أفضى بالباحث إلى طرح أسئلة محيرة، يحاول من خلالها القبض على كلّ المعاني التي تحتضنها العلامة "حصار" في القصيدة، من تلك الأسئلة نجده يقول متسائلاً: "فما المسيرات التي يمكن أن يسلكها، فعل التأويل السيميائي لإنتاج الدلالات الممكنة للعلامات التي تدور على حدث "الحصار" في النص؟"⁵. ويتساءل أيضاً في موطن آخر من دراسته بالقول: "فكيف يتحقّق الوجود السيميائي لعلامة "الحصار" في القصيدة إذا حرّنا هذه العلامة من صيغة التجريد التي توحى بها، لنزلها في ما يؤكّد طابعها المجسّد في وقائع مخصوصة تحقّق الوجود الفعلي للقيم المنظورة؟"⁶. يرى الباحث أنّ علامة "الحصار" التي تمثل نواة دلالية في القصيدة، تتنازعها باطنا نواة مرجعية نصية ثانية تمجد التحدي والتمرد⁷.

¹ - م س، ص س.

² - م ن، ص: 70.

³ - م ن، ص: 71.

⁴ - م ن، ص ن.

⁵ - م ن، ص ن.

⁶ - عامر الحلواني: سيميائية الأرض والهوية، ص: 71-72.

⁷ - م ن، ص: 72.



وبالتالي، إذا كان "جمال العلامة يندد بالحصار، [فإن] جمال الرؤية الفكرية رسالة مشفرة تمجد التّحدّي وإثبات الهوية على الطريقة الثورية: فمن قلب المفردة النكرة [حصار] ينبعث المتحرّك الفعلي"¹، الذي لا يكفي بإمسك الدلالة من النص فقط، بل يشترط -بالإضافة إلى ذلك- السياق. وهو أمر، حذا بالباحث إلى معالجة العنوان سيميائياً وفق بنيتين سطحية وعميقة، ينتقل فيها عبر سيرورة تأويلية: من مستوى المؤول المباشر بداية وإلى مستوى المؤول النهائي ختاماً. حيث توصل إلى نتيجة "تحليل المتلقي على "الحصار" الاقتصادي للعراق وتمنح القيم المقصودة، إذ تدرجها في سياقها الخاص، تفرّدا وتميّزا، لأنّ الشاعرة في اللحظة تكفي فيها بالاستنكار ووصف الحصار من جهة الأسلوب الذي صيغت فيها علامات هذا الحصار، تحتفي بالتّحدي والفعل الثوري على صعيد المعنى الدينامي، وهذا يعني أنّ جمالية العلامة وطرائق تشكيلها في "حصار" تمثل -غالبا- بابا خلفياً مُشرعاً يتسلل منه المتلقي إلى حقيقة النصّ المضمونية ودلالته التّواتية ومقاصده الخفية"². والباحث كقارئ مثالي لهذه النص، وملتق لرسالة مشفرة (نصّ القصيدة) من مرسل الذي هو الذات المبدعة (الشاعرة) قد فهم فحواها انطلاقاً من عنوانها إلى متنها فتوصل من خلال المؤول النهائي (للأرض والهوية) في القصيدة أنّ معنى "التّحدّي" أضحى مناهضاً لعلامة العنوان "حصار".

خلاصة:

- تدرج دراسة "عامر الحلواني" ضمن الدراسات التطبيقية المغربية الجديدة التي احتفت بالنصوص الشعرية كسند لغوي، وتوسّلت بالمنهج السيميائي مفتاحاً للتّحليل.

- رغم اقرار الباحث بنجاعة المقاربة السيميائية، إلا أنّه لم يُعمل المنهج السيميائي في دراسته إعمالاً صافياً، فلقد اعتمد التّركيب المنهجي وسيلة للتّحليل رغم أنّه لم يصرّح بذلك؛ إذ نلغيه في مواطن كثيرة عاجزاً على محاصرة النصّ، ما استدعي منه ذلك إلى التّوسل بمنهج مساعد، فنلغيه يركّب بين المكوّنات المنهجية السيميائية والأسلوبية، ويظهر حضورهما في سياقات التّحليل قوّة وضعفا حسب الحاجة.

¹ - م ن، ص ن.

² - م ن، ص ن.



- يجد الناظر في مكتبة البحث التي أثنت هذه الدراسة كتباً، هي:

1- كتب سيميائية غربية وعربية منها: كتابات حول العلامة (*écrits sur le signe*) ل: ش.س. بورس، والمعنى (*Le sens*) ل: أ.ج. غريماس، وبنية اللغة الشعرية (*structure de langage poétique*) ل: ج. كوهين، وكتاب (السيميائيات - مفاهيمها وتطبيقاتها) ل: سعيد بنكراد.

2- كتب أسلوبية: منها كتاب "مدخل إلى الأسلوبية نظيراً وتطبيقاً" ل: الهادي الجطلاوي، ومقال حول "مفهوم التوظيف في الدرس الأسلوبي الحديث" ل: محمد الهادي الطرابلسي.

- انتصر الباحث في تحليله السيميائي للتأويل البورسي، الذي يؤمن بتعدد المعنى، حيث يلفيه الدارس مبتعداً عن التطبيق الميكانيكي الذي تمارسه السيميائية السردية.

- انطلق الباحث في تحليله السيميائي لتيمة العنوان "حصار" من مستوى المؤول المباشر إلى مستوى المؤول النهائي، من خلال ضبط علاقة العنوان بالسياق النصي، حيث وجد أنّ هناك امتداداً للعنوان في المتن، وأنّ دلالات كثيرة للمتن تنضوي في العنوان. وعليه، لا يمكن إدراك دلالة العنوان إلا بربطه بالنص.

- لم يعتمد الباحث في التنظير للعنوان إلا على مرجع غربي واحد فقط وهو: *Le pacte autobiographique* (1975) لصاحبه فيليب لوجان *Philippe Lejeune*.

2-ب- التحليل السيميائي للعنوان في الخطاب السردية:

- النموذج الأول: "دراسة تحليلية لرواية "نوار اللوز" للروائي الجزائري "واسيني الأعرج" للباحث "رشيد بن مالك".

افتتح الباحث دراسته باحثاً في خارجيات هذا النص الروائي، المتمثلة بداية في فاتحة الرواية، وعنوان هذا النص الروائي. ومحاولاً الكشف عن النظام السيميائي للنصين الذين أوردهما الروائي



بقصديّة على هامش نصّه، أحدهما موقّع باسمه، والثاني موقّع باسم المؤرّخ المقرّبي. يفترض رشيد بن مالك "أنّهما يلتقيان دلاليًا لتجسيد العلاقة بين السّلطة والرّعيّة"¹.

تبيّن للباحث أنّ نظامهما يختلف تماما عن نظام النصّ الأساس (متن الرواية). وأمّام هذه المفارقة، وجد "بن مالك" أنّ الكاتب يحاول مدّ جسور التّواصل مع القارئ بغرض الإقناع. ليتحوّل بذلك (أقصد الكاتب) إلى مرسل/محرك الذي يحاول تحرير أفكاره عبر قنوات الاتّصال مع المتلقّي القارئ على اعتبار "أنّ الفاتحة تقدّم لنا تأويل الكاتب لخطابه وعالم روايته الدّلالي والحوافز الحقيقيّة التي تختفي وراء تحركات شخصه ورغباتها"². لما تكشّف للباحث أنّ هذا النصّ يحوي سمات الخطاب، قام بتقسيمه إلى مقاطع (ملفوظات) هي (أ، ب، ج، د، هـ)، يكون فيها الأنا الكاتب "واسيني الأعرج" هو المرسل/المحرك (Destinateur/Manipulateur)، الذي يوجّه خطابه البرهاني في شكل رسالة (MESSAGE) نحو القارئ. هذا الخطاب "يشغل على نحو يكون فيه فهم الوضع الرّاهن مربوطا بقراءة الماضي، بعبارة أخرى، إنّ المرسل/المحرك يرغب في نقل القارئ من نصّ فاتحة الرواية إلى نصّ تغريبة بني هلال"³.

ينتقل بعدها الباحث إلى المقطع (د) الذي يؤرّخ فيه المقرّبي للمجاعات التي نالت من المصريّين، ويعزو سبب ذلك لسوء تقدير الحكّام وإهمالهم شؤون الرّعيّة⁴. من هذا، يجد الباحث أنّ هذا الملفوظ (د) يشغل، و"يتماهى بشكل قصديّ ومبرّر مع المحاور الدّلاليّة لنصّ فاتحة الرواية"⁵، ولأجل فهم هذا الملفوظ يقرّ الباحث بوجود منظورين، يتعلّق الأوّل بلافظ المنتج لهذا الملفوظ وهو المؤرّخ المقرّبي نفسه، ويتعلّق الثاني مما ندرکه من خلال زاوية التّظنر، التي يعرّض منها النصّ لوضعه في السّياق الدّلالي لفاتحة الرواية⁶. وعليه، فإنّ الباحث من خلال قراءته لفاتحة

¹ رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط1، 1427هـ-2006م، ص: 72.

² م ن، ص ن.

³ م ن، ص: 75.

- رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 76.

⁵ م ن، ص ن.

⁶ ينظر: م ن، ص ن.



الرّواية، توصّل إلى افتراض "أنّ الفاتحة تقدّم لنا تأويل الكاتب لخطابه وعالم روايته الدلاليّ والحوافز الحقيقيّة التي تختفي وراء تحركات شخصه ورغباتها"¹.

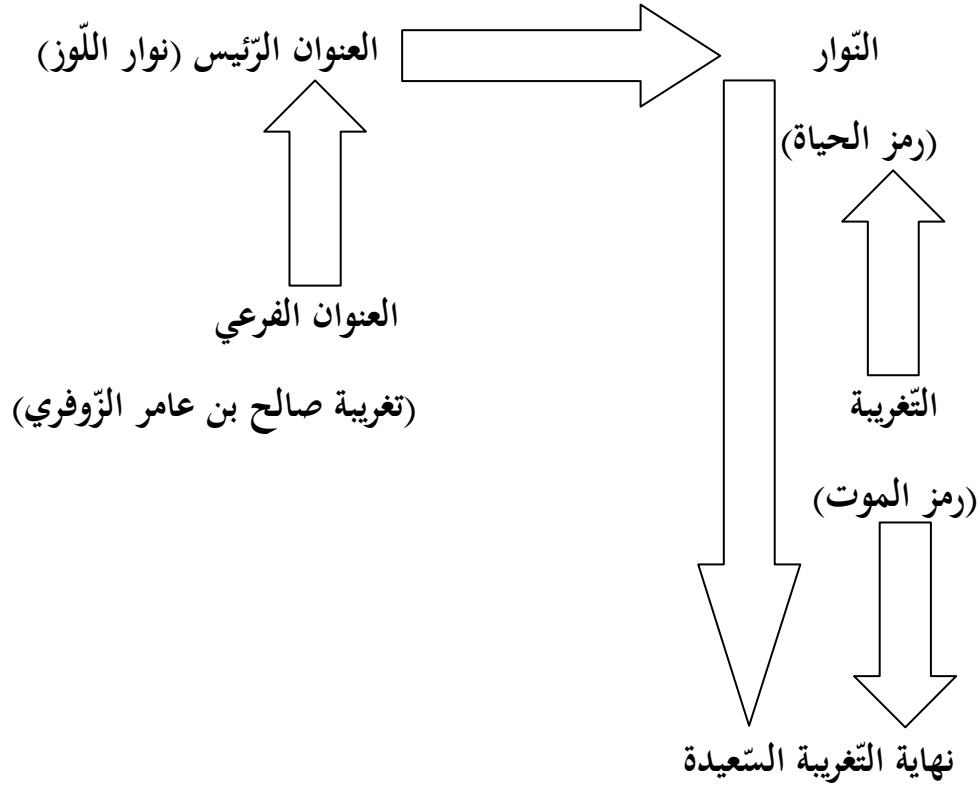
سيميائية العنوان في رواية "نوار اللّوز":

ينطلق الباحث في تحليله لبنية العنوان سيميائياً، إلى أنّ قصديّة الرّوائي بدت واضحة في إيراد اسم نبات في العنوان "نوار اللّوز"، وهو ملمح يحمل في ثناياه رسالة للمتلقي. والعنوان - كما هو معلوم- يحقّق عدّة وظائف: منها التّليغية/الإشهارية (الإعلانية)... تستقطب فضول القراء لقراءة النصّ. والباحث ههنا، وجد في الوظيفة الإعلاميّة مطيّة لتسليط الضّوء على علاقة العنوان بالنّص وتفسيرها. إنّها علاقة ممتدّة من [العنوان] إلى النّص والثّابتة من النّص إلى العنوان.

وجد الباحث أنّ عنوان الرّواية يتركّب من عنوان أساسيّ مذيّل بعنوان فرعيّ، وكلّ واحد منهما يحيل على دلالة معيّنة، ف [نوار اللّوز] كعلامة نصيّة دالّة تحيل على الأمل والحياة، في حين أنّ [تغريبه صالح بن عامر الرّوفري] تحيل على الغربة والموت، هذا الافتراض التّأويلي الذي تبيّنه الباحث منذ البداية، يرى فيه "أنّ الجمع بين الضّدين [الأمل والحياة ≠ الغربة والموت] مسخّر لخلق إشكال لدى القارئ وتحفيزه، ومن ثمّ تأسيسه فاعلا في برنامج يقوم فيع بعملية التّحري عن حقيقة الإشكال في سبيل تعويض الافتقار"². من هذا المعطى، توصّل الباحث إلى أنّ تحديد القيم الدلاليّة للتّغريبية في العنوان الفرعي المحيلة على الهلاك تنضوي تحت قيم دلاليّة للنّوار المحيل على حياة بما فيه من أمل ويأس. كلّ هذا، جعل الباحث يفترض أنّ نهاية التّغريبية تكون سعيدة.

¹ - ن، ص: 72.

² - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 81.



2- العلاقة الممتدة [نص/عنوان]:

ينطلق الباحث من العلاقة الممتدة من النص إلى العنوان؛ أي تسخير النص في قراءة العنوان وبناء الدلالة. يرى بن مالك أنّ العنوان الذي يتصدّر النص هو نصّ مستقلّ يمتلك دلالة معجميّة فقط، وكي نتخطى ذلك، يجب "أنّ نردّه إلى نظام النص الذي ينتمي إليه، وعلى هذا الأساس يستمدّ العنوان قيمته الدلاليّة من العلاقة البنائيّة (*relation structurelle*) التي يقيمها مع عناصر هذا النظام"¹، تأسيساً على هذه الرؤية، قام الباحث بمعاينة المقاطع السردية التي تتوافق مع هذه القيمة وتتلاقى معها دلاليّاً. فما استوقفه من العنوان بداية الوحدة المعجميّة [اللوز] التي ظهرت مقترنة في المقطع السردية (الملفوظ) الآتي: د/انطفأت/، و/البراعم/ فشكّلت معا وحدة مضمونيّة، (انطفأت براعم اللوز...) (غرقت القرية بكاملها في لحظة حزن طويلة"². فوجد في صورة /انطفأت/(براعم اللوز) ارتباطاً وتجانساً مع لحظتي /الغرق/ و/الحزن/، لتتموضع على الصعيد

¹ - م ن، ص: 82.

² - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 98.



التناظري *Plan isotopique* للموت¹. ولتوضيح ذلك يستحضر الباحث الحقل المعجمي الذي يحيل على معاناة أهل القرية، ويبرز تمفصلاته كذلك.

يتوصّل الباحث من الوحدات المعنوية الصغرى الواردة في المجموعة (Y) وهي (اضطراب + عنف، كآبة، قبح) إلى تبيان حال الشعور أهل القرية التّعيس، حتّى كأنّ الطّبيعة تضامنت مع سكان القرية وحزنت لفقدان هؤلاء لابنهم العربي². هذه الملاحظة، قادت "بن مالك" إلى القول "بأنّ لحظة ولادة نوار اللّوز (العنوان) توقّفت بانطفاء براعمه لتعكس الجوّ الحزين الذي يهيمن على القرية، ولتفسّر لماذا لم يشهد عنوان النّص في هذه اللّحظة بالذّات (...). ولادته الحقيقية، ولتدلّ أيضا على تعطلّ البنية النّصيّة على توليد وإنتاج العنوان"³. إلا أنّ هذا الوضع الذي يحيل على عالم الموت - كما يرى الباحث - سوف يشهد تحوّلا في نهاية الرّواية وحيث يتواءم يتفتح النّوار (عالم الطّبيعة) مع ولادة العنوان (عالم النّص)، وولادة الحملان (عالم الحيوان) مع فكرة انجاب القبيلة للذكور والإناث⁴. كل هذا، تمكّن الباحث من صياغته ببراعة في حقل دلالي اشتمل على وحدات دلالية توحى ب: خصب، أمل، حياة، براءة، جمال، فرح، وهي مؤشّرات تعكس عالم الحياة الذي يتعارض مع عالم الموت⁵.

لقد أفضت هذه الاستنتاجات بالباحث إلى "أنّ ولادة العنوان وما تحمله من تحولات وتفريعات دلالية انطلاقا من العلاقة الممتدّة من النّص إلى العنوان، "أنّ نصّ "نوار اللّوز" المتناسك يعتبر آلة حقيقية لإنتاج العنوان"⁶. هذا عن العنوان الأساس، أمّا العنوان الفرعي للرّواية تغريبة صالح بن عامر الزّوفري، فإنّ الباحث يفترض "توافق مضمونه مع العنوان الأساسي في العادة الدلالية المنضوية تحت الثّنائية السندية: موت عكس حياة"⁷.

¹ - ينظر: م ن، ص: 82.

² - ينظر: م ن، ص: 83.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: م ن، ص ن.

⁵ - ينظر: م ن، ص: 84-85.

⁶ - ينظر: رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 86.

⁷ - نفسه، ص: 86.



- النموذج الثاني: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس" للباحث "رشيد بن مالك".

يستند الباحث -بداية- في قراءته السيميائية لمتن هذه الرواية على استقرار عناونها وتأويله، على اعتبار أن لفظة "الصحن" لها من الحمولة الدلالية، في المعاجم والسيقات النصية للمتن ما يجعلها تشكّل "عنصرا أساسيا في النص كباقي الشخصيات التي تتصارع من أجل تحقيق وجودها"¹، بحيث يجد القارئ نفسه مشدودا للعنوان بشكل لافت لما يكتنف هذا الأخير من غموض وضبابية لا يتبددان على مستوى المعنى المعجمي وحده فحسب، وإنما يحاول القارئ استجلاء معانيه من خلال العلاقة القائمة بينه وبين المتن.

يرى الباحث -في كلّ هذا- "أنّ الصحن يملك سلطة توجيه القارئ إلى عالم النص [وأنّ قراءته] مرهونة بعملية بناء معانيه من داخل النص"²، فالصحن ك(لفظة/عنوان) المبتوثة في ثنايا النص الأساس من الرواية، حذت بالباحث إلى معاينتها عبر كلّ التّمفصلات النصية، وهو جعل استراتيجيته تقوم على عنصرين أساسيين "يشكّلان مسارين سرديين، لمجموعة من الأدوات المحمّلة بجملة من المشاريع السردية، عبر قصتي إلهام وحنان"³، والتي -من خلالهما- يسعى بن مالك إلى الكشف عن التّجليات الدلالية للصحن.

يحاول الباحث رصد محطّات ظهور الصحن في المتن، وذلك بتحديد أهمّ الملفوظات السردية التي ظهر فيها، من ذلك ما جاء في الملفوظ الآتي: "إنّما تريد أن تأكل بصحبته فقط، لطالما رأيت الحلم التي ظنّته مضحكا في الماضي، حين كان العالم يتراءى لها صحنا كبيرا واسعا يفيض بالحليب، وتبدو هي مجرد هرة صغيرة ناعمة تعلق السائل الدافئ، بمتعة غريبة..."⁴.

يتجدّد استحضار الملفوظ "صحن" بلحظة التّوتر التي شابت العلاقة بين إلهام ومنير، بسبب اهتمام (منير) بالتّمثيل على حساب (إلهام). هذه الأخيرة، تحاول تحقيق الوصلة الغرامية بمنير،

¹ - رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، مجلة علامات في النقد، العدد 26، المغرب، 2006، ص: 51.

² - رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، ص: 51.

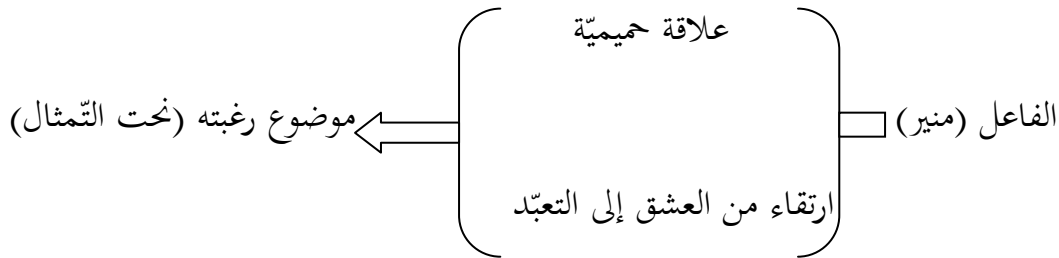
³ - كمال جدي: المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، ص: 106-107.

⁴ - رواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، ص: 41-42، نقلا عن: رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن، ص: 51.



مسترجعة "المتعة الغريبة" التي حققتها في الماضي عبر الحلم وهو القيمة الاستهلاكية للحليب، فيغدو الصحن بهذا فضاء مجسدا لقيمة الألفة والحياة والسخونة¹. ينتقل الباحث إلى مستوى سردي آخر، يستحضر فيه ملفوظات سردية أخرى من الرواية، بغية فهم القيم المذكورة التي حاولت "إلهام" النزوع إليها، وكذا "رغبتها في الانتقال من وسط الدار إلى عالم الصحن"²، حيث تتحدّد هذه الملفوظات السردية العشرة من الرواية في الصفحات (42- 49- 51- 52- 54- 55- 56)³، والتي جاءت لترصد العلاقة المتوتّرة بين "إلهام ومنير". وهي حسب بن مالك "تعدّ محصلة طبيعية لإقصائها من عالمه، لقد نسف انغماسه في برنامج النحت كلّ إمكانيّة من إمكانيّات التّواصل بها"⁴، فهذا الاهتمام المفرط بالنحت استشفه الباحث من بعض الملفوظات العشرة مثل: (منصرف بأنامله إلى تمثاله/عشقه بجنون بالحجر/يعانق تمثاله..⁵، والتي في مجملها - كما يرى الباحث - تعكس القيم الدلالية لهذه الوحدات المتجلية في العلاقة الحميمة بين منير والنحت.

يمكننا توضيح ذلك بهذا المخطط:



أمّا القيمة الدلالية في الوحدة [وهي ترقيته متعمداً في صنع التمثال]⁶، فتتحقق من زاوية نظر "إلهام"، كونها اتخذت موقعا ثابتا في الغرفة، وهو الجلوس على الأريكة ما جعلها تلاحظ وتمعن النظرة في تحركات "منير" ثم تسجل ما تراه لتؤوّله بوصفها لافظة، فهي - من خلال هذا-

¹ - ينظر: رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، ص: 52.

² - م ن، ص ن.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

⁴ - م ن، ص ن.

⁵ - ينظر: نفسه، ص: 53.

⁶ - رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، ص: 53.



"تعبّر عن رأيها وموقفها من مضمون هذا المشهد الذي يحركه منير"¹. يتخذ هذا الموقف مظهرين: يتجلى الأول فيما تدركه "إلهام" من تصرف "منير" المنغمس في عشقه للتمثال حدّ التعبّد الذي أهملها وأدحض كلّ محاولات للتواصل التي سعت إليها "إلهام"، أمّا المظهر الثاني فيتجلى في ردّ فعل "إلهام" تجاه موقف "منير"، الذي تحقّق -حسب الباحث- من خلال ما جاء في بعض العبارات ك(الملل/المراة/اختنقت/...). كلّ هذا، أوصلها إلى درجة التناقض القصوى، تحوّلت فيه "إلهام" من حالة الانقياد والبقاء كعنصر ديكور ضمن مشروع منير الهادف إلى تجريدتها من إنسانيتها إلى حالة التحرر والمروق من عالم "منير". وفي هذا، تقويض لسلطة "منير" عليها. وبالتالي، استرجاع إنسانيتها². يتجلى هذا في الملفوظ السردى [لست تمثاله الحي] الذي استحضره الباحث، وكذلك في الملفوظ السردى التالي [كان عليها أن تثبت له أنّها كائن حيّ]، إلا أنّ هذا الفعل لم يتحقّق والقيام به أضحى غير مطلوب، ويرجع "بن مالك" هذا التراجع "لإضطرابها بين حبّ يخلّصها من عذاب العنوسة والتخلّي عن منير"³، فهي -من هذا- تعيش على أمل تستردّ فيه حبّها الضائع. يشير الباحث أنّ كلّ محاولات باءت بالفشل، وهي نتيجة رصدها من بعض الملفوظات السردية⁴.

[ولكنّها تدرك من أي وقت مضى أنّها لن تتزوّج معنوها مثله يعشق ذاته والحجارة].

[لن تتزوّجه ولن تستمر زائرة معبده].

[كانت تشعر بفرح التّحرّر من إدمانه].

يستشف الباحث من خلال هذه الملفوظات، توق "إلهام" للتحرّر من قبضة "منير"؛ أي الخروج من عالم منير إلى عالم الصّحن، هذا القرار يؤدّي إلى أحداث فصله عنه، لكنّها تتراجع مرّة أخرى "بإتاحة فرصة لمنير لتعويض ما فات أوّلا ولفكّ حصار التّمائيل عنه، ثانيا، ينقله من المحترف إلى الصّحن عبر الأكل والشّرب"⁵، حيث سعت تبحث عن ثمار الدّراق الشّهية

¹ - م ن، ص ن.

² - ينظر: نفسه، ص: 54.

³ - م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 54- 55.

⁵ - نفسه، ص: 55.



وعن الصّحن المناسب، وبواسطة هذا الأخيرة، تحاول "إلهام" تحقيق قيمتين هما استهلاك الدّراق والانفراد بجيبها¹. وبهذا أضحت "السيّاقات النصّية التي بدأت تعمل بشكل تدريجي على رسم الحدود الدّلائية للعنوان، تتعدّد وتنوّع لتنحو نحوين متمايزين ومتجانسين يجسّدهما الصّحن من ناحية والدّراقات التي ستوضع فيه من ناحية ثانية"². وتبقى في هذا تأويلات "إلهام" و"منير" حول علاقتهما في مدّ وجزر، لا ترسو على موقف، ويبقى مضمون الرواية كذلك يتغيّر بتغيّر الوضعيات الحديثة ل"الصّحن".

خلاصة:

- يكون "بن مالك" من خلال قراءته لخارجيات النصّ سيميائيًا على وعي كبير بأهميتها، وأهمية ما تفرزه من دلالات تمكّن الباحث من الإحاطة بالنصّ الروائي.
- تجلّت استراتيجية القراءة السيميائية للعنوان في القبض على المعنى الذي تعززه العلاقة الممتدّة من العنوان إلى النصّ، وأيضًا من العلاقة الممتدّة من النصّ إلى العنوان.
- اعتمد تحليل العنوان من منطلق العلاقة (النصّ/عنوان) على تقطيع السردى للنصّ (الملفوظ) لتحديد القيم الدّلائية التي تفرزها هذه العلاقة.
- نحت "دراسة بن مالك" للرواية منحى تحليليًا محظًا، حيث طالت كلّ العناصر التي اصطفاه في هذه المقاربة ما جعل الدّارس يلمس افتقار مكتبة الباحث من الكتب التي تنظر للعتبات النصّية.

يجنح الباحث في هذه الدّراسة إلى المزج بين البسط النظري والممارسة التّطبيقية في نطاق واحد، هذا المزج يكاد يطال كل العناصر التي اصطفاه لهذه المقاربة، غير أنّه (المزج) ورد متفاوت الحضور قوّة وضعفا فيها، والنّاظر في تحليل الباحث لخارجيات النصّ (الفاحة الرواية والعنوان)، يلمس شبه حضور كلّ للإجراء دون مداخل نظرية تقريبًا، فالباحث لم يكلف

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - م ن، ص ن.



نفسه عناء التنظير للعتبات النصية إلا ما جاء لماما في نطاق ضيق^{1*}، رغم أن تحليل الباحث لخارجيات النص، استوفى حوالي (16) صفحة من الدراسة. فالباحث هنا، قد دخل في رهان مع النص. وعليه، لا يتأتى له سبر أغواره إلا بالتحليل، الذي تناول النص من هوامشه وامتته ذهابا وإيابا.

^{1*} - إذ لا يكاد يقع سوى على مرجعين غربيين اعتمدهما الباحث في هذا الشأن اعتمادا حقيقيا هما:

1- C. Duchet, *la fille abandonné et la bête humaine éléments de titrologie romanesque.*

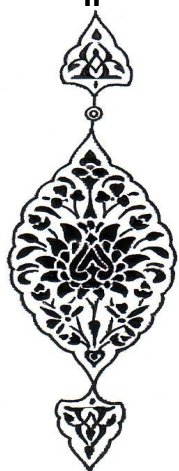
2- J. Ricardou, *Nouveaux problèmes du roman.*

المبحث الثالث

سيمائية الشخصية

في المدونة النقدية

المغربية.



- سيميائية الشخصية في المقاربات النقدية المغربية:

مدخل نظري:

تعجّ السّاحة الثقافيّة والأدبيّة المغربيّة بأقلام إبداعية مدرّارة، تجاوزت كتاباتها السّردية (الرّواية تحديدا) الحليّ والعربي بفضل ترجمة أجود الأعمال الرّوائية إلى بعض لغات العالم المختلفة الأوروبيّة والآسيويّة. وأضحّت -بذلك- تراحم الشّعور على عرشه¹، بفضل التّراكم النّوعي الذي حقّقه عبر سيرورتها التّاريخية، فهي تسعى -منذ لحظات التّأسيس والتّشكّل وإلى غاية لحظات التّجاوز والتّجريب- أن تكون "ديوان العرب" بامتياز، والسّجل الرّئيس الذي تُقيّد فيه مآثرهم وانتصاراتهم وحتى خيالاتهم... حيث وجد فيها المبدعون مناخا ملائما، وفضاء واسعا يطلقون فيه العنان لمخيّلاتهم في الإبداع، وفي خلق المفارقة التّصويرية للرّاهن والواقع، ولما يمكن أن يكون عليه كل ذلك، من منطلق دعاوى الفن للفنّ تارة والفنّ للمجتمع تارة أخرى.

لقد شهدت الكتابة الرّوائية المغربيّة تحولات عميقة على مستوى الأشكال والمضامين. هذا المعطى، جعلها تحظى بالاهتمام والمتابعة من قبل عدد غير قليل من النّقاد المغاربيين ك"بن جمعة بوشوشة، ومحمد نجيب العمامي، ومحمد الخبو، وغيرهم من تونس، وعبد الحميد عقار، وحميد الحمداني، وسعيد يقطين، وغيرهم كذلك من المغرب، ومخلوف عامر، محمد ساري، عبد الملك مرتاض، وواسيني الأعرج، وغيرهم أيضا من الجزائر. هذا، ويبقى التّجريب الرّوائي واحدا من المساعي التي يحاول الرّوائي المغاربيّ تكريسها في المشهد الأدبيّ المغاربيّ، بعدما تسوّى له أعمال التّقنيّات السّردية، والخصائص الفنيّة التي روّجت لها الرّواية الجديدة الفرنسيّة، باعتبار أنّ الأدب الفرنسيّ يشكّل نموذج الأدب العالميّ الذي ينبغي الأخذ بإنجازاته النّظرية التي تبلورت مع "نتالي ساروت" و"ألان روب غرييه"، وبما أنّ الرّواية غربيّة المنشأ، حاول الباحث المغاربيّ إيجاد إجابات

¹ - ينظر: محمد ساري: في معرفة النّص الرّوائي -تحيّدات نظرية وتطبيقات-، منشورات دار أسامة، الجزائر، ط01، 2009، ص.ص: 9-10.

مقنعة لبعض الأسئلة¹ المثارة من حول هذا الجنس الأدبي الدخيل على ثقافتنا العربية. لقد أضحى لهاجس السؤال وقعه العميق في التجربة النقدية لأي باحث حديثي، يحتكم في طرحه لمنطق السؤال الهادف، فمن التصريحات الجريئة، ما جاء في القول الآتي لـ"مرتاض": "لقد ظللنا أكثر من عشرين عاما نطرح أسئلة حائرة من هذا النوع، وكلما طرحنا سؤالاً منهجياً، أو معرفياً، أو إجرائياً، أو جمالياً، أو تقنياً، أو فنياً، [...]، حاولنا أن نظفر بالإجابة عنه في قراءة المظان المختصة، وهي في جمهورها أجنبية، وبدأنا نجتمع طوامير نسجل فيها ملاحظات، والآراء حول الإشكاليات التي نقرأ عنها"². كل هذا، حتم على الناقد المغربي مواكبة الإصدارات الإبداعية في مجال السرد، ومتابعتها عن قرب؛ كي يستطيع الاطلاع على المنجز السردية محلياً وعربياً وعالمياً، والبحث في بناه السردية (لغة وشخصيات وأحداثاً وأزماناً وأمكنة...)، ومدارسة ذلك كله من منظور المناهج النصائية، ولعل من الدراسات المغربية³ القمينة التي اهتمت بمقاربة الشخصية من منظور سيميائي ما قدّمه على سبيل المثال كل من: سعيد بنكراد، وعبد اللطيف محفوظ، وعبد المجيد النوسي من المغرب. والسعيد بوطاجين، ورشيد بن مالك، وحسين خمري، وعبد الملك مرتاض من الجزائر. لقد استقت غالبية تلك الدراسات مرجعياتها من أطروحات ف. بروب، وج. غريماس، وك. بريمون، وج. كورتيس، وج. جنيت، و. ر. بارت، وف. هامون، وغيرهم. وهذا ينم

¹ - من تلك الأسئلة المثارة من حول الرواية: ما شأنها؟ وما تقنياتها؟ وما مشكلاتها؟ وكيف نكتبها إذا كتبناها؟ وكيف نبنى عناصرها إذا بنيناها؟ وكيف نقرأها إذا قرأناها؟. ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 07.

² - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد - عالم المعرفة (240)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1998، ص: 07.

³ - نستحضر - في هذا الصدد - بعض الدراسات على سبيل المثال لا الحصر:

- سعيد بنكراد: سيميولوجية الشخصيات السردية (رواية "الشراع والعاصفة" لحنا مينة نموذجاً)، دار مجدلاوي، عمان، 2003.

- السعيد بوطاجين: الاشتغال العملي (دراسة سيميائية) "غداً يوم جديد" لابن هدوقة عنية، منشورات الاختلاف، الجزائر، أكتوبر، ط1، 2000.

- رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1467هـ/2006.

- حسين خمري: فضاء التخيل (مقاربات في الرواية)، منشورات الاختلاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، ط1، 2002.

عن التوجه الغربي للباحث المغربي في استلهام الطرح النظري والإجرائي للشخصية في بعدها السيميائي.

- فكيف تناول الباحث المغربي هذا المكون السردية نظريا وتطبيقا؟. وهل حقق
-بذلك- الأهداف التي سطرها، والنتائج التي رسم لها نظيراته؟.

1- في التنظير النقدي المغربي:

تعدّ "الشخصية" من المكونات السردية الأساسية في النص، التي احتفى بها الاشتغال السيميائي، فحضورها الفاعل تجلّى في ما تؤدّيه من وظائف متعدّدة داخل النص السردية¹ من ناحية، وفي ما "تضيفه الأحداث من حركية وسيطرة في الآن نفسه [من ناحية أخرى]؛ إنّها نبض النص والحركة التي تجري في شرايينه، لا نستطيع تجاهلها أو حتّى تجاوزها"²، إنّها عالم معقد -كما يرى أحد الباحثين- فيه من الاختلاف والتنوع ما فيه، فهي (أي الشخصية الروائية) "تتعدّد [...] بتعدّد الأهواء والمذاهب والإيديولوجيات والثّقافات والحضارات والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوّعها ولا لاختلافها من حدود"³.

تعدّد الإشتغال المغربي على هذا المكون السردية؛ فقد تناوله الباحثون نظريا ومراسا وترجمة، وسلّطوا عليه الضوء من جميع المناحي، ورصدوا تحولاته من الرواية التقليدية إلى الرواية الجديدة، ووقفوا على محدداته ومنطلقاته بالشرح التعليمي الممنهج، واستطاعوا -إلى حدّ كبير- تكريسه في المشهد النقدي، وتقريبه من القارئ العربي، ولعلّ هذا المعطى يعدّ من أهمّ الأهداف التي يسعى الباحثون لتحقيقها. أمّا من الدراسات المغربية القمينة، التي نظّرت، وترجمت لهذا المكون السردية، نجدها لدى الباحث عبد الملك مرتاض، ضمن كتابه "في نظرية الرواية"، ونجدها كذلك لدى سعيد بنكراد في ترجمته لكتاب "فيليب هامون" سيميولوجية الشخصيات الروائية.

¹ - ينظر: نظيرة كنة: سيمياء الشخصية في قصص السعيد بوتاجين "الوسواس الخناس أنموذجا"، محاضرات الملتقى الوطني الثاني (السيمياء والنص الأدبي)، منشورات جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 16/15 أفريل 2002، ص: 141.

² - نظيرة كنة: سيمياء الشخصية في قصص السعيد بوتاجين "الوسواس الخناس أنموذجا"، ص: 141.

³ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد-، ص: 73.

التمّوج الأول: الشخصية (ماهيتها، بناؤها، وإشكالياتها) من منظور عبد الملك مرتاض.

تناول الباحث في مؤلفه "في نظرية الرواية" التقنيات السردية التي تتأسس عليها الرواية كجنس أدبي نثري، وقد توزعت دراسته على مقدمة وتسع مقالات بالإضافة إلى الإحالات والتعليقات ومكتبة البحث.

استهل الباحث مقالاته بالبحث في ماهية الرواية، ونشأتها وتطورها، ليلج بعد ذلك إلى أسس البناء السردية في الرواية الجديدة، ثم إلى البحث في ماهية الشخصية وبنائها وإشكالياتها، وبعدها إلى الوقوف على مستويات اللغة الروائية وأشكالها. ويلي هذا، الحيز الروائي وأشكاله، والبحث في أشكال السرد ومستوياته، وإبراز علاقة السرد بالزمن، ثم تبيان شبكة العلاقات السردية، وكذا حدود التداخل بين الوصف والسرد في الرواية. هذه إذا، جملة المقالات التي عاجلها الباحث وفق رؤية منهجية مؤطرة علمياً. أما ما يهمّ الدارس - في هذا المقام - هو المقالة الثالثة الموسومة بـ "الشخصية: الماهية/البناء/الاشكالية". يمتدّ هذا البحث من الصفحة (73) إلى الصفحة (92)؛ أي أنه يتوزّع على 19 صفحة. خصّصها "مرتاض" للبحث النظري في هذا المكوّن السردية حول: الماهية والبناء والاشكالية. وأبرز تطوّر، وكذا تحوّل هذا المكوّن من الرواية التقليدية إلى الرواية الجديدة؛ أي كأنّ الشخصية في الرواية التقليدية مرتبطة بالواقع، وهي أقرب إلى كائن حي له وجود حقيقي، يولد فيعيش، ثم يموت، إلى كائنات ورقية ليس لها وجود فيزيقي في الواقع ضمن الرواية الجديدة، ويقف الباحث هنا مميّزاً بين مصطلح "الشخصية" المستعمل في الرواية التقليدية الذي يقابله المصطلح العربي *personne*، وهو في نظره مصطلح يحتاج إلى ضبط؛ كون بعض النقاد العرب لا يميّزون بين الشخصية والشخص والبطل ويعتبرونها شيئاً واحداً¹. وتأسيساً على هذا المعطى، يقترح "مرتاض" المقابل العربي الصحيح لمصطلح الشخصية، وهو *personnage*.

لقد أصبح هذا المكوّن السردية أساسياً في تركيب الرواية الجديدة، ويتلخّص لنا ذلك في كون "أنّ شخصية الرواية لا تحدّد في الغالب، بالعلامة التي تعلّم بها، ولكن بالوظيفة التي توكل

¹ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد -، ص: 75.

إليها"¹. نجد في هذا الطرح، ما يتوافق مع ما ذهب إليه الشكلايني "ف.بروب" بخصوص الشخصية. وهي نظرة، استمدتها الباحثة من الطرح الشكلايني، وتحديدًا مما استخلصه "بروب" من وظائف *fonctions*. والباحثة في بسطه التشرحي لهذا المكون السردّي، يجد أن الاحتفاء الذي أولته الرواية التقليدية له، وجعلته المكون الأول للعمل السردّي، لم يكن بالقدر نفسه في الرواية الجديدة، التي يراها "تميل إلى تدمير الشخصية بإيذائها قصداً، ومضايقتها والحد من غلوائها، والتشكيك في وجودها، والتضييل من أهميتها، عمداً"². تلك إذا، غاية المنتصرين للرواية الجديدة، الذين يعدّون الشخصية كائناً ورقياً، لا وجود له في الواقع، وأما وجودها ضمن العمل السردّي فيكون كما الحدث أو الزمن أو اللغة، وربما هذه الأخيرة، أوفر حظاً من حيث الأهمية، فهؤلاء عمدوا على الاشتغال على اللغة حتى باتت المشكل الأول لأي عمل سردي"³.

لقد أدّى تشييء الشخصية في الرواية الجديدة إلى تعددها وتنوعها. هذه الخصوصية وعماها "مرتاض"، واستوقفته من منطلق كونه مبدعاً وناقداً، فراح يرصد هذه الأنواع، والتي منها: الشخصية المركزية والثانوية، والحالية، والمدوّرة، والسطحية، والإيجابية والسلبية، والثابتة والتامة. وقد اعتمدت الباحثة في بسط هذه الأنواع على التأريخ والتأصيل لهذا المصطلح في كيانه. من ذلك مثلاً، مصطلح (الشخصية المدوّرة والشخصية المسطحة) التي تناولها الباحث مؤصلاً ومترجماً، ومنقّباً في التراث، فإذا كان هذا المصطلح غريباً المنشأ، فإن ملامحه قد حام حولها العرب القدامى، ويتحدّد هذا لدى الباحث من خلال ترجمة "ميشال زيرافا" لهذا المصطلح إلى الفرنسية *personnage ronds*، حيث يجد "مرتاض" من هذه الترجمة "الشخصية المدوّرة" ملمحاً في ما ذهب إليه الجاحظ من وصفه ل: شخصية نصفها حقيقي ونصفها الآخر خيالي. ويمكننا اختصار ما ذهب إليه الباحث في هذا الجدول الجامع لمقابلات العربية التي وضعها الباحث هذا المصطلح المترجم:

¹ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 87.

² - نفسه، ص: 28.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

صفات	النوع الثاني	صفات	النوع الأول	
مقنعة - غير مقنعة تشبه مساحة	<i>Personnage plats</i>	مقنعة تشكل عالما كليا معقدا متسما بالتناقض	<i>Personnage ronds</i>	ميشال زيرافا
محدودة بخط فاصل				
غير فاعلة				
	شخصية مسطحة	- فاعلة مغامرة ومعقدة	شخصية مدورة	عبد الملك مرتاض
بسيطة لا تتغير	<i>P.plats</i>		<i>P. Epais</i>	فودورف وديكرو
	شخصية مسطحة		شخصية مكثفة	عبد الملك مرتاض
لا تتبدل	<i>P.statique</i>	شجاعة تحب/تكره خيرة/شريرة تؤمن/تكفر	<i>P. Dynamique</i>	فوستر
غير مؤثرة	الشخصية الثابتة	مؤثرة	الشخصية النامية	عبد الملك مرتاض
	الشخصية السلبية		الإيجابية	

ما يلاحظ على هذا الصنيع، أنّ "عبد الملك مرتاض" لم يتجاوز بمقاله حدود التاريخ والتأصيل والتعريف والترجمة لهذا المكوّن السرديّ. وبناء عليه، فإنّ الدّارس يلمس طرحا عاما يبغى

الباحث من ورائه تحقيق غاية تعليمية، يتعرف القارئ من خلالها على المكانة العميقة والأساسية التي تبوّأها الشخصية في الرواية التقليدية، والتي فقدتها في الرواية الجديدة، كونها عدت مشكّلا سرديًا شأنها في ذلك شأن اللغة والحدث والزمن والمكان، وإن كان مرتاض يرى أن هذه المشكّلات السردية لا يتحقّق لها التلازم والانصهار إلا بوجود الشخصية، التي تعدّ نواة تلك المشكّلات من حيث أنّها في حركيتها تصنع الحدث السردية في إطاره الزمكاني بواسطة اللغة.

النموذج الثاني: "سعيد بنكراد" في ترجمته كتاب: سيميولوجيا الشخصيات الروائية

ل"فيليب هامون".

إذا كانت الجهود النقدية ل"مرتاض" في حقل السرد تعتمد النهل من رافدي التراث والحادثة، بغية تأصيل المصطلح وتبيينه فإنّ وجهة "سعيد بنكراد" -في هذا المقام- غريبة بامتياز، فلقد توسّل بالترجمة المحترفة في نقل نصّ "فيليب هامون" الموسوم بـ"سيميولوجيا الشخصيات الروائية". يلمس الدّارس في هذا الصّنيع طرحا متخصصا، يشتغل فيه على البحث في الشخصيات السردية وفق الاتجاه السيميائي، فهذا المنجز المتخصّص الذي اهتمّ بمكوّن سردي واحد هو "الشخصية" دون سواها من المشكّلات السردية الأخرى، لم يتبلور من فراغ، وإّما تأسّس على أطروحات سابقة تتمثّل خاصّة في جهود "بروب" و"غريماس" و"بارت"، وقبلها بما حبلت به دراسات "سوسير" في حقل اللسانيات، فاستنادا على هذه (الرؤايد/المنطلقات)، أضحت دراسة هامون "تشكّل نموذجا حيّا للمقاربة، لما تنماز به من نضج وعمق ورونق وحيوية¹، وما تفتحه من آفاق جديدة للباحثين، حتّى أنّه "بوسع القارئ أن يجد أمثلة مشابهة في الأدب العربي بل قد تكون قراءة (هامون) حافزا على دراسة جوانب مهمة وغامضة في الأدب العربي، كالتراجم والأمثال والأحاجي بل والشعر"².

¹ - ينظر: فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار كرم الله، للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص: 03. (تقدم عبد الفتاح كيليطو).

² - فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص: 04.

تجلى أهمية هذه الدراسة في مشهدنا النقدي العربي - حسب المترجم - من خلال الطلب المتزايد عليها بعد نفاذها من دور النشر. لقد شكل هذا الأمر دافعا لـ "بنكراد"؛ كي يقدم للقارئ العربي طبعة جديدة مزيدة ومنقحة لهذا الكتاب، حيث يصرح - في هذا الصدد - بالقول: "ومع ذلك، لم نكتف بإعادة نشره كما جاء في طبعته الأولى، فهذه الدراسة تحتاج، رغم أهميتها في صيغتها السابقة، إلى بعض النماذج التطبيقية التي تصدق على مقترحاتها بل قد تغنيها وتكملها، والمؤلف نفسه أضاف إلى ما بسط القول فيه في الدراسة الأولى، مجموعة من التصورات التي اتخذت من مشروع المدرسة الطبيعية ومنجزاتها منطلقا لها، وقد تحقّق ذلك خاصّة في الكتاب الذي أصدره سنة 1983 وخصّصه لدراسة الشخصية عند أحد أكبر ممثلي هذه المدرسة في السرد الروائي الفرنسي، ويتعلّق الأمر بإيميل زولا [...] ومن هذا الكتاب أخذنا فصلا كاملا أضفناه إلى الدراسة الأولى لخلق نوع من التكامل بين التحليلات التي انصبت على الخطاطات والبناء النظري ممثلا في التيار البنيوي، وفي جزء كبير من مقترحات "السيميائية السردية"¹. من هذا، توزّعت هذه الدراسة على فصلين: أحدهما نظري والآخر تطبيقي. أما النظري الذي يتمثّل في الفصل الأوّل، فإنّه يحوي إلى جانب تقديم الناقد عبد الفتاح كليطو، ومقدمة المترجم وتمهيد، عرضا عن سيمولوجية الشخصية، ومدلول الشخصية، ومستويات وصف الشخصية، ودال الشخصية. أمّا الفصل الثاني فقد خصّصه لـ: الناظر-الرّائي، الثرثار-المهدار، التقني-المنشغل، والشخصية الفاعلة والمقروئية².

يركّز الدّارس ههنا على الفصل الأوّل، الذي يرى فيه الباحث أن صدور الكتاب تواكب مع توسّع المدّ السيميولوجي بأوروبا بفضل إسهامات بارت، غريماس، وإيكو، وكان ذلك في الفترة الممتدة من سنة 1964 إلى منتصف الثمانينات القرن الماضي. وصار بالاستناد على المعطى السيميائي "نصا تأسيسيا بالمعنى المعرفي للكلمة؛ أي أنه يشكّل في عمق قطيعة مع مجموعة من التصورات السابقة التي تعاملت مع الشخصية، كما تتعامل مع أشخاص يعيشون بين ظهرانيا"³،

¹ - نفسه، ص: 05.

² - ينظر: فيليب هامون: سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار، (طبعة مزيدة منقحة)، ص: 12.

على الموقع الإلكتروني لسعيد بنكراد: www.saidbengrad.net/pdf/hamon.pdf

³ - فيليب هامون: سيمولوجية الشخصيات الروائية، ص: 06.

وتأسيسا على ما تم "إنجازه من حول" الشخصية السردية" يستخلص الباحث أن ما طرح في نص "هامون" يشكل "أولى محاولات التحليل السيميولوجي لمقولة الشخصية (الشخصيات هي كائنات من ورق ولذلك تقتضي من أجل فهمها استحضار عوالم من طبيعة غير واقعية)"¹.

من هنا، يتبدى للمترجم أنّ محدّد الشخصية لدى هامون يتجلى في كونها مفهوما سيميولوجيا ووحدة دلالية. وطرحه هذا، يستند على المرجعية اللسانية كما "جلّ المفاهيم المستعملة في مقارنة وتحديد نمط اشتغال الشخصية: سواء فيما يتعلّق بتحديد مكونات النصّ السردية، أو فيما يتعلّق بتحديد مستويات التحليل"². وتغدو، بذلك الشخصية من منظور هامون كما العلامة اللسانية إلا أن هذه الأخيرة تختلف عنها من حيث طبيعة العلاقة بين طرفيها (الدال والمدلول)، كونها في اللسانيات جاهزة مسبقا، اعتباطية غير مبررة، ولا تحتاج لتفسير، في حين أنّها في الشخصية سببية تحتاج لتعليل، وتتطور بتطور الأحداث داخل المتن السردية³؛ أي أنّها لا تتبلور فعلا، ولا تكون لها قيمة "إلا من خلال انتظامها داخل نسق هو مصدر الدلالات فيها، وهو منطلق تلقيها أيضا"⁴. إن هذه القناعة التي انطلق منها هامون والتي تمثّل - كما ذكرنا آنفا - استثماره إجراء اللسان قد مكنته من مناقشة بعض القضايا الأساسية المشكّلة في نظريته وهي: مدلول الشخصية، دال الشخصية، مستويات التحليل. لقد قام "هامون" بتصنيف العلامات إلى ثلاثة أنواع، وهو صنيع، تستثمره سيميولوجيا الشخصية في تقسيم الشخصيات إلى ثلاث فئات⁵.

ويمكن للدارس أن يبين ذلك من خلال هذا الجدول:

1 - م ن، ص ن.

2 - م ن، ص ن.

3 - ينظر: محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 97.

4 - فيليب هامون: المرجع السابق، ص: 06.

5 - ينظر: فيليب هامون: المرجع السابق، ص: 07. وينظر كذلك: محمد فليح جبوري، نفسه، ص: 97-98.

العلامات	الفئة من الشخصيات
علامات مرجعية: تحيل على العالم الخارجي أي الواقع.	شخصيات مرجعية، تحيل على عوالم مألوفة للشخصيات (التاريخية، المجازية، الأسطورية، الاجتماعية).
علامات تحيل على محفل خاص بالتلفظ، كما الضمائر التي تنوب عن الشخصيات.	شخصيات إشارية تتمثل في الضمائر التي تحل محل الشخصيات الروائية.
علامات (استذكارية) تحيل على علامة منفصلة عن نفس الملفوظ، وهي خاصة بالفصل والوصل.	شخصيات استذكارية: تقوم بربط أجزاء العمل السردي بعضها ببعض، وتتمثل في التمني، والتكهن والذكرى والاسترجاع، تتحول هذه الفئة إلى مرجعية داخلية، لا يمكن فهم الأحداث دون استحضار هذه الذاكرة.

من خلال هذا التأطير، تتضح رؤية هامون فيما يخص تلك القضايا التي طرحها في نظريته، من ذلك ما يتعلّق:

أولاً: بمدلول الشخصية: الذي يتولّد عادة من الجمل التي تتلفظ بها الشخصية أو من الألفاظ التي تقال عنها من قبل شخصيات أخرى في النصّ الروائي¹، فيغدو بهذا وحدة دلالية تقبل التحليل والوصف. وعليه، فإنّه بالقياس على مفهوم العلامة اللسانية "يمكن التعامل مع الشخصية باعتبارها مورفيما فارغاً، أي بياضاً دلالياً، وهي بذلك لا تحيل إلا على نفسها؛ وهو ما يعني أنها ليست معطى قبلياً وكلّياً وجاهزاً، إنها تحتاج إلى بناء، بناء يقوم بإنجاز النصّ لحظة "التوليد"، وتقوم به الذات المستهلكة للنص لحظة "التأويل"²؛ معنى هذا، أنّ ملامح الشخصية لا تتبلور كفاية إلا مع القراءة، وأن مدلول الشخصية -مع ذلك- لا يتشكّل من خلال التكرار فقط، بل يتحدّد من خلال كلّ أشكال التّقابل أيضاً، أي استناداً إلى مجموع العلاقات

¹ - ينظر: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص: 26.

² - نفسه، ص: 07.

التي تنسجها الشخصيات فيما بينها. بعبارة أخرى، إن النسق سابق على الشخصية وهو المحدد لها¹.

ثانيا: بدال الشخصية، الذي يتمثل في اسم الشخصية ولقبها، والاسم ههنا "يسهم في تركيز مدلول الشخصية، ويعبر عن هويتها، ولا سيما في المتخيل السردى"². وبالتالي، فإن الشخصية باعتبارها مدلولا تحتاج إلى دال لا متواصل (متقطع)؛ أي إلى "مجموعة من الإشارات نطلق عليه (السمة)، أو مجموع الخصائص التي تكتسبها الشخصية من خلال فعل السرد ذاته"³.

من هذا، تتحقق التوليفة التي نشدها "هامون" بين مدلولات الشخصيات ودوالها على غرار العلامة اللسانية، وقد نلمس ذلك من خلال ما يقوم به بعض الروائيين من تحريات دقيقة في أثناء اختيار أسماء شخصياتهم الروائية بالنظر لهذه الدوال من حيث مدلولاتها الصوتية والنحوية والتركيبية والطول والقصر⁴. تسهم جميع هذه المظاهر أو بعضها "في تحديد السمة الدلالية للشخصية [...] بل إن الأمر قد يصل إلى إمكانية استشراق الفعل المستقبلي من خلال دال الشخصية ذاته"⁵.

ثالثا: بمستويات وصف الشخصية: استقى هامون هذا الطرح من اللسانيات، واعتمده في مقارنة الشخصية لما له من نجاعة في التحليل. وهو في بعده العام، ينم عن "الاعتراف بوجود مستويات متعددة في النص، و[عن] الاعتراف أيضا بوجود شبكة من العلاقات تحدّد في نهاية المطاف مكونات النص السردى"⁶؛ ذلك لأن الشخصية -على غرار العلامة اللسانية- لا تحدّد قيمتها من توقعها داخل النص السردى، وإنما تتحقّق قيمتها من خلال علاقاتها

¹ - فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص: 07.

² - محمد فليح الجبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، ص: 101.

³ - فيليب هامون: م س، ص: 08.

⁴ - ينظر: محمد فليح الجبوري: م س، ص س.

⁵ - ينظر: محمد فليح الجبوري: م ن، ص: 08.

⁶ - فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ص: 08.

مع الشخصيات الأخرى كذلك. وبالتالي، فهي تدخل في عمليات تبادل اجتماعي، إما مع وحدات من مستوى أعلى (العوامل)، وإما مع وحدات من مستوى أدنى (الصفات المميزة)¹.

وفق هذه الرؤية، يمكن تحديد بنيتين مختلفتين تشيران إلى مستوى من التحليل، تتمثلان في: (بنية الممثلين) وتنعت بالمستوى السطحي، وبنية العوامل، فإذا كان التحليل في المستوى السطحي، لا يتخطى في دراسته حدود المعطى من التحلي النصي من الصفات المميزة والأدوار الثيمية، فإن التحليل في مستوى بنية العوامل يحدد لنا بنية عليا، تتواجد في مستوى متوسطي بين بنية السطح (بنيات التحلي) وبين البنية المنطقية/الدلالية. ومن هذا المستوى من التحليل تتحدد ما يمكن تسميته بالنموذج العملي²، الذي يتحقق من خلال نماذج ثلاثة، اكتفى الباحث بالإحالة على اثنين منها، وهما نموذج بروب المعروف ب(دوائر الفعل) والقائم على سبع خانات، ونموذج غريماس القائم على ستة أدوار (أو خانات) خاصة لمزاوجة³ والذي يتحقق من خلال "ذات ترغب في امتلاك موضوع تلبية لحاجة (مرسل) ومن أجل غاية (مرسل إليه) وتصادف في طريقها من يمد لها يد العون (مساعد)، ومن يحاول منعها من الوصول إلى موضوعها (معيق)"⁴.

من خلال هذا العرض، تتحدّد للباحث (بنكراد) مسعى (هامون)، والمتمثل في استنباط نموذج عملي لكل مقطع سردي في النص؛ إذ في ضوء هذه المحاور (محور الرغبة، ومحور الصراع، ومحور الإبلاغ) "سيحدّد وضع السردية، ويتحدّد نمط اشتغالها، وأشكال تجلياتها [...] فالسردية قائمة، في تصوّر كريماس، على نموذج منطقي سابق في الوجود على ما يقوله النص من خلال أحداثه [...] بهذا لا يشكل هذا النموذج سوى بنية دلالية صغيرة ستتحوّل (تتسرد) على إثر

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - ينظر: م ن، ص.ص: 8-9.

³ - ينظر: م ن، ص: 09.

⁴ - ألبيرداس.ج.غريماس، وحاك فونتاني: سيميائية الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، 2010، ص: 26.

تدخل ذات الخطاب من خلال عناصر مشخّصة (مؤنسة) إلى كائنات تتحرّك ضمن فضاء ثقافي قابل للإدراك"¹.

خلاصة: لقد استطاع "بنكراد" من خلال هذه الترجمة القمينة أن يبرز المسعى الواعي لـ"فيليب هامون" في رصد الامكانيات المتعلقة بالشخصية، وأن يحدّد خصوصيات هذا المكوّن السردّي داخل النصّ الإبداعي، وما ينماز به عن باقي المكوّنات الأخرى: من لغة وحدث وزمن ومكان. فبرغم الفارق الزمني بين صدور نص هامون (1972)، وترجمته من قبل بنكراد 1990 (الطبعة الأولى)، والمقدر بحوالي 18 سنة، فإنّه استطاع أن يحقّق به قفزة نوعية في تقريبه من القارئ العربي، وفي وعي الذات العربية الناقدة بسيمولوجية الشخصيات.

ب- في التطبيق النقدي المغربي:

ترخر المدونة النقدية المغربية بدراسات كثيرة، احتفى أصحابها بالتّصوص الروائيّة، وقاربوا مكوّناتها السردّيّة من منظور الاتجاه السيميائي، وتعدّ "الشخصية" واحدا من تلك المكوّنات التي لاقت حضورا لافتا في تلك الأعمال. يلمس الدّارس في ذلك الحضور بعض التفاوت من حيث درجة الاشتغال سواء ارتبط ذلك بمنحاه النظري أو بمنحاه الإجرائي، وهو ما يدلّ على أن تناول هذا المكوّن السردّي في المنجز النقديّ المغربيّ يختلف من باحث إلى آخر، بسبب تباين وعيهم النقدي، ومعرفتهم كذلك بهذا الموضوع. بناء على هذا، يمكننا تصنيف هؤلاء -حسب دراساتهم- إلى: فئة خصّصت لموضوع "سيميائية الشخصية" كتابا كاملا²، وفئة جعلت هذا الموضوع في فصل مستقل³ من كتاب، وفئة أفردت له مقالا خاصّا منشورا ضمن مجلة¹ أو ضمن أعمال

¹ - فيليب هامون: سيمولوجية الشخصيات الروائية، ص: 09.

² - من ذلك كتاب فيليب هامون: سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، 1990، وهناك طبعة منقحة وفريدة صادرة عن دار الحوار. ينظر: موقع سعيد بنكراد

www.saidbengrad.net/pdf/hamon.pdf

وكتاب سعيد بنكراد: سيمولوجية الشخصيات السردّيّة (رواية "الشراع والعاصفة" نموذجا)، دار مجدلاوي، ط1، عمان، الأردن، 2003.

³ - من ذلك: كتاب عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

ملتقى. كل هذا، يعكس - في نهاية المطاف - درجة وعي الباحثين بأهمية هذه التقنية داخل النص السردي، ولنا - فيما ذهبنا إليه - نماذج كثيرة لا يسعها هذا المبحث، لذا سوف نقتصر - في هذا المقام - على إيراد نموذجين للدراسة.

النموذج الأول: عبد الملك مرتاض في كتابه: تحليل الخطاب السردى، معالجة تفكيكية سيميائية لرواية "زقاق المدق".

تناول مرتاض في القسم الثاني الذي وسمه بـ"التقنيات السردية" أربعة فصول، خصص الأول منه للشخصية من حيث البناء والوظائف، وجعل الثاني لتقنيات السرد في "زقاق المدق"، وتناول في الثالث الزمان والمكان في "زقاق المدق"، وبمبحث في الرابع عن خصائص الخطاب السردى في النص. أما ما يستدعيه بحثنا هو الفصل الأول المتعلق بالمكون السردى "الشخصية" الذي عالجها الباحث انطلاقاً من البناء والوظائف. وكما العادة دائماً، لا ينطلق "مرتاض" في أي بحث ينجزه، ما لم يثر من حوله أسئلة فيها من العمق والخصوصية، ما يحفز القارئ على المتابعة والإمعان والانتباه الشديد. من تلك الأسئلة، أما أوجزه في مطلع هذا الفصل بـ"ما الشخصية؟"².

إنّ هذا السؤال (العام/الخاص) استوقف الباحث، وجعله يبحث عن إشكالية هذا المصطلح في منجزات النقد العربي حيث وجد عشوائية - إن صحّ التعبير - في توظيفه، من خلال اللبس الذي وقع فيه كثير من النقاد العرب المعاصرين ولم يكدهم أحدهم يتفطن إلى تلك الإشكالية. من ذلك خلطهم في الاستعمال بين هذه المصطلحات (إفراداً وجمعاً) لـ: "الشخص والشخصية والبطل والأشخاص والشخصيات والشخوص". وعليه، فقد استدعت الحاجة من الباحث تأصيل هذا المصطلح في خطابنا النقدي تأصيلاً حديثاً، يمتح مما تروّج له النظريات الغربية؛ إذ نجده يعدّ الشخصية كائناً حركياً حياً، يؤدّي وظيفة الشخص داخل العمل السردى دون أن يكونه"³. هذا، ولأجل تفادي عشوائية إعمال هذا المصطلح، قام الباحث بتصويب الأخطاء

¹ - من ذلك: مقال نظيرة كنز: سيميائية الشخصية في قصص السعيد بوطاجين "الوسواس الخناس أنموذجاً"، محاضرات الملتقى الوطني الثاني (السيميائية والنص الأدبي)، منشورات جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 16/15 أبريل 2002.

² - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى - معالجة تفكيكية سيميائية لرواية "زقاق المدق"، ص: 125.

³ - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى، ص: 125 - 126.

النّاجمة عن ذلك الخلط، فضبط المصطلح، ودقق فيه من خلال تفريقه بين تلك المصطلحات. كلّ ذلك، تمّ اعتماداً على ثقافته المزدوجة (عربية وفرنسية)، فحسب رأيه "تجمع" الشخصية "جمعاً قياسياً على "الشخصيات" لا على "الشخص" الذي هو جمع لشخص. ويختلف الشخص عن الشخصية بأنه الانسان، لا صورته التي تمثلها الشخصية في الأعمال السردية، والغريون يميزون بسهولة من وجهة؛ وبين (person _personne)، وبين (personage) - (personnage) في حدّ ذاته و (Hero_Héros) من وجهة أخرى¹.

لم يخف الباحث الصعوبات التي اعترضته في أثناء تديجه لهذا الفصل؛ إذ لولا تقيده بالطرح المنهجي، لخصّص هذا الكتاب كلّه لمدرسة الشخصية؛ ذلك لأنها مدار العمل السردية، وأنها كلّ شيء فيه، "ولاسيما إذا كان ذا بنية سردية كلاسيكية مثل نص "زقاق المدق"، حيث تضطلع الشخصية، في مألوف العادة، [...] الوظيفة الكلية فلا تكون العناصر الأخرى إلا مظاهر لها، أو راقضة في سبيلها، أو دائرة في فلكها"². وعليه، يبقى الزمن والحيز واللغة والحدث بدونها من غير ذي قيمة في العمل السردية.

لقد استهوى الباحث هذا المكون السردية، وجعله يستجمع مادته ويحصرها ليدارس هذا العنصر من منظور سيميائي. هذا الدافع، جعله يحصرها في أربعة محاور كبرى هي: سيميائية الشخصيات والبناء المرفولوجي للشخصيات والبناء الداخلي للشخصيات والوظائف السردية للشخصيات. تناول الباحث في المحور الأول سيميائية الشخصيات في "زقاق المدق"، حيث عالج فيه سيميائية الأسماء والأسنان، كما حدّد في هذا المحور تواتر الشخصيات ومراتبها السردية، وبحث في إشكالية الشخصية الرئيسية.

يرى الباحث في أسماء الشخصيات التي رصدتها أن "نجيب محفوظ" قد اختارها بعناية ودقّة، لما توحى من دلالة لدى القارئ. وبالتالي، فإذا كان التراث العربي قد عرف أنّ للتسمية سيميائية، فإنه من دون شك لأسماء الشخصيات في هذه الرواية سيميائية كذلك. هذا

¹ - م ن، ص: 126.

² - م ن، ص: 127.

المعطي، لفت انتباه "مرتاض" وشدّه إليه، جعله يتعمّق أكثر في سيميائيتها محاولاً تحليل دلالة أسمائها¹، ويتجلى ذلك في الأسماء الآتية: (حميدة) سابقاً و(تيّتي) لاحقاً، (المعلم كرشة)، (عباس الحلو)، (رضوان الحسيني)، (فرج ابراهيم)، (زيطة - جعدة - سنقر)، (الشيخ درويش)، (العم كامل)، (الدكتور بوشي)، (سليم علوان)، و(سنية عفيفي). لقد قام "مرتاض" بقراءة هذه الأسماء سيميائياً؛ وذلك بتأويل دلالاتها، معتمداً على جملة من الأدوات استجلبها من التراث بما يحويه من معاجم وكتب علم الصرف وعلم الأصوات، بالإضافة إلى لمسة الباحث النابعة من ثقافته الحدائثية التي عجنت كل تلك الأدوات وصهرتها لتحقيق غاية التأويل. كل ذلك توّسل به الباحث في إيجاد تخریجات تحليلية مقنعة لتلك الأسماء سواء أكانت مفردة التركيب أو ذات تركيب ثنائي.

وفي هذا كله، نجد ما يسترعي اهتمام الباحث في سيميائية التسمية لبعض الشخصيات أنّها جاءت متناقضة ومعاكسة لما تعنيه ظاهرياً. وبناءً عليه، -وكما أوماً- إلى ذلك الباحث سابقاً-، فإنّ "التسمية لم تكن بريئة، بل خضعت بدقة متناهية، إلى الوظيفة التي وُكّلت إلى الشخصية المقصودة بها، وهذا الصنيع في حدّ ذاته جزء من البناء العام لملامح الشخصيات، وتحديد إطار حركتها عبر الخطاب السردّي"². عطفاً على ما سبق، يظل نص "زقاق المدق"، من خلال شخصياته (الرئيسية والثانوية) مراوغاً ومخاتلاً، يضمّر عن قارئه أكثر مما يبديه له، و"مرتاض" من خلال بحثه في سيميائية التسمية لشخصيات هذا النص بقي عاجزاً عن إيجاد تأويلات لدلالة بعض الشخصيات، وهذا راجع -ربّما- لأنّ نجيب محفوظ لم يحطها بالاهتمام اللازم الذي يستدعي من أي باحث إيجاد تخریجات لها، أو أنّه تركها بتلك الضبابية، وبذلك الغموض الذي يكتنفها سرّاً يرعّب به القارئ ويحفّزه مراراً وتكراراً على القيام بمحاولات في فك شفراتها، وهذا بالفعل ما أقدم عليه "مرتاض" في تتبعه لمسار حركية هذه الشخصيات، والوقوف على سيرة أسمائها ودلالة ألقابها، محاولاً التساؤل حول دلالة تلك التسميات³. هذا، وفي سعي منه للإحاطة أكثر بتلك الشخصيات، يحاول "مرتاض" الكشف عن الدلالات السيميائية لأسنان (أعمار)

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: المرجع السابق، ص: 128.

² - م ن، ص: 135.

³ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، ص: 135.

الشخصيات وقد استطاع من خلال تأملاته في أمر هذه الشخصيات، أن يصنّفها إلى ثلاث فئات عمرية وهي: الشخصيات ذات الخمسين والشخصيات ذات العشرين والشخصيات المسكوت عن سنّها أصلاً¹. فأما الشخصيات ذات الخمسين، فهي مما استدعى انتباه الباحث ولم يجد لها تفسيراً منطقياً مقنعاً، وجعله يستند على بعض التخريجات التأويلية على أنّها سن وسطية فاصلة بين ماضٍ كلّه شباب، ومستقبل كلّه شيخوخة، وأنّها سن "عودة العمر" بتعبير الفرنسيين، وسن "عودة الشيخ إلى صباه" بالتعبير العربي... فهذه التأويلات جعلت "مرتاض" يتساءل عن هذه السنّ في النصّ، وعن مثاليتهما للرجولة والأنوثة معا في الحياة، وعن الغاية الفنية من تسخيرها².

إلا أن الباحث بالاستناد على بعض القرائن النصّية، استطاع إيجاد تأويل بعض الدلالات السيميائية لهذه الفئة العمرية، بعدما رصدها، والمتمثلة في الشخصيات الآتية: سليم علوان والمعلم كرشة وحرّيمه، سنية العفيفي، رضوان الحسيني وزوجه، الشيخ درويش، وأم حميدة³. أما الفئة العمرية ذات العشرين وما تقاربها، فتمثلها الشخصيات حسين وحميدة وعباس، في حين أن الشخصيات المسكوت عن سنّها أصلاً، تمثّلها شخصية الشاب الرقيق، وفرج إبراهيم، وزبيطة، والدكتور بوشي، وحسنية، وسنقر... كل هذه الشخصيات استطاع "مرتاض" استناداً على القرائن النصّية دائماً، واستنتاجاته القرائية، أن يجد لها قراءة سيميائية. تأسيساً على ما ذكر في عنصر "الأسنان"، يتوصل "مرتاض" إلى أن شخصيات هذا النصّ السردّي متراوحة أسنانها بين العشرين والستين، وأن أدناها سنا شخصية الشاب الرقيق، وأكبرها سنا شخصية أم حميدة⁴. في جانب آخر من دراسة "مرتاض" للشخصية الروائية، نلفيه يركّز على الشخصيات الروائية من حيث تواترها ومراتبها السردية في هذا النصّ رغم إقراره باستحالة المعرفة الدقيقة لهذا التواتر، وكذا لتلك المراتب السردية للشخصيات في النصّ، هذا ما جعله يحتكم للإحصاء منهجاً لرصد كل الأسماء الصريحة

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - ينظر: نفسه، ص: 136.

³ - ينظر: نفسه، ص.ص: 136-140.

⁴ - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، ص: 141.

أو ما يعادلها في السياق، وكذلك كل الصفات التهجينية والتعظيمية في هذا النص السردى الطويل مع إبعاد الضمائر والصفات والبدل¹.

هناك إشكالية تواجه "مرتاض" في أثناء بحثه عن الشخصية الرئيسية، فحوها "بأي معيار نحكم برئيسية الشخصية أو بعدم رئيسيتها؟ فهل بمجرد كثرة ترددها وغزاره تواترها في النص؟ أم بشروط أحرارة أكثر موضوعية؟ ولكن بأي أسس منهجية تحدد هذه الموضوعية التي تأخذ بأيدينا إلى معرفة الشخصية الرئيسية وتمييزها من غيرها؟ فهل سيكون ذلك باعتبار أهمية علاقتها بغيرها، وتأثيرها فيها، وتأثرها بها، أم باعتبارات أحرارة خارجية؟"². لقد أوحى هذه الاشكالية لباحثنا تجريب البحث عن الشخصيات، وتحديد مراتبها من خلال ما تظلم به من وظائف، واستطاع من خلال هذه الطريقة تصنيف الشخصيات إلى ثلاث مراتب، وكانت النتيجة أن حصل على شخصيات مركزية، ثانوية وعابرة إلا أن الباحث رام تصنيفا آخر لتلك الشخصيات لكن هذه المرة بناء على تواترها، وفي هذا إيذانا من الباحث على الاحتكام إلى الإحصاء، فكان ما استخلصه أرقاما ونسبا تتعلق بتواتر الشخصيات اعتمادا على الجنس الذكري والأنثوي³. تأسيسا على معطى التصنيف الأول الذي اعتمد درجة الوظيفة لكل شخصية، ومعطى التصنيف الثاني الذي اعتمد درجة التواتر بناء على الإحصاء، يميل "مرتاض" إلى اعتماد "الإجراء المنهجي الأول في تحديد مراتب الشخصيات بناء على أهمية وظائفها السردية"⁴.

خلاصة القول من هذا، أن "مرتاض" يحاول من خلال هذين المعطيين محاصرة شخصيات نصّ "زقاق المدق"؛ وذلك بتصنيفها، وتحديد مراتبها بناء على الوظيفة السردية أو التواتر، إلا أن ما أفضت به نتائجها كان نسبيا. وإن كان الباحث يلمس في المعطى الأول شيئا من الواجهة والموضوعية ما جعله يستنيم بهذا الطرح، فإنه يفتقد في المعطى الثاني للطرح المنطقي بسبب بعض المغالطات التي أبعدت الباحث عن الرصد الدقيق للنتائج. وعطفا على هذا، تبقى

¹ - ينظر: م ن، ص: 142.

² - م ن، ص: 143.

³ - ينظر: م ن، ص: 146.

⁴ - م ن، ص: 147.

الإشكالية التي أثارها الباحث آنفا بلا جواب مقنع، وتحتاج لمزيد من إمعان النظر. هذا، ونجد الباحث في ما يتعلّق بالبناء المرفولوجي للشخصيات يحاول إيجاد مصوغات تتيح له رصد كل الملامح الخارجية للشخصيات. ومن تلك المصوغات "أن النّص استحال إلى ريشة ترسم وتدقق في الرسم؛ فلا تغادر لونا، ولا قامة، ولا وزنا، ولا صوتا، ولا عينين، ولا يدين، ولا شعرا، ولا فمًا، ولا أسنانا إلا رسمتها بشيء كثير من التفصيل"¹.

لقد أتاح هذا لـ"مرتاض" تقصّي أوصاف الشّكل الخارجي للشخصيات على اختلاف مراتبها، وبالفعل كان له ذلك، اعتقادا منه "أنّ النّص ما توقّف لدى رسمها إلا لغاية فنية"². وقد تحقّقت للباحث من خلال إظهاره للملامح الكبرى المشتركة بين الشخصيات والمختزلة في غلظة الصوت، وقوة البدن، وصغر العينين، وطول القامة، وبدانة الجسم، والقدارة، وكثافة الشعر، وسقوط الأسنان³. أما ما يتعلّق بالبناء الداخلي للشخصيات، فإنّ الباحث يجد ذلك صعبا في رصد كل الأوصاف المعنوية لكل الشخصيات التي يقارب عددها العشرين؛ ذلك لأن الروائي في استحضاره هذا العدد في عمله السردّي سوف "يتورط في بعض الهنات، ويسقط في بعض التناقضات حيث قد يقدم الشخصية على أساس أن لها طبعا معينا ثم يتفق أن تسلك تلك الشخصية نفسها سلوكا يتناقض مع ذلك الطبع الذي قدمت على أساسه من قبل"⁴. ويعزو الباحث ذلك التناقض في الرسم الداخلي للشخصية إلى الضعف التقني الناجم عن عدم تحكم الروائي في أدواته السردية⁵، ويستدل بالنقائص والتناقضات التي وقع فيها الروائي في رسم الملامح الجوانية للشخصية المركزية (حميدة)، وكذلك لباقي الشخصيات الأخرى (عباس الحلو، وفرج إبراهيم، والمعلم كرشة، وحسين كرشة، وأم حميدة، وسليم علوان)⁶. وبناء عليه، فإنه لا يمكن للباحث الكشف عن هذه التناقضات إلا بتحليل هذه الشخصيات انطلاقا من وظائفها السردية،

¹ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، ص: 147.

² - م ن، ص: 157.

³ - ينظر: م ن، ص. ص: 157-158.

⁴ - م ن، ص: 158.

⁵ - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، ص: 158.

⁶ - ينظر: نفسه، ص. ص: 158-179.

وقد تأتي له رصد بعضها ك: النهوض بوظيفة الانفصال عن الماضي، الدّعارة، التّحول... التي من خلالها ميّز الشخصيات المركزية السبعة عن باقي الشخصيات الأخرى التي رأى أنّها "تسير في فلك هذه من وجهة، ولم يكن لوظائفها السردية آثار حديثة أفضت إلى تغيير مجرى العمل السردية، خارج إطار وظائف هذه الشخصيات"¹.

خلاصة قولنا هو أن "مرتاض" لم يستند على نموذج تحليلي لتلك الوظائف السردية للنص. فلم ينطلق مثلا من النموذج الإجرائي لغريماش، الذي يصف الحالات والتحويلات الناشئة عن علاقة الرغبة بموضوعها التي تتحقق بالاتصال والانفصال، والذي صاغه:

المرسل ← الموضوع ← المرسل إليه

المساعد ← الذات → المعارض

وبالتالي، فإن التحليل الوظيفي للباحث "عبد الملك مرتاض" كان ببصمة الباحث نفسه، فتحليله كان ذاتيا، لم يتقيد بأطروحات مدرسة أو اتجاه ما تقيدا تاما، وهذا ما يجعلنا نخلص إلى أن التطبيق السيميائي لمرتاض لم يكن تطبيقا صافيا، بل نلمس فيه كثيرا من الانتقائية والتلفيق، وربما لمرتاض مبرراته في هذا، وهو أن النص لا يمكن محاصرته بمنهج نقدي واحد. وعليه، بات التركيب المنهجي والدائمة النقدية للباحث مطلوبين في مثل حالة نص "زقاق المدق".

النموذج الثاني: رشيد بن مالك في كتابه: السيميائيات السردية.

يجمع الباحث في كتابه هذا أربع مقاربات سيميائية هي: مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي، قراءة سيميائية في كلية ودمنة لعبد الله بن المقفع، دراسة تحليلية لرواية نوار اللوز لمؤلفها واسيني الأعرج، وقراءة سيميائية في رواية "عواصف جزيرة الطيور" لصاحبها جيلالي خلاص. فهذه المقاربات، وإن كانت موزعة على طرحين (نظري وإجرائي)، فإننا نلمس قوة الحضور فيها عائدة للطرح الإجرائي؛ ذلك لأن غاية الباحث هي تكريس المنهج السيميائي

¹ - نفسه، ص: 188.

السردية في المشهد النقدي العربي عامة، بوصفه الخيار المنهجي الأكثر مرونة، الذي قد يسعف الباحثين على تطوير "سيميائية عربية" بخصوصيات المحلية العربية التي تميزها عن نظيرتها بالغرب. وما يمكن ملاحظته على هذه الدراسات التي حواها هذا الكتاب بين دفتيه، أنّها - كما تبدو - قد أجزت على فترات زمنية متفرقة؛ لأنها مستقلة بموضوعها وبمادتها العلمية (مكتبة بحثها)، إلا أن الباحث جمعها في هذا الكتاب لوجود رابط منهجي بينها. وقد تجسّد ذلك على سواء في الجانب النظري والتطبيقي من الكتاب؛ إذ سلّط الباحث الضوء - من خلالهما - على راهن المنجز السيميائي العربي، وكشف عن بعض الممارسات السيميائية على نصوص سردية عربية (حكاية-رواية)، كونها "تتشرك دلاليا في موضوع السلطة وعلاقتها بالشعب المثقف"¹.

ونحن - في سياق بحثنا - سوف نركّز على عيّنة واحدة من تلك الدراسات المتعلقة بالمقاربة التحليلية التي خصّها الباحث لرواية "نوار اللوز". وسنختار منها تحديدا عنصرا واحدا هو: شخصيات الرواية من حيث تصنيفها، وتأطير مكوناتها الشكلية والدلالية. يروم الباحث في هذا العنصر، تصنيف شخصيات الرواية أولا، ثم تحليل مستوياتها والنظر في تجلياتها الدلالية ثانيا. ولما كان ذلك مراد الباحث وغايته، لم يخف في المقدمة المنهجية، أن تلك الغاية تعدّ من بين المشاكل التي اعترضت سبيل البحث لدى الكثيرين، وهم يحاولون تحديد مفهوم الشخصية، والتي تجلّت في ما هو نحوي، وما هو سردي، وما هو أدبي. لقد تبيّن للباحث - من خلال ذلك - أن مسألة تحديد مفهوم الشخصية وحصره تبقى غامضة. جاء هذا بعدما استند على طرح "فيليب هامون" الذي يرى أنّ شيوع التحليل النفسي للشخصية قد عمّد القضية، وأثار اللبس بين التمييز بين الشخص *personne* والشخصية *personnage*².

فما هي الكيفية التي يصنّف بها الباحث الشخصيات الروائية؟، وما الآليات التي يحلّل بها تلك المستويات؟.

¹ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي، عمان - الأردن، ط1، 1467هـ - 2006م. ص: 08.

² - ينظر: رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 129.

في اختيار النص:

لم يختار "رشيد بن مالك" لهذه الدراسة نصا روائيا تقليديا، كما فعل "عبد الملك مرتاض" الذي اختار نصا تقليديا يعكس الواقع المعيش، وتكون فيه الشخصيات مطابقة لما هي عليه في الواقع، وإنما اختار نصا حديثا، كُتب في مرحلة متأخرة بشخصيات ورقية؛ لذلك فإن "عملية اختيار النص/العينة، موضوع التحليل، ليست بريئة ولا ساذجة بل إنها عبارة عن تواطئ بين النص والمحلل"¹. فإذا كان الأمر كذلك، وحدث الانتقاء بقصد، فهذا يعني أن وراءه دوافع ذاتية وفنية ومنهجية تتملك الباحث.

فأما الذاتية، فتكمن في اختياره نصا محليا (مغربي) مصنفا ضمن ما يعرف برواية التجريب، وتمثلها مرحلة تنعت بمرحلة التجاوز والتجريب، وهي بدورها مسبقة بمرحلة التأسيس والتشكل؛ وخلاهما (أي المرحلتين) شهدت الكتابة السردية المغربية تحولات عميقة. طالت الأشكال والمضامين، وقد عرفت تقنيات سردية جديدة، وانفتحت على تجريب أدوات فنية مستوحاة من الأطروحات النظرية التي نادى بها مؤسسو الرواية الجديدة بالغرب. وبناء عليه، فإن تاريخ صدور رواية "نوار اللوز" (1983م) يشير لتلك المرحلة، التي شهدت تحقيق انتعاش اقتصادي وثقافي وفكري وصحي... للسكان المغربية على اختلاف شرائحها بعدما تحقق لبلداتها الاستقلال السياسي...، وبالتالي بات التجريب مطلوبا وبالخاصة في المتون الروائية.

وأما الفنية، فتكمن في تركيز الباحث على الشخصية المحورية في هذا النص التي يمثلها "صالح"، وهي في ذات الوقت شخصية رئيسة، وحضورها يشكل الأرضية التي شيد عليها "واسيني الأعرج" عالم روايته، "الذي يتميز بحضور "صالح" القوي والمكثف في النص وقدرته على اختراق فضاءات دلالية متعددة؛ إنه حاضر في كل النقاط الاستراتيجية، يحاور الجمارك، يدخل في صراع معهم ومع الميلود، وفي سلم مع موح الكتاتي وآخرين، وفي حب مع المسيردية ولونجا، ويسلم

¹ - حسين خمري: نظرية النص عن بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2007، ص، ص: 367-368.

نفسه، وفي الأخير للدركيين¹. ما يمكن ملاحظته هو أن الدور المحوري لشخصية "صالح" قد دارت في أفلاكها باقي الشخصيات المذكورة. وعليه، فإن "هذه الشخصيات التي التقت به أو نقلها عبر ذاكرته ما كان لها أن توجد لولا غنى بطاقته الدلالية وتنوع برامجه السردية". من هذا، يجد الباحث في الشخصية الرئيسية، وما يحيط بها من شخصيات أخرى ثانوية، مدار بحثه، الذي يحاول فيه تصنيف هذه الشخصيات، وتحليل مستوياتها، والتعرف على أدوارها...

وأما المنهجي، فيتمثل في أن هذا النص الذي اطلع عليه الباحث قد استدعى منهجا معينًا للتحليل، والذي يتمثل في أطروحات السيميائية السردية، وهو الاتجاه النقدي المناسب الذي ينتصر إليه "بن مالك"، ويسعى لتكريسه في المشهد النقدي المغربي؛ إذ نجده في هذا المؤلف وفي مؤلفاته الأخرى، يشيد بنجاعة أطروحات غريماس وأشياعه من المدرسة الفرنسية في ميدان دراسة السرد. وهو -في هذا المقام- يتخذ من سيميائيات (غريماس) السردية منهجا نقديًا إجرائيًا يقارب بواسطته هذا المكون السردية المتمثل في الشخصيات بغية "التعرف على أدوارها الموضوعاتية (Thématique)، والوقوف عند الرغبات التي تقف وراء تحركاتها وتناميها على امتداد المساحة النصية، والكشف عن العلاقات الداخلية القائمة بينها"². وفي هذا، إعلان صريح من الباحث في تبنيه خطاب علمي مؤسس يتمثل في التطبيق الصافي للمنهج بعيدا عن التفتيق والانتقائية. وبناء عليه، فقد "آن الأوان لتقديم قراءات موضوعية حول ما تحقق في ضوء الانجازات السيميائية الأوربية الراهنة، وبلورة رؤية كفيلة بتوسيم نقاط القوة والضعف يتم على أساسه صناعة خطاب نقدي جدير بهذا الاسم"³.

في اختيار مكتبة البحث:

استند الباحث على صنيع منهجي يدعو إلى جعل الإحالات أسفل كل صفحة، على أن تجمع في قائمة خاصة آخر الفصل. ومن إيجابيات هذا الصنيع؛ أنها تسهل للقارئ

¹ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 128.

² - نفسه، ص: 129.

³ - رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ص: 07.

- كيفما كان نوعه- العودة إلى الهوامش بيسر ومن دون عناء، وكذلك من دون تشتيت لتركيزه في أثناء القراءة. وبناء عليه، فإنّ القارئ من خلال متابعته يشعر بقرب المسافة بين المتن وحاشيته. وفي هذا، يجد الدّارس من متابعته لهوامش هذا العنصر، أنّها عبارة عن فسيفساء من الكتب، منها القواميس العربية والغربية، ومنها الكتب العربية والغربية، وهي كما يلي:

1- الكتب العربية:

- واسيني الأعرج: "نوار اللوز-تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983.
- ليلي قريش: سيرة بني هلال، دار موفم للنشر، ج3، الجزائر، 1988.
- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج3، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

2- الكتب الغربية:

- *Philippe Hamon, pour un statut sémiologique du personnage, in poétique du récit, seuil, coll. points, paris, 1977.*
- *J. Courtès, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, paris, 1976.*
- *A.J.Greimas, Du sens II, essais sémiotique, paris, 1983.*
- *A.J.Greimas, Du sens, paris, 1970.*
- *Dictionnaire de linguistique, la rousse, paris, 1971.*
- *R.Wellek, A.Warren, la théorie littéraire, poétique, suil, paris, 1971.*
- *R.Barthes, Analyse structurale des récits, in communications 8.*
- *O.Ducrot, T.Todorov, Dictionnaire en cyclopédique des sciences du langage, seuil, paris, 1972.*
- *C.Grivel, production de l'intérêt romanesque, Mouton, paris, 1973.*
- *J.C.Couquet, le discours et son sujet, Klinksiack, paris, 1985.*

ما يمكن استخلاصه من هذه القائمة التي أثنى بها الباحث دراسته الوجهة الغربية، وتحديدًا المدرسة الفرنسية، الممثلة بأعلامها أ.ج.غريماس، ج.كورتيس، ج.ك.كوكي، ر.بارت،

ج. جنيت... وبالتالي، فإن الباحث يبدي وفاءه لأستاذه غريماس، ولأفكاره، باعتبار أنّ سيميائية غريماس، هي الأنسب لتحليل الخطابات السردية لما تحويه من أدوات إجرائية، وجهاز مفاهيمي؛ إذ لا تكاد دراسات الباحثين المغاربيين الزيغ عن نظرية التي طرحها "غريماس"، ولا الخروج عن استراتيجيته في التحليل.

ما يلاحظ أن الباحث لم يعتمد إلا على الكتب الغربية الأصلية، وهذا يعني أنّ "بن مالك" يستقي المعرفة السيميائية من مظانها، فهذه الحقيقة جعلته لا يعتمد على الكتب التي ترجمت إلى العربية، فالباحث مثلا عاد إلى النص الأصلي لـ "هامون" الخاص بسيمولوجية الشخصيات الروائية، ولم يأخذ بترجمة "بنكراد"، كما نجده يستعين بالقواميس الغربية لثمين الترجمة الآمنة للمصطلحات الغامضة. أما ما اعتمده من الكتب العربية فلا يدخل ضمن الاختصاص، وقد استعان بها الباحث لتبديد غموض أو ما شابه، فمثلا يشكل كتاب "سيرة بني هلال" حضورا عرضيا في هذه الدراسة، وقد اعتمده الباحث في فهم بعض ما جاء في الرواية عن التعرّيب التي عاشها بنو هلال كما يرويها التاريخ كي يفهم تعرّيب بطل الرواية "صالح بن عامر الزوفري".

المصطلح:

لقد دأب "رشيد بن مالك" على وضع قائمة لثبت المصطلحات في جلّ كتبه النقدية سواء تلك التي ترجم فيها أعمال أساطين مدرسة باريس السيميائية، أو تلك التي قارب فيها نصوص سردية. إلا أننا لا نلمس هذا الثبوت في هذا الكتاب، لكن هذا لا يعني أن الباحث لم يورد المصطلحات السيميائية في دراسته، بل بالعكس، استحضرها، ووضع لها المقابل العربي المناسب لأجل تبديد غموضها، وتقديمها للقارئ. حيث نجده يسعى -بلا كلل- في بسط معاني بعض المصطلحات في حواشي الدراسة، ففي هامش الصفحة (135) مثلا، ميّز في تحليله بين (القصة *histoire*) و(الحكاية *récit*) ووجد أن القصة تتمثل مدلول (*signifie*) أو مضمون النص السردية، في حين أنّ الحكاية تتمثل دال (*signifiant*) النص السردية.

أمّا المصطلحات التي أوردها في دراسته بمقابلها العربي فهي كما يلي: القصة المروية (*histoire narrée*)، الشخص (*personne*)، الشخصية (*personnage*)، الشخصية

المرجعية (*personnage référentiel*)، واقع غير نصي (*extratextuel*)، الشخصية التاريخية (*historique personnage*)، الشخصية التناسبية (*personnage* *intertextuel*)، القصة [الغائبة] (*extra diégétique*)، القصة [الحاضرة] (*extra diégétique*)، رواية (*narratrice*)، نظام التسمية (*système dénomination*)، فعل (*faire-faire*)، الزمن التاريخي (*temps historique*)، وظيفية (*fonctionnelles*)، شخصية ضحية (*personnage-victime*).

يلمس الدّارس - في هذا - حرص الباحث على ضبط المصطلح السيميائي بوضع مقابل عربي دقيق له، وقد ساعده في ذلك امتلاكه ناصية اللغتين (الأصل والهدف)، وازدواجية الثقافة لديه كذلك، إلى جانب اطلاعه المكين على النظرية السيميائية من مظاهرها، كلّ ذلك - في تقديرنا - جعله يتجاوز - إلى حدّ كبير - صعوبات وعوائق إشكالية المصطلح السيميائي، التي طالما حذّر منها في بحوثه السابقة، بل وأفرد لها صفحات يبرز فيها أسباب هذه المعضلة، ويقترح - في ذات الوقت - الحلول التي يراها تقلّل من غلوائها، وتسعف الباحثين في إعمالها، وتقويمها في دراساتهم¹. من ذلك، "أنّ أوّل خطوة يمكن أن نقوم بها في عملية ترجمة المصطلح السيميائي، هي أن نبدأ أوّلاً بمحصر المصطلحية في المعاجم والبحوث العربية المتخصّصة، وننحّ ثانياً إلى ترجمة ما ستعصى نقله وفق عمليّات التّوليد والاشتقاق والتّعريب"².

فهذا الاقتراح لا يأتي أكمله إلا بتضافر جهود الباحثين وفق استراتيجية عمل جماعي (مخبر، حلقات بحث...) ذلك لأنّ الجهود الفردية - وما أكثرها - التي تجتهد خارج إطار العمل الجماعي مهما قدّمت من جديد لا يحقّق الغاية المنشودة. وبالتالي، لا يعالج إشكالية المصطلح السيميائي في مشهدنا النقدي المغربي.

¹ - ينظر على سبيل المثال: رشيد بن مالك: مقدّمة في السيميائية السردية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص.ص: 69-70.

² - رشيد بن مالك: مقدّمة في السيميائية السردية، ص: 72.

في طريقة تناول:

لقد شكّلت دوافع الباحث المذكورة آنفا (الذاتية، والفنية، والمنهجية)، وكذلك المحددات المتعلقة بمفهوم الشخصية (النحوي، السردية، والأدبي)، رغبة "بن مالك" في تصنيف شخصيات رواية "نوار اللوز"، وتحليل مستوياتها والإمعان في تجلياتها الدلالية. تأسيسا على هذا، صنّف "بن مالك" شخصيات الرواية إلى: الشخصية المرجعية والشخصية الذاتية والشخصيات الغائبة، والشخصيات الحاضرة.

يستند الباحث في تحديد الشخصية المرجعية (*Personnage référentiel*) على العلامة اللسانية في "إقرار مفهوم المرجع بوصفه مقياسا أولا للتصنيف [فتعدو بذلك المرجعية] الوظيفة التي يحيل بها الدليل اللساني على موضوع العالم غير اللساني، سواء كان واقعا أو خياليا"¹. قياسا على هذا، يجد الباحث أنّ الشخصية المرجعية تحيل على واقع غير النصي (*extra textuel*) يفرزه السياق الاجتماعي أو التاريخي²، ويقسمها الباحث -حسب معطيات النص- إلى "الشخصية التاريخية (*personnage historique*)"، وتشتمل على فئة تحقق حضورا تاريخيا محليا في النص، من ذلك صورة "نابليون"، وأولاد لاليجو. حيث يجد الباحث في شخصية نابليون من خلال الملفوظ السردية (ص: 153 من الرواية)، أنّها "تتخذ مدلولها الحقيقي لتتحول إلى كابوس مرعب يؤكد الفصلة التاريخية لحاضر الجزائر عن ماضيها"³.

أمّا الفئة الأخرى التي تشتمل عليها الشخصية المرجعية فتتحلى في الشخصية التناصية (*personnage intertextuel*) والتي "تقتصر على الشخصيات التناصية الموظفة في نص الرواية والمتفاعلة على مستويات عدة من خلال أدوارها الموضوعاتية المتميزة التي تحيل على عالم دلالي مشترك [التهرب] بين تغرية بني هلال وتغرية صالح"⁴، والسبب في هذا كله، المعاناة الواحدة بين الشخصية التناصية بني هلال وصالح والمتمثلة في [الجوع]. وعليه، فإن تماثل التجريبتين

¹ - ن، ص: 130.

² - ن، ص: 131.

³ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 132.

⁴ - نفسه، ص: 132.

[الجوع ← التهريب] ناتج عن روابط القرابة بين صالح وبني هلال، "إنه تماثل يدل دلالة قاطعة على أن صالح وجد نفسه في تجربة بني هلال"¹.

يرى الباحث أن الشخصيات التناصية الممثلة برموز بني هلال (أبو زيد الهلالي، ذياب الزغبي، الأمير حسين بن سارحان)، لا يتحدّد وجودها في الواقع، وإنما يتحدّد على مستوى نشاط صالح التأويلي الذي مارسه على تجربتها² مستخلصا تفاعلها مع الشخصيات المعارضة لمشروعه من سماسة وتجار الذين يمتلكون النفوذ في السلطة، ويجنون الأموال بطرق مشبوهة (السبايي (ولد القايد مثلا)) على حساب الفقراء (صالح الزوفري، المسيردية، ...). من هذا يجد "بن مالك" في الشخصيات التناصية لهذا النصّ السردّي، أنها تجسّد الماضي بكلّ إفرزاته السلبية التي ورثتها الشخصيات المعارضة لمشروع صالح، في حين تمثّل "الجازية" لصالح -عكس الشخصيات التناصية الأخرى- المستقبل البديل الذي يطمح إليه³، إنّما بصيص الأمل الذي يجد فيه "صالح" التّفاؤل والتطلّع إلى غدّ أفضل.

2- الشخصية المرجعية الذاتية:

يجدها "بن مالك" عكس الشخصيات التناصية التي جاء بتوظيفها من خارج النصّ، والتي لا تُعرف إلا من خلال أفعالها، ولا يتحدّد وجودها إلا من خلال تأويل (صالح) لتجربتها. لذلك، فهي "توظف من داخل النصّ، وتحيل مباشرة على ماضي الراوي وتجاربه معها؛ [إذ] لا يتحقّق وجودها إلا من خلال ذكريات الراوي أو ما يسند له من دور أو برنامج سردي في متن القصة، فهي لا تشتغل سوى بالمرجعية الذاتية، ولا تحيل في تناميها إلا على نفسها"⁴. يستند الباحث على أطروحات (ج.جنيت) بخصوص الزمن السردّي الذي يعتمده في تصنيف الشخصيات إلى الغائبة والحاضرة، فالشخصيات الغائبة، تشتغل خارج إطار الزمن الحاضر للقصة، حضورها

¹ - م ن، ص ن.

² - ن، ص: 133.

³ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 134.

⁴ - ن، ص: 135.

في نص باهت، وبرنامجهما السردّي غائب. من ذلك، شخصية (المسردية، لخضر، الإمام)¹. أما الشخصيات الحاضرة، فهي عكس الشخصيات الغائبة، لا تشتغل خارج الزمن الحاضر، وإنما تتموضع زمنيا في القصة، حتى وظائفها تختلف من شخصية لأخرى من ذلك: شخصية (القول الحكواتي)².

يجد الباحث أن شخصيات الرواية تضطلع بأسماء وصفات وبرنامج سردي ونشاط، ويشكل الاسم الذي تحمله الشخصية علامة التمايز، قد يكون هذا الاسم اسم علم في الغالب، وقد يكون اسم موضوع (*Surnom*) من ذلك: صالح بن عامر الزوفري، عمر بوحلاقي، احمددا القهواجي،... حيث "يشكل هذا المنحنى في نظام التسمية *systeme de nomination* ظاهرة فريدة من نوعها في الرواية الجزائرية من حيث هيمنته، وغناه الدلالي، وتثبيته لدور الشخصية الموضوعاتي المؤثر في سلوكاتها وأفعالها"³. تمكّن الباحث من خلال نظام التسمية في الرواية (اسم علم، اسم موضوع) من تصنيف الشخصيات إلى ثلاث فئات، هي: (الغنية، الوسيطة، الفقيرة)، وفي كل فئة هناك شخصيات تقترن بلقب واسم علم واسم موضوع، وعلى إثر المكوّن الاسمي تتحدّد معايير النسب والمهنة، والمركز الاجتماعي والانتماء الجغرافي⁴. كل هذا، رصده الباحث في جدول⁵، مكّنه من إيجاد استنتاجات ترتبط بكل شخصية.

خلاصة:

ما يلاحظ على هذه الدراسة، أن الباحث ركّز فيها على طرح "ف.هامون"، في ما يتعلق بالشخصية المرجعية، والتي تتحدّد بشخصيات تاريخية، أو مجازية، أو اجتماعية، وجميع هذه الشخصيات "تحيل على معنى ثابت تثبته ثقافة الأدوار وبرامج واستعمالات مقبولة، يرتبط

¹ - ن، ص: 136.

² - ن، ص: 137-138.

³ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، ص: 139.

⁴ - ن، ص: 140.

⁵ - م ن، ص ن.



وضوحها مباشرة بدرجة إسهام القارئ في هذه الثقافة¹، والباحث في تحليله لشخصيات رواية "نوار اللوز" أسهم في تحديد "الشخصية المرجعية *Personnage référentiel*" من خلال فئة حققت حضورا تاريخيا محليا في النص، وتمثل في "الشخصية التاريخية (*personnage historique*)، وفئة أخرى موظفة في النص، تتمثل في الشخصية التناصية (*personnage intertextuel*)، والتي حققت تفاعلا دلاليا مشتركا هو [التهريب] بين تغريبة بني هلال وتغريبة صالح. كما توجد فئة أخرى أيضا، نعتها "بن مالك" بالشخصيات المرجعية الذاتية، وهي عكس الشخصيات التناصية، موظفة من خارج النص، حققت حضورها من خلال أفعالها (تجربتها)، التي أولتها الشخصية المحورية في الرواية.

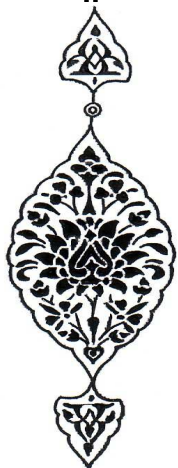
¹ - رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، عربي-إنجليزي-فرنسي، دار الحكمة، الجزائر، فيفري 2000، ص: 130.

المبحث الرابع

سيميائية الزمکان

في المدونة النقدية

المغربية.



- سيميائية الزّمن والمكان في الخطاب النّقديّ المغربيّ.

1- الزّمان والمكان في الخطاب النّقديّ المغربيّ - إشكالية المفهوم والتّسمية:-

لم تغفل المقاربات النّقديّة المغربيّة عن معالجة هذين المكوّنين السّرديّين من حيث ماهيتهما، وانتظامهما مع باقي المكوّنات السّرديّة داخل النّص الأدبي، وكذا من حيث علاقتهما مع تلك المكوّنات، ومن حيث مكائنتهما في السرد الروائي. ولنا في هذا المقام نماذج¹ دراسات كثيرة، احتفت بهما نظيرا ومراسا.

1-أ- في مفهوم المكان:

تضاربت آراء الباحثين حول نعت هذا المصطلح وتحديد مفهومه، فالبعض أطلق عليه اسم (المكان)، والبعض الآخر نعتّه ب(الفضاء)، ومنهم من انتصر لمصطلح (الحيز)، وكلّ واحد من هؤلاء يستند فيما ذهب إليه على جملة من المبررات المعرفية.

يعدّ الباحث "عبد الحميد بورايو" من الفئة التي آثرت مصطلح "المكان" تارة والحيز المكاني تارة أخرى في دراسته التصنيفية والتحليلية للأمكنة والأزمنة الموظفة في رواية (الجازية والدرابوش لابن هدوقة، وفي رواية (نوار اللوز) لواسيني الأعرج. فالحيز المكاني -من منظوره- هو "الذي يشمل الأماكن، سواء منها المتخيّل أو الفعلي الذي له مرجعيّة واقعيّة"². إنّ الأمكنة في الرّواية -كما يراها بورايو- "تكتسب شرعيّة وجودها من مرجعيّتها الواقعيّة، فهي موجودة في الخريطة الجغرافية التي تجري فيها الأحداث"، ويستحضر لهذا الطرح أمثلة عن أمكنة رواية "نوار اللوز" وهي بلدة مسيردة، مدينة سيدي بلعباس، الحدود المغربيّة الجزائريّة، فكل هذه الأمكنة تعني له الجغرافيا. أمّا الفئة الثانية التي اختارت الفضاء كمعادل للمكان فهم يشكّلون الغالبيّة، ومنهم حميد لحداني، رشيد بن مالك،... يجد (لحداني) أنّ مصطلح (الفضاء) معادل لمفهوم المكان في الرّواية، لكنه لم يتوقّف عن هذا الحدّ، بل ذهب إلى التّمييز بينهما بشكل أدق، ليثبت

¹ - ينظر: على سبيل المثال لا الحصر:

- حميد لحداني: بنية النّص السّرديّ (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991. وعبد الملك مرتاض: في نظرية الرّواية (بحث في تقنيات الرّواية)، عالم المعرفة، الكويت، ديسمبر 1998. ومحمد البشير بويجزة: بنية الزّمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1986)، ج1، دار الغرب، الجزائر، 2001-2002م. وعبد الصمد زايد: مفهوم الزّمن ودلالته في الرّواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988.

² - عبد الحميد بورايو: منطلق السرد -دراسات في القصة الجزائرية الحديثة-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 116.

أنّ "الفضاء أشمل، وأوسع من معنى المكان، و[يغدو] المكان بهذا المعنى هو مكوّن الفضاء"¹؛ أي أنّ الأمكنة في رواية متعدّدة، ومجموعها يشكل فضاء الرواية.

استنادا على هذا المعطى، يتحدّد (الفضاء) لدى حميد لحمداني كمعادل للمكان حيث هو مساحات وأبعاد. نجد -في السياق نفسه- أنّ رشيد بن مالك كذلك يؤثّر مصطلح (الفضاء)، ويراه معادلا للمكان إلى حدّ ما، ويرى أنّ تعريف الفضاء يستدعي مشاركة كل الحواس، ويضطرنا إلى إعطاء أهميّة بالغة للأوصاف المحسوسة (مرئية، لمسيّة، حراريّة، صوتيّة،... إلخ)². من هذا، فإنّ نظرة رشيد بن مالك لا تقتصر على فكرة أنّ الفضاء معادل للمكان، بل تتجاوزها إلى إشراك سلوكيات الانسان كذلك، فمن منظوره، "لا يحدّد الفضاء في معناه الضيق إلا الخصائص المرئية، بهذا الشكل تحدّد السيميائية الهندسة المعماريّة موضوعها بالنّظر إلى الأشكال والأحجام والعلاقات المتبادلة، إلا أنّه من الضّروري أن نولي أهميّة للإنسان المستعمل للفضاء"³.

وتأسيسا على هذا، يغدو موضوع الفضاء متطابقا مع سيميائية العالم الطّبيعي، التي لا يقتصر بحثها على معاني العالم، بل تبحث كذلك دلالات السلوكات البدنية للإنسان⁴. إنّ محددات الفضاء التي جاء بها رشيد بن مالك، والتي أملاها عليه الطرح، قد كرسها إجراء في رواية "ريح الجنوب" لابن هدوقة، لما تناول سيميائية الفضاء فيها؛ فقد استند في ذلك على محددات الفضاء من المنظور السيميائي، واستطاع من خلاله تفحص "التّحويلات الدلاليّة المحوريّة لفضاءين يفترض أنّهما مركزيّان في النصّ: القرية والمدينة"⁵. مع الاهتمام بالفاعل (نفيسة) كمنتج ومستهلك للفضاء في الرواية⁶.

أمّا الباحث "عبد الملك مرتاض"، في توفقه للتفرّد والتّميّز، من ناحية، وفي عدم استئناسه بالجاهز من المصطلحات من ناحية أخرى، وتحت طائل من المبررات نجده يؤثّر مصطلح "الحيز" عوض مصطلحي (المكان والفضاء). وإن كان الباحث قد استعان بمصطلح (المكان) في رواية

¹ - حميد لحمداني: بنية النصّ السرديّ، ص: 63.

² - رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي-إنجليزي-فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، فيفري 2000، ص: 71.

³ - م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: م ن، ص ن.

⁵ - رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السرديّة، دار القصة، الجزائر، 2000، ص: 97.

⁶ - رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي، ص: 71.

"زقاق المدق"، فذلك كما يدعي أن الأمر جاء "من باب التغليب الذي لم نجد منه بدءا، وإلا فإننا لا نرتاح إلى هذه التسمية الجغرافية في النقد الروائي، حيث أن المكان يصبح قاصرا أمام إطلاقات أخرة أشمل وأوسع وأشسع مثل الحيّز أو الفضاء، بيد أننا تجنّبنا، قصدا اصطناع الحيّز هنا لوجود أمكنة جغرافيا حقيقية في النصّ مثل القاهرة، وسيدنا الحسين، والأزهر وهلم جرا"¹. نستشف من هذا، أن مصطلح (المكان الجغرافي) غير مدرج في القاموس النقديّ للباحث، ولا يعوّل عليه كثيرا في التحليل، كما يجد في جانب آخر، أن معظم النقاد العرب مشرقا ومغربا يترجمون مصطلح (*espace*) إلى (الفضاء)، وهي -من وجهة نظره- ترجمة "لا تفضي إلى كبير معنى في اللغة العربي، ذلك بأن (الفضاء) اتخذ في العربية الجارية مفهوم الجو الخارجي، الذي يحيط بنا، ومن ذلك غزو الفضاء، والأبحاث الفضائية"².

ويشير الباحث -من وجهة نظره- في موطن آخر أن اطلاق مصطلح (الفضاء) لا يحتمل كل الأحمال الدلالية [...] المتعلقة بأصناف الأطوار التي تعتور خصائص الدلالة المكانية من حيث هي"³. إنّ هذا التدقيق الذي يوليه "مرتاض" للمصطلح النقديّ، نابع من تكوينه المعرفي المزدوج (عربي/فرنسي)، والذي سهل له التمييز الدقيق للمصطلحات التالية وهي: المكان والفضاء والمجال والحيّز. فالمكان بالنسبة للباحث يعني الجغرافيا، واستعمالاته لدى النقاد الغربيين يأتي عرضيا، ولدلالات ضيقة⁴. أما الفضاء، فيعني الخواء والفراغ، ويقصد به الأجواء العليا التي لا سيادة لأي بلد فيها، في حين يمثل المجال الحيّز الأعلى القائم فوق بلد ما يخضع لسيادتها وسلطتها⁵، بينما الحيّز (*espace*) من هذا كله، "ينصرف استعماله إلى نتوء، والوزن، والثقل، والحجم والشكل..."⁶.

وبناء عليه، يكون هذا المصطلح الذي اصطنعه "مرتاض"، والذي لم يجاريه فيه أحد من الباحثين العرب، "قادرا على أن يشمل كل ذلك بحيث يكون اتجاهها وبعدها، ومجالا، وفضاء وجوا، وفراغا، وامتلاء، وحظا، في أي شكل من أشكاله الهندسية الكثيرة، إنه يشمل كل حركة

¹ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السرديّ، ص: 145.

² - نفسه، ص: 102.

³ - عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري - تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلي - دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص: 113.

⁴ - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 121.

⁵ - ينظر: عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 102.

⁶ - عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 121.

تحدث للشخصية الشعرية أو الشّخصيّة المتحركة عبر الأعمال السّردية...¹ لقد مكنت هذه القناعة صاحبها على إعمال هذا التصور في دراساته التطبيقية إن على الآثار السّردية أو على الآثار الشعرية، واستطاع أن يخلق من مصطلح الحيز (*espace*)، مصطلحات أخرى هي (التحيز) *spatialisation*²، وهو نفسه (النشاط الحيزي) أو (الحيزية)³، ويعني كذلك (التحايض)⁴. إنّه بالاستناد على المعطيات السابقة، نجد أن الباحثين المغاربيين تباينت مواقفهم، وتداخلت من حول مفهوم وتسمية (المكان- الفضاء- الحيز)، وإن كنا لمسنا أن الغالبية تؤثر مصطلح (الفضاء) على المكان، فإن عبد الملك مرتاض، يرى في الحيز إجراء سيميائي شامل لكل تلك المصطلحات.

1-ب- في مفهوم الزّمن:

إنّ مجرد التّواجد في المكان، هو استمرار زمني، والزّمن هو الوجود الذي يحاصرنا ليلا ونهارا، موكل بالكائنات جميعا، لا يغادرها لحظة واحدة، فيغدو بذلك "العمود الفقري للوجود كلّه وصانع أحداثه ومواقفه"⁵. لم يشكل مصطلح الزّمن (الزّمان) *Temps*، أي تضارب في مفهومه وتسميته وتسميته كما حدث مع مصطلح المكان، وبقي استعماله واحد في جميع الدّراسات المغاربيّة، وقد استند الباحثون على المرجعيّة الغربية في ضبط مفهومه، وتحديد أنواعه من ذلك ما ذهب إليه مرتاض في اعتماد المعجم المعقلن لغريماس وتلميذه كورتيس في ضبط لفظ الزّمن (الزّمان)، على أنّه مشتق من (الأزمنة) بمعنى الإقامة⁶، وهي (أي الأزمنة): إنتاج معنى، أو حدث مؤزمن، أي إيلاج الزّمن في الفعل أو الحدث، أو إيلاج الفعل في إطار الزّمن لكي يستحيل من نظام سردي إلى حكاية⁷. نلمس من هذا، الدور المهم الذي يلعبه هذا العنصر في العمليّة السّردية، وفي علاقته بباقي المشكّلات السّردية الأخرى. وحتى لا يقع الدّارس في شرك التّكرار، سوف يتمّ التّطرق لهذا المكوّن السّردية في نماذج من دراسات تطبيقية.

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 103.

² - ينظر: نفسه، ص: 101.

³ - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 125.

⁴ - ينظر: عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص: 113.

⁵ - محمد البشير بوجيرة: بنية الزّمن في الخطاب الروائي الجزائري، ص: 03.

⁶ - ينظر: عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، ص: 172.

⁷ - عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 121.

2- علاقة الزمان بالمكان (بين إشكالية التركيب أو الفصل).

يؤدي الزمان والمكان دورا مهما في الأعمال الإبداعية خاصة السردية، فإذا أخذنا الرواية مثلا عن ذلك باعتبارها نقلا للأحداث، وتصويرا لحالات ووضعيات تتعلق بشخصيات مختلفة، فإنه لا يعقل تصور هذه الأحداث والحالات إلا ضمن إطارين أحدهما مكاني والآخر زماني. من هذا المنطق، يبدو لنا، أنه من الصعوبة بمكان تصور لحظة من اللحظات بمعزل عن إطارها المكاني؛ ذلك أن كل توجه في الزمان يفترض توجهها في المكان، وبمجرد التواجد في المكان هو استمرار للزمن. لقد اهتمت الدراسات النقدية المغربية بهذين المشكلين السرديين، وذهب الباحثون في تحليلها مذهباً متخصصاً، سواء في اثتلافهما أو الفصل بينهما تحت جملة من المبررات المنهجية. من ذلك، ما قام به "عبد الملك مرتاض"، حينما خصص لهما فصلاً خاصاً في كتابه (تحليل الخطاب السردية)، وقد وسمه ب: "الزمان في "زقاق المدق"، منطلقاً من سؤالين يحاول من خلالهما تبرير صنيعة المنهجي، مفادهما: "لما هذا المزج التركيبي المنحوت من الزمان والمكان في فصل واحد؟ وهلا فصلنا بينهما فتناولنا الزمان في فصل، والمكان في الفصل الآخر؟"¹.

يرى "مرتاض" في هذا مبررين، الأول منهما: أن الدراسة العميقة لكليهما، التي تبحث في أدق تفاصيلهما، تستدعي الفصل بينهما، وهو إجراء نلمسه لدى الباحث في دراسته السيميائية التفكيكية لقصيدة (أين ليلاي؟) لمحمد العيد، وكذلك في تحليله السيميائي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي لبدر شاكر السياب؛ كما نلمس ذلك لدى باحثين مغاربة آخرين منهم "رشيد بن مالك" الذي عالج سيميائية الفضاء في رواية "ريح الجنوب" لابن هدوقة، وعبد الحميد بورايو الذي فصل في أثناء دراسته لبعض النماذج الروائية الجزائرية المكتوبة بالعربية بين أزمنتها وأمكنتها، فهذا الصنيع يكرس لفكرة أن تكامل هذين الطرفين لا يعني البتة تطابقهما، فإذا كان "الزمن [...] غالباً ما يقرب بالحركة، والحركة تقرن بالمكان، بحيث يموت مفهوم الزمن، ويذوب مفهوم المكان، [فإن] المنطق يفرض الفصل بينهما"². ويذهب مرتاض في مبرره الثاني مذهباً آخر لا يجد في القرن بين هذين المكونين أي مانع إجرائي، "حيث يستحيل تناول المكان بمعزل عن تضمين الزمان؛ كما يستحيل تناول الزمان، في دراسة تنصب على عمل سردي، دون

¹ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردية - معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 227.

² - عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص: 16.

أن لا ينشأ عن ذلك مفهوم المكان في أي مظهر من مظاهره¹. وبناء على هذا، لا يجد الباحث المغربي مانعا في إجرائية الفصل أو المزج بين الزمان والمكان.

3- المقاربة السيميائية للزمان في المدونة النقدية المغربية.

تعددت المقاربات النقدية المغربية، وتنوعت في احتفائها بعنصري الزمن (الزمان) (Temps)، والمكان (espace) تنظيرا ومراسا.

3-1- في التنظير النقدي:

بعدها استوقفتنا إشكالية مفهوم وتسمية هذين المصطلحين في المدونة النقدية المغربية، وكذلك إشكالية القرن بينهما أو الفصل. نسعى الآن لإبراز مدى اهتمام الباحثين المغربيين بهذين المكونين السرديين، ومعرفة الكيفية التي تعامل بها هؤلاء مع هذين العنصرين، وسنختار لهذا المسعى نموذجا نظّر فيه صاحبه لهذين العنصرين السرديين.

3-1-أ- النموذج المختار: كتاب "بنية الخطاب السردية ل: حميد حمداني".

قسّم الباحث هذا الكتاب إلى قسمين أحدهما نظري والآخر تطبيقي لدواعي منهجية، أما ما يخصّ الدّارس من هذا المنجز، هو تركيزه على عنصري الزمن والمكان من القسم الأول (النظري).

-الفضاء المكاني:

تناول الباحث "الفضاء المكاني" من منظور الطرح الغربي، ووجده استنادا على هذا الطرح، مجرد أبحاث لا تزال في بداياتها، ولم تتبلور بعد كي تشكّل نظرية عن الفضاء المكاني²، ونظرا للغموض الذي يشوب هذا التصور، يرصد الباحث مختلف التصورات الموجودة عن الفضاء الحكائي، منطلقا من سؤال إشكالي يتعلق بمهية الفضاء في الحكيم، بعدما وجد أن الدّراسات المتوفرة، "لا تقدم مفهوما واحدا للفضاء، فمنها ما يقدم تصورين أو ثلاثة، ومنها ما يقتصر

¹ - عبد الملك مرتاض: المرجع السابق، ص: 227.

² - ينظر: حميد حمداني: بنية النصّ السردية من منظور النقد الأدبي، ص: 53.

على تصور واحد¹. لقد تسنى للباحث تحديد الآراء التي تقف عند الفضاء كمعادل للمكان، الفضاء النّصي، الفضاء الدلالي، الفضاء كمنظور أو رؤية، وقد تناوّلها كما يلي²:

يقصد بالفضاء كمعادل للمكان، الحيز المكاني في الرواية أو الحكاية، ويعرف بالفضاء الجغرافي *l'espace géographique*، هذا الفضاء يتحرك فيه الأبطال، أما الفضاء النّصي *l'espace textuel*، هو حيز تشغله الكتابة الروائية أو الحكائية على مساحة الورق ضمن الأبعاد الثلاثة. أما الفضاء الدلالي *l'espace sémantique*، فيشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكيم، وما ينشأ منها من بعد يرتبط بالدلالة المجازية بشكل عام، أما الفضاء كمنظور أو كروية فيشير إلى الطريقة التي يمكن الكاتب من خلالها الهيمنة على عالمه الحكائي بما فيه من أبطال يتحركون على واجهة الخشبة في المسرح.

لقد قادت هذه الأشكال باحثنا إلى نتيجة فحوّاهّا أن البحث الغربي لم يقدم مفهوما دقيقا نفرق به بين (الفضاء والمكان). هذا المعطى، دفع بالباحث بعد المقارنة والتمحيص إلى التمييز بينهما، فوجد "أن الفضاء -وفق هذا التحديد- شمولي، إنه يشير إلى "المسرح" الروائي بكامله والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي"³.

- الزّمن الحكائي:

استهل الباحث حديثه في هذا العنصر عن النظام الزّمني (*l'ordre temporel*) مميزا بين زمنين في الرواية هما: زمن السّرد، وزمن القص، حيث "أن زمن القص يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث بينما لا يتقيد زمن السّرد بهذا التتابع المنطقي"⁴.

أوضح الباحث ما ذهب إليه بالشكل التالي: "لو افترضنا أن قصة ما تحتوي على مداخل حدثية متتابعة منطقيا على الشكل التالي:

¹ - م ن، ص ن.

² - ينظر: نفسه، ص.ص: 53-62.

³ - حميد حمداني: بنية النصّ السّرديّ، ص: 63.

⁴ - نفسه، ص: 73.

أ ← ب ← ح ←

فإن سرد هذه الأحداث يمكن أن يتخذ مثلا الشكل التالي:

ح ← د ← ب ← أ ←

ويسمى هذا مفارقة زمن السرد مع زمن القصة¹.

- الاستغراق الزّمني (*la durée*):

يتجلى في "التفاوت النسبي-الذي يصعب قياسه- بين زمن القصة، وزمن السرد، فليس هناك قانون واضح يمكن من دراسة هذا المشكل"². لأجل هذا، استند الباحث على طرح "ج.جنيت" الذي يجد في الإيقاع الزّمني سبيلا في معرفة القارئ للسرعة الزّمنية أو التباطؤ الزّمني، والذي يدعو إلى دراسة هذا الإيقاع من خلال التقنيات الحكائية الآتية:

الخلاصة (*sommaire*)، الاستراحة (*pause*)، القطع (*l'ellipse*)، المشهد (*scène*)³.

3-2- في التطبيق النّقديّ:

3-2-أ- في الخطاب السردّي:

1- النموذج الأوّل: مقاربات عبد الملك مرتاض:

لم نجد -في حدود ما توفر لنا من مادة علمية- من الباحثين المغاربيين من أشبع هذين العنصرين تناولا، وأفحهما دراسة من الباحث "عبد الملك مرتاض". إننا -كما عهدناه دوما- تساوره هواجس البحث؛ إذ يدفعه قلقه المعرفي دائما وبلا كلل إلى التشخيص اللغوي والمعرفي والمنهجي لكل الظواهر الأدبية والنّقديّة التي يصادفها في أثناء بحثه، ومن ذلك ما أفرده لعنصري الزّمان والمكان من فصول طوال في جلّ دراساته. حيث سيتجلى فيها مفهوميها عبر رافدي

¹ - ينظر: م ن، ص ن.

² - حميد حمداني: بنية النصّ السردّي، ص: 76.

³ - ينظر: نفسه، ص: 76.

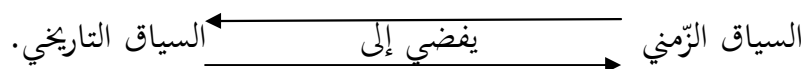
التراث والحداثة، فكان هذا داعيا لتسليط الضوء على بعض تلك الدراسات لإبراز تعامل هذا الباحث مع هذين المكوّنين السرديين.

لقد خصّص الباحث في كتابه "تحليل الخطاب السردّي" فصلا كاملا لعنصري الزمكان في "زقاق المدق"، ورغم أن الباحث توسل بآلية النحت في قرن هذين المصطلحين (زمكان) لغاية منهجية تمنع طغيان أحدهما على الآخر أو على العناصر الأخرى في تحليل هذا النصّ السردّي، فإن هذا الصنيع، لا يراه مانعا في الفصل بينهما على سبيل الإجراء. لذلك، فإنّ "القرن بينهما، أيضا، لا يتمتع إجرائيا ولا يسمح لترابطهما في حقيقة أمرهما أصلا، بل لتمازجهما وتراكبهما حيث يستحيل تناول المكان بمعزل عن تضمين الزمان؛ كما يستحيل تناول الزمان؛ في دراسة تنصب على عمل سردي، دون أن لا ينشأ عن ذلك مفهوم المكان في أي مظهر من مظاهره"¹.

- الزمان:

قسّم الباحث الزمن في "زقاق المدق" إلى الزمن بالسياق والزمن الليلي. تتحدد الأزمنة السردية في هذا العنصر انطلاقا من السياق أو المؤشر؛ لأنّ الزمن بالسياق في هذا النصّ يحيلنا إلى التاريخ. إلا أن الزمن الأدبي، ليس كأى زمن آخر (فلسفي أو نحوي أو رياضي...)، إنّّه "زمن متسلط [...] والذي يظهره على هذه الحركة التأثيرية والتأثرية معا قابليته للتعامل مع السياق الزمن الذي يمكنه من الاحتكام إلى التأويل في تحليل أي نص من النصوص، ولا سيما الأدبية منها"².

يرى الباحث أنّ استحضار "مدينة القاهرة" كمدينة تاريخية في النصّ "زقاق المدق"، لا تقرأ بمعزل عن سياقها التاريخي. هذا الأخير، يحيلها بدوره إلى سياق زمني معوم ومحصور³؛ أي أنّ كلا السياقين يتحدّدان بمكان (القاهرة) وفق العلاقة التناظرية بينهما. ويمكن توضيح ذلك من خلال هذا المخطط.



¹ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي - معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق" -، ص: 227.

² - ن، ص: 228.

³ - ينظر: م، ن، ص ن.

لقد كشف الباحث عن الزّمن المرتبط بالسياق الذي استغرقته أحداث هذا النّص، استنادا على ملفوظات سردية، وقد تحدّد له -بناء على هذا- بعض المؤشرات الزّمنية المعومة والمحددة، والتي أوردها كما يلي: العهود الغابرة، القاهرة، المعزية، الفاطمية، المماليك، السلاطين، الأيوبيون، عباس الخديوي، هتلر، الجيش الانجليزي في مصر¹. يجد الباحث في اعتماد "نجيب محفوظ" الصياغة التقريرية للتاريخ على إضفاء الشرعية على "زقاق المدق" في كونه من أقدم الشوارع القاهرية، فهو كمكان لا يمكن فصله عن الزّمن والأحداث. هذه الأخيرة، التي لا يمكنها القفز خارج الزّمن.

أمّا الزّمن الليلي في "زقاق المدق"، فيجده الباحث يتحدد بتلك "الأحداث التي تجري تحت جنح الظلام، أو تحت ضياء المصاييح"²، وهي ثمرة صراع دائر بين شخصيّات "زقاق المدق". يمثل الزّمن الليلي حسب الباحث، حضورا دالا مقدرا بثلاثة وثلاثين حالا، واستقدامه في الرواية لم يكن اعتباطا، إنما جاء لتأدية وظيفة سردية، تتجلى في بعض الأفعال المنكرة التي انجزتها بعض الشّخصيّات، والتي لا يمكن أن تقوم بها إلا ليلا³.

يستحضر الباحث بعض النماذج لتأكيد استنتاجه:

زبيطة وبوشي ————— الليل ← السطو على طقوم أسنان الأموات.

المعلم كرشة ————— الليل ← إدمان على الحشيش، إتيان الغلمان.

حميدة ————— الليل ← الفرار مع عشيقها فرج إبراهيم.

زبيطة ————— الليل ← التطاول على على حسنية ومرادتها على نفسها.

عباس ————— الليل ← نهايته الموت (مقتول).

يشكّل هذا المعطى -حسب تحليلات الباحث- لجريان الأحداث الجسام، أمّا تمت في أوقات من الليل، فهذه الأحداث ابتدأت من الغروب (ليل)، وانتهت بالليل. وعليه،

¹ - ينظر: عبد الملك مرتض: تحليل الخطاب السردية، ص.ص: 229-233.

² - ينظر: م ن، ص: 235.

³ - ينظر: م ن، ص: 237.

فإن "النهاية الحقيقية [...] للحدث السردى كانت بليلى؛ فقد انتهت الرواية بموت عباس، ودخول حميدة المستشفى"¹. فالنتيجة التي توصل إليها "مرتاض" من خلال هذه الأحداث التي رصدها هي أن "زقاق المدق" تشكل رواية ليل بامتياز؛ أي أن الرواية برمتها هي زمن الليلى نفسه.

- المكان:

استعان "مرتاض" بمصطلح "المكان" في هذه الدراسة، رغم أنه يُؤثر عليه مصطلح الحيز، ذلك لأن هذه الرواية قد احتفت بأماكن حقيقية كالقاهرة، والأزهر... وبناء عليه، فمفهومه للمكان "هو كل ما عنى حيزاً جغرافياً حقيقياً"². ويتميز مفهومه عن مفهوم الحيز كون هذا الأخير يتجلى في كل فضاء خرافي أو أسطوري أو كل ما يند عن المكان المحسوس...³.

يجد الباحث أن المكان في هذا النص السردى متعدد ومتنوع، حيث يشكل "زقاق المدق" المكان الذي تدور فيه أحداث الرواية، وهو عينة تعكس مدينة "القاهرة" بكل تناقضاتها، وما القاهرة كذلك إلا نموذج أوسع يعكس بدوره مصر⁴. من هذا، يجد مرتاض أن توظيف الروائي للحارة -بصفة عامة- في معظم أعماله لم يكن بريئاً، وإنما كان بقصدية، فهو يدرك تأثير هذا المكون على باقي المكونات السردية الأخرى في تلك الأعمال، فإلى جانب أنه يشكل مسرحاً لجريان الأحداث وتحولاتها، يكون موجهاً لحركية الشخصيات الروائية في صناعة تلك الأحداث. وبالتالي، فتأثيراته واضحة على تلك المشكّلات السردية، ما يجعل من مكان "زقاق المدق" علامة صغرى دالة على علامة كبرى هي العالم العربي بكل ما يحمله هذا الأخير لشعوبه من آمال وآلام.

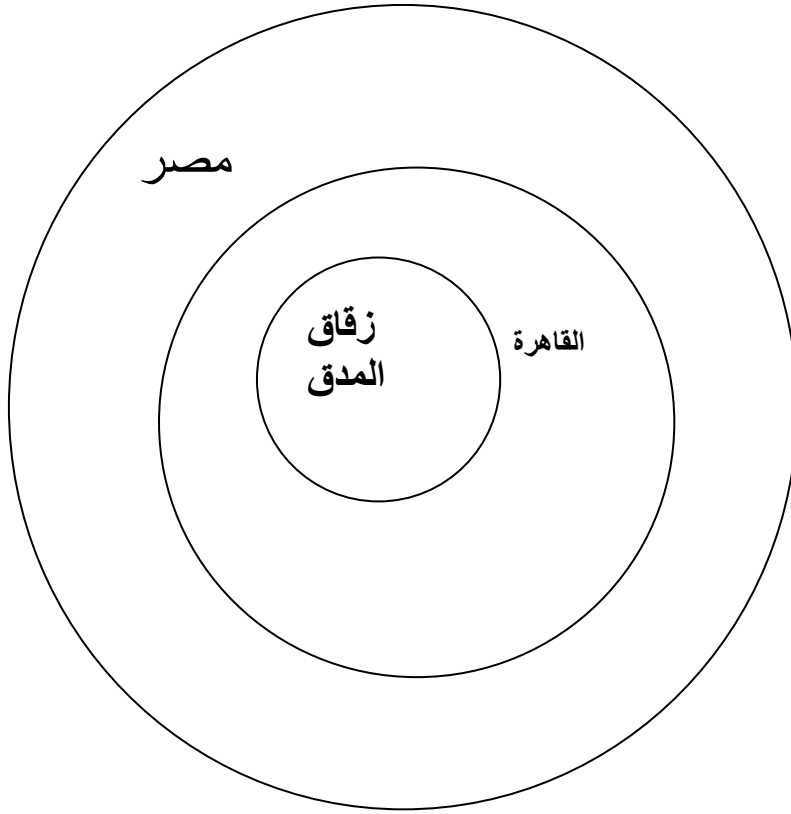
ويمكن للدارس -ههنا- تمثيل ذلك بهذا الشكل، الذي تتحدّد من خلاله مكانة "زقاق المدق" كحيز نواة يجوي داخله كل شرائح المجتمع، وما تحمله من قيم إيجابية أو سلبية سواء كان ذلك في صراعها المباشر أو غي المباشر.

¹ - ينظر: م ن، ص: 238.

² - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى، ص: 245.

³ - ينظر: م ن، ص ن.

⁴ - ينظر: ن، ص: 246.



تعدّ المنازل واحدة من أمكنة "زقاق المدق"، التي تعكس الطبقية الاجتماعية، أضف إلى ذلك الشوارع والأحياء، السّاح والميادين، الدكاكين والمتاجر، المقاهي والحانات، المقابر والمدارس... فكل هذه الأمكنة وغيرها، كانت مسرحاً للأحداث، وقد رصد الباحث درجة تواترها مستعينا بالأخطاء، فكانت أعلى درجات تواتر تمثلها "زقاق المدق" وبعدها قهوة المعلم كرشة¹. كل هذا، جعل من "زقاق المدق" مكاناً تجد فيه بعض الشخصيات الحب والطمأنينة مثل "عباس" و"رضوان". وعلى العكس من ذلك، فهناك الشخصيات تلقى فيه الكره (الكرهية) مثل: حميدة، وحسين كرشة.

2- التّموذج الثاني: مقاربات عبد الحميد بورايو.

يخصّص الباحث القسم الثالث من كتابه "منطق السرد" لمقاربات حول الرواية الجزائرية، حيث تناول فيه عنصراً مستقلاً حول مقارنة "المكان والزّمان" في الرواية الجزائرية، المكتوبة باللغة العربية، وقد اعتمد فيه تصنيف وتحليل الأمكنة والأزمنة الموظفة في نماذج منها. حيث استهله

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السرديّ، ص: 246-250.

بمدخل منهجي، يوضح فيه أهمية هذين العنصرين في المعمار السّرديّ للرواية، باعتبار أنّهما بنيتان تسهمان إلى جانب أبنية أخرى (بنية اللغة، بنية الحدث، بنية الشّخصيّة...) في تحقيق غايات الخطاب الروائي، و"الكشف عن طبيعة علاقته بالمضمون الايديولوجي للروايات والقيم الرمزية التي يحملها، وكذلك طبيعة العلاقة التي تربطه ببقية العناصر الروائية مثل الأحداث والشّخصيات"¹.

اختار الباحث لهذا الموضوع نماذج روائية محلية (جزائرية) هي: رواية "الجازية والدرأويش" لعبد الحميد بن هدوقة، ورواية "نوار اللّوز" للأعرج واسيني. يرصد "بورايو" دلالة الزّمان والمكان في نص بن هدوقة انطلاقاً من خطاب فاتحة الرّواية، المكوّن من مقطعين، حيث "يدلان على معنى الوجود: الكينونة والولادة، وتتحدد الصلة بينهما بعلاقة زمنية: "المقابل/المابعد"، فوجود المكان (الكينونة) مرتبط بالمقابل، ووجود الزّمان (الولادة) مرتبط بالمابعد، يعني ذلك أن الرّواية تتخذ من المكان والزّمان والعلاقة بينهما موضوعاً لها"².

يتحدّد الحيز المكاني لدى "بورايو" بكل ما هو جغرافي محسوس، لأنّه "يشمل الأماكن، سواء منها المتخيل أو الفعلي (الذي له مرجعيّة واقعية)"³، كالجبل والعين والصفصاف؛ أي الأرض، بما تحويه من جبال، وعيون... أما الحيز النّصي لديه، فيتحدّد ب"الصورة الشكلية التي قدمت بها الرّواية للقارئ؛ من حيث ترتيب أقسامها، وما يتعلق بعنوانها وعناوين فصولها، ومضامين فاتحتها"⁴، لكن الباحث لم يركز في تحليله على هذا الحيز، بالقدر الذي عالج به الحيز المكاني، الذي تحدّد في شكل ثنائيات مكانية هي: (السجن/الدشرة)، (قمة الجبل/الهاوية)، (جامع السبعة/ دار الأخضر الجبايلي)، (الخارج والداخل)، (الدشرة/ قرية المستقبل)⁵.

فهذه الأمكنة بما تعنيه من رمزية، وما تعكسه من دلالات عميقة (أخلاقية، وعاطفية وتاريخية على مضمون الرّواية)، تشكّل فضاء للصراع القائم بين شخصيات النّص (الجازية، الدراويش، السبعة، الرعاة، الشامبيط) ضمن هذه الأمكنة؛ وتشكّل شخصية "الجازية" الشّخصيّة

¹ عبد الحميد بورايو: منطق السرد - دراسات في القصة الجزائرية المعاصرة -، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 116.

² ن، ص: 120.

³ ن، ص: 116.

⁴ ن، ص: 120.

⁵ عبد الحميد بورايو: منطق السرد، ص: 122 - 129.

المحورية التي تشترك فيها هذه الأمكنة، فقد تأكد للباحث استنادا إلى الحضور اللافت لـ "جازية"، أنها "تمثل فكرة الوطن في تجلياته من خلال وعي مختلف الفئات الاجتماعية ومثلي التيارات السياسية"¹.

لقد أسهمت هذه الأمكنة في تشكيل النصّ السرديّ "الجازية والدرأويش"، كما يلقيها الباحث كذلك في رواية "نوار اللوز"، من خلال علاقتها ببعضها البعض من ناحية، وعلاقتها ببقية المكونات السردية الأخرى في الرواية. فقد تجلّى تحديد الحيز المكاني من قبل الباحث عبر "تتبع مسار الشخصيات في تنقلاتها من مكان إلى آخر"، ويتمثل في الأمكنة ذات مرجعية واقعية، وأخرى ذات مرجعية تحليلية. فأما الأولى فـ "تجري فيها أحداث الرواية في لحظة وقوعها، والتي تؤدي دورها من خلال الحضور المباشر في عالم القصة المروية"². إنها تمثل فضاء جغرافيا محسوسا، تتقاسمه ثلاث مناطق هي: "مسيردة"، "سيدي بلعباس"، و"الحدود المغربية الجزائرية"، تنتظم داخل هذه المناطق أحداث الرواية، ويرتادها نفس الشخصيات؛ لأنها تشكل معا حيزا مكانيا واسعا.

تنماز طبيعة العلاقة بين هذه الأمكنة الثلاثة بالتجانس، أي بتشابه الأفعال على ساحتها، أما الاختلاف فيلمسه الباحث في درجة توتر الحركة الروائية، والذي يتجلى في طبيعة الحجم والاتساع بينها، وبطبيعة العلاقات الاجتماعية فيها، وفي طبيعة العلاقات المحظورة التي تمارس سرا وعلنا... كل ذلك يؤثر على مجرى أحداث الرواية، وعلى حركية الشخصيات ضمنها³. هذا المعطى، المبني على التجانس والتماثل، دفع بالباحث لأن يبحث عن قيم خلافية، وعلاقات تضاد حقيقية بين تلك الأمكنة، فوجد أن تلك القيم وتلك العلاقات، لا تتحقق إلا في "بلدة مسيرة"، حيث يوجد في إطارها المكاني العام: حي البراريك، بيت البطل، السوق، المقهى، المقبرة، المسجد، دار البلدية، الوادي... واستنادا على الوظيفة التي تؤديها هذه الأماكن، تسنى للباحث تصنيفها إلى أماكن منفتحة وأخرى منغلقة⁴. تتمثل الأماكن المنفتحة في السوق، كمكان رصد واسع، وملتقى لمختلف شرائح البشر. تعجّ فيه الحركة، وتشكّل فيه الأحداث الرواية المتنوعة،

¹ - ن، ص: 129.

² - ن، ص: 143.

³ - عبد الحميد بورايو: منطق السرد، ص: 144-145.

⁴ - ن، ص: 146.

يصنعها (البرّاح) بدور الإعلامي، و(الراوي الشعبي) بتقديمه العناصر الفتية، كما يكرّس الدور الإعلامي في أماكن منفتحة كالمحلات التجارية والمساجد. في حين تمثل الأماكن المغلقة، فضاء خاصا لنوع العلاقات البشرية، ويحقق بيت البطل الخلوة لصاحبه، والحرية المطلقة فيه في تأمل الواقع، واستحضار ذكريات الماضي الممزوجة بالخيال والحقيقة وبالعلم والرؤيا... يستحضر الباحث -إلى جانب هذا- أماكن مغلقة أخرى كقبور الشهداء، والتي تلعب دور الشاهد على التاريخ النضالي في حين تمثل البلدية زيف التاريخ، والانحياز، والخيانة.

لقد استطاع "بورايو" من خلال اشتغاله على نظام الأمكنة في زاوية "نوار اللوز" على التحديد الصفات المتجانسة التي تشترك فيها الأمكنة الثلاثة (الحدود المغربية الجزائرية وبلدة مسيردة وسيدي بلعباس) باعتبارها أنها تشكّل إطارا مكانيا عاما ذا مرجعية واقعية، ونظرا لتماثل الأدوار التي تؤديها الشخصيات فيها، سعى الباحث لإبراز القيم الخلافية وعلاقة التضاد الحقيقية بين الأمكنة، وكانت بلدة "مسيردة" من خلال أماكنها المنفتحة والمغلقة حيزا يعكس تلك القيم والعلاقات. استنادا على هذا المسعى، وقف الباحث على الأحداث المتنوعة في الرواية التي صنعها الشخصيات، والتي أسهمت في دفع عملية الحكمي نحو الأمام.

إذا كانت لهذا الإطار المكاني مرجعية واقعية، استند عليها الباحث في إبراز بعض الدلالات السيميائية، فإنه يستند في جانب آخر على نوع ثان من الأمكنة التي "لا تكتسب مرجعيتها من الواقع المادي، الذي تتحدث عنه الرواية، وإنما من واقع الأساطير والأحلام والحكاية الخرافية ورؤية اليقظة"؛ إنها الأمكنة المتخيلة التي تؤدي دورا وظيفيا يسهم في دينامية الرواية، ويتجلى ذلك في ما هو تاريخي، أسطوري، أحلام... ومن الأمكنة المستحضرة عبر التذكر: السّد، الأراضي الزراعية المؤممة، بلاد القبائل، بلاد نجد ومصر... "إن هذه الأماكن - كما يقول بورايو - لانعرف عنها سوى أسمائها، فصورها غائمة، وحدودها غير واضحة"¹. أما رمزيتها فتكشف لنا "الحلم الجهنزي، والانتظار الذي لا ينتهي، والوعود الكاذبة (السّد والأراضي المؤممة، [إنها] تحمل قيما سلبية، وترسم إطارا أسودا"².

¹ - عبد الحميد بورايو: منطق السرد، ص: 149.

² - ن، ص: 150.

- الزّمن:

تفحص الباحث هذا المكوّن السّرديّ كما (المكان) في روايتين محليتين هما "الجازية والدررايش"، و"نوار اللّوز"، فقد بحث عن استعماله له كموضوع أساسي في الرّواية الأولى، والذي يتمحور في دائرة الصراع بين الماضي والمستقبل¹. هذا، وتحدّد قيمته الرمزية في الرّواية الثانية من كونه يشكل "عنصرا فاعلا ومحددا للعناصر الأساسية التي تشكّل العمل الروائي: التي يحملها خطاب الرّواية، وأحداث القصة المروية، وسلوك شخصيّات الرّواية"².

استنادا على هذا المعطى، فإنّ البحث عن الزّمن فيهما، يتجاوز في كونه يستخدم كوسيلة للقص، أو كخلفية للأحداث إلى موضوع قصة وقيمة رمزية دالة. لقد تجسد موضوع الزّمن في الرّواية الأولى من خلال الأمكنة والشخصيّات في مظاهر متعددة باعتباره تاريخا، ومستقبلا وحاضرا، أي باعتباره زمنا مطلقا تنضوي تحته هذه الأزمنة وتمثّله شخصية "الجازية"³. ويأخذ من خلال تلك الأزمنة عبر أشكال زمنية ثلاثة هي⁴:

- الزّمن الروحي ← تجسده مواقف الدراويش والمثقف اليساري (الأحمر) ← يحمل طابعا ميتافيزيقيا.

- الزّمن النفسي ← يمثله الطيب عائد وحجيلة وصفية ← يحمل منطق الخاص ← يتعلق بالواقع الداخلي والمعاناة الفردية للشخصيّات.

- الزّمن الموضوعي ← تجسده مواقف الأخضر الجبائلي والشامبيط والقوى الاستعمارية ← يعبر عن صيرورة مسار الأحداث التاريخية.

أما انتظام زمنية الرّواية فيتحدّد بزمن القص، وزمن الأحداث والديمومة.

يكتسب الزّمن في الرّواية الثانية أهمية خاصة، فالعنوان "نوار اللّوز" - كما يراه الباحث - يشير إلى الزّمن الذي تتوقف عنده الرّواية، وهو بداية فصل الربيع الذي تظهر فيه أزهار شجرة

¹ - ن، ص: 129.

² - ن، ص: 150.

³ - ينظر: ن، ص.ص: 129 - 130.

⁴ - ينظر: ن، ص.ص: 131 - 132.

اللّوز"¹. إذن، فرواية "نوار اللّوز" رواية زمن بامتياز. من هذا، اكتسى هذا المكوّن السّرديّ قيمة رمزية، سواء في خطاب الرّواية أو في أحداث القصة المروية، أو في سلوك شخصيّات الرّواية. يتجلى مسعى الباحث من هذا في معالجة جوانب محددة من الزّمن نظرا لدورها المهم في تشكيل البناء العام للرواية، وهي: الانتظام والديمومة والتردد ورمزية الزّمن².

يستند في جانب الانتظام على زمن القص، الذي تجسد بصيغة الحاضر "ويتطابق مع زمن الأحداث في المشاهد التي تتقابل فيها الشّخصيّات ويقع فيها الحوار، وكذلك خلال وصف تيار الشعور في اللحظة التي تعيشها الشّخصيّة، وفي مشاهد مخاطبة النفس للأشياء المتصورة [...] وصيغة الحاضر في الخطاب الروائي"³. يحدّد الباحث "زمن القص" استنادا على بعض الملفوظات السّرديّة من الرّواية⁴. وقد قاده ذلك، أيضا إلى استخلاص التطابق بين وحدات الحيز النّصي والوحدات الزّمنية، بعدما قسّم نصّ الرّواية إلى فصول، ووزع هذه الأخيرة إلى أقسام لتحديد البناء الزّمني التسلسلي للأحداث⁵. يجد الباحث في مواطن من الرّواية تكسير التسلسل الزّمني للأحداث إما باسترجاعها أو استشرفها من خلال خمسة أشكال هي⁶:

الماضي القريب بنوعيه الداخلي والقبلي.	} استرجاع
الماضي التاريخي المتعلق بتاريخ شخصيّات الرّواية.	
الماضي الأسطوري والخرافي المرتبط بزمن الأحداث الأسطورية لشخصيّات لسيرة بني هلال، وحكاية لونها الخرافية.	
المستقبل المتوقع الداخلي والخارجي المؤسس على منطق الأحداث الأساسية	} استشرف
في القصة.	
المستقبل المتوقع المؤسس على المنطق الأسطوري والتنبؤ الخرافي.	

¹ - عبد الحميد بورايو: منطق السّرد، ص: 137.

² - ن، ص: 150.

³ - ن، ص: 151.

⁴ - ن، ص: 151 - 155.

⁵ - عبد الحميد بورايو: منطق السّرد، ص: 155.

⁶ - ن، ص: 155 - 156.

يسعى الباحث في جانب الديمومة لإبراز علاقة امتداد الفترة الزمنية التي تشغلها الأحداث المقدرة بستة أيام بامتداد الحيز النصي¹ لرواية "نوار اللوز" الموزع على 220 صفحة. لقد اعتمد الباحث على الاحصاء في تحديد العلاقة بين الحيز الزمني للأحداث، والحيز النصي للفصول من حيث الإيجاز والتوسع؛ إذ أن الفصلين الأول والرابع قد تحققت فيهما تقنية التوسع، في حين تحققت تقنية الإيجاز في الفصلين الثاني والثالث². يعد التردد عاملا أساسيا تعتمد عليه الرواية في تطوير الأحداث، والاتجاه بها نحو العقدة، ثم الحل، ويقصد به "ظاهرة التكرار التي تمثل وجهها من أوجه الرواية، فهي تذكر الحدث حسب عدد المرات التي وقع فيه"، ويكون أحاديا ومساويا ومكررا³. لم يتوقف الباحث عند استعمالات الزمن في رواية "نوار اللوز"، بل تخطى ذلك إلى مرحلة تأويل هذا الاستخدام ومحاولة تفسيره⁴ معتمدا في ذلك على العناصر التي توارد حضورها في النص، وتتمثل في مظاهر الطقس والزمن التاريخي، والأسطوري وفكره الحياة والموت. يحاول الباحث إبراز القيمة الرمزية للزمن من خلال هذه العناصر:

العناصر	تجسد في	القيمة الرمزية
مظاهر الطقس	قساوة العلاقات الانسانية	الموت، الألم، الوحدة، القساوة
الزمن التاريخي والأسطوري	- مرجعية التفكير. - سيطرته على ذهنية البطل في الرواية.	تناقص - لا اندماج - صراع
فكرة الموت والحياة	- تجسدت فنيا في الجواد العربي. - قيمة الجواد في التراث العربي.	تحقق في قيمتين هما: إما الانتصار والحياة وإما الانهزام والموت.

¹ - ن، ص: 157.

² - ن، ص: 157 - 158.

³ - ن، ص: 158.

⁴ - ن، ص: 160.

تأتي محاولة "بورايو" من خلال هذا المسعى للكشف عن المعنى الثاوي في النصّ الروائي استنادا على العناصر المذكورة، والتي تتجلى في الانكسار والألم والموت، والوحدة والقساوة، والصراع. فالروائي يميلنا إلى شخصيات مقهورة ومهزومة بسبب التناقض، وعدم المصالحة مع التاريخ، وظهور الانتهازية، وخيبة آمالها بعد تبدّد أحلام الحرية في بلد مستقل رغم ما تبديه الرواية من تفاؤل من خلال تفتح براعم اللّوز في الربيع، فرمزية النوار المنفتح اشراقا مستقبلية توحى بغدّ أفضل.

3-2-ب- في الخطاب الشعري:

1- النموذج المختار: كتاب (أ-ي) للباحث عبد الملك مرتاض.

لم تحفل الدّراسات المغاريّة كثيرا بعنصري (الزّمان والمكان) في أثناء تحليلها للخطاب الشعري، كما احتفت بهما في الخطاب السّرديّ إلا ما جاء لماما، ويعد الباحث "عبد الملك مرتاض" من النماذج المتميزة التي احتفت بهما في مقارباته الشعرية، ولنا في هذا أمثلة كثيرة، منها تخصيصه فصلين لمعالجة الحيز والزّمن الشعريين في نص "أين ليلاي"¹. ومنها كذلك: تخصيصه فصلا (المستوى الثاني) للحيز والتحيز في لغة الشعر لدى الشباب². والدّارس ههنا، يستند على واحد من هذين المؤلفين كنموذج لإبراز الكيفية التي يتعامل بها الباحث المغاربيّ مع عنصري (الزّمان والمكان) في أثناء مقارباته.

- الحيز:

يؤثر الباحث استعمال مصطلح "الحيز" على باقي المصطلحات الأخرى (الفضاء، المكان...)، ويجده مناسبة للنص الشعري، فهو "قادر على أن يشعل كل ذلك بحيث يكون اتجاهها، وبعدها، ومجالا، وفضاء، وجوا، وفراغا، وامتلاء، وخطا، [...] إنّه يشمل كل حركة تحدث للشخصية الشعرية..."³. يشير مرتاض إلى أن نص "أين ليلاي؟" قائم على تحيز مفتوح

¹- ينظر: عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" ل محمد العبد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

²- ينظر: عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري - تحليل مستوياتي لقصيدة شنا شيل ابنه الجلي، دار الكتاب العربي، الجزائر، أفريل 2001.

³- عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 103.

ما يستدعي تصنيفه إلى أنواع متباينة، وهي: الحيز التائه، والحيز المانع، والحيز الكاذب، والحيز المتحرك، والحيز الحالم، والحيز القاصر عن الاحتواء. يتلمس الباحث "الحيز التائه" أو "الضائع" من حركية الشخصية الشعرية الباحثة عن ليلاها بلا جدوى، والمجسدة في آخر بيت من القصيدة:

لم يجبني سوى الصدى ** أين ليلاي أينها؟

وكذلك في مطلع القصيدة:

أين ليلاي أينها؟.

يجد الباحث أن الشخصية الشعرية تلفها الحيرة واليأس، لأنها لم تجد من يجيها. وعليه، فإن حيزها "قد يكون نفسيا وروحيا، غير مرئي ولا محسوس، أي أنه يشبه الحال الملازمة"¹ الضيق والضياء، وملاذها عالم "ليلي" الأسطوري، فبحثه عنها في البيتين الأول والآخر "يوهنا بأنه مفتوح"². لكنه في الحقيقة حيز مغلق فلا أمل في شخصية تخاطب نفسها بنفسها، ولا تجد ردا من ليلي الأسطورة، ليلي القيمة، والجمال والحرية... ويتجسد الحيز الحرام في نماذج من القصيدة، استحضرها الباحث

..... ** حيل بيني وبينها.

ما لليلي لم تصل ** مهجات فدينها.

..... ** لن ترى بعد عينها.

ينماز هذا الحيز بالاضطراب، و"لما كان أسطوريا فقد مرق عن الحقيقة، واتخذ له أشكالا طويلة وعرضية، وعميقة وسطحية، طولها غير محدود، وعرضها غير معروف، وعمقها بدون نهاية، وسطحها ممتد إلى مالا نهاية، فتضخم وتعظم"³. فركض الشخصية الشعرية في كل اتجاه، وبحثها عن ليلي الأسطورة كان بلا جدوى ولا أمل، من هذا أصبح هذا الحيز "محرم الوقوع، أي محرم العثور عليه، فالشخصية تظل تلهث وراءه دون أن يقع لها، فتستسلم ليتدارف الدموع"⁴. يحدد الباحث -على المنوال المنهجي نفسه- أحيانا أخرى، تجسدها الشخصية الشعرية مع ليلاها

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 106.

² - م ن، ص ن.

³ - ن، ص: 108.

⁴ - ن، ص: 110.

الأسطورية، من ذلك الحيّز المتحرك الذي يمتاز بالاضطراب وعدم الثبات، والحيّز القاصر عن الاحتواء والحيّز الحالم، وهو حيز وهمي. أصبح كذلك، لما عجزت الشّخصيّة الشعريّة عن إيجاد ليلى، واستحال الأمر عليها.

- الزّمن:

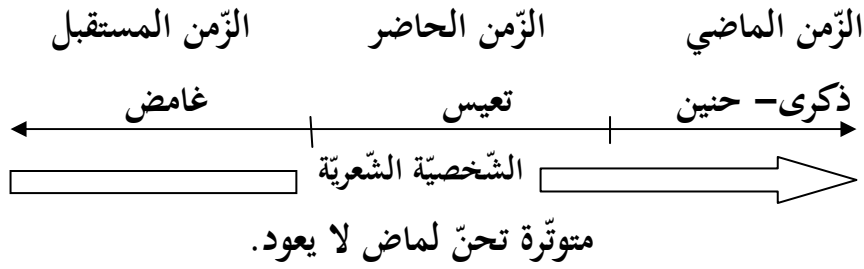
يسعى "عبد الملك مرتاض" في محاولة إجرائيّة تتبع انتظام الأزمنة في قصيدة (أين ليلاي؟)، وتأويل استعمالاتها وتفسيره، متجاوزا - كما في تحليله النّص السّرديّ "زقاق المدق" - الزّمن النحوي، والفلسفي، والرياضياتي إلى زمن أدبي متسلط وشفاف، و"مستنبط من حدوث العلاقة بين الحيّز والزّمن، أو علاقة الدلالة بالاستعمال، أو علاقة المدلول بالوعي الزّمني المتسلط، بالقوة والفعل، على أي نص إبداعي"¹، لقد قادته هذه القناعة إلى انتقاء خمسة نماذج من الزّمن التقليدي، والزّمن الحرام، والزّمن اليائس، والزّمن المريع، والزّمن الحالم.

استخلص الباحث في الزّمن التقليدي طغيان الزّمن الماضي داخل النّص الشعري المجسد في الأفعال الماضية الدالة على حدث زمني قد ولى وانقضى. وقد استعان في ذلك برصد الأفعال الماضية، والتي أحصاها بتسعة عشر فعلا من ضمنها أداتان دالتان على الزّمن الماضي، هما: مذ وكم الخبرية، أما الزّمن الحاضر، فلم يجد لهما في النّص سوى دالتين زمنيتين هما (اذرفي-إيه) أولهما كمعادل للزمن الحاضر، في حين وجد مقابلا زمنيا واحدا دالا على المستقبل (لن تري)².

استنادا على هذا الرصد والتصنيف والحساب، وقف الباحث على تأويل ذلك وتفسيره، فهو يرى في توافر الزّمن الماضي داخل النّص الشعري، حيننا لحدث كان واقعا ثم اندثر، ويتمثّل في "ليلى" الأرض (الجزائر). إنّه الموضوع، ولا يوجد إلا في الماضي، وهو الآن قابع في الذاكرة المسلوّبة. أما الحاضر الذي لم يتحقق في النّص إلا عبر دالتين زمنيتين مؤولتين فيعكس الوضع البائس للشعب الجزائري، مسلوب الحرية. هذا، ويأتي ذكر الزّمن والمستقبل مرة واحدة، ليرز لنا المستقبل الغامض. يشكل هذا المعطى للشخصية الشعريّة توترا يجد في الماضي ملاذا آمنا وهروبا من واقع مرّ وتعييس، ومستقبل غير واضح، ويمكن للدارس توضيح ذلك من خلال هذا الرسم:

¹ - عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص: 121.

² - نفسه، ص: 125.



يشكّل الزّمن الحرام - من منظور الباحث - الزّمن الممنوع للوقوع، ويستحضر لذلك قول الشاعر¹:

- 1- حيل بيني وبينها **
- 2- هل قضت دين من قضى ** في المحبين دينها؟
- 3- ما ليلي لم تصل ** مهجات فدينها.

استنادا على هذه النماذج، يجهل الباحث محرك هذا الزّمن، نظرا لحيء الفعل [حيل] في سياق المبني للمجهول، لكنه يؤول هذا المعطى الذي حال بين الشّخصيّة الشعريّة وموضوعها بـ"تلك القوة العاشمة التي تسلطت على الناص وشعبه فحرمته من الزّمن الرّحبيّ، والعيش الرّضيّ، أي حالت بينه وبين ليلاه الأسطورة الحقيقيّة، والحقيقة الأسطورة"². فالنّمودج الشعريّ الأوّل يتمثل بامتياز في الزّمن الحرام، لقيام الحيلولة بين التناص وليلاه، أما النّمودجين (الثاني والثالث) فإنّ زمن الحرام فيها قائم على التساؤل والحيرة والعجب³. إلى جانب هذا، يحدّد الباحث الزّمن اليائس بنمّودجين من القصيدة هما:

- إيه يا عينُ اذرفي ** لن تري بعد عينها
- لم يجبني سوى الصّدى **

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص.ص: 127-128.

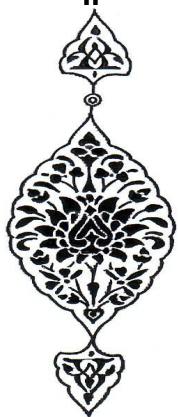
² - ن، ص: 128.

³ - ينظر: ن، ص.ص: 129-132.

لقد توصل بعد تأويلهما إلى معطى يفسر قتامة هذا الزّمن ويأسه، وتشاؤم الشّخصيّة الشعريّة من عدم ظهور ليلاها لا في زمن الحاضر، ولا في زمن آخر. فترجم هذا التشاؤم ببيكاء الناص على ليلاه الأسطورة¹. وبنفس الكيفية، استعرض الباحث الزّمن المربع والزّمن الحالم.

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض: (أ-ي)، ص.ص: 133-135.

الخاتمة





نتائج البحث:

لقد أفضت مساءلتنا لمدونة النقدية المغاربية إلى استخلاص جملة من النتائج العامة والخاصة، نستعرضها إجمالاً كما الآتي:

- تتسم الممارسة النقدية المغاربية - في بعدها العام - بالتنوع والتداخل المعرفي من خلال طبيعة تعاملها مع الموروث العربي، وكذلك من خلال طبيعة تعاملها مع المعرفة الغربية الحديثة، فخلفيات هذه الممارسة - كما هو واضح - محكومة بالمرجعية الغربية والعربية، وهي في ذلك لا تخرج عن ثلاثة اتجاهات، الأول منها تأصيلي، استلهم مرجعيته من الماضي العربي/التراث. والثاني تغريبي يستلهم مرجعيته من المناهج النقدية الحديثة الغربية. أما الثالث فتوفيقي، يحاول الاستفادة من المنظومتين المعرفيتين (التراثية/الحداثية) في الآن نفسه.

- يشهد الخطاب النقدي المغاربي - من خلال هذه الأصناف المتعايشة في كنفه - تطورات عميقة، طالت بنياته، وطرائقه في التحليل والمقاربة، ووظيفته، وموقعه من النسق الثقافي والرمزي الناظم للثقافة العربية.

- أفرزت تلك التطورات جملة من الإشكاليات، نتجت أساساً من حدة الثقافة، وتباين مواقف النقاد (محافظون/حداثيون)، حول واقع الخطاب النقدي المغاربي الحديث والمعاصر وتحوله الثقافي من حيث أنه يعيش أزمة، بسبب تبعيته للنقد الغربي، حتى غدا نقداً صورياً منساقاً مع طروحات النظريات النقدية في الغرب، أو من حيث أنه يشهد لحظات تطوّر متواصلة ومطرّدة.

- لقد ردمت هوة بعض الخلافات بين النقاد بفضل السّجال الثقافي والابستمولوجي الذي دار من حول النقد وقضاياها، والذي على إثره عولجت قضايا كثيرة لطالما ظلت عالقة. بعضها داخلي قائم بين الزمنين الماضي والحاضر، وبعضها الآخر خارجي بين الأنا والآخر.

- أصبح للممارسة النقدية المغاربية منطلقات منهجية مؤسّسة على معطيات نظرية واضحة، جعلت الناقد المغاربي يتمثّل - بثقة ووعي - أهمّ المناهج والنظريات الحديثة، ولو بدرجات متفاوتة من تعميم أو تجزئ أو انتقاء. وهو الأمر الذي مكّنهم من ولوج آفاق جديدة في عالم النقد، جعلهم ينظرون، ويترجمون ويحلّلون ويقارنون النصوص على اختلاف أجناسها وأنواعها من منظور



بنوي أو سيميائي، أو تفكيكي، أو تأويلي... هذه الجهود على تنوعها، وتشعبها تعكس الحالة الصحّية التي يتمتّع بها الخطاب النقدي المغاربي المعاصر.

- شكّل الخطاب النقدي المغاربي في بداياته امتدادا للخطاب النقدي العربي بالمشرق، وهو أمر طبيعي، لكن هذا الواقع تعيّر بفعل التحوّل الثقافي والمعرفي الذي شهدته المنطقة المغاربية، والحركة النقدية كجزء من هذا المشهد الثقافي العام، لم تعد ظلا لنظيرتها بالمشرق، بل نجدها تشقّ طريقها بنفسها منفتحة على المنجز النقدي الغربي، ومتجاوزة المحلّي لمواكبة الجديد والتّموقع على الخارطة النقدية العالمية. وهي رؤية لم يزغ عنها الخطاب النقدي المغاربي بل ظل -وإلى يومنا هذا- مرتبطا بالنسق المحلّي والعالمي آخذا في الحسبان التحوّلات والتأثيرات القائمة، والإشكال الذي يراود ذهن الدّارس فيما يتعلق بخصوصية هذا الخطاب.

- لم يشكّل التحوّل الذي شهده الخطاب النقدي المغاربي انسلاخا أو خروجا عن الإطار العام للمشهد النقدي العربي، بقدر ما هو سعي من أجل البحث عن الخصوصية، وإثبات الذات ووضع البصمة كنقد فاعل ومتفاعل -في الآن نفسه- مع الخطابات لتحقيق حوار هادف وواع مع النصّ والقارئ على سواء. نلمس ذلك فيما حقّقه هذا الخطاب عبر مسيرته من نتاج نقدي معتبر كما وكيفا.

- ارتبطت تحوّلات النقد الأدبي المغاربي من السّيق إلى النّسق بجملة من الأسباب المباشرة وغير المباشرة، نجملها فيما هو تاريخي وجغرافي وسياسي وفكري وأدبي. ولقد كان لهذه الأسباب تأثير واضح في بلورت ملامح النقد النّصّاني في المشهد الثقافي المغاربي، الذي تباين تشكّله زمنيا من منطقة مغاربية لأخرى.

- لقد أولى الدّرس النقدي المغاربي اهتماما كبيرا بقضايا التراث اللّغوي والبلاغي، وتكاد تكون مواقف النّقاد تجاهه متوافقة في الرؤية/الهدف، نلمس ذلك في رجوع غالبيتهم إلى التراث بقناعة حدائبة تتوسّل الحوار منهجا، تبغي من ورائه النّبش فيما أثاره من مسائل مطابقة لبعض ما جاءت به النظريّة السيميائية الحديثة. والتي منها العلامة، اللفظ والمعنى، المعنى ومعنى المعنى،

والشكل والمضمون وغيرها. وكلّ هذا يبرز مساعي الباحث المغربي في إرساء معالم مدرسة نقدية عربية، تركز على أصول وقواعد تراثية، تتواشج وتتعلق مع ما استحدثته النظريات الغربية.

- اعتمدت غالبية الدراسات النقدية المغربية المعاصرة في شرح النظرية السيميائية على التنظير، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض الممارسات الإجرائية على آثار أدبية سردية وشعرية، أمّا ما ينبغي أن نشير إليه، هو أن التنظير والتطبيق في الدراسات السيميائية المغربية يحضران قوّة وضعفاً، والتطبيقات في عمومها عبارة عن تمارين شكلية ومعادلات جبرية تغفل الجوانب المرجعية والمضمونية والأبعاد الإيديولوجية للأثر المدروس.

- تشكّل اللسانيات رافداً معرفياً أساساً في الخطاب النقدي المغربي، خاصّة تلك المبادئ التي أمدها للسيميائيّات في بناء صرحها، والتي وجد فيها الباحث المغربي فاعلية في مقارنة المسائل الدلالية. تتمثل هذه المبادئ، في: مبدأ المحايثة (*Principe Immanence*)، مبدأ الاختلاف (*Principe d'efférence*).

- لم يبق التأثير البروي محصوراً في دائرة الدرس النقدي الغربي، بل تخطى حدودها وامتدّ صدها إلى البحث النقدي العربي عموماً، ويمكننا تبين ذلك التأثير خاصّة لدى الباحثين المغاربة من زوايا متعدّدة نجلها في التلقي المباشر (التلمذة) أو غير المباشر (الترجمة)، بحيث شكّلت دروس التي قدّمها غريمانس، وبارت، وكريستيفا، وجنيت، ولفي شتراوس... للطلبة المغاربة القاعدة المتينة التي أرسى عليها الدرس النقدي المغربي المتخصّص قواعده.

- يحاول الباحث المغربي تقريب النظريات الحديثة من القارئ العربي، من خلال الممارسات التطبيقية وفي هذا تبسيط لأطروحات تلك النظريات والتي منها - كما أسلفنا الذكر - مبحث بروب الذي شكّل قاعدة رئيسية في التحليل البنيوي للفولكلور السردية.

- تحفل الدراسات المغربية كثيرة بالنموذج التحليلي البروي، لكن ما يلاحظ على تلك الدراسات، هو تفاوت أصحابها من حيث درجات إعمال الطرح البروي؛ إذ نلني فريقاً منهم يتعرّض للتراث السردية البروي بالتنظير والشرح التعليمي والممارسة التطبيقية، كما نجد فريقاً آخر من الباحثين قد تأثروا بأفكار أساتذتهم الذين نهلوا - بدورهم - من التراث البروي، فطوّروا نظريته

وأسسوا عليها منهجهم السيميائي وهذا بعدما وجدوا إمكانية نقل نموذج "بروب" من الأدب الشفوي إلى الأدب المكتوب سواء أكان ذلك رواية أو قصة أو حكاية. ومن هنا نلمس امتداد النموذج الوظيفي البروي إلى الباحثين المغاربيين من خلال أطروحات سيميائية غريماش في السرد.

- لقد تبوأ الخطاب النقدي المغاربي مكانة مرموقة في المشهد النقدي العربي، وأصبح يشغل ريادة البحث السيميائي المتخصص في العالم العربي من خلال الأبحاث المنجزة حول السيميائية السردية التي تراكت عبر مراحل متلاحقة من سيرورته التاريخية. والباحث المغاربي على وعي كبير بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في نقل هذه النظرية إلى الساحة الثقافية ومحاولة توطينها عربيا إن عبر ترجمة الكتب المتخصصة لبعض الأعلام الغربيين أو عبر ما تمّ إنجازه من الدراسات نظريا وإجراء. كلّ هذا أكسب البحث السيميائي أسبقية التعامل وأفضلية التمثيل، وجعل أعلامه أيقونات الدرس السيميائي العربي، يحتفي بهم القارئ الحصيف قبل العادي.

- تسعى التجارب البحثية المغاربية لبلورت تصوّر سيميائي عربي شامل، يمكن الباحث العربي من مقارنة أيّ نصّ مهما كان جنسه أو نمطه. إلا أنّ هذا قد لا يتحقق كفاية في الوقت الراهن لوجود عوائق تتصل أساسا بالمفاهيم والإنجازات؛ فإلى جانب أنّ السيميائية كعلم لا يزال في طور النزوغ، هناك عوائق أخرى تتعلق بتبني النظرية السيميائية واختبار أدواتها الإجرائية على الآثار الأدبية العربية المختلفة، والتي تعكس تفاوت الأعمال من باحث لآخر بسبب تباين درجات وعيهم بمعطيات النظرية. هذا الواقع، -والحال هذه- جعل منجزاتهم النقدية في حقل السيميائيات السردية مثلا لم تستطع بعد تحقيق ذلك التراكم التوعوي والكمّي الذي يسمح بطفرة متميزة.

- لقد كانت غاية من الاحتفاء بالطرح السيميائي هو محاولة التأسيس للنظرية السيميائية، والتأريخ لها وشرحها، وكذا التعريف بها من خلال الوقوف عند أصولها المعرفية والفلسفية، وتبيان تفاعلاتها، وإبراز تقاطعها وتداخلها مع حقول معرفية مختلفة ضمن منظومة فكرية وعلمية ومنهجية واسعة.

- إنّ التأسيس الصحيح للتفكير السيميائي في بعض الدراسات المغاربية المتخصصة المتسمة بولائها للمعطى السيميائي الخالص، قد تبلور مع أطروحات المدرسة الفرنسية من خلال أفكار

رائدها "غريماس" وتلامذته، وأطروحات المدرسة الأنجلوساكسونية من خلال أفكار "بورس" ومن بعده "ن. تشومسكي".

- يسعى الباحث المغربي إلى بناء مشروع سيميائي مغربي وعربي، يتأسس على خلفية ابستمولوجية متينة، تروم النبش في الخلفيات المعرفية والفلسفية الأولى لهذه النظرية، متجاوزا بذلك البسط النظري والتأريخي للسيميائيات المنقطع عن الأصول الفلسفية القديمة التي بلورت المعرفة السيميائية الحديثة. هذه الفكرة المنشودة تدعو للتعامل الواعي مع النظرية السيميائية الحديثة في علاقتها بالفلسفة، فمعرفة منطلقات هذه النظرية وكذا امتدادها يمكن الباحثين من تشكيل فكرة واضحة عن السيميائيات. تمكن الباحث المغربي من تحقيق هذا المسعى بعدما يّم وجهه شطر المدرسة الأنغلو ساكسونية.

- وجدت أطروحات المنطقي "ش.س. بورس" حضورا مكينا في المشهد النقدي المغربي، نظرا لتوافق بحوثه حول العلامة مع البحوث الدلالية العربية القديمة، والتي منها خاصة ثلاثية الموضوع (الإشارة والرمز والأيقونة)، ذلك لأنها أيسر فهما وأقدم وصولا وأكثر تكرارا في التنظير السيميائي العربي، التي تكوّن مع بعضها الفهم النهائي للأثر المدروس.

- يحاول الباحث المغربي في لحظات التأسيس جس نبض المنهج واختبار نجاعته في تحليل النصوص، وتحسس فاعليته من خلال تجريب بعض أدواته الإجرائية في مقارنة الأثر الأدبي. إلا أنّ غالبية الدراسات المغربية المنجزة لهذه اللحظة لم تشهد التطبيق الصّارم للمنهج السيميائي بحيث طغت عليها التلقينية والانتقائية. بسبب الأعمال غير الصّافي للمنهج. وهو صنيع، دعا الباحث إلى تبني رؤية منهجية مركبة ومنتقاة، تمكنه من سدّ متطلبات النصوص المدروس، على اعتبار أن آليات المنهج الواحد قاصرة عن الإحاطة الكاملة بالنصوص.

- اهتم الباحث المغربي كثيرا بالترجمة والتعريب، لما لهاتين الآليتين من دور فاعل في تأصيل النظرية السيميائية في المشهد النقدي العربي عموما من ناحية، وفي تضيق الهوية المعرفية بين الثقافتين العربية الغربية من ناحية ثانية من خلال ضبط المصطلحات والمفاهيم. فقد اتسمت معظم الدراسات



المغربية في لحظة بناء المنهج بالفاعلية في تأصيل المنهج السيميائي، من خلال ترجمة وتعريب بعض أبحاث النظرية السيميائية ومصطلحاتها المنجزة في الغرب.

- لقد استرعت إشكالية المصطلح النقدي اهتمام الباحث المغربي، وهو أمر قاده لكبح استفحاله في خطابنا النقدي والتقليل من غلوائها ضمنه، بالبحث عن وسيلة معالجة لهذه الظاهرة، وهي التأليف القاموسي والمعجمي، كي يتسنى للباحثين التهل من معين القاموس والمعجم فتتوحد المصطلحات - إلى حد ما بينهم -.

- تبوّأت السيميائية السردية في مرحلة التّجاوز؛ أي في لحظات البحث عن بناء تصوّر سيميائي شامل لتحليل النصوص موقعا مسموحا به في المشهد النقدي المغربي والسّاحة الثقافيّة العربيّة عموما، وفرضت نفسها كمنهج للتحليل يعوّل عليه في سبر أغوار النص. حدث هذا، بعدما استأنس الباحث المغربي بأدواتها الإجرائية والتحليلية، وتمرس أكثر على تطبيقها تطبيقا صافيا ما جعله يلمس فيها تلك الفاعلية والمرونة التي -ربما- افتقدتها في المناهج النقديّة الأخرى. حيث تمكّن وفق هذه القناعة المعرفية من ترويض المنهج السيميائي وتكييفه -دون أن يفقد صرامته- بما يتماشى وخصوصيات النص الأدبي العربي المدروس. هذا الانطباع الذي تركته أطروحات مدرسة باريس السيميائية في نفسية الباحث المغربي، ترجمته أبحاثه السيميائية المنجزة، والتي ما انفكت تبدي إخلاصها لطح غريماس وأتبعاه، فأفكار هذا السيميائي أضحت أكثر شيوعا واستعمالا في الدراسات المغربية، والتي وردت في شكل آليات كالمربّع السيميائي، ونظرية العوامل، والبرنامج السردية،

- يحفل النقد المغربي المعاصر في حقل السيميائيات السردية بدراسات نقدية كثيرة، تراكمت عبر مراحل متعاقبة، يسرت على القارئ العربي تناول هذا النتاج بالقراءة والتّمحيص والإحاطة بالنظرية السيميائية في مجال السرد تنظيرا وتطبيقا، والمتصفّح في منجز هذا الخطاب، يستطيع تصنيفه إلى صنفين: أحدهما تنظيري خالص، والآخر جامع بين النظري والتطبيقي.

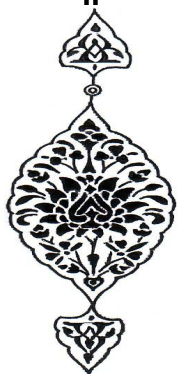
- نلمس في دراسات الباحثين احترافية المعالجة والتخصّص العميق في حقل السيميائية السردية، ولنا -في هذا المقام- أفلام نقدية مغربية باتت الآن تشكّل أيقونات الدرس السيميائي العربي بلا



منازع؛ إذ تمثل بحوثهم الرائدة علامات بارزة في المشهد النقدي العربي، فلا يخفى على أحد تلك الجهود التي بذلها هؤلاء سواء في التنظير أو في الترجمة أو في التطبيق.

- إنّ وعي الباحث المغاربي بضرورة التفكير السيميائي نظريًا وعمليًا، استدعى منه مراجعة النتاج النقدي المتراكم كمّا وكيفا بغية تصنيفه، وعدم إبقائه في حدود التمارين التعليمية. وهي دعوة لتجاوز ذلك إلى استيعاب كامل للمفاهيم، وغرلة الاتجاهات والمدارس النقدية؛ كي يجيب عن الإشكالات التي يثيرها النص الأدبي. على هذا الأساس، شكّلت البحوث السيميائية المنجزة -في مجملها- قيمة وحضورا في المشهد النقدي المغاربي والعربي عموما، حيث استطاعت أن ترقى بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية الهادفة إلى بناء استراتيجية بحثية حول السيميائيات.

مكتبة البحث





قائمة المصادر والمراجع:

① - الكتب العربية:

- أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، الجزائر، بيروت، المغرب، ط1، 1426 هـ - 2005م.
- أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، مقارنة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، والمركز الثقافي العربي، بيروت، 1426هـ-2005.
- أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، ومنشورات الضفاف، ودار الأمان، الجزائر، بيروت، الرباط، 2003.
- أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1968م.
- أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، (مبحث صوتي، مبحث تركيب، مبحث دلالي)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994م.
- أحمد محمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2001.
- أحمد شامية: خصائص اللغة العربية، والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- آراء عابد الجرمانى: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، دار الأمان، المغرب، منشورات الضفاف، بيروت، لبنان، ومنشورات الإختلاف، الجزائر، ط01، 1433هـ-2012م.
- أنور المرتجى: سيميائية النص الأدبي، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987.
- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006.
- بتول قاسم ناصر: محاضرات في النقد الأدبي، مركز الشهيدان الصدرين للدراسات والبحوث، العراق (د. ط)، (د. ت).



- بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1954.

- بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة -قراءة في التصور التحليلي-، منشورات الاختلاف (الجزائر)، الدار العربية ناشرون (بيروت)، ط1، 1431هـ، 2010م.

- بن جمعة بوشوشة: النقد الروائي في المغرب العربي (إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية)، ط01، النادي الأدبي في منطقة الباحة بالمملكة العربية السعودية والانتشار العربي، بيروت- لبنان، 2012.

- التحتاني، قطب الدين الرازي: لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار، نشرة الكردي، القاهرة، 1950.

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح. عبد السلام هارون، ج3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ-1965.

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق د. علي أبو ملح، المجلد1، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م.

- جميل حمداوي: مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط (المغرب)، ط1، 2010.

- جميل حمداوي: الاتجاهات السيموطيقية (التيارات والمدارس) في الثقافة العربية، مؤسسة المثقف العربي، ط1، 2015.

- جمال أمين: مطارحات نقدية، ضمن سلسلة دفاتر نقدية (3)، منشورات منتدى الأدب لمبدعي الجنوب (5)، ط01، الرباط، المغرب، 2007.

- جهاد فضل: حوار مع إدريس الناقوري ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، د.ت.

- جهاد فضل: حوار مع محمد برادة ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، د.ت.

- جهاد فضل: حوار مع عبد الملك مرتاض، ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، د.ت.

- جهاد فضل: حوار مع نجيب العوفي، ضمن كتاب (أسئلة النقد)، الدار العربية للكتاب، د.ت.



- الحبيب مونسي: القراءة والحداثة، (مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000.
- حمّادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره، إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
- حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية (الحضور والغياب)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.
- حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى السيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت، ط1، 1428هـ - 2007م.
- حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، بيروت لبنان، 2010.
- الرّاعب الحسين بن محمد الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح. محمد بن أحمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، (د.ت)، مادة (دل).
- ابن رشيق أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
- رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ - 2006م.
- رشيد بن مالك: السيميائية (الأصول - القواعد والتاريخ)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1428هـ - 2008م.
- رشيد بن مالك: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2000.
- رضوان إبراهيم: التعريف بالأدب التونسي، الاتحاد العام التونسي للشغل، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، رجب 1397 - جويلية 1977.
- ابن سينا أبو علي الحسن بن عبد الله: الشفاء (العبارة)، تحقيق محمد الخضير، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، 1970م.



- سعد بوفلاقة: في سيمياء الشعر العربي القديم - التحليل النصي لجزء من بائنة ابن خفاجة الأندلسي - ودراسات أخرى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، الجزائر، ربيع الأول، ط1، 01، 1425هـ - مايو 2004م.
- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص-السياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1989.
- سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، دار تينمل بمراكش (المغرب)، 1994.
- سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003.
- سعيد بنكراد: السيميائيات - مفاهيمها ومنطلقاتها -، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2003.
- سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، مدخل للسيميائيات ش.س. بورس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.
- شادية شقروش: سيمياء الخطاب الشعري في ديوان (مقام البوح) للشاعر عبد الله العشي، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط1، 1431هـ/2010م.
- شوقي ضيف: في الأدب والتقد، دار المعارف، القاهرة، 1999.
- شوقي ضيف: في النقد الأدبي، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة، 1966.
- شريط أحمد شريط: مباحث في الأدب الجزائري المعاصر (بحث حول النص النقدي الجزائري: من الانطباعية إلى التفكيكية)، طبع بمؤسسة الشروق للإعلام والنشر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين بدعم من الصندوق الوطني لترقية الآداب والفنون وتطويرها، الجزائر.
- شعيب حليفي: هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.
- الشريف الجرجاني: التعريفات، طبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، مصر، 1357هـ/1938م.
- الشاهد بوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين - قضايا ونماذج - مطبعة النجاح الجديدة، توزيع مطبعة القلم، ط1، الدار البيضاء، 1413هـ-1993م.



- الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية و الفكرية في تونس، النشرة الثالثة، الدار التونسية للنشر، تونس، أفريل 1983.
- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط3، 1987.
- صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1429 هـ- 2008م.
- الطائع الحداوي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب) بيروت (لبنان)، ط1، 2010.
- الطائع الحداوي: سيميائيات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006.
- ابن طبا طبا أبو الحسن محمد: عيار الشعر، تح. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، 1965.
- طارق النعمان: اللفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1994.
- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله: الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1963.
- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتاب الصناعتين، تح. علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1971.
- عادل فاخوري: علم الدلالة عند العرب، مقارنة مع السيميائي الحديثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985.
- عادل فاخوري: تيارات في السيمياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 1990.
- عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994.
- عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، تونس، 1985.



- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس- ليبيا، 1977.
- عبد العزيز بن عرفة: مقدمات وممارسات في النقد، دار الحوار للنشر والتوزيع باللاذقية، سورية، ط1، 1993.
- عبد الله، إبراهيم و(الغانمي سعيد، علي عواد): معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990.
- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح. محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط2، 1407هـ-1987.
- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982.
- عبد المجيد العابد: مباحث السيميائيات، دار القرويين، المغرب، ط1، 2008.
- عبد الحق بلعابد: عتبات (جيران جنيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت (لبنان)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1429هـ/2008.
- عبد الحق بلعابد: دينامية النص (بين عتبات التنظير وعلامات الإنجاز)، ضمن كتاب محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح - السيميائيات، التداوليات-، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 1430هـ، 2009م.
- عبد الفتاح الجمري: عتبات النص- البنية والدلالة-، منشورات الرابطة، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1996.
- عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب - من أجل تصور شامل-، دار المن، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط (المغرب)، الجزائر، لبنان، ط1، 1431هـ-2010م.
- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد- عالم المعرفة (240)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1998.
- عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري - تحليل مستوياتي لقصيدة شناسيل ابنة الجلبي-، دار الكتاب العربي، الجزائر، أفريل 2001.

- عبد الملك مرتاض: في نظرية التّقد، متابعة لأهم المدارس التّقديّة المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2002.
- عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية)، دار الحدّثة، لبنان، بيروت، ط1، 1986.
- عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة، (تأسيس للنّظرية العامّة للقراءة)، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2003 .
- عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2003 .
- عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2007.
- عبد الملك مرتاض: أ/ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، د.م.ج، الجزائر 1992.
- عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة (تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية)، دار المنتخب العربي للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط01، 1994.
- عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردّي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
- عبد الملك مرتاض: النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ د.م.ج، الجزائر، 1983.
- عبد الملك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- عبد القادر فيدوح: دلالية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.
- عبد القادر فيدوح: الرّؤيا والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، 1994.
- عبد القادر فيدوح: شعرية القصّ، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، 1996.
- عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية المعاصرة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.



- عبد الحميد بورايو: الكشف عن المعنى في النص السردي، النظرية السيميائية السردية، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2008.
- عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات الدار الجزائرية، الجزائر، ط1، 2015.
- عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتفكير، من البنيوية إلى التشريرية (*déconstruction*)، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1405هـ - 1985م.
- عبد العزيز حمودة: المرايا المقعّرة (نحو نظرية نقدية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ع272، أغسطس 2001.
- عبد العزيز حمودة: المرايا المحدّبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نيسان 1998.
- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدّمة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967.
- عبد الجليل منقور: علم الدلالة وأصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.
- عبد اللطيف محفوظ: آليات إنتاج النص الروائي - نحو تصور سيميائي -، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 1429هـ - 2008.
- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988.
- عصام كامل خلف: الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003.
- عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- عمار زغموش: النقد الأدبي المعاصر في الجزائر - قضاياها واتجاهاتها -، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة (الجزائر)، 2000-2001.
- علي حرب: نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط2، 1995.



- علي زوين: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1986.
- فاضل تامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1994.
- فراحي بوبكري: الترجمة، التعريب والمصطلح، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004.
- فريد الزاهي: الحكاية والمتخيل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1991.
- فيصل الأحمر: الدليل السيميولوجي، دار الأملية للنشر والتوزيع، قسنطينة- الجزائر، 2011.
- ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تصحيح وتعليق مصطفى أفندي السقا، المكتبة التجارية الكبرى (مطبعة المعاهد)، مصر، ط01، 1350هـ/1933م.
- قدامة بن جعفر أبو الفرج: نقد الشعر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد منعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ت).
- قادة عقاق: في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، سيدي بلعباس، مكتبة الرشاد للطبع والتوزيع، الجزائر، 1425هـ-2004م.
- لطفي فكري محمد الجودي: نقد خطاب الحداثة في مرجعيات التنظير العربي للنقد الحديث (قراءة في تجربة الدكتور عبد العزيز حمودة: "المرايا المحدّبة - المرايا المقعرة - الخروج من التيه" نموذجاً)، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط01، 1432هـ-2011م.
- مبارك حنون: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987.
- مبارك حنون: في السيمياء العربية (قراءة في نصوص قديمة)، منشورات سليكي إخوان، طنجة، ط1، 2001.
- محمد الحليوي: في الأدب التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969.
- محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردى "نظرية قريماس" (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.



- محمد الناصر العجمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد النقد الغربية، دار محمد علي الحامي بصفافس، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، الجمهورية التونسية، ط01، ديسمبر 1998.
- محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- محمد مصايف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية، الجزائر، 1979.
- محمد الصادق عفيفي: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي (مدارسه - طرائقه - قضاياها)، مكتبة الرشاد، دار الفكر، د.م، ط02، 1971.
- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، يوليو 1992.
- محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، الدار البيضاء، طبعة 1409هـ-1989.
- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها (1) - التقليدية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء (المغرب)، ط2، 2001.
- محمد التهامي العماري: حقول سيميائية - السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي -، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، (فاس) المغرب، 2007.
- محمد عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1999.
- محمد البشير بويجزة: بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1986)، ج1، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2001-2002.
- محمد ساري: في معرفة النص الروائي - تحديدات نظرية وتطبيقات -، منشورات دار أسامة، الجزائر، ط01، 2009.
- محمد فليح جبوري: الاتجاه السيميائي في نقد السرد العربي الحديث، منشورات الاختلاف، منشورات الضفاف، دار الأمان، الرباط، الجزائر، ط1، 1434هـ-2013 م.



- محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.
- محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
- محمد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة)، موسوعة الدراسات القرآنية (9)، دار المؤرخ العربي، بيروت-لبنان، (دت).
- مصطفى ناصف: النقد العربي، نحو نظرية ثانية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2000.
- مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي - دراسة وصفية نقدية احصائية - في نموذجي عبد الملك مرتاض ومحمد مفتاح، د.م.ج، الجزائر، 2005.
- مولاي علي بوخاتم: مصطلحات النقد العربي السيماءوي (الإشكالية والأصول والامتداد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
- مولاي علي بوخاتم: المصطلح والمصطلحية، الجهود والطرائقية، (دراسة وصفية لراهن المصطلحية وآليات صياغة المصطلحات العربية) منشورات مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1425هـ/2004.
- نادية بوشغرة: مباحث في السيميائية السردية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو-الجزائر، 2008.
- نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 1999م.
- نصر حامد أبو زيد: السلطة، النص، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2000.
- نور الدين السّند: الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للنشر، الجزائر، ج2، 1997.
- يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر، من اللانسونية إلى الألسنية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بوحدة الرغاية، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، 2002.
- يوسف وغليسي: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض - بحث في المنهج وإشكاليته -، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 2002.

- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1428هـ-2007.
- وغليسي يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1429هـ-2008م.
- يوسف وغليسي: محاضرات في النقد المعاصر، منشورات جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2004-2005.
- يوسف وغليسي: في ظلال النصوص- تأملات نقدية في كتابات جزائرية- سيميائية الأوراس القصيدة العربية المعاصرة (عز الدين ميهوبي أنموذجا)، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1430هـ-2009م.

② – الرسائل الجامعية:

أ/ رسائل الدكتوراه:

- أحمد حساني: العلامة في التراث، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 1999م.
- بن علي خلف الله: النقد الجزائري من السياق إلى النسق-دراسة وتقويم-، أطروحة دكتوراه علوم في النقد العربي الحديث والمعاصر (مخطوط)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيلالي ليايس، 1433/1432هـ-2012/2011.
- رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية والتطبيق (رواية نوار اللوز ل: "واسيني الأعرج" نموذجا)، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، جامعة تلمسان، 1995م.
- عايدة حوشي: نظام التواصل السيميوساني في كتاب الحيوان للجاحظ -حسب نظرية بورس- أطروحة دكتوراه علوم، مقدمة بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف، الجزائر، 2009/2008.
- قادة عقاق: السيميائية السردية وتجلياتها في النقد المغربي المعاصر، (نظرية غريماس نموذجا)، أطروحة دكتوراه دولة (مخطوط)، جامعة سيدي بلعباس، 2004/2003.



- هامل بن عيسى: إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي - دراسة في نقد النقد-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (مخطوط)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 2013/2012.

ب/ رسائل الماجستير:

- بن علي خلف الله: النقد السيميائي في الجزائر - اتجاهاته وأصوله - رسالة ماجستير (مخطوط)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2008/2007.

- سعيدة عمروش: سيميائية العنونة في ديوان "أوجاع صفصافة في مواسم الإعصار" ليوسف وغليسي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير (مخطوط)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة سطيف2، الجزائر، 2013/2012.

- عبد السلام مرسلي: تجليات التراث في الخطاب السيميائي عند عبد الملك مرتاض، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي د.مولاي الطاهر، سعيدة، 2007/2006.

- كمال جدي: المصطلحات السيميائية السردية في الخطاب النقدي عند رشيد بن مالك، رسالة ماجستير (مخطوط)، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2012 / 2011.

- هيام عبدالكريم عبد المجيد علي: دور السيميائية اللغوية في تأويل النصوص الشعرية - شعر البردوني نموذجاً - رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها (مخطوط) مقدمة بكلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، أيار 2001.

- هامل بن عيسى: واقع الخطاب السيميائي في النقد الأدبي الجزائري - دراسة في نقد النقد-، رسالة ماجستير (مخطوط)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 2005.

- هواري بلقندوز: إشكالية المصطلح النقدي، رسالة ماجستير (مخطوط)، قسم الترجمة، جامعة وهران، 2002م.



③ - المجالات والدوريات:

- أحمد مطلوب: إشكالية مصطلح النقد الأدبي المعاصر، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 45، الجزء 02، العدد 52-53، العراق، 1998.
- أحمد حساني: العلامة في التراث، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، الجزائر، ع2، يونيو 1993م.
- أحمد طاهر حسين: حول روافد النقد الأدبي عند العرب (نظرة تحليل وتأسيس) مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985.
- أحمد الفوحي: سيمياء الأهواء - نموذج الترجمة العالمية، علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 41، مكناس، المغرب، 2014.
- بديعة الطاهري: ملاحظات حول التجربة النقدية بالمغرب، مجلة علامات، ع17، مكناس (المغرب)، 2002.
- بشير محمودي: التحليل السيميائي للخطاب الشعري لقراءة قصيدة "الحنن" لصلاح عبدالصبور، مجلة الموقف الأدبي، ع404، السنة الرابعة، كانون الأول، 2004، دمشق، سوريا.
- بوجمعة بوبعويو: المنهج السيميائي بين التهذيب و التوليد، مجلة الموقف الأدبي، العدد 371، السنة الواحد والثلاثون، سوريا، آذار 2002، ذي الحجة 1422.
- جميل حمداوي: سيميائية العنوان - عتبة النص الموازي-، مجلة أيقونات (مجموعة "سيما" للبحوث السيميائية)، ع3، سيدي بلعباس، الجزائر، ماي 2012.
- حنفي بن عيسى: نحو رؤية علمية للغة - دراسة في المفهوم والمصطلح- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع5، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر، أبريل 2006.
- خالد الغريبي: منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس من خلال بعض أعماله، مجلة علامات، ع30، مكناس-المغرب، 2008.
- خليل الموسى: السيميولوجيا: النشأة والتحول، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، العدد 456، السنة الثانية والثلاثون، دمشق (سوريا)، نيسان 2009.
- رشيد بن مالك: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتبة "سميحة خريس"، مجلة علامات في النقد، العدد 26، المغرب، 2006.



- سعيد بنكراد: سيميائيات بورس، مجلة علامات، ع1، مكناس-المغرب، ربيع 1994.
- سعيد بنكراد: المؤول والعلامة والتأويل بصدد بورس، مجلة علامات، ع9، 1998.
- سعيد بنكراد: السيرورة السيميائية والمقولات، قراءة في فلسفة بورس السيميائية، مجلة مدارات فلسفية، ع7، الجمعية المغربية للفلسفة، المغرب، 2002.
- سعيد بنكراد: السيميائيات (النشأة والمفهوم) عالم الفكر، ع3، المجلد35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، يناير-مارس 2007.
- الطاهر رواينية: قراءة في التحليل السردى للخطاب، مجلة التواصل، جامعة عنابة، عدد4، الجزائر، جوان1999.
- عامر الحلواني: سيميائية الأرض والهوية في قصيدة "حصار" لفوزية العلوي، مجلة علامات، العدد29، المغرب، 2008.
- عبد المجيد العابد: سيميائيات الخطاب الروائي: "اللص والكلاب" و"ذات"... رؤية جديدة، كتاب الرافد، ع59، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ديسمبر 2013.
- عبد القادر الشاوي: ضمن ملف ندوة: قضايا النقد الأدبي بالمغرب، مجلة "فكر ونقد" السنة الأولى، ع06، المغرب، فبراير1998.
- عبد العالي بشير: حكاية جني الهيدور (البناء- الوظائف- الدلالة)، مجلة بحوث سيميائية، ع01، دار العرب للنشر والتوزيع، جامعة تلمسان، سبتمبر 2002.
- عبد الواحد لؤلؤة: أزمة المصطلح النقدي، مجلة علامات، 1994م.
- عبد الملك مرتاض: بين السمة والسيميائية، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، الجزائر، ع2، يونيو 1993.
- علي خذري: تحديث النقد الجزائري: مجلة حوليات الآداب واللغات، العدد الثاني خاص بفعاليات أعمال الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري المنظم بكلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، يومي: 21-22 ماي 2006.
- عصام واصل: الخصائص السيميائية لجملي البدء والاختتام في "القصيدة الثالثة" من كتاب "الأم"، مجلة علامات، العدد39، المغرب، 2013.



- فاضل ثامر: إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب العربي الحديث ، مجلة نزوى- مجلة فصلية ثقافية-، ع6، سلطنة عمان، أبريل 1996.
- قادة عقاق: الأصول العلمية للنظرية السيميائية (مدخل نظري)، مجلة الموقف الأدبي، 465، اتحاد الكتاب العرب، السنة 38، سورية، 2009.
- قادة عقاق: الأصول العلمية للنظرية السيميائية -مدخل نظري-، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية، ع1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- قوتال فضيلة: العلامة والسيرورة الدلالية، مجلة مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، ع1، جامعة وهران، خريف 2005.
- لويس باني: القراءة السيميائية والمشروع اللاهوتي -وقائع وتساؤلات-، تر: نزار التحديني، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية (دراسات سال)، العدد 05، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، فاس (المغرب)، خريف- شتاء 1991.
- محمد أقضاض: النقد الروائي ما بعد البنيوي مجلة علامات، ع6، مكناس/المغرب، 1996.
- محسن أعمار: مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب، محاولة تركيبية، علامات مجلة ثقافية محكمة، العدد 20، مكناس، المغرب، 2003.
- محمد الناصر العجيمي: موقع السيميائيات من مناهج البحث الغربي الحديث، مقال منشور ضمن مجلة سيميائيات، العدد 02، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، خريف 2006.
- مصطفى غربي: حدّ العلامة اللسانية بين التراث والحداثة، مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية، ع1، سيدي بلعباس، الجزائر، 1426هـ - 2005.

④ - المؤتمرات والندوات:

- أحمد الياهوري: النقد الأدبي في المغرب (مرحلة التأسيس 1920-1940)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يبرابر 2001.



- أحمد المديني: من النص إلى النقد.. ذهابا وإيابا (حول إشكالية نشأة أدبية)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يبرابر 2001.

- أعمال الملتقى الأول والثاني والثالث حول السرديات، بالمركز الجامعي بشار، الجزائر. والتي تمحورت حول: الكتابة السردية في الخطاب السردى، أيام 11-12-13 أكتوبر 2003. / وأسئلة الهوية في الخطاب السردى، 2005. / والقراءة وفاعلية الاختلاف في النص السردى، يومي 3-4 نوفمبر 2007.

- حميد لحمداني: النقد الأدبي في المغرب (رؤية تحليلية)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يبرابر 2001.

- شادية شقروش: سيمياء العنوان في ديوان (مقام البوح) للشاعر: د. عبد الله العشي، ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول (السيمياء والنص الأدبي)، المنشورات الجامعية، بسكرة، الجزائر، الأيام 7-8 نوفمبر 2000.

- شريط أحمد شريط: النص النقدي الجزائري من الانطباعية إلى التفكيكية، أعمال الملتقى الوطني (الأدب الجزائري في ميزان النقد)، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة عنابة، ط1، 1994، ص.ص: 8-22.

- الطيب بودربالة: قراءة في كتاب (سيمياء العنوان) للدكتور بسام قطوس، ضمن أعمال الملتقى الوطني الثاني (السيمياء والنص الأدبي)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 15-16 أبريل 2002.

- عبد الحميد بورايو: تحليل خطاب الحكاية الشعبية -مقاربة منهجية-، تحليل نموذج لحكاية "الطامة أم سبع روس"، ضمن أعمال الملتقى "السيمائية والنص الأدبي"، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار -عنابة-، أيام 15-17 ماي 1995، الجزائر.

- عبد الحميد عقار: تطور النقد الأدبي الحديث بالمغرب (بحثا عن الاتساق النظري والإنتاجية المعرفية)، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يبرابر 2001.

– **قادة عقاق:** إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي في النقد العربي المعاصر، أعمال الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، يومي 09 و10 مارس 2011، ورقة.

– **محمد الدغمومي:** نقد القصة القصيرة والرواية بالمغرب، ضمن أعمال ندوة (تحولات النقد الأدبي المعاصر بالمغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ووزارة الثقافة، المغرب، يومي 27 و28 يبرابر 2001.

– **نظيرة كنزة:** سيمياء الشخصية في قصص السعيد بوطاجين "الوسواس الخناس أنموذجاً"، محاضرات الملتقى الوطني الثاني (السيمياء والنص الأدبي)، منشورات جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 16/15 أفريل 2002.

– **يوسف وغليسي:** سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة، ضمن محاضرات الملتقى الخامس "السيمياء والنص الأدبي"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر ببسكرة، الجزائر، أيام (15-17) نوفمبر 2008.

⑤ – المقالات المخطوطة:

– **قادة عقاق:** مدخل إلى إشكالية ترجمة المصطلح في الخطاب النقدي المغاربي المعاصر، مقال مخطوط، قدّمه الباحث لطلبة الماجستير، بالمركز الجامعي د.مولاي الطاهر، السنة الأولى (نظري)، 2007/2006.

⑥ – الكتب المترجمة:

– **أمبرتو، إيكو:** العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، وراجع النص: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1428 هـ – 2007 م.

– **ألجيرداس.ج.غريماس، وجاك فونتاني:** سيميائية الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ط1، 2010.

– **جونثان كلر:** فردينان دي سوسير، أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأدبية، القاهرة، ط1، 2000.



- جيار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمان بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2000.
- ج. دوليدال-ج.رطوري: التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، تر: عبد الرحمن بوعلي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- روبرت شولز: السيمياء والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994.
- ستروك جون: البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.
- ش. س. بورس: تصنيف العلامات، تر: فريال جبوري غزول ضمن كتاب: أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيموطيقا، إشراف سبيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، ج1، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986.
- الشكلاونيون الروس: نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس، تر: ابراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، والشركة المغربية للناشرين المتحدنين، الرباط-المغرب، 1982.
- كوبلي بول، وليساجانز: علم العلامات، تر: جمال الجزيري، مر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، ع549، القاهرة، ط1، 2005.
- فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، 1990.
- مارسيليو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد الحمداني وآخرون (محمد العمري، عبد الرحمن طنكول، محمد الولي، مبارك حنون)، أفريقيا الشرق، سلسلة البحث السيميائي، الدار البيضاء، المغرب، 1987.
- ميشال أريفييه وآخرون: السيميائية، أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم: د. عز الدين مناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002.



⑦ - الكتب الأجنبية:

- Sématique structural*, P. U. F, Paris, 1986.: **A.J Greimas** -
- **C. S. Peirce** : *Ecrit sur le signe*, tr G. Deledalle, éd, seuil, Paris,
1978.
- **Ferdinand De Saussure**: *Cours de Linguistique Générale*, 2eme éd,
ENAG /Edition, Alger, 1994.

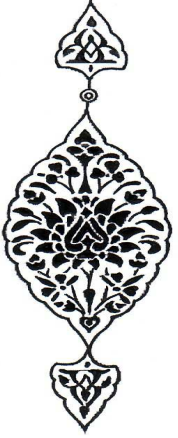
⑧ - المعاجم والقواميس:

- أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (دلّ)، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار
الفكر، بيروت، (د.ت).
- رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي - انجليزي - فرنسي)،
دار الحكمة، الجزائر، فيفري 2000.
- فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف،
لبنان، الجزائر، ط01، 1431هـ - 2010م.

⑨ - مواقع الأنترنت:

- أحمد يوسف: ينظر في الرتب العلمية والنشاط العلمي من سيرته الذاتية المختصرة.
www.squ.edu.com
- شعيب حليفي: الخطاب النقدي المغربي (الهوية والأفق)، مجلة الكلمة، ع01، يناير 2007،
الموقع الإلكتروني: <http://www.alkalimah.net/oldreleases.aspx>
- فوزية العلوي: السيرة الذاتية للشاعرة والناقدة على الموقع الإلكتروني، ديوان العرب (منبر حرّ
للثقافة والفكر والأدب)، الاثنين 15 شباط (فبراير)، 2012.
www.diwanalarab.com/s.pip.php?page=auteur&id_auteur=1621
- فيليب هاون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار، (طبعة مزيدة
منقحة)، الرباط. على الموقع الإلكتروني لسعيد بنكراد:
www.saidbengrad.net/pdf/hamon.pdf

ملف





الملخص باللغة العربية:

تندرج هذه الدراسة في حقل نقد النّقد. يحاول الدّارس -من خلالها- إبراز حقيقة الممارسة السّيميائية، وواقعها في المشهد النّقدي المغاربي؛ وذلك برصد أهمّ تحولاته ضمن سيرورة تاريخيّة حافلة بمنجزات أعلامه؛ اللذين حاولوا تقريب هذه النّظرية من القارئ العربي شرحا وتعلّيما، وترجمة، وتنظيرا ومراسا... كلّ هذا، حتّى الدّارس أن يتّبع خطّة بحث مؤطّرة منهجيّا، ومقسّمة إلى مقدّمة ومدخل وبابين وخاتمة. حيث تتّبع في المدخل مسارات هذا الخطاب وتحوّلاته من السّياق إلى التّسق. وفي البابين، بحث في الخلفيّة الابستيمولوجية والعلميّة للخطاب السّيميائي في النّقد المغاربي، وحاول-بالإضافة إلى ذلك- التّعرف على إستراتيجية الباحثين في تلقّي النّظرية السّيميائية، هذا من ناحية. كما قام بتجريب أدواتها الإجرائيّة على النّصوص الأدبيّة وغير الأدبيّة في المشهد النّقدي المغاربي من ناحية أخرى. أمّا الخاتمة، فرصد فيها أهمّ النّتائج التي أفضى إليها البحث، والتي ستكون في المستقبل -حسب تقدير الدّارس- فاتحة لدراسات جديدة.

الملخص باللغة الفرنسية:

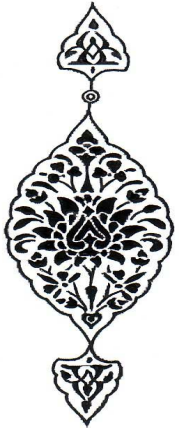
Cette étude est classée dans le cadre méta critique. A travers cette étude, l'étudiant essaye de montrer la vérité de l'acte sémiotique et sa réalité au scène de la critique maghrébine et de citer ses essentiels transformations dans une continuité historique marquées par ses célèbres savons, qui ont essayés de rapprocher l'explication, l'apprentissage, la traduction, l'exercice et la théorisation de cette théorie...etc; tout ça, oblige l'étudiant de suivre une méthode de recherche méthodiquement encadrés et composée en une introduction, une entrée, deux chapitres est une conclusion.

Pour cela, il a suivi dans l'entrée les parcours de ce discours et ses transformations du conteste au système et dans les deux chapitres, une étude dans le rétro épistémologique et scientifique du discours sémiologique de la critique maghrébine et a essayé en plus de ça de connaître d'une part la stratégie des chercheurs de recevoir la théorie



sémiologique et d'autre par ses outils envers les textes littéraires dans la scène du critique maghrébine. Et dans la conclusion il a montré les résultats essentiels qui résulte cette étude et qui seront d'après l'étudiant une ouverture pour des nouvelles études, au futur.

فهرس البحث





* إهداء.

* تشكر .

* مقممة..... أ-م

المدخل: مسارات النقد الأدبي المغربي وتحولاته (من السياق إلى النسق)

- 1-1- رهن الخطاب النقدي العربي (هاجس التأسيس والمغايرة)..... 4-2
- 2-2- الخطاب النقدي المغربي: المسارات والتحويلات..... 40-4
- 1-2-1- النقد الأدبي الحديث والمعاصر في تونس..... 24-4
- 1-2-1- أ- الحركة الفكرية والأدبية في تونس..... 12-6
- 1-2-1- ب- تاريخ النقد الأدبي بتونس: من مهادات التأسيس إلى تجربة التحديث.....
- توطئة:..... 13
- أ- مهادات تأسيس الحركة النقدية التونسية..... 16-13
- أ-1- المنعطف الأول (1910-1930)..... 14-13
- ب-2- المنعطف الثاني (1930-1950)..... 16-15
- ب- تجربة التحديث في الحركة النقدية التونسية..... 24-16
- ب-1- المنعطف الأول: (1950-1960)..... 17-16
- ب-2- المنعطف الثاني: (1965- إلى يومنا هذا)..... 24-17
- خلاصة..... 24
- 2-2-2- الخطاب النقدي المغربي من التشكل والتأسيس إلى التأصيل والتجديد..... 35-24
- 2-2-2- أ- تاريخية الحركة النقدية بالمغرب ومرجعياتها..... 33-25
- 1- مرحلة التأسيس والتشكل..... 28-25
- 2- مرحلة التأصيل والتجديد..... 32-28
- 2- أ- المحطة الأولى (تأصيلية)..... 32-28
- 2- ب- المحطة الثانية (تجديدية)..... 34-32
- خلاصة..... 35
- 2-3- الخطاب النقدي الجزائري: التأسيس والسيرورة..... 44-35
- تمهيد..... 36-35



- 41-37 نشأة النقد الأدبي الجزائري. 2-3-أ-
 44-41 انفتاح النقد الجزائري على المناهج النصائية. 2-3-ب-
 44 خلاصة.

الباب الأول: الخلفية الاستمولوجية والعلمية للخطاب السيميائي المغربي

الفصل الأول: المرجعية التراثية للخطاب السيميائي المغربي

- 59-48 المبحث الأول: العلامة في الفكر العربي (قديمًا وحديثًا).
 79-61 المبحث الثاني: العلامة في الدرس السيميائي المغربي.
 66-61 1- تأصيل العلامة في الدرس السيميائي المغربي.
 68-66 - النموذج الأول: العلامة (السمة) في النص الشعري.
 71-68 - النموذج الثاني: العلامة (السمة) في النص السردي.
 2 - مكانة "العلامة" ونوعيتها في الدرس السيميائي المعاصر.
 78-71 -الباحث "قادة عقاق" في قراءته للمنجز التراثي "مثالا"-
 79-78 خلاصة.
 97-81 المبحث الثالث: اللفظ والمعنى في الفكر العربي.
 83-81 توطئة.
 97-83 1- الاتجاهات النقدية لشئانية اللفظ والمعنى (قديمًا وحديثًا).
 87-83 - الاتجاه الأول
 91-87 - الاتجاه الثاني
 97-91 - الاتجاه الثالث
 97 - خلاصة.
 107-99 المبحث الرابع: اللفظ والمعنى في الخطاب السيميائي المغربي.
 99 - قراءة في كتاب (السيميائيات العربية) للباحث "قادة عقاق"
 105-99 1- قراءة وصفية تشريحية.
 107-105 2- قراءة نقدية تقويمية.

الفصل الثاني: المرجعية الغربية للخطاب السيميائي المغربي

- 114-109 مدخل: التفكير السيميائي "من الرؤية الفلسفية إلى الرؤية النقدية".
 121-116 المبحث الأول: المعطى اللساني في الخطاب السيميائي المغربي.



123-121	Principe Immanence مبدأ المحايثة
125-123	Principe déférence مبدأ الاختلاف
144-127	المبحث الثاني: المعطى الشكلائي في الخطاب السيمائي المغربي
137-132	تأثر الباحث المغربي بالنموذج الوظيفي البروبي
137-134	النموذج الأول
138-137	خلاصة
142-138	النموذج الثاني
144-142	خلاصة
174-146	المبحث الثالث: المعطى الفرنسي في الخطاب السيمائي المغربي
153-149	تأثر الباحث المغربي بسيمائية غريماس السردية
153-152	1- التنظير السيمائي للسرد في الخطاب النقدي المغربي
174-154	2- التطبيق السيمائي للسرد في الخطاب النقدي المغربي
166-154	2-أ- مقارنة الحكاية الشعبية
166-155	نموذج
175-167	2-ب- مقارنة الخطاب الصوفي
174-167	نموذج
211-177	المبحث الرابع: المعطى الأنغلو ساكسوني في الخطاب السيمائي المغربي
184-179	مفهوم العلامة في الفكر لبورسي:
186-184	أقسام العلامة في علاقتها بموضوعها
197-186	سيمائيات "بورس" وتجلياتها في الخطاب النقدي المغربي
197-186	1- سيمائيات "بورس" وتجلياتها في تنظيرات النقد الأدبي المغربي
192-188	1-أ- سعيد بنكراد "السيمائيات والتأويل -مدخل لسيمائيات ش.س. بورس- 2006"
193-192	خلاصة تقويمية للكتاب
196-194	1-ب-1- جهود الباحث "أحمد يوسف" في حقل السيمائيات
200-196	1-ب-2- أحمد يوسف: "السيمائيات الواصفة -المنطق السيمائي وجبر العلامات" (1426هـ / 2005م)
203-200	خلاصة تقويمية للكتاب
211-203	2- سيمائيات "بورس" وتجلياتها في المقاربات النقدية المغربية
210-204	2-أ- قراءة في كتاب "مباحث في السيمائيات" لـ "عبد المجيد العابد"



211-210 خلاصة تقويمية للكتاب

الباب الثاني: النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغربي "التلقي والإعمال"

الفصل الأول: تلقي النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغربي

217-214 مدخل: مراحل تلقي النظرية السيميائية في الخطاب النقدي المغربي

236-219 المبحث الأول: مرحلة التأسيس: (لحظة اختبار المنهج لتحليل النصوص)

236-221 1- لحظة الاستقبال والتحسس والتجريب

234-223 1-أ- في مجال تحليل الخطاب الشعري

236-234 1-ب- في مجال تحليل الخطاب السردي

236 خلاصة

250-237 المبحث الثاني: مرحلة التأسيس: (لحظة بناء المنهج لتحليل النصوص)

250-238 1- لحظة التأصيل وبناء المنهج

241-239 1 -أ- سعيد بنكراد

242-241 1-ب- عبد الحميد بورايو

247-242 1-ج- رشيد بن مالك

250-247 1-د- محمد الناصر العجمي

250 - خلاصة

268-251 المبحث الثالث: لحظة التأصيل والترجمة والتعريب

255-252 - تمهيد

264-255 - النموذج الأول: كتاب (الكشف عن المعنى في النص السردي - النظرية السيميائية السردية

(أ.ج، غريغاس، ج. كورتيس، د. باط)) ل"عبد الحميد بورايو"

264 - خلاصة

267-264 - النموذج الثاني: كتاب السيميائية (الأصول-القواعد والتاريخ) ل"رشيد بن مالك"

268-267 - خلاصة

281-269 المبحث الرابع: مرحلة التجاوز (البحث عن بناء تصوّر سيميائي شامل لتحليل النصوص)....

269-266 1- لحظة الممارسة التطبيقية

270 - خلاصة

278-270 2- لحظة التأليف القاموسي والمعجمي



- 272-270 تمهيد -
- 272-270 2-أ- التأليف القاموسي: (نموذج الدراسة: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص
(عربي - إنجليزي - فرنسي) ل"رشيد بن مالك").....
- 273 خلاصة -
- 281-273 2-ب- التأليف المعجمي: (نموذج الدراسة: معجم السيميائيات ل"فصل الأحمر").....
- 281 خلاصة -

الفصل الثاني: الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي "واقع وإشكاليات"

- 298-283 المبحث الأول: النظرية السيميائية وإشكالياتها في المشهد النقدي المغربي.....
- 298-284 1 - واقع الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي المغربي.....
- 289-284 1-أ- الإشكالات المنهجية.....
- 298-289 1-ب- الإشكالات المصطلح النقدي.....
- 326-299 المبحث الثاني: سيميائية العنوان في المدونة النقدية المغربية.....
- 304-300 1- التنظير المغربي للعنونة.....
- 326-304 2- مقارنة العنوان في الخطاب السيميائي المغربي.....
- 317-304 2-أ- سيميائية العنوان في الخطاب الشعري.....
- 310-304 - النموذج الأول: سيميائية الأوراس في القصيدة العربية ل"يوسف وغليسي".....
- 311-310 خلاصة.....
- 316-311 - النموذج الثاني: سيميائية الأرض والهوية في قصيدة "حصار" ل"عامر الحلواني".....
- 317-316 خلاصة.....
- 326-317 2-ب- السيميائية العنوان في الخطاب السردى.....
- 321-317 - النموذج الأول: دراسة تحليلية لرواية "نوار اللوز" للروائي الجزائري "واسيني الأعرج" للباحث "رشيد بن مالك"....
- 325-322 - النموذج الثاني: تحليل سيميائي لرواية الصحن للكاتب "سميحة خريس" للباحث "رشيد بن مالك"....
- 326-325 خلاصة.....
- 355-327 المبحث الثالث: سيميائية الشخصية في المدونة النقدية المغربية.....
- 330-327 - سيميائية الشخصية في مقاربات النقد المغربي مدخل نظري:.....
- 340-330 1- في التنظير النقدي المغربي.....
- 334-331 - النموذج الأول: الشخصية (ماهيتها، بناؤها، وإشكالياتها) من منظور عبد الملك مرتاض.....



- 340-334 النموذج الثاني: "سعيد بنكراد" في ترجمته كتاب: سيميولوجيا الشخصيات الروائية ل"فيليب هامون
340 - خلاصة.....
- 357-340 2- في التطبيق النقدي المغاربي.....
- 347-341 - النموذج الأول: عبد الملك مرتاض في كتابه: تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية
لرواية "زقاق المدق".....
- 356-347 - النموذج الثاني: رشيد بن مالك في كتابه: السيميائيات السردية، الصادر عن دار مجدلاوي،
ط1، عمان - الأردن، 1467هـ - 2006م.....
- 357-356 - خلاصة.....
- 381-356 المبحث الرابع: سيميائية الزمن والمكان في الخطاب النقدي المغاربي.....
- 359 1- الزمان والمكان في الخطاب النقدي المغاربي - إشكالية المفهوم والتسمية.....
- 362-359 1-أ- في مفهوم المكان.....
- 362 1-ب- في مفهوم الزمن.....
- 364-363 2- علاقة الزمان بالمكان (بين إشكالية التركيب أو الفصل).....
- 381-364 3- المقاربة السيميائية للزمان في المدونة النقدية المغاربية.....
- 366-364 3-1- في التنظير النقدي.....
- 366-364 3-1-أ- النموذج المختار: كتاب "بنية الخطاب السردي ل: حميد الحمداني".....
- 381-366 3-2- في التطبيق النقدي.....
- 377-366 3-2-أ- في الخطاب السردي.....
- 370-366 1- النموذج الأول: مقاربات عبد الملك مرتاض.....
- 377-370 2- النموذج الثاني: مقاربات عبد الحميد بورايو.....
- 388-377 3-2-ب- في الخطاب الشعري.....
- 381-377 1- النموذج المختار: كتاب (أ-ي) للباحث عبد الملك مرتاض.....
- 389-382الخاتمة
- 410-390مكتبة البحث
- 413-411الملحق
- 420-414الفهرس